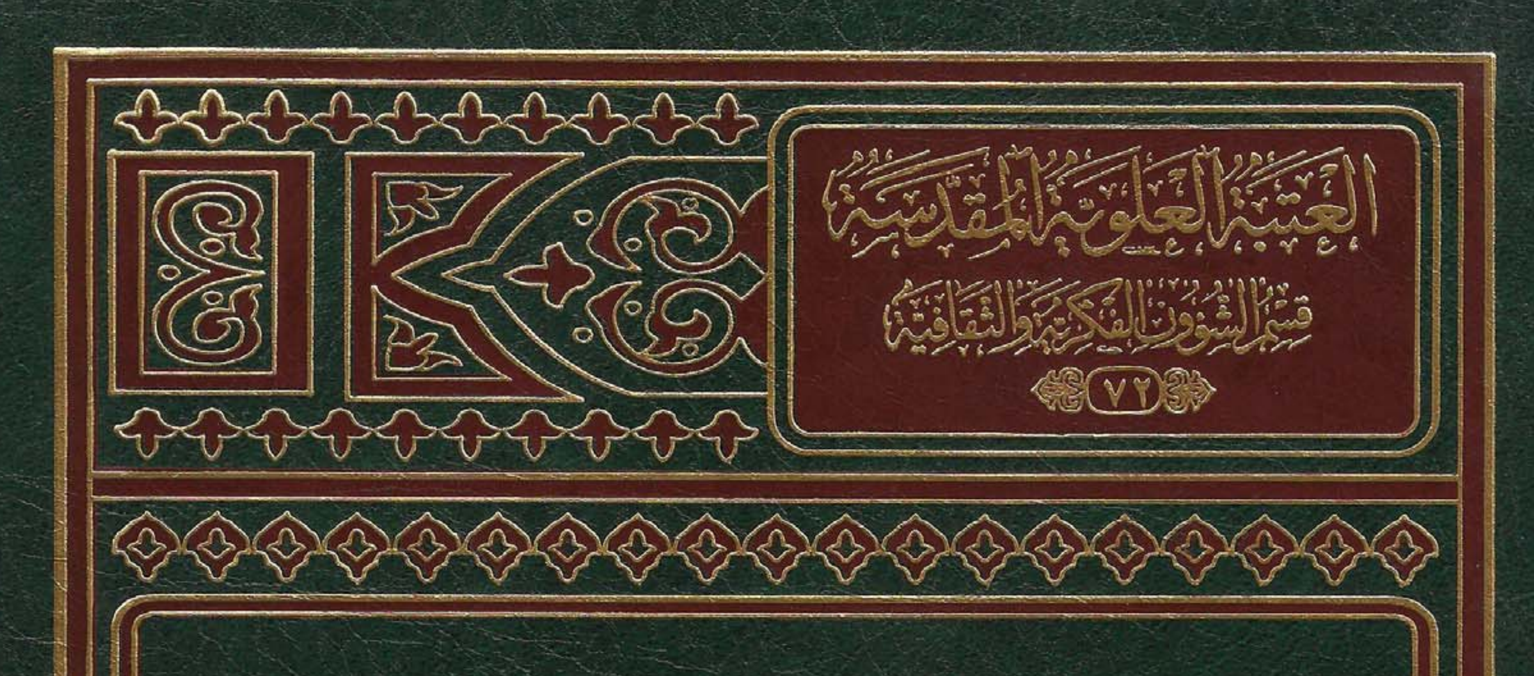




القائد ... الداعية ... الإنسان

الدكتور محمد حسين علي الصغير
الأستاذ الأول المتمرس في جامعة الكوفة

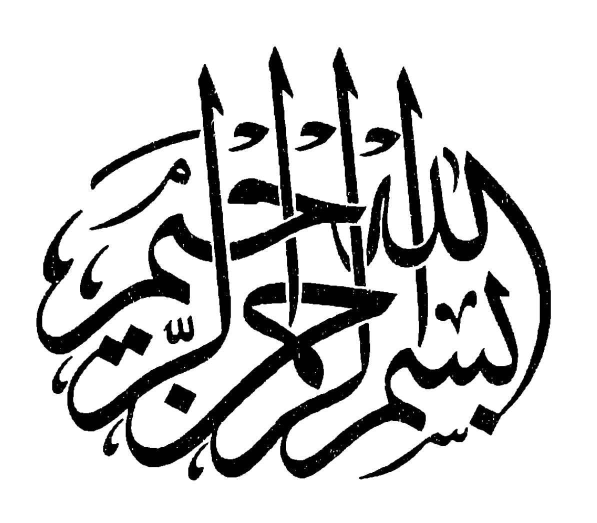
النجف الأشرف عاصمة الثقافة الإسلامية
عام ٢٠١٢

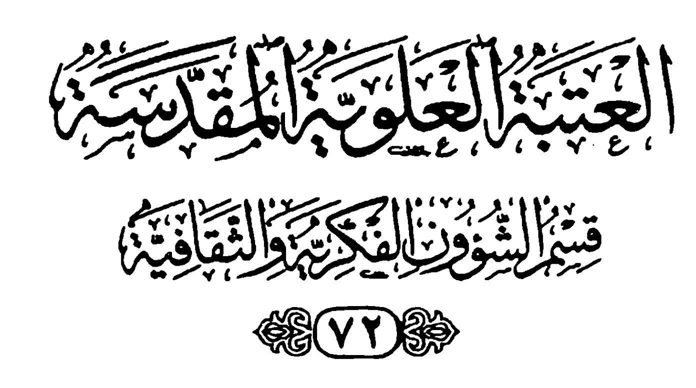
مؤسسة البلاغ


شبكة الفكر
alfeker.net

الإمام زين العابدين (ع)

القائد ... الداعية ... الإنسان


بسم الله الرحمن الرحيم



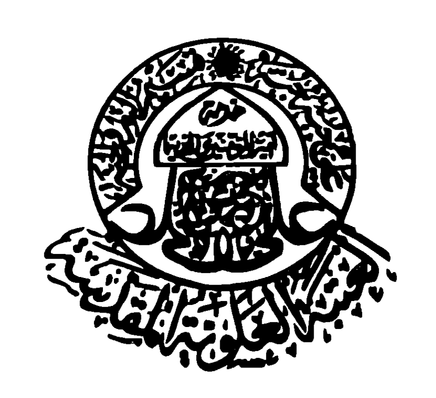
الإمام زين العابدين (ع)

القائد ... الداعية ... الإنسان

الدكتور محمد حسين علي الصغير
الأستاذ الأول المتمرس في جامعة الكوفة

النجف الأشرف عاصمة الثقافة الإسلامية
عام ٢٠١٢

مؤسسة البلاغ



www.imamali-a.net
info@imamali-a.net



القائد ... الداعية ... الإنسان

المؤلف: الدكتور محمد حسين علي الصغير

الناشر: العتبة العلوية المقدسة - قسم الشؤون الفكرية والثقافية

الإخراج الفني: محسن اليوسفي

الطبعة الأولى

تاريخ الطبع: ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

التنفيذ الطباعي

مؤسسة البلاغ
للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان - بيروت - بئر العبد - قرب مركز التعاون الاسلامي - بناية حطيط
ص.ب: ١١-٧٩٥٢ بيروت ١١٠٧-٢٢٥٠ - هاتف: (٠٢/٥١٤٩٠٥) - تلفاكس: ٠١/٥٥٢١١٩ لبنان
الموقع الإلكتروني : www.albalagh-est.com
E-mail: Albalagh-est@hotmail.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المُقدمة

في التصعيد الحضاري الجديد، تتبلور كثير من الأفكار المعاصرة، قد تجلب الرضا حيناً، وقد تورث السخط حيناً آخر، وهي قد تحمل معها، حين ولادتها أداة موتها واضمحلالها، وقد تفرض بقاءها وخلودها في سجل معطياتها البنّاءة، ولكنها نظريات أولية قابلة للنقض والإبرام لأنها من صنع الإنسان، والإنسان يبرم في يومه ما ينقضه في غده، والحياة ـ بعدُ ـ مليئة بالأحداث، ولكل حادث حديث. إلا أن الثوابت الطبيعية لا يمكن لها أن تتحوّل فجأة، لأنها فطرة الله التي فَطَرَ عليها نلكون، ولأنها مواكبة لحقائق الأشياء، إلاّ أن تتطور بخرق النواميس فذلك هو الملحظ الإعجازي المحض الذي انفرد به الله تعالى، وأفاضه دلائل لأنبيائه ورسله وأوليائه تأكيداً للحالات الرسالية التي يأخذ بها الأمم والشعوب بالبرهان القطعي إزاء الإيمان بها بالضرورة عن يقين لا ريب معه.

هذه الظاهرة بعيدة المدى في عصور وأجيال مُتعاقبة إلاّ أنها من الواقع الذي فرض نفسه بأصالة، فعادت الشرائع السماوية قوانين ناطقة

بما قرّرهُ الوحي الإلهي، ولكنّها قد تنسخ بسواها، وقد يضاف إليها ما ليس فيها، بوعي جديد يتبنَّى شريعة ما، لها خصائصها ومميزاتها وثوابتها، وقد يتفاوت تأثير هذه الشرائع باعتبارها إما محليّة، أو إقليمية، أو عالمية، وقد تضاءلت المحلية والإقليمية بالرسالات العالمية التي ختمت بالرسالة الإسلامية الغرَّاء فيما أفاد القرآن العظيم، وما أفرزه الدليل الاستقرائي في الإثبات والثبوت معاً، قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾[1]. هذه البشارة وتلك النذارة في رسالة محمد ﷺ مؤشرات رحمة عالمية تستوعب البشرية جمعاء، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[2].

وإدراك هذا الطرح في منظور بديهي لا يحتاج إلى كثير عناء واستدلال، فرسالة محمد ﷺ ذات بعد عالمي، ومعجزة محمد ذات مدرك عالمي، ونبوة محمد ذات تأثير عالمي، فالعالمية تستأثر بمحمد ورسالته ومعجزته بإطار واحد يشكل كلاً لا يتجزأ، هذا الكلّ يصبُّ في رافد متميز هو الإسلام، وللإسلام عقيدة ونظام وتشريع وقادة، والعقيدة هي التوحيد، والنظام هو القرآن، والتشريع هو الفروض والطقوس بأصنافها، والقادة الحقيقيون هم الذين مع النبي:

﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ ﴾[3] ومن سار على منهج محمد ﷺ فهو معه، وفي الطليعة من هذا الحصير أئمة أهل البيت عليهم السلام، إذ نذروا أنفسهم وكيانهم وحياتهم لقيادة الأمة

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٢٨.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

(٣) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

بموضوعية رسالية فريدة، بغضّ النظر عن الوجه الرسمي الذي أبرز غيرهم في المناخ السياسي لا المناخ القيادي، وقد اضطلع كل إمام من الأئمة الاثني عشر صلوات الله عليهم أجمعين بمهامّه كاملةً، في ظلٍّ قيادة رشيدة، تعود بالإسلام إلى جوهره دون شوائب، بل كما أراده الله لعباده، سليماً من الأثرة، قريباً من الرحمة، بعيداً عن الظلم والاستعباد البشري، إنسانياً لا جاهلياً، واجتماعياً لا انفصالياً، وعالمياً لا فئوياً، فأدّى كلٌّ منهم رسالته إزاء الرسالة، ووضع كلٌّ منهم نفسه حاملاً لها، حادباً عليها، مندمجاً فيها، باعتبارهم جميعاً قد أُعدّوا إعداداً رسالياً خاصاً يؤهِّلهم لقيادة الأمة لأنهم المعنيون بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾[1] والذهاب بالرجس يعني العصمة، والعصمة إذا توافرت استطاع المعصوم أن يدعو إلى سبيل ربه، وأن يتبنى الرسالة روحاً ومضموناً، وفاقدها لا يقدر له أن يكون وفياً بالتزاماتها، لأن فاقد الشيء لا يعطيه.

وفي النيّة ـ بإذن الله تعالى ـ إفراد كل إمام بحديث خاص، ودراسة موضوعية لظروفه وآثاره الإنسانية، وحديثنا في كتابنا هذا خاص بالإمام زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام؛ هذا الإمام الذي نهض بثقل عظيم، وانتصب بعبءٍ ثقيل قلَّ من تنبّه لكل منهما بالعطاء والجزل والقيادة الروحية المنتصرة، فقد عرف الإمام بعبادته وخلواته، وقد اشتهر بدعائه ومناجاته، وقد انفرد بتخطيطه الريادي لحقوق الإنسان، وقد تكفَّل هذا البحث بقدر ما يستطيع باعتبار الإمام «قائداً» بما للقائد من مؤهلات وطروحات ومجابهة وتحدٍ وآراء

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

تستقطب الأمة، و «داعيةً» بما للداعية من نشاط حافل، وشمولية هادفة عريضة، و«إنساناً» بما للإنسان من كيان إنساني متألق يدفع به عن قضيَّة الإنسان، ونتيجة لهذا الطرح فقد انتظم البحث في ثلاثة فصول ابتعدت في معالجتها عن المنهج التقليدي، وتجاوزته إلى المنهج التحليلي القائم على أساس الاستنباط، واكتشاف المجهول، واستقراء الحقائق، بمنأى عن الفهم السطحي حيناً، وعن التزمُّت الموروث حيناً آخر، فلا أثر للتعصب المذهبي، ولا سمة للهوى النفسي، ولا علاقة له بالمحاباة والمغالاة والإسراف.

وكان الفصل الأول بعنوان «قيادة الإمام وتحديّات العصر» وقد انتظم بثمانية بحوث، تحدّث عن بداية الإمام الصعبة، ومسيرته القيادية الرائدة، وروح النضال في منظور جديد. وقارن بين تحديات السلطان وموضوعية الإمام، ومشكلات العصر ومجابهة الإمام لها، بما يعدّ حديثاً مبتكراً في كثير من أبعاده، وعرض الآثار الاجتماعية لحياة العبث والإسراف وموقف الإمام منها، وتناول ظاهرة العصبية القبلية بالبحث والتمحيص، وسلط الضوء على معالجة الإمام لموروثها الجاهلي، وعرض لتجربة الإمام الرائدة في كل من عصر الثورات، وعصر الطواغيت، اللذين فجّرا في الإمام إذكاء روح النضال.

وكان الفصل الثاني بعنوان «الإمام الداعية» وقد اشتمل على أربعة عشر بحثاً هي عصارة فكر الإمام في العقيدة والتشريع وأصول الدين وفروعه، وهي أيضاً حقلُ نظرات الإمام في القرآن، وكيان الملائكة، ومعطيات رمضان، فكان الوعي الرسالي قائداً، والقيادة الرائدة ومعالم التوحيد شاهداً، والعودة إلى الجذور الأولى منهجاً، ومحمد في رسالته

زعيماً ومحرراً، ومرجعية أهل البيت عصمة وولاية إلهية، والمعاد يوم القيامة موئلاً ومرجعاً ومصيراً، والدعاء على الظالمين فناً مبرمجاً، والاستقالة من الذنوب وعياً وتوجيهاً واقتداءً، ومكارم الأخلاق شرعة ومنهاجاً وسلوكاً، والبرّ بالوالدين شعاراً ورفقاً وخفضَ جناح، والقرآن العظيم تكريماً وتبجيلاً ونظاماً، وشهر رمضان مسيرة إنابة وطاعة ومبرّات وإيثار، والكيان الملائكي كياناً عجيباً في التلقي والتنفيذ والإطاعة المطلقة.

ويمكنني اعتبار هذا الفصل كشفاً إحصائياً لفكر الإمام في مجالات شتى، باعتباره «داعيةً» رائداً للإسلام في دعائه الإيجابي، ومتناولاً لظواهره في العلم والأخلاق والسياسة والاجتماع والتربية والثورة المضادّة.

وكان الفصل الثالث بعنوان «الإمام الإنسان» وهو عرض منهجي تحليلي في ضوء النقد الحديث لرسالة الحقوق التي سيّرها الإمام زين العابدين عليه السلام للإنسانية قبل أربعة عشر قرناً بما لم تصل إليه مبادىء الثورة الفرنسية، ولائحة حقوق الإنسان، ومقرَّرات الأمم المتحدة، في واحد وخمسين حقاً متراصفاً، شمل عشرة بحوث متلاحقة خَلُصتْ إلى نظرية الإمام في التوجه الإنساني ذي الدلالة العالمية الكبرى، بما يعدّ وثيقة إنسانية مترابطة، تعنى بحقوق الإنسان. ذلك ما اتضح اعتباره مصدراً مهمّاً يترجم أصداء القرآن، ويُبرمج أضواء النبوة، ويطرح منظور الأئمة، ويقدم حلاً لمشكلة الإنسان في عمق توجهه الحضاري.

وقد حاول البحث عرض «رسالة الحقوق» عرضاً موضوعياً، فتم

له ذلك في كلٍّ من: ديباجة حقوق الإنسان عند الإمام، حقوق النفس والجوارح، حقوق الأفعال، حقوق الدولة ونظام الحياة، حقوق الأرحام والولاء، الحقوق الاجتماعية، الحقوق المالية والقضائية، الحقوق الإصلاحية المشتركة، الحقوق الأخلاقية الاستراتيجية، وفصل القول في التصنيف الموضوعي في ضوء النقد التحليلي، وختم هذا الفصل بدراسة مقارنة لعموم مبادىء الأمم المتحدة في حقوق الإنسان، ومبادىء الإمام عليه السلام في الحقوق ذاتها.

ثم كانت النتائج في خاتمة المطاف، وقد أعطت موجزاً إجمالياً بأهم ما توصلت إليه هذه الرسالة من نتائج ومعطيات.

وكانت مصادر البحث تعتمد تراث الإمام في «الصحيفة السجادية» و «رسالة الحقوق» وعبق قيادته الفذّة، أضافت لذلك طائفة من كتب العقيدة والتراث والبلاغة والتأريخ والسيرة ولوائح حقوق الإنسان.

ولم أتكلّف مصدراً فجّاً، ولم أستأثر بمرجع متحيّز، ولم أذهب مذهب القوم في رصد الفضائل وسرد الكرامات، فذلك منهج بَعُدَ عنا، وابتعدنا عنه، وقد بحثه الآخرون. وكان الاستقراء التأريخي لحقائق الأشياء بديلاً عنه، والاستنباط العلمي رائداً سواه، والبُعد التحليلي رافداً ليس غير.

فإن وفِّقت إلى التأصيل الخالص فذاك هو القصد، وإن كانت الأخرى فلي من عطف الإمام ورفقه ما يقوّم الأوَد.

وكان من فضل الله تعالى أن يكون هذا الكتاب في طبعته الثانية

ضمن موسوعة أهل البيت القيادية بعد طبعته الأولى في مركز دراسات الغدير عام ١٩٩٩م.

وما توفيقي إلا بالله العلي العظيم، عليه توكلتُ وإليه أنيب، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

النجف الأشرف **الدكتور محمد حسين علي الصغير**





الفصل الأول:

قيادةُ الإمام وتحدياتُ العصرِ

١ ـ البدايةُ الصعبةُ
٢ ـ المسيرةُ القياديةُ
٣ ـ روحُ النضال في منظور جديد
٤ ـ في مجابهة تحدّيات العصر
٥ ـ الآثار الاجتماعية لحياة العبث والإسراف
٦ ـ ظاهرة العصبية القبلية
٧ ـ عصر الثورات
٨ ـ عصر الطواغيت



بسم الله الرحمن الرحيم

البداية الصعبةُ:

لم تكن الطريق معبدةً أمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام فقد كانت خطرة وخطيرة بوقت واحد. خطرة لما يتخللها من عقبات وصدمات، وخطيرة بما تحمل من مسؤولية وقيادة. وهكذا شأن المصلحين الرياديين تتولد الصعاب والمحن حين ولادتهم، وتتعقد المشكلات وتتعدد في بداية بزوغهم، فقد ولد الإمام: أبو محمد، علي بن الحسين الملقب بزين العابدين في المدينة المنورة في الخامس أو السابع أو التاسع من شعبان المعظَّم عام ثمانية وثلاثين من الهجرة النبوية، وتوفي بالمدينة أيضاً مسموماً في عهد الوليد بن عبد الملك بن مروان الأموي، في الخامس والعشرين من محرم الحرام ـ في الأشهر ـ سنة خمس وتسعين من الهجرة، وله من العمر سبع وخمسون سنة[١].

ونشأ الإمام في بيت الوحي، ودرج بأحضان الإمامة، وأدرك سنتين من خلافة جدّه أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام واثنتي عشرة

(١) ظ: المفيد/ الارشاد ٢٣٧، ابن الصباغ/ الفصول المهمة ١٨٧، الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ ١/ ٦، هاشم معروف/ سيرة الأئمة ١١٩.

سنة من إمامة عمه الإمام الحسن عليه السلام وعشر سنين من إمامة أبيه الحسين سيد الشهداء، واستقلّ بالإمامة أربعاً وثلاثين سنة[1].

وعاصر الإمام من ولاة الجور يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، ومعاوية بن يزيد، ومروان بن الحكم، وعبد الملك بن مروان، والوليد بن عبد الملك بن مروان[2].

وبدأت مسيرة الإمام في محنة إثر محنة، وشدة تلو شدة، فتأطرت حياته بسلسلة من المآسي، وهو ثبت الجنان، صلب العقيدة، راسخ الإيمان، لم تذهب الآلام بصبره، ولم تُلن الوقائع حياته، وازداد شموخاً ومنعةً، وتعالى عزة ورفعة، لم يحفل بصدأ السنين، ولم يعبأ بتعثر التأريخ.

فقد استقبل الإمام حياته بمصرع جده أمير المؤمنين مستشهداً في جامع الكوفة، واكتوى يافعاً بوفاة عمه الحسن مسموماً على يد معاوية، وفجع في عنفوان شبابه باستشهاد أبيه الحسين وإخوته وأهل بيته على رمضاء كربلاء مخضبين بالدماء، وساير ركب الأسرى من عقائل النبوة من كربلاء إلى الكوفة، ومن الكوفة إلى الشام، ومن الشام إلى المدينة المنوَّرة، بصحبة أجلاف الناس، وأوغاد الحكم الأموي الذين لم يرقبوا إلاً ولا ذمة فيهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

بهذا المستهل الدامي استقبل الإمام حياته المأساوية، وفي ظلٍّ

---

(١) ظ: المفيد/ الارشاد ٢٣٧، ابن الصباغ/ الفصول المهمة ١٨٧، الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ ١/ ٦، هاشم معروف/ سيرة الأئمة/ ١١٩.

(٢) الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ ١/ ٤١١.

هذه الأحداث الضخمة بدأت مسيرة الإمام الأولى، فأبقت الحزن ميسماً يتأطّر حياته، وتركت الألم النفسي يهز عنفوانه، وبعثت الأسى يعبث بكيانه حتى هدّه المرض عليلاً، وأحاله البكاء سقيماً، لم يهنأ من الدنيا بطائل، ولم يركن إلى الدعة بهزيع.

وكانت فاجعة الطف الدامية كفيلة بأن تستقطب شؤون الإمام وشجونه، وتثير أحزانه وهمومه، فهو يأسى للمستوى الإنساني أن ينحدر إلى الهوة السحيقة مختاراً، وهو يعجب أن تتدنى النفوس انحداراً، وهو يسخط أن يرى الصفوة المختارة يذهب دمها هدراً، ويُستأثر بمقامها عسفاً، وهو يعجب العجب كله من تلاشي القيم وتدهور الأعراف.

ولم تكن حادثة الطف بوقائعها الكبرى لتستدر دموعه فحسب، ولكنه شهرها سيفاً في وجوه الظالمين، وألقاها نكيراً مريراً على الطغاة. فهو وإن عدّ من البكائين إلا أنه من المنكرين للظلم في درر تلك الدموع، وهو وإن بكى على أبيه أكثر من ثلاثين عاماً إلا أن العبرة لم تقف به عند الجزع، بل كافح ذلك بالصبر الجميل حيناً، وبالإنكار على المجرمين حيناً آخر، وهذا لا يمانع أن يستأثر به الحزن، فهو السبيل الوحيد له على النضال وكشف ظلامة أولئك القادة الذين تهاووا كالكواكب في ميدان القتال.

وقد يقال للإمام: أما آن لحزنك أن ينقضي؟ فيقول الإمام: «إن يعقوب النبي كان له اثنا عشر ابناً، فغيّب الله واحداً منهم، فابيضت عيناه من كثرة بكائه عليه، واحدودب ظهره من الغم، وكان ابنه حياً في الدنيا، وأنا نظرت إلى أبي وأخي وعمي وسبعة عشر من أهل بيتي:

مقتولين حولي فكيف ينقضي حزني»[1].

إن كون زين العابدين إماماً لا يخرجه عن الطبيعة البشرية كما لم يخرج يعقوب عن ذلك، فالحزن السرمدي دليل الوعي السرمدي، حينما يشكِّل ذلك ظاهرة منظورة في حساب الإمام القيادي، فهو لا يعبِّر عن الجزع بحال من الأحوال بقدر ما يعبر عن النكير الشديد على القتلة الآثمين ممن اقترفوا ذلك الوزر العظيم. وحينما اعتبر الإمام ذلك الملحظ قضيته الأولى، فإنه قد هيَّأ بها المناخ الاجتماعي الساخط للانقضاض على المردة.

ولم يكن الإمام بحاجة إلى المزيد لنشر ظلامته في الآفاق فقد كان صداها الإنساني مفجعاً ساتراً مترامياً، وعطاؤها الفكري إيجابياً في إثارة السخط والغضب على أئمة الجور، وشرارتها النورية تطوح بعروش الطواغيت.

وكان الملحظ السياسي عصيباً على الإمام، وعصيباً على الحاكمين، فقد كانت وطأته على الإمام بعيدة الأثر إذ عطّلت دوره القيادي في إدارة الأمر، وحدَّدت مسؤوليته الريادية في مجابهة الأحداث، فكان في رقابة منعته توجيه الحياة الإسلامية كما أراد لها الله تعالى، فالإمام معطّل في هذا الإطار تعطيلاً تاماً في ظل إرهاب دموي طائشٍ، وحكم عشائري متسلط، يشتري الذمم، ويستأجر الضمائر، ويبيح الحرمات، يرى المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، فلجأ الإمام إلى أساليب جديدة في الدعوة والدعاء، والتزم حياة الصمت السياسي ظاهراً، ودأب إلى الإصلاح الاجتماعي بمستجداتٍ من التعبئة والإعداد

(١) المجلسي/ بحار الأنوار ٤٦/ ١٧١.

لا عهد لحياة المسلمين بها من ذي قبل، فابتكر من الظواهر الفكرية أبعاداً مشرقة جديدة أدّى بإزائها واجباته سليمة راسخة.

وكانت وطأة المناخ السياسي شديدة على الحاكمين أنفسهم، إذ لحظوا عن كثب وبمرارة تداعي الهيكل الوراثي في الملك لآل أبي سفيان كلمح البصر بعد مأساة الطف، فتلاقفها بنو الحكم طعمة سائغة دون أيِّ إعداد مسبق، أو تخطيط منظور إليه، فقد هلك يزيد بن معاوية نتيجة عبثه ومجونه، وغب بغيه وعدوانه، وتولى ابنه معاوية بن يزيد فاستعفى برجولة وفتوة لا سابق لها بعد أن فضح دور أبيه وجده في الانتزاء على تراث الأمة وحقوق الناس، وبدأت المشاكل الكبرى تحيط بالبيت الحاكم من كل وجه، فاهتز العرش ليتسلّمه مروان وآل مروان والجرح بعدُ لمّا يندمل، ومأساة الطف لمّا تنسَ، وفجائع أهل البيت تسير بها الركبان مما لا يؤمل منه الخلاص.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى بدأ الصراع الهائل بين أنصار الحزب المرواني الجديد، والحزب الزبيري المستجدّ، فاتسعت رقعة الأزمات السياسية الخانقة، وسفكت الدماء، وكثرت الويلات، والشعب العربي المسلم يقطف ثمار ذلك شجوناً لا تنقضي، وضرائب لا تستنزف، ومآسي لا تحد.

كان هذا المناخ الملتهب كفيلاً بأن يهب للإمام فرصة ذهبية ثمينة بإطار جديد، وهو في بداية إمامته الشرعية تولى بذلك الإمام قيادته السياسية والعلميّة في الظرف المشحون بذلك الشرر المتطاير، وكانت هذه القيادة لا بالمفهوم المتعارف الساذج، بل بالمنظور الفكري المتوثب الذي يراقب الأحداث بحذر وهو في صميمها، ويصاحب

التطورات عن كثب وهو في منأى عنها، فلئن عطّل دور الإمام السياسي وقيّد دوره العلمي، وأُقيم تحت رقابة صارمة فإنه مع هذا كله، وفوق هذا كله، قد اغتنم الفرصة على أحسن وجه، وتفرَّغ لمسؤوليته العلمية، فأفتى، وفسّر، ودعا، وشرع، وبيّن، وأعرب، وحدب على مجموعة من تلامذته، يسير الأحكام، ويفسر القرآن، ويفقه المتعلمين، فينهل من علمه من أراد ويصدر عن رأيه من صدر، ويرجع إليه من يرجع في يسر وإشفاق ورحمة، ولقد أحصى مجموع تلامذته الأستاذ باقر شريف القرشي في شتى الفنون والعلوم فكانوا مائة وأربعة وستين تلميذاً[1] هذا مع العسر والحرج، وقد خُنقت الأنفاس، وكبتت الحريات، واحتجز الإمام، فكيف تكون الحال لو قُدّر للإمام أن يكون طليقاً فيما يريد أن يعلم ويفيد، ومع ذلك فقد انتشر فقهه وعلمه، وتعالى صوته وذكره، وأضاف الإمام إلى ذلك خصيصتين مهمتين، شاع بهما خبره، فكان «داعية» في دعائه، و «إنسانياً» في حقوق الإنسان، وهما موضوع هذا الكتاب، ونتج عن هذا وذاك ما أبقاه منهجاً ثابتاً مستقراً في كلٍّ من:

«الصحيفة السجادية» و «رسالة الحقوق» لقد بلغ الإمام في هذين الأثرين المهمين ما لم يبلغه الحاكمون في استيعاب الناس واستقطاب الجماهير المؤمنة فلئن كان الضغط السياسي قد بلغ ذروته، فتفجرت الناس غضباً، ولئن كان الإرهاب الدموي مقياساً لبناء الحكم وتشييد السلطان، فقد كان الإمام بلسماً لتلك الجراحات البليغة، وعوناً للناس في احتقان نفوسهم، والسهر على مصالحهم العليا، مع ورع وزهد وكياسة تغذي العواطف بسيل من الامداد الروحي، وليس مبالغة أن

(١) ظ: باقر شريف القرشي/ حياة الإمام زين العابدين ٢/ ٢٥٩ ـ ٣٢٩.

نعدّه المنقذ في عصره للحياة الإسلامية، وقد أوشكت على الانهيار الخلقي والعقائدي والاجتماعي، فقد قاد الناس إلى مرفأ الأمان وشاطىء السلامة، وتمحض لجانب عظيم في الدعوة إلى الله، وقد ضيَّعه ولاة الأمور، وقد حدب مخلصاً على برمجة البنية الإنسانية في كيانها الأخلاقي فأعطى كل ذي حق حقَّه في المنزلة والقيمومة والاعتبار، بعد أن خُبط في ذلك خبط عشواء، وشق الإمام طريقه إلى ذلك برباطة جأش، وقوة أسر، وشدّة عزيمة، فكان «الداعية الإنسان» بأدق معاني هاتين الكلمتين كما سترى ذلك في موقعه من الكتاب.

المسيرة القيادية:

من خلال مسيرة الإمام القيادية، وعبر تطلعاته إلى تغيير الواقع المرير للإنسان المسلم، لمس الإمام تناقضات العصر الاجتماعية، وأبصر تقلبات المناخ السياسي، فرأى أن العمل على تغيير ذلك بحركة ثورية لا سبيل إليه، إذ قد يكتب لها الفشل في بداية الطريق، ذلك لقلة الناصر وفقدان الوسائل الكفيلة بالإنجاح، فعمد إلى إصلاح الواقع بالدعوة إلى الله عمليّاً، وجعل من سلوكه الذاتي وسيرته الفعلية ميزاناً لعرض حقائق الأشياء، ونصب من توجيهاته هيكلاً متماسكاً يجمع إلى صدق القول وصرامته، صدق العمل وواقعيته، وكان الإمام محاطاً بسلبيات الوضع العام ثقافياً واجتماعياً، وهو لا يستطيع أن يعيد إلى كل ذي حق حقه، ولا يُتاح له أن ينتصف للمظلوم من الظالم، فذكر بالله وعقوبته، وحذّر غضبه وسخطه في لمسات تجدها ألقاً في الحديث، وعيناً في الحِكَم، وسمة في معالم الدرب الطويل، فهو يقول لولده

الإمام الباقر عليه السلام من وصية له: «**يا بني إيّاك وَظُلم مَن لا يَجد عَليك ناصراً إلاّ الله**»[1] ورأى السلوك منحرفاً عن الإسلام في مبادئه، فحرص على نشر قيم الإسلام من ينابيعها الأولى، وأعاد للإنسان المسلم ثقته بنفسه، وشجَّعه على طلب العلم ليدرأ به هذا السيل الجارف من الجهل والضلال، واحتفى بأهل العلم لأنهم منار الهدى، وفتح ذراعيه لاحتضان صغيرهم وكبيرهم، يكلأ هذا برعايته، ويزدلف إلى ذلك بالعناية القصوى، فإذا جاءه طالب علم قال بملء فيه: «مرحباً بوصية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم يقول: إنَّ طالب العلم إذا خرج من منزله لم يضع رجله على رطب ولا يابس إلا سبّحت له إلى الأرضين السابعة»[2].

ووجد الحاكم الظالم يحكم باسم الله بزعمه، وهو يظلم العباد، ويحتجن الأموال، ويستصفي المناصب، ويسفك الدماء، فحذّر من سيرة الظالمين ما شاء له التحذير كما سترى هذا في موضعه من الكتاب، وتفرّس بالحاكمين إثرة لا مثيل لها في تأريخ الدول والأمم، فقابلهم بتصوير حياة الصالحين من القادة والرواد الأوائل، ونشر مآثر جده وأبيه، فكانت المنار الشاخص الذي يهدي سواء السبيل.

ووجد الإسلام مجرد مظاهر دون فهم متأصِّل لحقائقه فحدب على الكشف عن كنوزه وذخائره العظمى بما استطاع.

ورأى الثغور يندفع إليها المقاتلون دون تطبيق عملي لمسوِّغات الفتوح، ودون إقرار منطقي لشريعة التحرير، فأضفى تعليماته في الوعي. وأفصح عن متطلبات التثقيف الجماعي والفردي، وأنصف

---

(١) الكليني/ الكافي ٢/ ٣٣١.
(٢) الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ ١/ ٤١٩.

هؤلاء وأولئك من الفاتحين والمحررين.

وأدرك ما عليه الولاة من السرف والانحلال، فدعا إلى الورع والاِتزان، ونعى عليهم ذلك البذخ والعبث بشؤون المسلمين دون تصريح بالمشخصات الدالة على معيّن يراد لِذاته.

وسادت حياة النعيم بين أتباع الحاكمين، وتقلبوا في ملذّات الدنيا، وعزفوا بأهوائهم عن الأخرى، إلاّ صبابة من المسلمين، فحدب الإمام على التوجه نحو الله عملياً، فكان قدوة في السلوك، وأصلاً من أصول الرياضات العالية، حتى قالت جارية له: «ما أَتَيْتُهُ بِطَعَامٍ نهاراً قط، وَمَا فَرَشْتُ له فراشاً بليلٍ قَطْ»[1] وذلك أنه: صائم نهاره، قائم ليله.

ورأى العبادة بين الناس طقوساً تؤدَّى روتينياً، دون الإخلاص المطلوب والنية الخالصة المجرَّدة، فأراد تهذيبها من الشوائب، والابتعاد بها عن النقص، والإصحار بجوهرها إلى عبادة العارفين بالله، المدركين لكمال التوجه، فقال: «إني أكره أن أعبد الله، ولا غرض لي إلاّ ثوابه، فأكون كالعبد الطامع، إن طمع عمل وإلاّ لم يعمل، وأكره أن أعبده لخوف عذابه، فأكون كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل، فقيل له: «فبم تعبده؟» فقال الإمام: «أعبُدُهُ لِمَا هُو أهلُهُ بأياديهِ وإنْعامِهِ»[2].

ولقد ضُرب به المثل في خشوعه عند العبادة حتى قال الإمام الباقر عليه السلام «كان علي بن الحسين إذا قام في الصلاة كأنه ساق شجرة

---

(١) الصدوق/ الخصال ٤٨٨.

(٢) تفسير العسكري ١٣٢/ منسوب إلى الإمام الحسن العسكري (ع).

لا يتحرك منه شيء إلاّ ما حركت الريح منه»[1].

وعقّبه الإمام جعفر بن محمد الصادق بالقول: «والله إن علي بن الحسين كان يعرف الذي يقوم بين يديه...»[2].

وفي علل الشرائع عن أبي حمزة الثمالي، قال: «رأيت علي بن الحسين عليه السلام يصلي، فسقط رداؤه عن أحد منكبيه فلم يُسوِّه حتى فرغ من صلاته، قال؛ فسألته عن ذلك، فقال: ويحك أتدري بين يدي من كنتُ؟ إن العبد لا يقبل من صلاته إلا ما أقبل عليه منها بقلبه»[3].

وروي عن جابر الجعفي عن أبي جعفر الباقر، أنه قال: «كان علي بن الحسين يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة، وكانت الريح تميله بمنزلة السنبلة»[4].

وكان كثير السجود حتى عرف به، وسمي بالسجاد، قال الباقر كما في علل الشرائع للصدوق في سبب تسميته بالسجاد:

«إن أبي علي بن الحسين ما ذكر لله نعمة عليه إلا سجد، ولا قرأ آية من كتاب الله عز وجل فيها سجود إلاّ سجد، ولا دفع الله عز وجل عنه سوءاً يخشاه، أو كيد كائد إلاّ سجد، ولا وفق لإصلاح بين اثنين إلاّ سجد، وكان أثر السجود في جميع مواضع سجوده، فسمي السجاد لذلك»[5].

---

(١) الحر العاملي/ وسائل الشيعة ٤/ ٦٨٥.
(٢) الحر العاملي/ وسائل الشيعة ٤/ ٦٨٥.
(٣) المجلسي/ بحار الأنوار ٤٦/ ٦٦.
(٤) المفيد/ الإرشاد ٢٧٢.
(٥) المجلسي/ بحار الأنوار ٤٦/ ٦٦.

وهذا حديث يطول استيعابه، وليس القصد استقراءه، فالإمام غني بهذا الملحظ عن الحديث فيه قلَّ أو كثر.

ولم تكن هذه السلوكية متكلفة قط، بل هي تلقائية ذاتية نابعة من الأعماق، تجري معه في عروقه، وتواكبه في تطلعاته العبادية الخالصة، وقد روّض نفسه ليكون النموذج الأرقى اقتداءً بجده أمير المؤمنين عليه السلام.

وكانت هذه الظاهرة واضحة المعالم والسمات لدى المسلمين كافة، وكان العارفون من أصحابه وتلامذته يُدركون ذلك جيداً، فهم أعرف الناس بمنزلة الإمام وقيمته القيادية، ولربما عُوتب على ذلك لما هو عليه من الاستغراق في الاجتهاد العبادي الحثيث، وهذا جابر بن عبد الله الأنصاري يلوّح له بهذا أو يصرِّح، فيقول له زين العابدين عليه السلام: «يا صاحب رسول الله! أما علمت جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فلم يدع الاجتهاد، وتعبد ـ بأبي هو وأمي ـ حتى انتفخ الساق وورم القدم، وقيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: أفلا أكون عبداً شكوراً؟.

فلما نظر جابر إلى علي بن الحسين عليهما السلام، وليس يُغني معه قول من يستميله عن الجهد والتعب إلى شيء من الراحة، قال له: يا بن رسول الله: البقيا على نفسه، فإنَّك من أسرةٍ بهم يُستدفع البلاء، ويُستكشف اللآواء، وبهم يُستمطر السماء، فقال له: يا جابر لا أزال على منهاج أبوي مؤتسياً بهما صلوات الله عليهما حتَّى ألقاهما، فأقبل جابر على من حضر فقال لهم: «والله ما أرى في أولاد الأنبياء بمثل

علي بن الحسين إلاّ يوسف بن يعقوب عليه‌السلام، والله لذريّة علي بن الحسين أفضل من ذرية يوسف بن يعقوب، وإن فيهم لمن يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً»[1].

ونظر الإمام إلى ذلك الواقع المؤسف من الجوع والفقر والإدقاع الذي لحق بالمحرومين من أنصار أهل البيت، والمستضعفين من المسلمين، فكان الأب المعيل، والمتصدق الفذ، والناظر الرحيم، فغمرت أعطياته القريب والبعيد، واتجه إلى صدقة السر حيناً، فهي التي «تطفىء غضب الرب» على حد تعبيره[2].

وعمد إلى مشاطرة المحتاجين بأمواله، وحدث ذلك مرتين، فقاسم أمواله في ذات الله وحده، فأبقى قسماً له، وتصدق على الفقراء والمحتاجين بالقسم الآخر[3].

وله بذلك شذرات من الأخبار الحسان يطول معها الوقوف حتى عرف بصاحب الجراب، فقد روى اليعقوبي مشيراً إلى الجراب الذي كان يحمله على ظهره، وفيه ما يحتاج إليه الفقراء، وقد ترك أثره على ظهره، فقال: لما غُسّل الإمام عليه‌السلام وجد على كتفيه جلب كجلب البعير، وقيل لأهله بذلك، فقالوا: من حَمْلِ الطعام في الليل يدور به على منازل الفقراء[4].

وحتى قال أهل المدينة: «ما فقدنا صدقة السر حتى مات علي بن

---

(١) المجلسي/ بحار الأنوار ٤٦/ ٦١.
(٢) النويري/ نهايةِ الأرب ٢١/ ٣٢٦.
(٣) ابن كثير/ البداية والنهاية ٩/ ١٠٥، أبو نعيم/ حلية الأولياء ٣/ ١٤٠.
(٤) اليعقوبي/ تاريخ اليعقوبي ٣/ ٤٥.

الحسين»[1] وقد أكد ذلك الذهبي بقوله: «كان علي بن الحسين كثير الصدقة في السر»[2] وما اكتفى الإمام بذلك حتى أضاف إليه اعتداده الفائق بالفقراء والمساكين، وحدب عليهم ذاتياً، ورفع من معنوياتهم نفسياً، فإذا أعطى سائلاً قبّله لئلا يرى عليه أثر الذل والحاجة[3].

وإذا قصده الفقير قال: «مرحباً بمن يحمل زادي إلى دار الآخرة»[4].

وفي علل الشرائع أن الزهري رأى علي بن الحسين في ليلة باردة مطيرة، وعلى ظهره دقيق، وهو يمشي، فقال: يا بن رسول الله ما هذا؟ قال: أريد سفراً أعدّ له زاداً أحمله إلى موضع حريز، فقال الزهري: فهذا غلامي يحمل عنك، فأبى، قال: أنا أحمله عنك، فإنّي أرفعك عن حمله، فقال علي بن الحسين: لكنّي لا أرفع نفسي عما ينجيني في سفري، ويحسن ورودي على ما أرد عليه، أسألك بحق الله لمّا مضيت لحاجتك وتركتني، فانصرف عنه، فلما كان بعد أيام، قال له: يا بن رسول الله لست أرى لذلك السفر الذي ذكرته أثراً، قال: بلى يا زهري! ليس ما ظننت، ولكنه الموت، وله أستعدّ، إنما الاستعداد للموت تجنب الحرام، وبذل الندى في الخير[5].

---

(١) القرشي/ حياة الإمام زين العابدين ١/ ٨٩ وانظر مصدره.

(٢) الذهبي/ تذكرة الحفاظ ١/ ٧٥.

(٣) أبو نعيم/ حلية الأولياء ٣/ ١٣٧.

(٤) الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ ١/ ٤١٩، ابن الجوزي/ صفة الصفوة ٢/ ٥٣.

(٥) المجلسي/ بحار الأنوار ٤٦/ ٦٥.

وبدهيٌّ أن ذلك الحمل كان عوائده على من يعول بهم من فقراء المدينة، وكان يعول مائة أهل بيت من فقراء المدينة[1].

وهذه اللمحات الإنسانية في قيادة الإمام تمثِّل أروع ما جُبل عليه المسؤول تجاه رعيته، فهو أبٌ لهم وإن تنحّى عن المنصب الظاهري، وهو برٌّ بهم وإن لم يتسلم زمام الحكم، وفيها من الشفقة والحنان ما يجب أن تكون عليه القلوب التي في الصدور، ولا يشعر بلذة ما عمل الإمام وكرامة ما استنه إلاَّ الفقراء أنفسهم، فهم أهل الضيق والعسر، وهم أهل الفاقة والاحتياج، فهم الذين يقدّرون هذا حق قدره، وهم الذين يحتفلون بهذه المواساة أي احتفال، فهم المعنيون بالأمر، لأنهم يذوقون مرارة الجوع والحرمان، ويعانون ألم العوز والفاقة.

ولم يقف الإمام عند هذا الحد في مسيرته هذه من تفقد المحتاجين، والتصدق على الفقراء، وتعاهدهم بنفسه، حتى جمع إليهما إغاثة الملهوفين في شدائدهم، وتلبية نداء المعسرين في أزماتهم، فهذا محمد بن أسامة بن زيد، وقد مرض فعاده الإمام، فأجهش محمد بالبكاء، فقال له الإمام: ما يبكيك؟ قال محمد: عليّ دين، قال الإمام: كم هو؟ قال: خمسة عشر ألف دينار، قال الإمام: هي عليّ. ولم يقم الإمام من مجلسه حتى دفعها إليه[2].

إن هذه الجزئيات في تناثرها هنا وهناك تشكِّل كلاًّ تكاملياً لأبعاد قيادة روحية متحسسة، تقف عند الآلام، وتتفتق عند الاستعطاف،

---

(١) الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ ١/ ٤١٩.

(٢) ظ: المفيد/ الارشاد ٢٤٢، أبو نعيم/ حلية الأولياء ٣/ ١٤١، ابن كثير/ البداية والنهاية ٩/ ١٠٥، الذهبي/ سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٣٩.

وتحقق انفجاراً ثورياً في المقاييس لم يكن السلطان الرسمي ليحتفل به، أو يعيره أي اهتمام في حياته الرتيبة.

وكان لا بد لهذا المنهج من أن يعطف قلوب الناس على الإمام، وكان لا بد له أن يجلب إلى حضيرته المادة الأولى لمقوِّمات القيادة وهي الجيل الجديد، الذي لو قارن بين سيرة الحاكم والإمام لخرج بحصيلة مقنعة تامة بأولوية الإمام في تولي شؤون الناس. وإن لم يكن هذا نتيجة الثورة المضادّة القوية لنهج أهل البيت فلا أقلَّ من التأثير في الطبقة المتنورة التي تنشد الخلاص، أو الطبقات المضطهدة التي حُرمت الحقوق المشروعة، كما يُحدثنا التأريخ بأن الموالي، وهم رعيل كبير في عهد الإمام في أنحاء الدولة الإسلامية، قد استُبعدوا واستأثر الحاكمون والولاة دونهم بكل غالٍ ورخيص، وعُدّوا في النفايات التي ترمى في مزبلة التأريخ، فلا حقوق ولا كرامات ولا مناصب، فأرجع إليهم الإمام كرامتهم بالاحترام، وأنعش ضعيفهم بالإحسان، وتجاوز عن مسيئهم بالعفو، وعاملهم بالحسنى، وله بذلك مواقف وصحائف أكَّدها المؤرخون[1].

ولاحت معالم الغضب، فالتهبت الظهور بسياط الظالمين، وسادت المجتمع موجة من السخط السريع، والثَّأر المنظّم، فلا سماح ولا رفق، فمال الإمام إلى الحلم والرأفة يُعبِّد بهما الطريق إلى السراة، ويستن للناس رؤى الرحمة واللين، مترسماً خطى التؤدة، فقابل السباب بالإغضاء، والاعتداء بالتسامح، والجرأة بالتغافل، والإساءة بالتجاوز،

---

(١) ظ: ابن عساكر/ تاريخ دمشق ٣٦/ ١٥٥، النويري/ نهاية الإرب ٢١/ ٣٢٦.

والعنف بالتفاهم، والغلظة باللين، حتى قيل له: «الله أعلم حيث يجعل رسالته»[1].

وحتى استمع إلى من يقول: «إنك من أولاد الأنبياء»[2].

وبلغ الإمام في هذا المنحى حدّ الصفاء الخالص، والإنابة المطلقة حتى قال لبعض من يشتمه وينال منه: «إن كنتُ كما قلتَ فأسأل الله أن يغفر لي، وإن لم أكن كما قلتَ، فأسأل الله أن يغفر لك»[3].

وعدّه ابن حجر عظيم التجاوز والعفو والصفح حتى أنه سبّهُ رجل ما فتغافل عنه، فقال الرجل له: إيّاك أعني، فقال الإمام: وعنك أُعرض[4]، إشارة منه إلى قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾[5].

وكان عليه السلام نموذجاً في درء الغضب حتى عاد ذلك شعاراً له ودثاراً، لا يتكلفه ولا يتصنعه، وإنما هو جبلة فطرية جُبل عليها، وسجية خلقية طُبع بميسمها، وشواهد ذلك في كتب السيرة كثيرة ومتيسرة، فقد انتهى ذات يوم إلى قوم يغتابونه، فوقف عليهم، وقال: «إن كنتم صادقين فغفر الله لي، وإن كنتم كاذبين فغفر الله لكم»[6].

هذا الملحظ العفوي في نكران الذات، وضبط النفس، وتحاشي الصدام، ذو هدف موضوعي أصيل تقتضيه المصلحة العليا للإسلام في إرساء قواعد الخلق الرفيع، وتأسيس كيان التربية النافذة الصادرة عن

---

(١) ظ: ابن الجوزي/ صفة الصفوة ٢/ ٥٤.
(٢) ابن كثير/ البداية والنهاية ٩/ ١٠٥.
(٣) المفيد/ الارشاد ٢٤١، الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ ١/ ٤١٨.
(٤) الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ ١/ ٤١٨.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٩٩.
(٦) المصدر نفسه ٤/ ١/ ٤١٨.

منبع الوحي وتراث النبوة، وفي ضوء هذا الانبثاق الشامخ تتنامى بنية الأمة التقويمية بتأصيل ورسوخ تامين، وهو ملحظ لا يطيقه كل أحد، ولا يسيغه أي أحد، ولا يحلو لكل أحد لأنه سبيل الأفذاذ من الرجال، ومسار القادة من الصفوة الرائدة «وقليلٌ ما هم».

وكان حبّ الانتقام وشهوة القصاص ديدن أبناء ذلك العصر جلهم لا كلهم بطبيعة الحال، ولم تكن المغفرة ترد في معجم الناس، ولا الصفح الجميل بمحبَّب إلى النفوس، ويعود السبب بذلك إلى أمرين: الأول؛ ضعف الوازع الديني، فلا تجد ـ إلاّ القليل ـ من يكل أمره إلى الله ليقتص له، فهو إلى عاجل العقوبة أقرب منه إلى آجل العذاب. الثاني: غطرسة الحاكمين وجبروت الولاة، إذ لم يتركوا رحمة في ضمير إنسان، ولم يبقوا أثراً من نقاء في مُسوّدات الأعمال، وإذا تفرعن الحاكم واستبد الظالم إلى حد الطيش والسفه والطغيان، فالنفوس تكون ـ بعامة ـ قريبة الأواصر من التشفي وحبّ الانتقام، وهذه نتيجة مرتقبة لفوادح الظلم وكوارث الامتهان. وقد دأب الإمام إلى الحد من هذه الظاهرة، وعمل إلى التخفيف من غلوائها ما وجد إلى ذلك سبيلاً، وبدأها بنفسه ليتأسَّى به سواه، فقد كان هشام بن إسماعيل أمير المدينة المنورة يؤذيه أشدَّ الأذى، يسيىء جواره، ويُسمعه قوارص القول، فلما عُزل أمر به الوليد أن يوقف للناس... فمرّ به الإمام عليه السلام، وقد أوقف عند دار مروان فسلّم عليه... وتقدّم إلى خاصته أن لا يعرض له أحد[1].

---

(١) ظ: المفيد/ الإرشاد ٢٤١.

ووسع هذا المنهج الجديد حتى مروان بن الحكم، وهو من يعرفه التأريخ بعدائه السافر لأهل البيت، وتظاهره عليهم منذ الفتنة الكبرى حتى آخر لحظة من حياته، فقد طرد ثوار المدينة بني أمية كافة، وعامل يزيد، ورجال يزيد، وفيهم مروان، وأراد مروان أن يستودع عياله أحداً، فلم يقبل أحد أن يكونوا عنده إلاّ الإمام علي بن الحسين فوضعهم مع عياله وأحسن إليهم[1].

وكان الإمام يتوج ذلك بقوله الشائع عنه في هذا المقام: «ما تجرَّعت جرعة أحب إليَّ من جرعة غيظ أعقبها صبراً، وما أحب أن لي بذلك حمر النعم»[2].

هذه اللقطات من توجيهات الإمام القيادية لا تمثل إلا جزءاً يسيراً مما كتبه المؤرخون، وهي على سبيل النموذج لا الحصر، واستقصاؤها يطول على الباحث، وربما كان من الأفضل للبحث تجاوزها إلى ما هو أعمق أثراً، وأبلغ شأواً.

---

(١) ظ: الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ ١/ ٤١٦.

(٢) المصدر نفسه: ٤/ ١/ ٤٢٠ وانظر مصدره.

روح النضال في منظور جديد:

تهيَّأ للإمام زين العابدين أن يتبنى فلسفة ثورة الحسين في الطف، وأن يُبرمج أهدافها بمنظور جديد ذي شمولية بارعة، واستطاع بضغط فكري مُكثَّف أن يرتفع بثمارها إلى مستوى العطاء الإسلامي الخالد، فأذكى روح النضال في النفوس، وألقح نار الثورة في الضمائر، فأحالها إلى شعلة متأججة تستلهم فكر الحسين، وتسترشد هدي الحسين وتسير في ركب الحسين.

كان الإمام حريصاً الحرص كله على نشر مفاهيم ثورة الحسين، وتعبئة الوعي الجماهيري بحصيلة الأفكار التي أتاحتها الثورة منهجاً تغييرياً موفقاً، يحتبس المؤشرات النكراء بمؤشرات نضالية تكشف عن المغطّى من جرائر الحكم الأموي، وتستثير الهمم والعزائم لعزل ذلك الواقع المفروض بواقع جديد يمثِّل روح الإسلام. كان الإمام فيما يبدو منطلقاً من زاوية محددة اتخذت فلسفة إلقاء الأضواء الكاشفة على الواقع المتجهم للأمة في خطبه المؤثرة، وسهامه النافذة، ودعواته المتبلورة، فلم يخلد الإمام للراحة، ولم تكن ثورة الطف نهاية لمتاعبه القيادية، بل سلك نهجها بطريقته الفذة الجديدة: الإنكار حيثُ يُجدي الإنكار، والدعاء حيث يُؤثر الدعاء، والخطب حيث تنجح الخطب، كل ذلك حقق للإمام استثماراً سياسياً حافلاً بالمكاسب الرسالية، ومناخاً

صالحاً لاستقطاب الجماعات الصامدة.

لقد أيقظ الإمام الأمة من سباتها، وحرّرها من جمودها، فتوالى على الحكم الأموي سيلٌ من الاستنكار المنظّم، يتخذ سبيل الاحتجاج كما فعل عبد الله بن عفيف الأزدي في مجابهة عبيد الله بن زياد في مسجد الكوفة رداً ومقاومة وتعريةً، وقد يتذرع ذلك الاحتجاج بالكفاح المسلح كما فعل عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة في المدينة، وهو يتابع ولاة الأمويين بالقتل والطرد والتشريد، وقد يلتجىء إلى الثورة الدامية كما صنع التوّابون، وهم يتجهون إلى الشام للانقضاض على الحكم المسؤول عن قتل الحسين، وقد يعمد إلى التنظيم الثوري والتحرك الجماهيري لتسلم الحكم كما صنع المختار بن أبي عبيد الثقفي وهو يتعقب القتلة الفعليين للحسين، ويحصيهم فرداً فرداً، وينزل بهم القصاص العادل في عقر دارهم بالكوفة وما يليها.

لم تكن هذه الحركات الهائلة وما يتبعها من الثورات، وما رافقها من الأحداث المؤثرة في سير التأريخ الإسلامي، لتأتي اعتباطاً لو لم تكن الشعلة متوقدة وهي ترسم خطى بطل كربلاء في الفتح والشهادة، ولم تكن لتتنامى لولا استمرار الإمداد العقائدي لها متمثلاً في خطب زين العابدين في الكوفة ودمشق والمدينة، وهو يطوح بأحلام يزيد وانتصارات ابن زياد المدّعاة، في الوقت الذي يبالغ فيه بإثارة أهل يثرب ويُؤلبهم على الرفض.

لقد سبق لنا في كتابي: الإمام الحسن/ رائد التخطيط الرسالي، والامام الحسين/ عملاق الفكر الثوري، سرد التفصيلات الدقيقة لأبعاد تلك الريادة مما لا ينبغي إعادته. والذي نريد أن ننوه به أن الإمام لم

يكن بمنأى عن هذا المناخ الحافل بالبطولات النادرة والتَّضحيات الجمة، فهو على رأس المخططين له فكرياً وإن لم يشارك بأحداثه عملياً، إذ لم نجد الإمام منكراً لما يجري من الأحداث، ولا مستهجناً لما حدث من الحركات، ولا متبرِّماً بما استجدَّ من الثورات، وما يُدرينا، فقد نجد تأييداً صامتاً، وقد يُباح به أحياناً كما حدث هذا بالنسبة للمختار الثقفي وهو يبرد برأسي ابن سعد وابن زياد للإمام وهو في المدينة فيسجد زين العابدين لله تعالى وهو يقول: «الحمد لله الذي أدرك لي ثأري من أعدائي، وجزى المختار خيراً. . .» على ما رواه الكشي في الرجال.

ولما كان الإمام محاطاً بالعيون، وفي رصد تام من قبل الولاة والظلمة، فقد تدرّع بالحذر والحيطة، ولم يجعل على نفسه سبيلاً، فما خاض غمار السياسة معلناً، ولا أبدى استعداداً للعمل الثوري مصحراً، ولا أمر ولا نهى ولا أشار، وإنَّما سلك طريقاً وسطاً لم يتخلَ فيه عن رسالته، ولم يقذف بنفسه في غمرات الصراع، وسار سيراً سُجُحاً في نشر الدعوة متزعماً المدرسة العلمية في المدينة بما حدب عليه من إعداد أجلّة التابعين تلاميذ وحملة، فكانت مدرسة القرآن العظيم إلى جنب مدرسة الحديث الشريف، وجامعة الخلق الرفيع ظهيراً لجامعة الإصلاح الاجتماعي، وخطا العلم بتوجيهه اليقظ خطوات بعيدة الأثر، ونجم عن ذلك جيل من العلماء والفقهاء والمحدِّثين؛ هذا يقول حدثني علي بن الحسين، وذلك يقول: روى زين العابدين، وآخر يقول: سمعت الإمام السجاد يقول؛ كل أولئك وفوقهم يغترفون من معين لا ينضب ويشيرون إلى شعلة متوهِّجة لا تنطفىء.

وروّض الإمام نفسه رياضةً روحانية ذات طابع تعبدي فريد، فكان مثلاً نادراً في العبادة، ونموذجاً أرقى في الخشوع، يقف بين يدي الله فلا يدانيه أحد، ويصفّ قدميه مصلياً فلا يلتفت لما حوله بطرف، ويتوجّه لله داعياً فيملأ القلوب هيبةً وجلالاً ويسبح فكره في ذات الله وملكوته فتنزع النفوس عن باطلها، ويفكر في خلق السماوات والأرض، فتقتدي به الأحياء وتقتفي آثاره حتى سمي زين العابدين، ووسم بسيد الساجدين، وكفاه بذلك عزاً، فعن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة ينادي منادٍ: أين زين العابدين؟ فكأني أنظر إلى ولدي علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب يخطر بين الصفوف. . . .»[1].

واتسمت سيرته القيادية بالتقوى، ولا نعني بالتقوى الفرار من الحياة، والاحتجاب بين جدران البيوت، فالإمام أرفع جانباً من هذا الفهم الساذج لحقيقة التقوى، بل التقوى حقيقة ثابتة في الاندماج بحياة الناس بشكل إيجابي، وانصهار متكامل مع الجماعة بعيد عن سلبية الاعتزال المصطنع، فهو معنيٌّ بشؤون المسلمين صغيرها وكبيرها. وهو ملزم بإقامة حكم الله في الأرض ما وجد إلى ذلك سبيلاً، وهو موجّهٌ لطلائع الأمة كما يريد الإسلام، لم يخطر بباله الهرب من الحياة، ولم يفكر يوماً بالاغتراب عن الواقع، بل هو في الحياة في الصميم، ومن التماس الواقع في الذروة المناضلة ولكنها الحياة الفطرية النقية التي تذوب في الله، فلا أحد مع الله، ولا قوة إلا بالله، ولا اتكال إلا على الله.

---

(١) المجلسي/ بحار الأنوار ٤٦/٣.

وكان ينعى على الناس القنوط من رحمة الله، ويحذرهم اليأس من روحه، ويعيدهم إلى الحياة بعد تهربهم منها، كما حصل هذا للزهري بالذات أيام ولايته لبني أمية، فقد أصاب دماً خطأً، فخرج هارباً وتوحش، ودخل إلى غار وطال شعره، فأدخل على زين العابدين عليه السلام، فقال له:

«إني أخاف عليك من قنوطك ما لا أخاف عليك من ذنبك، فابعث بدية مسلَّمة إلى أهله، واخرج إلى أهلك ومعالم دينك، فقال الزهري: فرّجت عني يا سيدي، والله عز وجل وتبارك وتعالى ـ أعلم حيث يجعل رسالته»[1].

بلى ابتعد الإمام بسلوكه الإنساني المتميز عن الترف والبذخ والإسراف، وتحلَّى بحياة الزهد والقناعة والصبر الجميل، وتباعد برصانته التكوينية عن حياة الحاكمين العابثين، وَضَنَّ بنفسه عن الانخراط بسلك المترفين، لأن ذلك مسار أهل الدنيا والتكاثر، أما هو فاكتفى من دنياه باليسير، واتجه بنفسه شطر الورع والكفاف، متأسياً بأبسط الناس معاشاً، وكان همّه بما يصل به الناس، وما يسدّ به احتياج ذوي الفقر والعوز، وله في ذلك آثار خالدة.

وكما ابتعد الإمام عن الترف وحياة المرفهين، فقد ابتعد عن طلب الحكم، وتورع عن السعي إلى الكراسي الوثيرة، وذلك منهج أهل البيت في الزهد بالمظاهر الزائفة، والعزوف عن الجاه الموقت، ولم يفكر يوماً أن يناضل إزاء ذلك، أو أن يستعيد مكانه الذي رشحه له الباري عز وجل. وقد يقال: إنَّه اتجه نحو الدعاء والبكاء، وأعرض

---

(١) الأربلي/ كشف الغمة.

صفحاً عن السياسة التي ينبغي له أن يجابهها بكل قوة، وما يدرينا حقيقة الأمر، فلعلّ في الدعاء سياسة، ولعل في البكاء نكيراً على الظالمين.

والذي يبدو من الأحداث أن الإمام لم يحاول ما حاول أبوه الإمام الحسين من ذي قبل لأسباب موضوعية نكتفي بذكر المهمّ منها:

١ ـ لم يكن المناخ السياسي مهيأ له، في الثورة كما تهيأ ذلك للإمام الحسين، فقد كانت أشباح الرعب المأساوي والإرهاب الدموي تلوح للقريب وللبعيد، فانكمش الناس، وتلبّد الأفق، وهم يتذكرون أحداث كربلاء الرهيبة.

٢ ـ كان على الإمام أن يحمل الناس على مبادىء ثورة الحسين في بيان أهدافها الإنسانية، وشرح أبعادها القيادية، إكمالاً لمسيرتها، ودفاعاً عن مشروعيتها، واستيعاباً لمفاهيمها.

٣ ـ الابقاء على من معه من المناضلين من أهل البيت وأتباعهم، والإيواء لأهل الثبات والبصيرة من أصحابه، حذر التسلط الأموي وهو يختنق الأنفاس، ويتعقَّب الخطوات، وليس هناك من مسوّغٍ شرعي يقذف بالمسلمين في فتن لا أول لها ولا آخر.

٤ ـ لم يقدر للإمام أن يقود حركة منظَّمة تعطي ثمارها ولو بعد حين، وليس من المعقول أن يقوم بتضحية انتحارية لا تؤتي أكلها آنياً أو مستقبلياً، ولقد اكتفى أهل البيت بعامة بما قدمه الإمام الحسين في نضاله الدموي بتلك التضحيات الضخمة في سبيل الثبات على المبدأ، والصلابة في الحق، واتجهوا بالدعوة إلى الله باتجاه آخر يقضي بتحصين المبادىء العليا من الزلل والانحراف.

٥ ـ كان الوعي الديني ـ نتيجة سياسة التمييع للمجتمع والتضييع للأعراف ـ قد انخفض إلى درجة متدانية، وكانت الحركة العلمية هي البديل العملي عن التحرك السياسي المتزعزع، فكان نضال الإمام مكثفاً بإزاء إنعاش الوعي الديني، وتسيير الركب العلمي، وهكذا كان.

٦ ـ إنَّ حكم الإمام في اتخاذ القرار ليس كحكم الناس العاديين، فهو ينظر إلى الأمور بعواقبها، وهو يترصد الأزمات بواقعها، وللناس ظاهر الحال، أما الإمام فمعنيٌّ بقيادة يجب معها مراعاة الظروف والتزام دواعيها، فهو أعرف بالمصلحة ومواطن الاستقطاب دون سواه.

٧ ـ لم يكن الإمام ـ وهو يتمتع بعقلية القائد الفذ ـ لينخدع بالانفعالات الطائشة التي تقيم موازينها على الاندفاع الموقت دون روية مهما كانت النتائج، وعليه أن يتصرف في ضوء الأسس الثابتة لمشروعيَّة قرار النضال المسلح دون الالتفات إلى الأهواء المتأرجحة التي تمليها العواطف الملتهبة حيناً، ويزجيها الشعور بفداحة الظلم والطغيان حيناً آخر، وقد لا تتسم بنظرة صائبة إلى النتائج المترتبة على ذلك مما قد يؤدي بالضرورة إلى كوارث ونكسات للقيادة والأتباع.

٨ ـ وكما تستأثر الحياة الثورية بتغيير الواقع السياسي، فقد تستأثر الحياة الرسالية الهادفة بتغيير الواقع الاجتماعي، وكلتا الحالتين تتكفلان بالانفجار الجماعي الذي يعنى بشكل من أشكال الحسم للثوري لفرض الإرادة الاصلاحية في كيان الأمة ووجودها، فعمد الإمام إلى قدره الرسالي آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر، وداعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وبذلك ينار الدرب من الظلمات المتراكمة، وقد تلمس في ذلك النفوس القرب من الله بعد ابتعادها،

والاندماج بواقعها بعد قرارها، وقد يكون ذلك أدعى بالتنبه من الرقدة، وأجدر باليقظة من غفوات الضمير، وكان ذلك منهج الإمام.

ومن خلال هذا المنظور الواعي للأحداث والظروف والأحاسيس، كان الإمام عليه السلام متجهاً برسالته وجهة جديدة، بإطار جديد، وبفهم جديد، وبعرض جديد.

ولم يكن هذا المنهج نهاية لمتاعبه القيادية، بل كان بداية مضنية لبناء المجتمع الإسلامي وتثبيت أركانه، على أسس متينة متطورة من الإعداد الرسالي الموجّه.

في مجابهة تحديات العصر:

تطورت الحياة الاجتماعية في ظل الحكم الأموي بما لم يألفه المسلمون من ذي قبل، مما خلّف مساراً متدهوراً في الابتعاد عن الحضيرة الإسلامية، فقد ظهرت مدارس الغناء في كل من مكة والمدينة والشام، وقد استبيح الشراب وعوقرت الخمرة سراً وجهاراً، وقد لوحقت النساء بمواكب الحج، وذاب الشباب في حياة حافلة باللهو والمجون، وقد صادف هذا المناخ حكماً مستهتراً بالقيم يعتمد القوة والسيف، ويمشي بسياسة التفريق والإغراء، ويُعنى بفلسفة التبعيد والتقريب، تبعيد الضعفاء، وتقريب الموالين، فأضاف إلى حياة اللهو والترف والإسراف تجديد العهد الجاهلي بعصبياته وقبلياته، وبث دعاته وعيونه وولاته يخنقون الأنفاس، ويحتجنون الأموال من حلها ومشتبهها، فأعطوا ما شاؤوا لمن شاؤوا، وحرموا الأكثرين، وربطوا مصائر الناس بوثاق غليظ من المنع والأثرة والاستبداد.

وانقشعت سحب الجوع، ورثت حبائل الفقر، وإذا بالديار الإسلامية والحجاز بخاصة، تمثِّل مجتمعاً ارستقراطياً في التفكير والبذخ، وكادت أن تندرس معالم البداوة ـ فضلاً عن الإسلام ـ إلا وميض من نخوة، ولماضة من عصبية، اقتضتهما ظروف السياسة ومتطلبات الملك، وحلّ بدل ذلك: مجالس الشراب، ومحافل الغناء،

وموائد المجون، وإذا بها تعجُّ بالمغنين، وتضج بمواكب الطرب رقّة وصبابة واستجابة «وكان أول من غنى في الإسلام الغناء الرقيق طويس، وهو علّم ابن سريج والدلاّل ونؤومة الضحى»[1].

وتتابعت الأيام، وإذا بأبناء المهاجرين والأنصار صرعى هذا الجو المحموم، وضحية هذه الحياة المترفة: بين زق وخمر، وباطية ومغنيّة، وجارية ومخنّث، وتطورت بذلك نظرية جديدة لتطوير الغناء وإحياء معالمه، وقد شارك في هذا الإحياء إلى جانب العرب الموالي، وإلى جانب السواد الخلفاء، ومضافاً لعامة المسلمين بعض الصحابة، فروّج هؤلاء مجتمعين لنظرية الغناء الفردي والجماعي، ولم ير أحدٌ بها بأساً، وأتت على الأعراض فحسبوا ذلك فخراً، فعن الأصمعي قال: «كان طويس يتغنَّى في عرس رجل من الأنصار، فدخل النعمان بن بشير ـ وهو صحابي فيما يزعمون ـ العرس، وطويس يتغنى:

أجَدَّ بعمرة هجرانُها ... فتهجر أم شأنُنا شأنُها
وعمرةُ من سرواتِ النسا ... ءِ تنفحُ بالمسك أردانُها

فقيل له أسكت ـ لأن عمرة أم النعمان بن بشير ـ فقال النعمان: «إنه لم يقل بأساً»[2].

ولا يُفسَّر هذا الإقرار من النعمان، وهو ممن أدرك النبي ﷺ إلاّ بممالأة الوضع، وتشجيع العبث، والاستخذاء للسواد، فإذا علمنا أن المفروض بالمسلمين: إحياء شعائر الدين، وإقامة الفروض والسنن، واستماع القرآن ومدارسته، ورواية الحديث وتعاطيه، تأكد لنا المدلول

(١) ابن عبد ربه/ العقد الفريد/ ٦/ ٢٧.
(٢) ابن عبد ربه/ العقد الفريد/ ٦/ ٢٩.

السياسي بالابتعاد بالمسلمين عن الغرضيات الإسلامية، واقحامهم في متاهات من الضيعة والفجور لا أول لها ولا آخر.

إنَّ الخط الاجتماعي لما استنه الخلفاء الأمويون ابتداءً من يزيد بن معاوية وحتى الوليد بن يزيد بن عبد الملك، يكاد أن يستولي على الحياة العامة بجميع أبعادها، فهي خطر مقصود إليه، ومعهود بتطويره ورعايته إلى أتباع الولاة والولاة، ودعاة السلطان والحاكمين، حتى أخذ في الانتشار بشكل منظّم لا عهد للمسلمين به من ذي قبل، لا سيما محافل الطرب والغناء، ومظاهر الميعة والاستهتار، ويمكن تلخيص هذا التطور لتلك المجالس بما يأتي:

١ ـ الإعداد لها، وخلق الصنعة والماهرين للقيام بمهمتها، وأدائها بأُصولها، فقد احتشد المعجم الغنائي بأسماء طائفة كبيرة من الهواة، وترعرعت في أحضان الخلفاء الأمويين والولاة والقضاة والفقهاء الرسميين، وهم في بحبوحة من هذا الاسفاف، منهم: سلم الخاسر، ومعبد، والغريض، وابن طنبورة، وحكم الوادي وأضرابهم؛ ونظرة عابرة في كتاب الأغاني، والعقد الفريد، ونهاية الارب، والمستطرف، وأمثالها تزوّدك بقائمة عريضة من الأسماء.

٢ ـ تطور أسلوبها، فبعد أن كانت هذه المجالس خاصة، ولا تعقد إلا بمناسبات عائلية تشمل الزواج والأفراح، انتقلت إلى التهنئة بالولاية، والتبريك بالخلافة، والترويج للإمارة، وكأنها جزء تقليدي من العرف الرسمي في إناطة الولاية أو عقد الامارة.

٣ ـ بعد هذا أصبح السُلطان يتطلب ذلك، ويحاول اقتناص الوقت في منادمته المغنّين والمخنثين، ويتلهف على ذلك ولا يصبر عنه،

وحسبك ولع الوليد بن يزيد بأبي كامل المغني وقوله فيه:

من مبلغٌ عني أبا كامل   أني إذا ما غاب كالهامل[1]

وأخباره معه مستفيضة في الجزء السابع من الأغاني وغيره. وأخبار الوليد مع المغنين وسواه من الخلفاء الأمويين تكاد لا تحصر[2].

وأما كلفهم بالمغنيات فحسبك حديث حبابة ويزيد بن عبد الملك، وإكبابه على جثمانها ـ وقد توفيت ـ يترشفه ويشمه أياماً حتى أنتنت[3].

٤ ـ تفاقم الخطر الأخلاقي بدخول النساء على الرجال، والرجال على النساء، وهو أمر لا عهد للمسلمين به، وتعاطي الفتيات والمولدات إذاعة الغناء، وما يتطلب ذلك من عزف وموسيقى وعربدة من جهة، ومعاقرة للخمرة من جهة أخرى، الأمر الذي أفسد فتيات وشباب المسلمين إلاّ من عصم الله، وقد كان ذلك دعوة إلى العودة بالأسرة إلى الأعراف الجاهلية، إذ عادت المجتمعات في ظل الحاكم تعيش مدارس غنائية علنية في كل من مكة والمدينة والطائف ونجد ودمشق والعراق وبقية الحواضر. والمسلمون الملتزمون في حيرة من الأمر وشدة من الواقع.

٥ ـ رافق هذا الترف المسرف صرف واردات الدولة، وتبذير بيت مال المسلمين في غير ما جمعا له، فالجباة ينهبون، والعمال يظلمون، والسعاة يسرقون، والولاة والأمراء بين مجلس غنائي وحفل ترفيهي،

---

(١) ابن عبد ربه/ العقد الفريد ٦/ ٣١.

(٢) ظ: الأغاني بأجزائه كافة، العقد الفريد ٦/ ٤٨ ـ ٥٦.

(٣) ابن عبد ربه/ العقد الفريد ٦/ ٦١.

والأمة تعاني الأمرّين: تفسُّخ متطاول، وحكم متغازل، والبنية الهرمية: شباب طائش، وخلق متمزق، وثروة تتبدد.

وما الغناء وميدانه، والخمرة وموائدها، إلاّ جانب من جوانب العبث الذي يزفه الابتعاد عن الإسلام إلى تلك الجموع البائسة التي فقدت كثيراً من دينها بقليل من دنياها، وهي معطّلة الدور تماماً حتى في التَّعبير عن مختلجات النفس، ونبضات العواطف.

هذا كله فضلاً عن الجواري والقيان وملك اليمين، فتجد الطبقة الارستقراطية قد افترشت المولدات من فتيات الروم والفرس والديلم، واستغلت لذلك تفسير النصوص الإسلامية، واستعملتها في غير تشريعها.

أما الأموال وتبذيرها، والحياة المادية ورخاؤها، والثراء الفاحش وغضارته، كل ذلك لم يكن سمة للشعب المسلم في العصر الأموي وإنما تتحدث عنه قصور الخلفاء، ودور الأمراء، ومنتجعات الولاة، وموائد الأشراف، وعليه من الشواهد ما لا يحصى، ويكفي في الدلالة عليه ما خلفه أولئك المتسلطون من العقارات والممتلكات والضياع، وما ورثوه من الذهب والفضة مما يكسر بالفؤوس، وتتناهى معه الأرقام.

وكان لا بد للإمام أن يواجه تحديات هذا العصر، ويُعرب عن سخطه واستنكاره لهذه المظاهر الفجّة، فحمل عليها بكوكبة من الأفكار المضادة، التي تكبح جماح الشهوات، وتديل من خطوات الغي، فبدأ يستدر العقل رشده، ويأخذ بالإنسان إلى مصيره، فوضع بين يديه يومه الجديد الذي يطل به على يومه الأخير وهو الموت، فحقق بالعمل

الإيجابي بحث ظاهرتين متكافئتين من حيث النتائج، الأيام وهي تصل به إلى الموت، والموت وهو يصل به إلى الآخرة، فجعله بين عاملين حثيثين ينتهيان إلى المصير المحتوم، إذ الحياة معبر إلى الممات، وضياعة هذا العمر القصير في ساعاته وأيامه، وما يُكتب في خلاله من حسنات وسيئات، وما يستقطب من آثار تملأ بها الصحائف، كل أولئك مما يستغله الإنسان في يومه الجديد، وما الحياة إلاّ يوم يُضاف إلى يوم، فجعل الإمام هذا اليوم فيما يستقبله الإنسان من أيام دليلاً للاستضاءة بنور الإيمان، ومؤشراً يوحي بالارتداع عن الجرائر والجرائم، وجعل هذا اليوم في صورة الإحساس واليقظة، ومنحه رداء الإدراك والتصور، فقال:

«وهَذَا يَوْمٌ حَادِثٌ جَدِيدٌ، وَهُوَ عَلَيْنَا شَاهِدٌ عَتِيدٌ، إنْ أَحْسَنَّا وَدَّعَنَا بِحَمْدٍ، وَإنْ أَسَأْنَا فارَقَنا بِذَمٍّ، أَللَّهُمَّ صَل عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَارْزُقْنَا حُسْنَ مُصَاحَبَتِهِ، وَاعْصِمْنَا مِنْ سُوءِ مُفَارَقَتِهِ بارْتِكَابِ جَرِيرَةٍ، أوِ اقْتِرَافِ صَغِيرَةٍ أوْ كَبِيرَةٍ؛ وأَجْزِلْ لَنَا فِيهِ مِنَ الْحَسَناتِ، وَأَخْلِنَا فِيهِ مِنَ السَّيِّئَاتِ، وَامْلأْ لَنَا مَا بَيْنَ طَرَفَيْهِ حَمْداً وَشُكْراً وَأَجْراً وَذُخْراً وَفَضْلاً وَإحْسَاناً. أَللَّهُمَّ يَسِّرْ عَلَى الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ مَؤُونَتَنَا، وَامْلأْ لَنَا مِنْ حَسَنَاتِنَا صَحَائِفَنَا، وَلاَ تُخْزِنَا عِنْدَهُمْ بِسُوءِ أَعْمَالِنَا. أَللَّهُمَّ اجْعَلْ لَنَا فِي كُلِّ سَاعةٍ مِنْ سَاعَاتِهِ حظّاً مِنْ عِبَادَتِكَ، وَنَصِيباً مِنْ شُكْرِكَ، وَشَاهِدَ صِدْقٍ مِنْ مَلاَئِكَتِكَ. أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاحْفَظْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِينَا، وَمِنْ خَلْفِنَا، وَعَنْ أَيْمَانِنَا، وَعَنْ شَمَائِلِنَا، وَمِنْ جَمِيعِ نَوَاحِينَا، حِفْظاً عَاصِماً مِنْ مَعْصِيَتِكَ، هَادِياً إلى طَاعَتِكَ، مُسْتَعْمِلاً لِمَحَبَّتِكَ. أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ؛ وَوَفِّقْنَا فِي

يَوْمِنَا هَذَا وَلَيْلَتِنَا هَذِهِ وَفِي جَمِيعِ أَيَّامِنَا. . . لاسْتِعْمَالِ الْخَيْرِ، وَهِجْرَانِ الشَّرِّ، وَشُكْرِ ٱلنِّعَمِ، وَاتِّبَاعِ ٱلسُّنَنِ، وَمُجَانَبَةِ ٱلبِدَعِ، وَالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، والنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَحِيَاطَةِ الإِسْلاَمِ؛ وَانْتِقَاصِ الْبَاطِلِ وَإِذْلاَلِهِ، وَنُصْرَةِ الْحَقِّ وَإِعْزَازِهِ، وَإِرْشَادِ الضَّالِّ، وَمُعَاوَنَةِ ٱلضَّعِيفِ، وَإِدْرَاكِ اللَّهِيفِ»[١].

أرأيت هذه الثورة المضادّة لظاهرة العبث، وحياة المجون، وردّة الإسراف، وحركة الاستهتار والعبث بالقيم، والمجون دون رادع، والإسراف بلا مسوّغ، والاستهتار بالحياء.

كان بإمكان الإمام أن يغضَّ طرفاً عن هذه التجاوزات لو لم يكن صاحب رسالة، أو أن يغمض عنها لو لم يكن رجل عقيدة، فقد عطل أرباب السلطة الجائرة دوره القيادي في سياسة الأمة، ولكنه لم يعطل دوره الشرعي في نشر مفاهيم الإسلام، والتذكير بالله، ومحاسبة النفس، ومقاومة التفريط، فأضاء ذلك المناخ المظلم بهذه الشرارة الكاشفة، ووضع الإنسان المجرَّد أمام مسؤوليته الذاتية، فحياته محض أيام تكرّ وتفرّ، وأيامه عدد يتناقص دون زيادة، وهذا يوم خلق جديداً، ليكون شاهداً حاضراً، إما أن يودّع بحمدٍ مع الإحسان، أو يفارق بذم مع الإساءة، فدعا إلى العصمة فيه من سوء المفارقة بجرائر الصغائر والكبائر، وإلى الاجزال فيه من الحسنات والمبرات، وإلى الاحتفاظ بحفظه من اقتراف الجرائم والسيئات.

وإذا كان العصر مليئاً بتلك الموبقات، ومفعماً بارتكاب المحرمات، فليكن يوم العبد المؤمن محاطاً بالحمد والشكر والأجر

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء السادس.

والفضل والإحسان، وإذا كان الأمر كذلك فقد يسر الله على الملائكة الكاتبين المؤنة، فابيضت الصحائف بالحسنات، ولم يخز الناس عند الملائكة بتدوين سوء الأعمال.

وعطف الإمام على ساعات ذلك اليوم، فأراد لك ساعة تستوعب حظاً من الدعاء الصالح، وتستنزل نصيباً من الشكر، وتستدعي شاهد صدقٍ من الملائكة. وعاد إلى اليوم في طلب حفظه من كل الجهات عن المعاصي، هادياً إلى طاعة الله تعالى، ومستعملاً في ذات الله عز وجل، ولم ينسَ ليلة ذلك اليوم فضمها إليه وجميع الأيام بالتوفيق لمكارم الأخلاق، ومحمود السجايا، وعظيم الصفات: استعمال الخير، هجران الشر، شكر النعم، اتباع السنن، مجانبة البدع، الأمر بالمعروف، النهي عن المنكر، حياطة الإسلام، انتقاص الباطل وإذلاله، نصرة الحق وإعزازه، إرشاد الضال، معاونة الضعيف، إدراك اللهيف.

أرأيت إلى البلاغة كيف تفرغ مفرداتها في هذه المفردات، وإلى الفصاحة كيف تتقاطر كلماتها في هذه الكلمات؟ ثم هل وقفت على الصورة الفنية لهذه القطعة النادرة، وهل أدركت ما وراء الظاهر من هذا النص، وهل أحطت بما وراء الألفاظ من معانٍ وإيحاءات؟ وأخيراً هل تنبَّهت إلى معنى المعنى في كل فقرة؟ وإلى الدلالة الإيحائية في كل جملة؟ كيف والعصر يموج بسيل الجرائر وأمهات المخازي، والإمام يريد أن يرتفع بمستوى هذا الشعب الضائع إلى ذروة اليقظة والحذر والإعداد، فلا تخزى الملائكة لسوء أعماله، ولا يشوّه بحاضر سيئاته، يريده نقياً خالصاً عامراً بالإيمان، مكللاً بالتقوى، محاطاً بالإسلام، ينتقص الباطل ويعمل على إذلاله، وينصر الحقَّ ويدأب على إعزازه،

ويرشد الضال ويهديه سواء السبيل، ويعاون الضعيف ويأخذ بيده إلى ما يقويه، ويدرك اللهيف ويصل به إلى ما يغيثه، بغية إصلاح النفس والأمة، واحتضان الحياة: الدنيا والأخرى.

والإمام يؤكد هذا الملحظ بصيغة أخرى من الدعاء فيقول:

«وَامْنُنْ عَلَيَّ بِكُلِّ مَا يُصْلِحُنِيْ فِي دُنْيَايَ وَآخِرَتِي مَا ذَكَرْتُ مِنْهُ وَمَا نَسِيتُ، أَوْ أَظْهَرْتُ أَوْ أَخْفَيْتُ أَوْ أَعْلَنْتُ أَوْ أَسْرَرْتُ. وَاجْعَلْنِي فِي جَمِيعِ ذَلِكَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ بِسُؤَالِي إِيَّاكَ، الْمُنْجِحِينَ بِالطَّلَبِ إِلَيْكَ، غَيْرِ الْمَمْنُوْعِينَ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْكَ، الْمُعَوَّذينَ بِالتَّعَوُّذِ بِكَ، الرَّابِحِينَ فِي التِّجَارَةِ عَلَيْكَ، الْمُجَارِيْنَ بِعِزِّكَ»[1].

هذه اللّغة العامرة بالإيمان والاتكال، الداعية إلى الصلاح والاصلاح، قد تكون بكثير من أبعادها الفنية ودلالاتها الايحائية بلحاظ «إيّاك أعني واسمعي يا جارة».

وهكذا كانت توجيهات الإمام في دعائه داعية إلى ما فيه خير الأمة والنظر في شؤونها الملحّة، رداً على تحديات العصر. وكما استوعب الإمام بين يدي الإنسان المسلم حياته من خلال أيامه، وألقى الضوء الكاشف للإنقاذ من السقوط فقد حذّره طول الأمل، والتقصير بصدق العمل، والتذكير بالموت ليكون ذلك وازعاً ورادعاً بين يدي تلك التحديات المعاصرة، قال الإمام:

«أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، واكْفِنَا طُولَ الأَمَلِ، وَقَصِّرْهُ عَنَّا

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الخامس والعشرين.

بِصِدْقِ الْعَمَلِ، حَتَّى لاَ نُؤَمِّلَ ٱسْتِتْمَامَ سَاعَةٍ بَعْدَ سَاعَةٍ، وَلاَ ٱسْتِيفَآءَ يَوْمٍ بَعْدَ يَوْمٍ، وَلاَ ٱتِّصَالَ نَفَسٍ بِنَفَسٍ، وَلاَ لُحُوقَ قَدَمٍ بِقَدَمٍ، وَسَلِّمْنَا مِنْ غُرُورِهِ، وَآمِنَّا مِنْ شُرُورِهِ، وَانْصِبِ الْمَوْتَ بَيْنَ أَيْدِينَا نَصْباً، وَلاَ تَجْعَلْ ذِكْرَنَا لَهُ غِبّاً. وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ صَالِحِ الأَعْمَالِ، عَمَلاً نَسْتَبْطِيءُ مَعَهُ الْمَصِيرَ إِلَيْكَ، وَنَحْرِصُ لَهُ عَلَى وَشْكِ اللِّحَاقِ بِكَ، حَتَّى يَكُونَ الْمَوْتُ مَأْنَسَنَا الَّذِي نَأْنَسُ بِهِ، وَمَأْلَفَنَا الَّذِي نَشْتَاقُ إِلَيْهِ، وَحَامَّتَنَا الَّتِي نُحِبُّ ٱلدُّنُوَّ مِنْهَا. فَإِذَا أَوْرَدْتَهُ عَلَيْنَا وَأَنْزَلْتَهُ بِنَا فَأَسْعِدْنَا بِهِ زَائِراً، وَآنِسْنَا بِهِ قَادِماً، وَلاَ تُشْقِنَا بِضِيَافَتِهِ، وَلاَ تُخْزِنَا بِزِيَارَتِهِ؛ وَاجْعَلْهُ بَاباً مِنْ أَبْوَابِ مَغْفِرَتِكَ، وَمِفْتَاحاً مِنْ مَفَاتِيحِ رَحْمَتِكَ. أَمِتْنَا مُهْتَدِينَ غَيْرَ ضَالِّينَ، طَائِعِينَ غَيْرَ مُسْتَكْرِهِينَ، تَائِبِينَ غَيْرَ عَاصِينَ وَلاَ مُصِرِّينَ، يَا ضَامِنَ جَزَآءِ الْمُحْسِنِينَ وَمُسْتَصْلِحَ عَمَلِ الْمُفْسِدِينَ»[١].

ومن الطبيعي أن تجد هذه الدعوة الخيّرة آذاناً صاغية، تتنبه فيها من الغفلة، وتقلع فيها عن الفساد، وهكذا كان، فقد نشأت طبقة عُليا في ظل هذا التوجيه من النسّاك والعباد، وأخرى من المتقشفين والصالحين، واستردّ العالم الإسلامي أنفاسه بفضل هذا الألق الهادي، وحدبت طائفة من الشباب تصحو بعد رقدتها، وتستفيق بعد غفوتها، فانبعث الوعي الإسلامي من جديد فكانت مدارسة العلم والفقه ومتابعة الوحي والقرآن، ومواكبة الحديث والسنة، وعزف من عزف عن زخارف الدنيا، واتجه من اتجه لمعالم الآخرة مدرّعين بالتقوى في مجابهة ذلك المناخ الصاخب.

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء التاسع والثلاثين.

الآثار الاجتماعية لحياة العبث والإسراف:

وما زلنا نتحدث عن المآسي وحياة الإسراف اللّتين شهدهما عصر الإمام، فثمَّة معالم أخرى إلى الضعة أقرب منها إلى الفن، وهي إلى المجون ألصق منها بالبراءة، وإلى التفسخ أحرى بها من الحب، هذه المعالم متنوعة متعددة لو استرسل بها الحديث لخرج عن صلب الموضوع، إلاّ أنه يختار منها ما سخره السلطان إلى أغراضه بسبيل صعب العائدية عليه، ذلك هو صنيعة الغزل الفاحش حيناً، والتشبيب والنسيب في موسم الحج حيناً آخر.

هذا التوجُّه الجديد ذو بعدين سياسي واجتماعي في أغلب الظن، فالسياسي يتمثَّل بما يحركه الحكم الأموي من سيل الشعراء الرسميين السائرين بركابه للخروج عن العرف الديني، وإشغال الناس بالمجال العاطفي، والنفوس سريعة إليه، وهوى الشباب المتخلف لاهثٌ معه، ذلك ما جرى على عمد من أجل أن يصفو الحكم بعيداً عما يُثيره من منغصات، ويعكِّر معه حياة الترف والبذخ.

والبعد الاجتماعي يتمثّل بدلائل الفراغ الهائل لدى أولاء الشعراء فيتجسد بالغزل الفاحش حيناً، وبملاحقة الحرائر بمواكب الحج حيناً أخرى لتشيع الفاحشة ويذوب المجتمع، وهو ما تتوخَّاه السياسة

الأموية، وقد كان غزل ابن أبي ربيعة، ومجون العرجي، وفحش الأحوص، وبذاءة جرير، وسخف الأخطل يمثل جانباً من هذا المركب المتساوق مع إرادة الحكم الأموي، والرجوع إلى أخبار هؤلاء في دواوينهم، ومطولات كتب الأدب لا سيما الأغاني يوقفك على هذا المعجم اللاّأخلاقي في العرض والفحش والأدب الآثم.

إنَّ جميع المظاهر السلبية التي لمسناها في تحول البيئة الأموية إلى هذا النحو من الضياع والعبث والمجون يرجع في أغلب مخططاته إلى السياسة الفردية التي اصطنعها الأمويون مجانبة لإرادة الأمة ومحاربة لكفاءة الآخرين، وذلك باحتكار المناصب العليا في الدولة، واستيلائهم على السلطان ومتفرعاته، فالولاة والعمال والقضاة والإداريون جلّهم بل كلّهم أمويون، أو مواكبون لمسيرة الأمويين، وهنا شعر الشباب الحجازي بالفراغ القاتل بعد عزله عن الحياة العامة، وفقده لمكانه العملي في ظلِّ الدولة التي شارك في تشييدها آباؤه وأجداده، ومنهم الباني والمؤسس والحاكم، والقوم أبناء القوم، وإذا بهم في منأى عن الحكم وتصريف شؤونه، فالهاشمي في صومعته والتيمي في مزرعته، والعدوي في وحدته، وشباب المهاجرين والأنصار في ذلته، وحتى أبناء عثمان بن عفان في ذلّة وهوان.

هذا العزل السياسي المنظّم للشباب في الحجاز بخاصة جعله يتأرجح في حياة خائبة مترهلة لا طائل معها.

ونبغ من له أثر في المجتمع الحجازي، وأراد استغلال أثره في عمل إيجابي، فأوصدت دونه المجالات، فاتجه اتجاهاً مُنافياً لما كان عليه حملة الإسلام، ودعته النزوة الجامحة فلبّاها على عجل مستجيباً

للشهوات والفراغ بعد أن حيل بينه وبين العمل الجاد.

فإذا ودَّعنا الحجاز، واستقبلنا العراق في بنيته الاجتماعية تمثلت كلّ من البصرة والكوفة في الميدان، وأول ما نشاهده تفاقم الخطر القبلي في البصرة، وتنافر الأخلاق المتطاحنة فيها، كحلف تميم وقيس، وحلف الأزد وربيعة، وتناحر عرب الشمال وعرب الجنوب، وهم أبناء دين واحد.

وهنا نجد الحياة الصاخبة بدلاً من الحياة اللاّهية التي وجدناها في الحجاز، فنلمس الأحقاد والضغائن والفتن قائمة على قدم وساق، ونلمح هياج العصبية القبلية ـ التي سنُفصّل القول فيها في ما بعد بمبحثٍ خاص ـ وكأنه رؤوس الشياطين، والحكم يغذي هذا الهياج ويُسعّر من جرأته، ويسخّر له أتباعه من الشعراء الرسميين، فتتحول البصرة إلى ميادين سياسية ملتهبة، وتتكون جراء ذلك آفاق جديدة حافلة بتناقضات الفخر والهجاء والتنابز، فتزداد الأوتار، وتتجدد الحزازات، ويعود الجو محموماً ومشحوناً بمعارك كلامية توغر الصدور، وتؤجج الضغائن، وكان أهون ما نتج عنها شعر النقائض في جميع تفصيلاته الكبرى الهجائية والفخرية، والقبلية، والفاحشة اللاأخلاقية. فإذا فارقنا البصرة إلى الكوفة، وجدناها تمثِّل نمطاً ثالثاً يختلف عن النمطين السابقين، فلا عوالم للترف الباذخ، ولا أثر للعصبية القبلية إلاّ لماماً، وإنما هو الجوع والفقر والحرمان من جهة، وهو الارهاب الدموي من جهة أخرى، فالكوفة في شغل شاغل بهذين الكابوسين عن التورط في العصبيات، أو الركون إلى النزعة الجاهلية في حياة الإسراف والمجون والعبث.

فالحرمان الذي تعرضت له الكوفة كان حصيلة أمرين طبيعيين، هما: انتقال بيت المال من الكوفة إلى الشام، وكون الكوفة علوية في المبدأ العام، لقد شعر الكوفيون بعد فوات الأوان أن الدولة قد انتقلت بكل مرافقها الحيوية والمالية والسياسية والاجتماعية والاعتبارية إلى الشام، وقد فقدوا بذلك روح العدل والدستور والمساواة التي استظلوا بها طيلة حكم أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام، فأصبحوا محكومين بعد أن كانوا حاكمين، ومستعمرين بعد أن كانوا مستقلين، وعبيداً وهم أحرار، وفقراء بعد أن كانوا أغنياء، وسوقة بعد أن كانوا قادة، لقد أورثهم هذا الشعور ندماً قاتلاً.

واجتماع أهل الكوفة بالجملة على حب أهل البيت عليهم السلام ـ ويجب أن يُنظر إلى الكوفة من خلال صفوف الأمة ووسط الشعب لا من خلال الوجه السياسي والرسمي لها ـ أورثهم ظاهرتين:

الأولى: الحرمان في أدق معاني هذه الكلمة وأوسعها.

والثانية: الابتعاد عن العصبية القبلية، وذلك ما جعلها تبتعد عن الحياة الفارهة في الحجاز، والتفكك الداخلي في البصرة، وجعلها عاصمة مبدئية متجهة نحو عقيدتها أو حياتها بناءً ومجاهدة.

الأحداث المتوالية التي مرت بها الكوفة ابتداءً من وقعة صفين سنة ٣٧ من الهجرة، ووقوفاً عند مأساة الطف سنة ٦١ من الهجرة، ومروراً بحركة التوابين وثورة المختار وأمثالهما، كانت أحداثاً جسيمة نتج عنها تغيّر صفة الكوفة في العرف السياسي السائد إلى بلد ينظر إليه أنه موطن الثورات، ومصدر الحركات الدموية، وملتقى الصدام المستمر بين أهل

الكوفة والأمويين والزبيريّين وحتى الخوارج، والحركات الدموية الصغيرة.

وتاريخ الكوفة مليء بالشواهد الإيجابية على هذا الادعاء الذي سنتحدث عنه في ما بعد بمبحث خاص به.

ولقد كان الإمام دقيقاً بمعالجة حياة الناس في دعوته لتغيير الحال، ودعائه لكشف الشدة وجهد البلاء، والإمام واحد من أولئك المظلومين والمحرومين والمضطهدين، فجرّد من نفسه مثالاً لتلك الطبقات.

وفي الوقت الذي حرم فيه الإمام من الاهدار بصوته المجلجل، ولم يتح له ارتقاء المنابر لتوعية الأمة، إذ الخطابة صنو للحرية ولما صودرت الحرية صودرت الخطابة، ولم يقدّر للإمام تسلم مهام قيادته الإلهية، وهو بين سيف غاشم، ومعتدٍ ظالم، فعمد إلى ما لا يستطيعون منعه، وهو التوجُّه إلى الله متوسلاً، وتنبيه المشاعر مورّياً، وإنكار الطغيان والحرمان داعياً، ووقف عند الداء العياء متحققاً، فقال:

«أَللَّهُمَّ إِنَّكَ كَلَّفْتَنِي مِنْ نَفْسِي مَا أَنْتَ أَمْلَكُ بِهِ مِنِّي، وَقُدْرَتُكَ عَلَيْهِ وَعَلَيَّ أَغْلَبُ مِنْ قُدْرَتِي؛ فَأَعْطِنِي مِنْ نَفْسِي مَا يُرْضِيكَ عَنِّي، وَخُذْ لِنَفْسِكَ رِضَاهَا مِنْ نَفْسِي فِي عَافِيَةٍ. أَللَّهُمَّ لاَ طاقَةَ لِي بِالجَهْدِ، وَلاَ صَبْرَ لِي عَلَى البَلاَءِ، وَلاَ قُوَّةَ لِي عَلَى الْفَقْرِ، فَلاَ تَحْظُرْ عَلَيَّ رِزْقِي، وَلاَ تَكِلْنِيْ إِلَى خَلْقِكَ؛ بَلْ تَفَرَّدْ بِحَاجَتِي، وَتَوَلَّ كِفَايَتِي، وَانْظُرْ إليَّ، وَانْظُرْ لِي فِي جَمِيْعِ أُمُورِي؛ فَإِنَّكَ إِنْ وَكَلْتَنِي إِلَى نَفْسِي، عَجَزْتُ عَنْهَا وَلَمْ أُقِمْ مَا فِيهِ مَصْلَحَتُهَا، وَإِنْ وَكَلْتَنِي إلى خَلْقِكَ تَجَهَّمُونِي، وَإِنْ أَلْجَأْتَنِيْ إِلَى قَرَابَتِي

حَرَمُونِي، وَإنْ أَعْطَوْا أَعْطَوْا قَلِيلاً نَكِدًا، وَمَنُّوا عَلَيَّ طَوِيلاً، وَذمُّوا كَثِيراً؛ فَبِفَضْلِكَ اللَّهُمَّ فَأَغْنِنِي، وبعَظَمَتِكَ فَانْعَشْنِي، وَبِسَعَتِكَ فَابْسُطْ يَدِي، وَبِمَا عِنْدَكَ فَاكْفِنِي»[1].

والإمام في هذا ـ كما يبدو ـ لا يؤكد على نفسه بالذات، بل يتجاوز ذلك إلى النفس الإنسانية التي يعنى بشؤونها وصلاحها، حتى إذا وجد الظلم مطبقاً على العباد، والامتيازات مقتصرة على الولاة، والأموال تُبذر على الوافدين من أتباع السلطان، جبه أولئك جميعاً، وصكّهم بالتوجه نحو الله بقوله:

«يا مَنْ يَرْحَمُ مَنْ لاَ يَرْحَمُهُ الْعِبَادُ، وَيَا مَنْ يَقْبَلُ مَنْ لاَ تَقْبَلُهُ الْبِلاَدُ، وَيَا مَنْ لاَ يَحْتَقِرُ أَهْلَ الْحَاجَةِ إلَيْهِ، وَيَا مَنْ لاَ يُخَيِّبُ الْمُلِحِّيْنَ عَلَيْهِ، وَيَا مَنْ لاَ يَجبهُ بِٱلرَّدِّ أَهْلَ ٱلدَّالَّةِ عَلَيْهِ. يَا مَنْ يَجْتَبِي صَغِيرَ ما يُتْحَفُ بِهِ، وَيَشْكُرُ يَسِيرَ مَا يُعْمَلُ لَهُ؛ وَيَا مَنْ يَشْكُرُ عَلَى الْقَلِيْلِ، وَيُجَازِيْ بِالْجَلِيلِ؛ وَيَا مَنْ يَدْنُو إلَى مَنْ دَنا مِنْهُ؛ وَيَا مَنْ يَدْعُو إلى نَفْسِهِ مَنْ أَدْبَرَ عَنْهُ؛ وَيَا مَنْ لا يُغَيِّرُ ٱلنِّعْمَة، وَلاَ يُبَادِرُ بِٱلنَّقِمَةِ؛ وَيَا مَنْ يُثْمِرُ الْحَسَنَة حَتَّى يُنْمِيَهَا، وَيَتَجَاوَزُ عَنِ ٱلسَّيِّئَةِ حَتَّى يُعَفِّيَهَا. انْصَرَفَتِ الآمَالُ دُونَ مَدى كَرَمِكَ بالْحَاجَاتِ، وَامْتَلأَتْ بِفَيْضِ جُودِكَ أَوْعِيَةُ ٱلطَّلِبَاتِ، وَتَفَسَّخَتْ دُونَ بُلُوغِ نَعْتِكَ ٱلصِّفَاتُ. فَلَكَ الْعُلُوُّ الأَعْلَىٰ فَوْقَ كُلِّ عالٍ، وَالْجَلاَلُ الأَمْجَدُ فَوْقَ كُلِّ جَلاَلٍ؛ كُلُّ جَلِيْلٍ عِنْدَكَ صَغِيرٌ، وَكُلُّ شَرِيفٍ فِي جَنْبِ شَرَفِكَ حَقِيرٌ. خَابَ الْوَافِدُونَ عَلَىٰ غَيْرِكَ، وَخَسِرَ الْمُتَعَرِّضُونَ إلاَّ لَكَ، وَضَاعَ الْمُلِمُّونَ

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الثاني والعشرين.

إلاَّ بِكَ، وَأَجْدَبَ الْمُنْتَجِعُونَ إلاَّ مَنِ انْتَجَعَ فَضْلَكَ. بَابُكَ مَفْتُوحٌ لِلرَّاغِبِينَ، وَجُودُكَ مُبَاحٌ لِلسَّائِلِينَ، وَإغَاثَتُكَ قَرِيبَةٌ مِنَ الْمُسْتَغِيثِينَ؛ لاَ يَخِيبُ مِنْكَ الآمِلُونَ، وَلاَ يَيْأَسُ مِنْ عَطَآئِكَ الْمُتَعَرِّضُونَ، وَلاَ يَشْقَىٰ بِنَقِمَتِكَ الْمُسْتَغْفِرُونَ»[1].

فأنت ترى في هذا الدعاء تأكيداً على استرضاء الله، وإنزال الحاجات به دون سواه، بعد أن نزعت الحقوق، وصودرت العائدات، ويعاود الإمام هذا الملحظ مجدداً، وأضاف إليه ما يراد بالأمة من المكر والكيد وصولة السلطان، وما يحيط بها من أوزار الطغاة فقال:

«أَللَّهُمَّ أَغْنِنَا عَنْ هِبَةِ الْوَهَّابِينَ بِهِبَتِكَ، وَاكْفِنَا وَحْشَةَ الْقَاطِعِينَ بِصِلَتِكَ، حَتّى لاَ نَرْغَبَ إلى أَحَدٍ مَعَ بَذْلِكَ، وَلاَ نَسْتَوْحِشَ مِنْ أَحَدٍ مَعَ فَضْلِكَ. أَللَّهُمَّ فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَكِدْ لَنَا وَلاَ تَكِدْ عَلَيْنَا، وَامْكُرْ لَنَا وَلاَ تَمْكُرْ بِنَا، وَأَدِلْ لَنَا وَلاَ تُدِلْ مِنَّا. أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَقِنَا مِنْكَ، وَاحفَظْنَا بِكَ، وَاهْدِنَا إلَيْكَ، وَلاَ تُبَاعِدنَا عَنْكَ؛ إنَّ مَنْ تَقِهِ يَسْلَمْ، وَمَنْ تَهْدِهِ يَعْلَمْ، وَمَنْ تُقَرِّبْهُ إلَيْكَ يَغْنَمْ. أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاكْفِنَا حَدَّ نوائِبِ ٱلزَّمَانِ، وَشَرَّ مَصَائِدِ الشَّيْطَانِ، وَمَرَارَةَ صَوْلَةِ السُّلْطَانِ. أَللَّهُمَّ إنَّما يَكْتَفِي الْمُكْتَفُونَ بِفَضْلِ قُوَّتِكَ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِهِ وَاكْفِنَا؛ وإنَّمَا يُعْطِي الْمُعْطُون مِنْ فَضلْ جِدَتِكَ فَصَلِّ على مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَأَعْطِنَا؛ وَإنَّمَا يَهْتَدِي الْمُهْتَدُونَ بِنُورِ وَجْهِكَ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَاهْدِنَا. أَللَّهُمَّ إنَّكَ مَنْ وَالَيْتَ لَمْ يَضْرُرْهُ خِذْلاَنُ الْخَاذِلِينَ، وَمَنْ أَعْطَيْتَ

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الخامس والأربعين.

لَمْ يَنْقُصْهُ مَنْعُ الْمَانِعِينَ، وَمَنْ هَدَيْتَ لَمْ يُغْوِهِ إِضْلاَلُ الْمُضِلِّينَ؛ فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ؛ وَامْنَعْنَا بِعِزِّكَ مِنْ عِبَادِكَ، وَأَغْنِنَا عَنْ غَيْرِكَ بِإِرْفَادِكَ»[1].

وكانت طبيعة الحكم في التسلط تستدعي شراء الضمائر، وابتياع ذمم الرجال، فكان الكسب غير المشروع، والرزق المدال بأعتاب السلطان، والسعي للعطاء وراء شرار الخلق من الولاة والأمراء، والفتنة قائمة بين المنع والدفع، والناس يهرعون إليها، يتسابقون فيها، تاركين القناعة والعزة وراء الظهور، والزهد إلاّ في طلب الحرام عند الحاكمين، فكان الكسب خليطاً من التبعات وبيع المروءات، واللّهاث وراء دنيا الظالمين، فندب الإمام نفسه للتنديد بهذه الظاهرة المرّة، وأناط الرزق بالله تعالى بالطّلب إليه، والاستعانة به، والتوكّل عليه دون مأثم واستعطاف، وبمعزل عن الارتماء في أحضان سقطات الناس، وأراد تعليم الأمة أنَّ الكفاية بيد الله، وأن الرزق من عند الله، وأن اليسار أن لا تبذل وجهك للظالمين، وأن الفتنة في حمد من أعطى وهو ليس أهلاً للحمد، فقال:

«اللّهُمَّ وَصَلِّ على مُحمَّد وآلِهِ، واكفِني مؤونة الاكتسَابِ، وارزُقني من غير احتساب، فلا أشتغل عن عبادتِكَ بالطلب، ولا أحتمل إصرَ تبعاتِ المكسَبِ، اللّهُمَّ فأطلبِني بقدرَتِكَ ما أطلب، وأجرني بعزَّتِكَ ممَّا أرهَبُ، اللّهُمَّ صَلِّ على مُحمَّد وآلِهِ، وصُنْ وجهي باليسارِ، ولا تبتذل جاهي بالاقتارِ، فاسترزقُ أهل رزقِكَ، واستَعطِي شِرارَ خلقِكَ، فافتتن

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الخامس.

بحمدِ من أعطاني، وأُبتلى بذَم من منعني، وأنت من دُونِهِم وليُّ الإعطاءِ والمنع»[1].

وفي هذا تأنيب لمن طلب غير الله، وتقريع لأولئك النفر الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلّوا قومهم دار البوار.

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء العشرين.

ظاهرة العصبية القبلية:

ولدى دراسة عصر الإمام عليه السلام، ينبغي الوقوف عند ظاهرة بارزة في سمات العصر، تلك هي ظاهرة العصبية القبلية، واستيضاح معالم التكتلات العشائرية في ضوء ما أثاره الحُكم من فتن ومشكلات كبرى تبتعد بالجماعة الإسلامية عن النهج الشرعي الأصيل الذي أسسته الرسالة المقدسة. وتنحدر به إلى مسائل جانبية أخرى ولكنها معقدة جداً بالنسبة للتفكير البدوي المتخلِّف والناس حديثو عهد بالإسلام، وهم على قرب من الجاهلية، وهنالك الرواسب والخلفيات المتأخرة التي تنظر إلى عهد ما قبل الإسلام نظرة الحنين حيناً، ونظرة الانسياق النفسي حيناً آخر، ونظرة التعصب المقيت وراء هذا وذاك.

وكان السلطان يُغذِّي هذا الانحراف بل يدعو إليه جهاراً، وكان الإمام عليه السلام يحارب هذا الاتجاه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. يقول الأستاذ أحمد أمين:

«الحقّ أن الحكم الأموي لم يكن حكماً إسلامياً يُسوّى فيه بين الناس، ويكافأ فيه من أحسن عربياً كان أو مولى، ويُعاقب فيه من أجرم عربياً كان أو مولى، ولم يكن الحكام فيه خدَمةً للرعية على السواء. إنما كان الحكم حكماً عربياً، والحكام فيه خدمة للعرب على حساب غيرهم. كانت فيه النزعة الجاهلية لا النزعة الإسلامية، فكان الحق

والباطل يختلفان باختلاف من صدر عنه العمل»[1].

وهذا الرأي بمثابة مرآة تكشف عن بعض واقع الحكم ولا تتحدث عنه بصراحة تامة، فالحاكم وإن تظاهر بأنَّه عربي أو يخيّل إلى من يتحدث عنه بأنه عربي، إلاّ أنه لم يكن عربياً خالصاً، بمعنى هذه الكلمة، فهو لم يُنصف حتى العرب أنفسهم على حساب غيرهم، بل قام على أساس قبلي وعشائري محض لا يمت إلى حقيقة العروبة بصلة، ولا يلتقي بجوهر الإسلام في شيء.

ما اعتمد هذا الحكم على صيغة متناقضة اعتماده على العصبية القبلية، ولا أفاد من صنيعة إفادته من النعرة العشائرية فقد سخَّرها لمآربه، وقد أجَّجها لمصالحه، فتكوَّنت جراء ذلك انشقاقات بعيدة المدى تنخر في قلب الأمة، وتأسست كثير من الكتل والأحزاب والفئات حكمت على المسيرة بالانحراف المستبين، وكان حصيلة ذلك نشوء الأحزاب السياسية وقيام الأحلاف القبلية.

وكان طبيعياً أن يتخذ المعارضون للحكم على حكام الدنيا الاتجاه نفسه، فحينما اتجه الأمويون إلى القبائل اليمنية وفي طليعتها كليب وقضاعة، استند الزبيريون على المضرية من الحجاز، وكان ممثل المضرية قيس عيلان الذين وقفوا ضد اليمنية، وفي موقفها هذا وقفت ضد الأمويين بالذات.

وقد تشعبت هذه القبلية فشكلت خطوطاً متناثرة في كيان البلدان الإسلامية فشملت العراق واليمن والشام، كما فرَّقت البادية والحجاز إذ

---

(١) أحمد أمين/ ضحى الإسلام ١/ ٢٧.

«لم تكن مقصورة على أهل مكة والمدينة، ولكنها تجاوزتهم إلى العرب كافة، فتعصبت العدنانية على اليمنية، وتعصبت مضر على بقية عدنان، وتعصبت ربيعة على مضر، وانقسمت مضر على نفسها، فكانت فيها العصبية القيسية، والتميمية والقرشية وانقسمت ربيعة فكانت فيها عصبية تغلب وعصبية بكر، وقل مثل ذلك في اليمن فقد كانت للأزد عصبيتها، ولحمير عصبيتها، ولقضاعة عصبيتها[١]».

وكان هذا الانشقاق العصبي الهائل يهدف إلى ضرب القبائل العربية نفسها بعضها ببعض، وتمزيق وحدة الكائن العربي بالذّات، وإعادة المناخ الجاهلي في كل أبعاده، ليعود الصراع داخلياً بين الأمة، والنفوس بعد مهزوزة لم تنقشع رواسبها، والعقول تحنّ إلى قديمها، وتربط به حاضرها ومستقبلها، وكأن الإسلام في حركته التغييرية الكبرى لم يطوِّر منهم إلاّ بقدر محدود.

وقد عمد الحكم إلى تنظيم هذا الصراع بإثارة المفاخرة والمنابزة، بين القبائل العربية على أساس من جاهليتها الأولى، فتعدد هذه القبيلة أو تلك أمجادها ومآثرها في سالف الزمان، وتقابلها بالملحظ نفسه قبيلة أخرى، فتكون القبيلة إلى جنب القبيلة قبائل، وتكون المفاخرة إلى جنب المفاخرة تطاولاً، فيشتد الصراع في دوامة لا تفتر وتضطرب الأمة في معركة لا تهدأ.

وثمت ملحظ آخر بالاتجاه نفسه، يتمثّل بتقديم القبائل بعضها على بعض في المنزلة والتكريم والجفاء، فتلحظ تقديم اليمن وتأخير نزار، وتكريم القحطانية وتذليل العدنانية، وتعظيم القرشية وتحقير

---

(١) طه حسين/ في الأدب الجاهلي ١٢٩ وما بعدها.

القيسية، وهكذا، فتثار الحفائظ، وتغلي الدماء، وتتجدَّد الأحقاد.

يقول المسعودي: «لما بُويع الوليد بن يزيد قدّم نزاراً واستبطنها، وجفا اليمن وأطرّحها، واستخفَّ بأشرافها»[1].

وكانت حياة النقائض صاخبة، ومن أبرز ما تتكىء عليه عنصر العصبية القبلية في سرد فضائل قبيلة، وكشف مثالب أخرى، والتأرجح المتهافت بين الفخر المفتعل، والهجاء المزيّف.

تبلور فنُّ النقائض في العصر الأموي سياسياً بوحي من الحكم لاصطفاء عائديته للحاكمين، وشغل هذا الفن الناس في عصبيات وحروب قولية وفعلية عن الانعطاف نحو الجو السياسي وشؤون الدولة، ومن ثم الالتصاق روحياً بمعايشة روح الثأر والغلبة والفخر والتعيير والاحراج، وشعراء النقائض فصيل من مبرزي الشعب كانوا من موظفي الدولة ومباركي خطواتها، تدر عليهم جرايات الخلفاء، وتصطنعهم صلات الولاة، وهم على وفاقٍ شخصي، ولا أدلَّ على ذلك من تفاهمهم بالذات، فلم يُحدثنا التأريخ عن عداء فيما بينهم، أو قطيعة نحرت على أعتابها صلات الودِّ، وإنما كانت نقائضهم شيئاً، والعلاقات الشخصية شيئاً آخر، وإنَّما يصب الأثر من جرَّاء هذه النقائض على الأمة العربية وقبائلها، فإذا اصطفت هذه القبائل وتلك، واجتمعت العشائر فيما بينها، وألقى كل شاعر ما في جعبته من سهام، صفق الحاضرون، وبحت أصواتهم، وكثر لهائهم، وتفرَّق جمعهم، وكل يلتقط بإلحاف ما لصق بالآخر مِن مثالب وعيوب وافتراءات فتثور الضغائن، ويعود بعضهم على بعضٍ إلباً، وخلصت الدولة بكل

---

(١) المسعودي/ التنبيه والاشراف ٢٨٠.

امتيازاتها للحاكمين، لا يُنازعهم فيها أحد، وسلم الحكم من النقد والحديث، لا يتهجم عليه أحد، فالنزاع بعيد عن دائرة بني مروان، لأن النقائض تستمد قوة استمرارها، وتسترفد جذوة نمائها، من السياسة العامة لدولتهم، فتأخذ استقرارها في ظل هذا التوجيه السياسي، فينصهر فيها الجمع الضائع انصهاراً محموماً، تعويضاً له عما فقده من عزّ وسؤدد وصولة، فيضيف إلى فجائعه فجيعة أخرى، ويضمُّ إلى مآسيه مأساة الذل والتخلف، ويكتفي الناس بهذا اللّهو عن الخوض في مشكلات الحكم. أو التفكير في الماضي البعيد أو المستقبل القريب، فهم في غمرة من الحاضر المتأجج يقطفون ثمار دواهيه، وينعمون بظل جرائره المستفيضة.

فالشعب إذاً يخدع نفسه بنفسه، ويخدّر أعصابه بذاته، يتطلّع إلى أخبار الماضين وكأنها كل شيء، ويستبسل بحروب السابقين وكأنها الهدف الأسمى، ويستمع إلى أمجاد كانت أو لم تكن، ويتعشق أخباراً صحت أو لم تصح، ويُعوّل على أحاديث من نسج السياسة، ويتعلق بأوهى من بيت العنكبوت وهناً، ناعم البال بحياة أهنأ منها الموت، وهادىء الضمير بمناخ، أشد وقعاً منه قصف الرماح، يروّح نفسه بمنافر ومثالب أشخاص ورؤساء ورجال وقبائل وأيامها: قشاوة، وسفار، والغبيط، وعينين، والضرية، وبلقاء، ومنعج، ورحرحان، وشعب جبلة، والوقيظ، والشعب، وأقرن.. هذا كله وأكثر من هذا كله إلى جنب: «دارة مأسل، ذي طلوح، الكلاب الأول، عول، ذي بهدى، ذي نحب، ذي قار...»[1].

(١) «ظ: ابن عبد ربه/ العقد الفريد ٥/ ١٣٤ ـ ٢٦٥.

في مثل هذا الجو الملهب كانت العواطف تتحرك، والأحقاد تتجدد يصحبها التطاول بالأحساب، والتنابز بالألقاب، حتى عاد التشاغل بهذا اللهو بديلاً عن التنافس بالتقوى، أو التماثل بالبرّ، أو التكامن للصلاح وسوى ذلك مما يُريده الإسلام، ولم يوفق إلى تحقيقه الحكم في ذاتيته، ولا المجتمع في مداركه.

من هنا نُدرك جيداً إشكالية دور الإمام زين العابدين في مقاومة العصبية، وشدَّة معاناته في إعادة العرف الإسلامي، واتساع الخرق في كيان الأمة مما يعسر معه الإصلاح إلاّ بجهود مضنية. وهذا ما حاوله الإمام بعد أن مُني بالعقبات والنكبات، ولكنه خاض غمار هذا البحر الهائج ألق الجبين.

كان الإمام يرى في هذا الأفق البهيم، ظلمات الحمية، وغلبة الحسد، وضعف البصيرة، وسوء الأخلاق، وتفرعن الشهوة، فتوجَّه إلى الله تعالى بالدعاء تعريضاً بتلك الجرائر، واستدراجاً لنفوس العباد، عسى أن تُقلع عن تلك النزعات الهدّامة، فقال:

«أَللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَيَجَانِ الْحِرْصِ، وَسَوْرَةِ ٱلْغَضَبِ، وَغَلَبَةِ الْحَسَدِ، وَضَعْفِ ٱلصَّبْرِ، وَقِلَّةِ الْقَنَاعَةِ، وَشَكَاسَةِ الْخُلُقِ، وَإِلْحَاحِ الشَّهْوَةِ، وَمَلَكَةِ الْحَمِيَّةِ، وَمُتَابَعَةِ الْهَوَى، وَمُخَالَفَةِ الْهُدَى، وَسِنَةِ الْغَفْلَةِ، وَتَعَاطِي الْكُلْفَةِ، وَإِيثَارِ الْبَاطِلِ عَلَى الْحَقِّ، وَالإِصْرَارِ عَلَى الْمَأْثَمِ، وَاسْتِصْغَارِ الْمَعصِيَةِ، وَاسْتِكْبَارِ ٱلطَّاعَةِ، وَمُبَاهَاةِ الْمُكْثِرِينَ، وَالإِزْرَاءِ بِالْمُقِلِّينَ، وَسُوءِ الْوِلاَيَةِ لِمَنْ تَحْتَ أَيْدِينَا، وَتَرْكِ ٱلشُّكْرِ لِمَنِ اصْطَنَعَ الْعَارِفَةَ عِنْدَنَا؛ أَوْ أَنْ نَعْضُدَ ظَالِماً، أَوْ نَخْذُلَ مَلْهُوفاً، أَوْ نَرُومَ مَا

لَيْسَ لَنَا بِحَقٍّ، أَوْ نَقُول فِي الْعِلْمِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَنَعُوذُ بِكَ أَنْ نَنْطَوِيَ عَلَى غِشِّ أَحَدٍ، وَأَنْ نُعْجبَ بِأَعْمَالِنَا، وَنَمُدَّ فِي آمَالِنَا؛ وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ سُوءِ السَّرِيرَةِ، وَاحْتِقَارِ الصَّغِيرَةِ، وَأَنْ يَسْتَحْوِذَ عَلَيْنَا الشَّيْطَانُ، أَوْ يَنْكُبَنَا الزَّمَانُ، أَوْ يَتَهَضَّمَنَا ٱلسُّلْطَانُ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ تَنَاوُلِ الإِسْرَافِ، وَمِنْ فِقْدَانِ الْكَفَافِ»[١].

وكانت الحمية الجاهلية تتناول هذه المفردات في جميع أبعادها، فاستعاذ منها الإمام بما فيها من شرور وآثام، وفي ذلك ردّ بإيحاء على المناخ المتناقض، وفيه التأكيد على الأخذ بمكارم الأخلاق ودفع ذميمها.

إنَّ هذا التوجه بهذا المنحنى في الدعاء المركَّز كان وسيلة الانكار الوحيد التي يمتلكها الإمام ليصدّ عادية تلك التجاوزات الأثيمة، وإن الناس ينتظرون هذا من الإمام ويتشوّقون إليه، فسيَّر ذلك إليهم في دعة وتؤدة، فتسلموه عارفين.

والإمام في كل هذا، إنما يُريد تصفية الجو من درن تلك النقائص المشينة ليعود المجتمع متكافئاً، والحياة بعيدة عن الحزازات. والنفوس مهذَّبة من الرجس، وهو يُعاود هذا المنهج فيقول:

«أَللَّهُمَّ لاَ تَدَعْ خَصْلَةً تُعَابُ مِنِّي إلاَّ أَصْلَحْتَهَا، وَلاَ عَائِبَةً أُؤَنَّبُ بِهَا إلاَّ حَسَّنْتَهَا، وَلا أُكْرُومَةً فِيَّ ناقِصَةً إلاَّ أَتْمَمْتَهَا. أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَأَبْدِلْنِي مِنْ بِغْضَةِ أَهْلِ الشَّنَآنِ الْمَحَبَّةَ، وَمِنْ حَسَدِ أَهْلِ

---

(١) الصحيفة السجادية/ الدعاء الثامن.

الْبَغْيِ الْمَوَدَّةَ، وَمِنْ ظِنَّةِ أَهْلِ الصَّلاَحِ ٱلثِّقَةَ، وَمِنْ عَدَاوَةِ الأَدْنَيْنَ الْوَلاَيَةَ، وَمِنْ عُقُوقِ ذَوِي الأَرْحَامِ الْمَبَرَّةَ، وَمِنْ خِذْلاَنِ الأَقْرَبِينَ ٱلنُّصْرَةَ، وَمِنْ حُبِّ الْمُدَارِينَ تَصْحِيحَ الْثِقَةِ[1]، وَمِنْ رَدِّ الْمُلاَبِسِينَ كَرَمَ الْعِشْرَةِ، وَمِنْ مَرَارَةِ خَوْفِ الظَّالِمِينَ حَلاَوَةَ الأَمَنَة»[2].

ولا يكتفي الإمام بهذا القدر من التوجُّه المثالي، وبهذا التجرّد العالي تعبيراً عن الإنسان المسلم، حتى يكلله بمناصحة المسلمين، وإسداء عارفة التقويم المهذّب، والخلق الرفيع، والاحسان العظيم، ودفع الملمّات، وحياة الفضيلة، وعوالم الخير العميم، يقول الإمام:

«أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَسَدِّدْنِي لأَنْ أُعَارِضَ مَنْ غَشَّنِي بِالنُّصْحِ، وَأَجْزِيَ مَنْ هَجَرَنِي بِالْبِرِّ، وَأُثِيبَ مَنْ حَرَمَنِي بِالْبَذْلِ، وَأُكَافِيَ مَنْ قَطَعَنِي بِٱلصِّلَةِ، وَأُخَالِفَ مَنِ اغْتَابَنِي إلى حُسْنِ ٱلذِّكْرِ، وَأَنْ أَشْكُرَ الْحَسَنَةَ، وَأُغْضِيَ عَنِ ٱلسَّيِّئَةِ»[3].

وحينما ينتهي الإمام إلى هذا الملحظ يضيف إليه الدعاء بأسمى مكارم الصفات، وأرقى درجات المقرَّبين، وأبلج نهج للهداة، إيثاراً في التفضل، وإيذاناً بإنقاذ الأمة من الضياع، وإعلاناً للاصلاح المنشود، بما فيه خير الدنيا والآخرة، واستقرار حياة الكائن الإنساني، والأخذ بيده إلى عليّين، يقول عليه السلام:

«أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَحَلِّنِي بِحِلْيَةِ ٱلصَّالِحِينَ، وَأَلْبِسْنِي

---

(١) في طبعة العسيلي/ المقة.
(٢) الصحيفة السجادية/ من الدعاء العشرين.
(٣) الصحيفة السجادية/ من الدعاء العشرين.

زِينَةَ المُتَّقِينَ. . فِيْ بَسْطِ الْعَدْلِ، وَكَظْمِ الْغَيْظِ، وَإطْفاءِ ٱلنَّائِرَةِ، وَضَمِّ أَهْلِ الْفُرْقَةِ، وَإِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ، وَإِفْشَاءِ الْعَارِفَةِ، وَسَتْرِ الْعَائِبَةِ، وَلِينِ الْعَرِيكَةِ، وَخَفْضِ الْجَنَاحِ، وَحُسْنِ ٱلسِّيرَةِ، وَسُكُونِ الرِّيحِ، وَطِيْبِ الْمُخَالَقَةِ، وَٱلسَّبْقِ إِلى الْفَضِيلَةِ، وإِيْثَارِ التَّفَضُّلِ، وَتَرْكِ ٱلتَّعْيِيرِ، وَالإِفْضَالِ عَلَى غَيْرِ الْمُسْتَحِقِّ، وَٱلقَوْلِ بِالْحَقِّ وَإِنْ عَزَّ، وَاسْتِقْلالِ الخَيْرِ وَإِنْ كَثُرَ مِنْ قَوْلِي وَفِعْلِي، وَاسْتِكْثَارِ الشَّرِّ وَإِنْ قَلَّ مِنْ قَوْلِي وَفِعْلِي؛ وَأَكْمِلْ ذلِكَ لِي بِدَوَامِ ٱلطَّاعَةِ، وَلُزُومِ الْجَمَاعَةِ، وَرَفْضِ أَهْلِ الْبِدَعِ، وَمُسْتَعْمِلِي الرَّأْيِ الْمُخْتَرَعِ»[1].

إن هذا المنهج كان ـ دون أدنى ريب ـ الردّ الحاسم على مفاهيم العصر المادية، والانقضاض الفعلي على التكتلات القبلية وهو بعد استئصال لذميم العادات، ونبذٌ لسيىء الصفات.

لقد كان فعل ذلك في النفوس كبيراً، وتأثيره عظيماً، استنقذ به الإمام من استنقذ، وأدرك من أدركته الهداية عن بصيرة ومعرفة، ليحيى من حيي عن بيِّنَةٍ، ويهلك من هلك عن بيِّنةٍ.

وبهذا يكون الإمام زين العابدين أوّل من وضع أسس النضال غير المباشر في النعي على الظالمين، وهو من أبرز مصاديق الدفع بالتي هي أحسن، كما أمر بذلك القرآن العظيم.

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء العشرين.

عصر الثورات:

وألهبت مأساة الطف المناخ السياسي، وانطبعت آثارها بسطور من نور تهدي السبيل، وتكشف ظلمات المسيرة، فتتابعت الثورات الدموية يزحم بعضها بعضاً، وتوالت الأحداث مروّعة يُسقى آخرها بكأس أولها، ويكتوي لاحقها بجمر سابقها، تلك الثورات وهذه الأحداث يختلف المنظور التاريخي في تقويمها وتحليلها، ويتنازع النظر الموضوعي عطاءها سلباً وإيجاباً، كان بعضها يستهدف الأمويين رغبةً في السلطان، ولهاثاً وراء الحكم دون مبدئية محددة تتعاطف مع الإسلام أو تتجاوب مع أحاسيس المسلمين، إلاّ تسلم السلطة والاستيلاء على أزمّة الأمور تبعاً للأدمغة المخططة لذلك، وإذ تجلببت برداء الدين آنياً، وتحصَّنت بمظاهر التقوى فعلياً، ولكن الغايات السلطوية والفئوية بادية السمات في ملامحها، فهي لا تمتُّ إلى الإسلام بصلة، ولا تلتقي مع تفكير الأمة بخطٍ ما، ويمثِّل هذا الاتجاه عبد الله بن الزبير في حركته الانتحارية التي بدأت فصولها تتراءى بعد ثورة المدينة المنوّرة.

وثمة فصيل آخر في التوجه الثوري، أعلن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعمل بالكتاب والسنة، ولكنه أخطأ الطريق إلى ذلك فبرز

في الساحة على شكل عصابات مسلحة، تغير على الأطراف حيناً، وتقتل الأبرياء حيناً آخر، وتبدو قطاعَ طرق سواهما، ولكنها ـ على أية حال ـ تمثل خطراً كبيراً على الحكم الأموي لا ينام حتى يستيقظ على هديرها، ولا يهدأ حتى يضطرب بتحرُّكها، ويمثل هذا الاتجاه عموماً الخوارج في ثوراتهم الصغيرة والكبيرة.

وهنالك الاتجاه الثوري للتخلص من الظلم والاستبداد، وقد بدأ بثورة المدينة المنورة بقيادة عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة، فلقد تداعى بقية المهاجرين والأنصار، وكوكبة صالحة من أبنائهم إلى الالتحاق بهذه الثورة التي فجّرت بركانها شقيقة الحسين زينب ابنة أمير المؤمنين لدى عودتها من كربلاء والشام، فقد قامت بعمل منظّم تشرح به أبعاد ثورة الحسين، وتصوِّر المآسي التي جرت على أهل البيت في الطف، مما هيّج المشاعر وألهب العواطف، وخلق المسوّغات الشرعية للانقضاض على الحكم، فعادت المدينة كالمرجل في غليانه، وتلاوم الناس فيما بينهم على السكوت القاتل، وتحرَّكوا باتجاه الإصرار على الفكر الثوري. وكان يزيد قد استدعى زعيم الحركة قبل إعلانها، فبرّه وأكرمه، وأسبغ عليه في الأعطيات الضخمة، ولكنه أبى أن ينخدع، وكان أكبر من أن يرشى، فأعلن أن يزيد ـ على ما قام به معه من إكرام وإعزاز ـ معرقٌ في الموبقات، وضليع بالمعاصي، ومغرق بالمحرمات، ولا يمكنه الاغماض على مساوئه، ولا الغض عن جرائره، ولا التساهل بأمره، فقال:

«والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نُرمى بالحجارة من السماء. إنه رجل ينكح الأمهات والبنات، ويشرب الخمر، ويدع

الصلاة، والله لو لم يكن معي أحد من الناس لأبليت لله فيه بلاءً حسناً»[1].

واستجاب أهل المدينة لعبد الله، وخلعوا يزيد بن معاوية، وبايعوا عبد الله بن الغسيل، وولّوه شؤون بلادهم، وطردوا عامل يزيد على المدينة: عثمان بن محمد بن أبي سفيان، وشرّدوا بالأمويين وهم زهاء ألف رجل، وانفصلت المدينة عن حكم الشام، ولكن النظام لم يطل انتظاره بهم، فوجه بمسلم بن عقبة المري بجيش سوري متمرس على القمع والتنكيل، فاحتل المدينة مستبيحاً لها بقسوة لا عهد للمسلمين بها من ذي قبل، وأنزلت على حكم عرفي صارم، هتك المقدسات، واستهان بالكرامات، وكانت قسوة الجيش الأموي لا تدانيها قسوة أعتى الجيوش المتفرعنة في العالم.

وانتهت هذه الثورة بتصفية القادة، وقتل الأتباع، واحتلال المدينة، واستباحة الحرمات كافة، بكل ما لهذه الكلمة من معنى جزئي أو كلي.

ومهما يكن من أمر فإن أبعاد هذه الثورة قد التمست ألقاً من شعاع ثورة الحسين في كربلاء.

وما إن خمدت هذه الثورة حتى تفجرت ثورة التوابين في الكوفة بقيادة سليمان بن صرد الخزاعي شيخ الشيعة، فلم يكد يُقتل الحسين عليه السلام، ويعود ابن زياد من معسكره في النخيلة «تلاقت الشيعة بالتلاوم والتندم، ورأت أنها قد أخطأت خطأً كبيراً بدعائهم الحسين إلى

---

(١) ابن سعد/ الطبقات ٢/ ٤٢٠.

النصرة، وتركهم إجابته، وقتله إلى جانبهم لم ينصروه، ورأوا أنه لا يغسل عارهم، والاثم عنهم في مقتله، إلا بقتل من قتله، أو القتل فيه»[1].

بهذا الشعور الكئيب المتفجر في وقت واحد، بدأ تفكير التوابين بالثورة المسلحة ضد النظام، وشكّلوا أول خلية تنظيمية تعمل على الأخذ بثأر الحسين، وبدأ عملهم السري عام قتل الحسين سنة إحدى وستين، واستعدوا على الثورة سنة خمس وستين، وبثوا الدعاة في أطراف العراق، وحصّنوا أنفسهم وأهليهم بجمع الأموال واقتناء السلاح، وكان شعارهم فيما بعد «يا لثارات الحسين». ولدى تكامل الإعداد للثورة، أسفروا بها ليلة الجمعة لخمس مضين من شهر ربيع الأول، سنة خمس وستين، وخرجوا في أربعة آلاف مقاتل، بعد أن بايع لها ستة عشر ألفاً، وتلاقوا بالنخيلة»[2].

وتوجه الجمع المقاتل إلى قبر الحسين عليه السلام، فلما وصلوا صاحوا صيحة واحدة: يا حسين، وأقاموا به يوماً وليلة يصلّون عليه، ويستغفرون له، ويبكون ويتضرَّعون، ويتوبون إلى الله من خذلانه[3] فما رُئي باجتماعهم هناك يوم أكثر منه باكياً، وهم يقولون:

«يا ربّ: إنا قد خذلنا ابنَ بنت نبينا، فاغفر لنا ما مضى، وتب علينا إنك أنت أرحم الراحمين، وارحَمْ حسيناً، وأصحابه الشهداء والصدّيقين، وإنا نُشهدك يا رب إنا على مثل ما قُتلوا عليه، فإن لم تغفر

(١) البلاذري/ أنساب الأشراف ٥/ ٢٠٤.
(٢) ظ: المسعودي/ التنبيه والاشراف ٣٠٦.
(٣) ظ: الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٤/ ٤٤٩.

لنا لنكونن من الخاسرين»[١].

وكانت هذه الثورة قد بلغت من النضج السياسي شأواً كبيراً إذ اتجهت بجيوشها نحو الشام، ولم تقصد القتلة الفعليين للحسين في الكوفة، إذ اعتبرت نظام الحكم الأموي هو المسؤول عمن قتل الحسين، لا القتلة أنفسهم من الأفراد.

وحينما اتصل نبأ الثورة بمقر الحكم الأموي بالشام، وكان الحاكم مروان بن الحكم، لم يقف مكتوف اليد، وإنما عبأ للقتال جيشاً جراراً يُقدر باثني عشر ألفاً بقيادة عبيد الله بن زياد، وأباح له مروان نهب الكوفة واستباحتها ثلاثاً إن هو ظفر بها[٢].

والتقى الجيشان بـ«عين الوردة» ودارت رحى معركة حامية، انتهى القتال فيها لصالح الأمويين واستئصال التوّابين، وقتل قائدهم سليمان بن صرد، ولا ينجو منهم إلا القليل، فيتحملون أول الليل عائدين من حيث أتوا إلى الكوفة[٣].

«ومهما تكن النتيجة التي انتهت إليها هذه الثورة، فإن الأمر الذي لا شك فيه أنها تعد أكبر ثورة قام بها الشيعة منذ مقتل عليٍّ عليه السلام حتى ذلك الوقت، وأنها كشفت الرماد عن جذوة التشيع، وأشعلت فيها النار حتى ساعدت في النهاية على الإطاحة بحكم الأمويين، كما أنها كانت من ناحية أخرى تمهيداً لثورة شيعية خطيرة، هي ثورة المختار الثقفي»[٤].

---

(١) المصدر نفسه ٤/ ٤٤٩.
(٢) ظ: الطبري ٤/ ٤٤٤ ـ ٤٥٠.
(٣) ظ: المسعودي/ التنبيه والاشراف ٣١١.
(٤) يوسف خليف/ حياة الشعر في الكوفة/ ٧٣.

وانطلق المختار في ثورته العارمة الكبرى في الكوفة وأطرافها وجعل شعار ثورته «يا لثارات الحسين» وكان هذا الشعار وحده ـ مضافاً للدوافع الأخرى ـ كفيلاً بأن يتجمَّع حوله أشتات من الناس من أعداء الأمويين، بالإضافة إلى شيعة أهل البيت عليهم السلام الأعداء الحقيقيين للنظام ورجاله، فإذا رافق ذلك تخطيط اجتماعي يستهوي الضعفاء والمحرومين، كانت الدعوة التي يتبناها أيُّ قائد في سبيلها إلى النجاح والظفر.

واعتمد المختار بثورته على عنصرين أساسيين هما:

١ ـ زعماء الكوفة من العرب.

٢ ـ الموالي من القوميات الأخرى.

أما الزعماء فكانوا يحنّون إلى الحرية المفقودة، ويلهثون وراء المكاسب السياسية السلبية، فصادفوا انفجاراً قوياً هائلاً، وانبعاثاً جماهيرياً واسعاً، فانخرطوا في سلك الثورة راغبين طامحين مستبسلين حتى انتصروا.

وأما الموالي، فقد كانوا في الدرك الأسفل من الهرم الاجتماعي نظراً لتمركز التفاوت الطبقي المرير في بنية الكيان السياسي، إذ كانوا على أحسن تقدير مواطنين عاديين من الدرجة الثالثة، فالحكّام ومن في ركابهم هم الطبقة الأولى، وبقية المسلمين هم الطبقة الثانية، فهم والحالة هذه أولى الطبقات، وقد وجدوا في شخص المختار محققاً لأحلامهم من وجه، ومنقذاً لهم من التدهور الاجتماعي من وجه آخر، فالتفوا حوله صامدين، ونصروه صادقين، فأعاد لهم كيانهم المعنوي،

وساواهم بالعرب في الحقوق والواجبات والالتزامات[1].

فإذا وضعنا إزاء هذين العنصرين مظلومية أهل البيت، وسفك دم الحسين، تكاملت أبعاد الثورة في الدواعي والأسباب حتى النجاح.

وكانت الظروف السياسية المحيطة بالإمام زين العابدين عليه السلام، لا تسمح له بأيٍّ نشاط علني ملحوظ، فما استطاع المختار أن ينشر الدعوة باسمه، وليس من رأي الإمام أن يتبنى شيئاً من الحركات الثأرية أو التغييرية، فهو يختط منهجاً تمليه عليه طبيعة مكانته من الولاية الإلهية، فلا يستجيب للانفعال العاطفي الموقّت، ولا يسيغ الصدام الدموي المسلح، ولا يعدّ العدّة لثأر قائم على أساس الانتقام وحده، فواجباته الرسالية المعمَّقة فوق هذه السطحية اللاّئحة من الأفق، وكل يعمل بما يوحي له واجبه، أو تقتضيه المصلحة، إلا أن هذه المصلحة قد تكون هي العليا وذلك من مخائل الإمامة وروح الإسلام. وقد تكون المصلحة ذاتية أو فئوية فلا مبرر من الانجذاب بها أو لها، وقد تكون المصلحة غير واضحة المعالم. ولا هي بينة السمات ولا دليل على أصالتها أو العدم، فهي بين بين، والإمام لا يضع نفسه موضع الشك دون اليقين، وقد تفرض تطلعات الإمام القيادية عليه رصد ما يجري دون الخوض فيه، ومهما يكن من أمر فإن المختار ذكيٌّ جداً، ومن ذكائه أن عمد إلى طرح تحركاته في الكوفة باسم محمد ابن الحنفية، وهو ليس إماماً مفترض الطّاعة عند الإمامية، ولكنّه ابن أمير المؤمنين والعيون تمتد إلى هذا اللمح من قريب وبعيد، وبذلك استطاع المختار أن يضفي على حركته صفة الشرعية إلى حدٍ ما، أو على الأقل فإنه قد

(١) ظ: المؤلف/ الإمام الحسين عملاق الفكر الثوري/ الفصل الخامس/ رقم (٣).

وفق إلى هذا الاختيار الذي جذب إليه كثيراً من الناس، وحقق له مزيداً من النصر، دون الإحراج للإمام وقيادته في الموضوع، ودون الدخول في دوامة من الصراع والجدل في أولوية ثورته ومشروعيتها، وكونها تمثل رأي أهل البيت أو لا تمثله، وهكذا كان، إذ نهض المختار في انبثاق متطاير، وسيطر على الكوفة، وبث فيها عيونه، وتتبع قتلة الحسين فرداً فرداً، وتعقبهم تحت كل حجر ومدر، وأبادهم فرادى ومجتمعين وأرضى المتطلعين إلى ثورته في هذا الملحظ إرضاءً تاماً، حتى قتل من المشاركين بقتل الحسين (٢٤٨) رجلاً[١].

ولقد أرضى المختار مشاعره أيضاً في أخذ الثأر، كما أرضى شيعة أهل البيت بذلك، وما اكتفى بهذا حتى اتجه إلى النظام الذي مهَّد لقتلة الحسين قتله، فوجه بقائده إبراهيم بن مالك الأشتر نحو الشام، فالتقى قوات عبد الملك بن مروان بقيادة عبيد الله بن زياد، فأوقع بهم هزيمة منكرة على ضفاف «نهر خازر» قرب الموصل، حين التقى الجيشان، وقتل قائد الجيش الأموي عبيد الله بن زياد، وأبرد المختار برأسه ورأس عمر بن سعد إلى الإمام زين العابدين في المدينة المنورة، وشرّد المختار بأفراد الجيش الأموي المقاتل بعد هزيمته كل مشرد[٢].

لقد عاشت الكوفة أيام المختار ـ ابتداءً من توليه السلطة في الرابع عشر من ربيع الأول سنة ست وستين حتى الرابع عشر من ربيع سنة سبع وستين. وهي أيام إمارته ـ عاشت حياة انفجارية طوحت بالرؤوس الكبيرة التي تولت قتل شهداء الطف، واتَّسمت بالعنف في استئصال

---

(١) ظ: البلاذري/ أنساب الأشراف ٥/ ٢٣٧.

(٢) ظ: المؤلف/ الحسن والحسين: التمهيد والثورة/ الفصل الخامس (مخطوط).

قتلة الحسين، وقد نشر المختار في هذه المدة الوجيزة ولاته في الجزيرة والمقاطعات الشرقية من العراق، وفلتت منه البصرة التي استجابت لمصعب بن الزبير الذي قضى على ثورة المختار بإبادة شاملة بلغ عدد ضحاياها سبعة آلاف مسلم موحّد[1].

ولئن أطيح بثورة المختار بصورة مرعبة، فإن الثورات بعدها لم تهدأ ومعارضة النظام لم تقف عند اتباع أهل البيت وحدهم، بل تجاوزتهم إلى ولاة الأمويين أنفسهم، نتيجة فداحة الظلم، وبشاعة التعسُّف والضغط، وسياسة الارهاب الدموي الشامل، مما دفع باثنين من ولاة الأمويين وقادتهم إلى إعلان الثورة على الحكم الأموي نفسه وهما جزء منه، إنهما: مطرف بن المغيرة بن شعبة والي الحجاج على المدائن، وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس قائد جيش الطواويس من قبل الحجاج الذي أوكل إليه فتح اقليم سجستان.

عهد الأمويون بولاية العراق سنة خمس وسبعين من الهجرة إلى الحجاج بن يوسف الثقفي، هذا الحاكم الغاشم الذي لم يتورَّع عن ارتكاب كل المحرمات في سبيل إرساء دعائم الحكم الأموي، وكان أعتى الولاة طغياناً، وأجرأهم على سفك الدم الحرام. دخل الكوفة، موطن الثورة على النظام، فانتضى القسوة سلاحاً، وأغمد الرحمة، وأسال الدماء، وهتك الأعراض، وهدم المنازل، وأشغل الكوفيين بحروب شبه دائمية، وضرب البعوث على الجيوش، وسيّر بالسرايا إلى الأقاليم، هذا بالإضافة إلى القمع الدموي والقتل الجماعي الاستمراري في صفوف العراقيين، حتى قال المسعودي: «إن عدة من قتله الحجاج

---

(١) ظ: المسعودي/ مروج الذهب ٢/ ٩.

صبراً ـ سوى من قتل في زحوفه وحروبه ـ كان مائة وعشرين ألفاً»[1]. يضاف إلى هذا كله، وفوق هذا كله، الاستئثار بكل مقدرات العراقيين.

هذا المناخ الرهيب أثار حفيظة مطرف بن المغيرة، فثار في وجه الحجاج سنة سبعٍ وسبعين، وأعلن خلع عبد الملك بن مروان، وهي جرأة كبيرة لا سابقة لها أن يعمد والٍ وابن والٍ للأمويين إلى إعلان الثورة على النظام الذي هو منه، نعم؛ أعلن مطرف خلع الخليفة الأموي وحرب الحجاج، ودعا إلى كتاب الله وسنة نبيه، وإلى قتال الظلمة[2].

ونهض مطرف بثورته بعد استجابة جملة من العراقيين لها، فقابلها النظام بقسوة بالغة، قتل فيها القادة، وقضى على الحركة، وخنق الأنفاس، ولكن هذا القمع لم يغير من واقع الثورة السياسي في الكوفة، فأعلن أحد زعمائها وهو على رأس قيادة الجيش الأموي في المشرق، الثورة على الحكم الأموي، وهذا الثائر الجديد هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، الذي بدأ ثورته بخلع عبد الملك والحجاج سنة إحدى وثمانين.

وكان الحجاج قد أرسل عبد الرحمن هذا في جيش كبير لفتح إقليم سجستان، وتمَّ له ذلك، وكتب للحجاج بانتصاراته العسكرية الباهرة، وأخبره أنه لا يريد التوغُل ببلاد الأفغان حتى يعرف سبلها ومسالكها، فكتب له الحجاج يوبِّخه على هذا القرار، وأمره بالتوغُّل في تلك البلاد. وأدرك ابن الأشعث وأركان حربه أن هدف الحجاج هو إشغال الجيش بالحروب، وإبعاد الكوفيين عن المناخ السياسي، فما

---

(١) المسعودي/ التنبيه والاشراف/ ٣١٨.

(٢) ظ: الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٤/ ٤٠٤.

امتثل الأمر، وعزم على الثورة، وأيَّده على ذلك قادة الجيش وأمراء الكتائب تأييداً مطلقاً، وفي طليعتهم الصحابي عامر بن وائل الكناني الذي عبَّر للجيش عن قناعته بضرورة الثورة، لأن الحجاج يرى فيهم ما رأى القائل: احمل عبدك على الفرس ، فإن هلك هلك، وإن نجا فلك. فبايع الناس لابن الأشعث على خلع الحجاج وعبد الملك، واجتمع له جيش جرار من القراء والناسكين وأهل المصرين، فاتجه بهم جميعاً إلى الكوفة، ودخلها فاتحاً، وبايع له النَّاس، وقد بالغ الكوفيون في نصرته، وبدأت المعارك الهائلة بينهم وبين الشاميين ولمدة ثلاث سنوات، وكانت وقائع «دير الجماجم» أشدها وبلغت نحواً من ثمانين وقعة، ذهب ضحيتها آلاف العراقيين والسوريين من المتحاربين[١].

واستطاع الحجاج أن يقضي على هذه الثورة بعد معارك طاحنة انتهت بانتحار ابن الأشعث ـ في أغلب الظن عام ٨٤ أو ٨٥ من الهجرة[٢]. والقضاء على ثورة ابن الأشعث ـ وساد المناخ العراقي صمت رهيب، وبقيت الروح الثورية كامنة في الأعماق حتى أوقد جذوتها الشهيد زيد بن علي زين العابدين، في ثورته على النظام مما تجد تفصيلاته في غير هذا الكتاب لدى خلافة هشام بن عبد الملك.

---

(١) ظ: المسعودي/ التنبيه والاشراف/ ٣١٥.

(٢) ظ: المصدر نفسه/ ٣١٤.

عصر الطواغيت:

وكما كان عصر الإمام عليه السلام عصر الثورات وإفرازاتها، فقد كان أيضاً عصر الطواغيت وسلطانها، فقد فتح الإمام عينيه ليرى أول الملوك الأمويين معاوية بن أبي سفيان متربعاً على عرش الخلافة، وهو يخالف كتاب الله، ويحارب عباد الله، يكيد للإسلام ويتجنَّى على المسلمين، يقتل الأبرياء فيسرف في القتل، ويستحلُّ الدماء فلا يرقب لأحد إلاّ ولا ذمَّةً، ويستبيح الأعراض فلا يسلم منه أحد، ويزهق الأرواح فتشيع بالحسرات والدموع، ويرهق النفوس ذلاً وضيماً وخسفاً، والناس في منظر ومسمع، لا يُغيّر منهم مغيّر بقول أو عمل، ويحتجن لنفسه من فيء المسلمين، فيدرّ به على المرتزقة من أشياعه، وتبذخ به المهللة من أنصاره، يستخلف ولاة الجور، ويعتسف المسلمين بهم اعتسافاً، وإذا بطواغيت قريش، وأئمة الظلم، وأبناء الطلقاء يمتلكون أمر الأمة ابتزازاً، ويتحكمون في رقاب الناس كيداً وعدواناً، وحسبك أن يكون من أبرز عماله على سبيل المثال: عمرو بن العاص، وزياد ابن أبيه، والمغيرة بن شعبة، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وبسر بن أرطأة، وعبد الله بن عامر بن كريز، وسواهم ممن مثلوا سياسة الإرهاب، وأسسوا قواعد الطغيان، وتمثلوا معاوية إماماً في الغدر والخيانة، وتتبعوا خطواته في القتل والإسراف وسرقة الأموال، فقد تعقبوا أتباع أمير المؤمنين علي عليه السلام وشيعته ومقربيه تحت كل حجر ومدر،

وأمعنوا في التقتيل والتشريد والنفي والتغريب إمعاناً فاحشاً، حتى سُملت العيون، وقطعت الرؤوس، وبترت الأيدي، وتناثرت الأعضاء والأطراف، فاستحالت بمعاوية وبهم حياة الناس جحيماً مطبقاً، وأيامهم سوءاً ومكروهاً، ولياليهم خوفاً وترقباً واختباءً، وبيوتهم فقراً وادقاعاً ومجاعة، وكان كل هذا يجري، وفوق هذا كله، بمرأى من الإمام عليه السلام ومن الصفوة الباقية من ذوي الضمائر الحيَّة، قتل صبراً من قتل، واستشهد غدراً من استشهد، وسير في الآفاق رأسُ من سيّر، وفجع بأبنائه وأحبابه من فجع، حتى استؤصل حجر بن عدي وأصحابه بمرج عذراء في الشام، وأُعدمَ بالمثلة الشنيعة عمرو بن الحمق الخزاعي، وقُتِلَ شر قتلة «الحضرميان» لأنهما على دين علي عليه السلام، ودين علي هو دين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودين رسول الله هو دين الله تعالى؛ وحرم الناس العطاء من اتباع أهل البيت، وأناخ الفقر بجرانه على أعتاب عمالقة الفكر الإسلامي، وصانعي تأريخه العتيد، وتملك الخوفُ والذعرُ شباب المسلمين ونساءهم، ونشر الرعبُ ألويته الشوهاء في حواضر العالم العربي، وأُعلن سبّ أمير المؤمنين جهاراً، وحُمل الناس عليه قسراً واستنفاراً، حتى ضاقت الأرض بما رحبت على المؤمنين، وصبّ البلاء صباً على الصامدين، وتمتع الطلقاء وأبناء الطلقاء بالحياة الفارهة الرخية، وتنعَّم المقربون من الركب الطاغوتي بأشتات النعم، وعاد المال السائل من الذهب، والجامد من الضياع والممتلكات طعمة لأولاء وهؤلاء، فبنيت الدور والقصور، واتخذت العقارات الضخمة، وامتلكت الجواري والمولدات والقيان، وإذا بتلك الطغمة بحواشيها المكثفة، وأتباعها الكثيرين المنتشرين في طول البلاد وعرضها تمثل ظاهرة من ظواهر الترف الاجتماعي، وإذا بالمسلمين بعامة يمثّلون

ظاهرة مقابلة من ظواهر الحيف والبؤس الاجتماعي وكان جزاء من أنكر ذلك القتل الفوري، وعقاب من أراد التغيير؛ الأحكام العرفيَّة الرهيبة في الاحراق والاعدام والتمثيل، كان كل ذلك يجترح باسم الإسلام، بل يفرض باسم الولاية العامة على الناس، حتى سئم الناس الحياة، وطفح الكأس بما فيه، وهدر بالحق قلة من أصحاب الثبات، وصدع بالصدق جملة من متحمِّلي ثقل الرسالة، فهذا صعصعة بن صوحان العبدي، وهو من كبار المسلمين وأعلام شيعة أمير المؤمنين، يجلجل في القصر الأموي صوته، حينما سأله معاوية «أي الخلفاء رأيتموني» فيقول صعصعة: «أنَّى يكون الخليفة من ملك الناس قهراً، ودانهم كبراً، واستولى بأسباب الباطل كذباً ومكراً، أما والله ما لَكَ في يوم بدر مضرب ولا مرمى، ولقد كنت أنتَ وأبوك في العير والنفير ممن أجلب على رسول الله ﷺ، وإنما أنت طليق وابن طليق، أطلقكما رسول الله ﷺ. أنى تصلح الخلافة لطليق...»[1].

ومضى معاوية بأوزاره، فعهد بالخلافة إلى ابنه يزيد، وكان ذلك العهد سابقة لم تعرف في الإسلام، إذ لم يكن يزيد متمتعاً بأية مؤهلات ترشحه للخلافة، وإنما كان فتى لهو وعبث، وربيب جوارٍ ومغنيات، لا تجربة له ولا حنكة، عاش حياة بدوية خالصة، وتغذى بأعراف الجاهلية الأولى، لا مسحة لديه من دين أو إيمان بقول أو عمل، وما كاد يتسلم السلطة ملكاً عضوضاً حتى أطلق يديه في مال الله يهبه للمجّان والمخنّثين، ويسدّ به اسرافه ومجونه في العبث والخمر والملاهي، يعطي من يشاء من أتباع النظام، ويمنع من يشاء من الصالحين، فعاد

---

(١) المسعودي/ هامش تاريخ ابن الأثير/ ٦/ ٧.

المال دولة للأغنياء على الفقراء، وتعطلت حدود الإسلام، وانتشرت الفوضى في رحاب الدولة، وكثرت الفظائع في حياة الناس، وكما أطلق يزيد يديه في الأموال، فقد أطلق سيفه في المسلمين يحصد النفوس حصداً، ويأخذهم بالقهر والقوة، وتملكهم بالعيون والرصد، فلا مانع ولا دافع، ولا متنفس ولا زاجر، وسلط على الناس ولاة أبيه وأبناءهم، فعادوا خولاً يتصرفون، ورعية لا يرهبون، السيف والفقر سلاحان استلهما في وجوه الناس، فطاحت الرؤوس، ولم يتضور الجياع فقد خنقت الأنفاس وتمادى الشر. والخليفة في خلوة من لذاته وشهواته، لا يرجو وقاراً لشريعة الله، ولا يجد حرمة لعباد الله، حتى اتسع الخرق عليه بنفسه، وقال المسعودي عنه: «كان يبادر بلذته، ويجاهر بمعصيته، ويستحسن خطأه، ويهوِّن الأمر على نفسه في دينه إذا صحّت له دنياه...»[1].

وبلغ السيل الزبى باستئصاله لأهل بيت النبوة وورثة الرسالة، فكانت مجزرة كربلاء الرهيبة التي قتل فيها الإمام الحسين بن علي عليه السلام وولده وإخوته وأبناؤهم، وأبناء عمومته وأسرته، وأصحابه.

وكانت واقعة الحرَّة التي استبيحت فيها مدينة الرسول الأعظم وأُجهز فيها على من بقي من المهاجرين والأنصار وأبنائهم، وفرض الحصار على يثرب، وخندق أهل المدينة على أنفسهم كما صنعوا لدى مهاجمة الأحزاب لهم يوم الخندق، ولكن ذلك لم ينفعهم فقد أُبيحت المدينة إباحةً كاملة، واستشهد فيها ثمانون من صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولم

(١) المسعودي/ التنبيه والاشراف/ ٢٦٤.

يبق فيها بدريٌّ قط. وقتل سبعمائة من قريش والأنصار، واستمر القتل بأهل المدينة شيباً وشباناً ونساءً حتى قتل عشرة آلاف من سائر الناس، بقيادة أمير جيش يزيد المجرم مسلم بن عقبة المري[1].

وما اكتفى يزيد بذلك حتى وجَّه بقواته المسلحة شطر المسجد الحرام، فعاثت بأهله الفساد، وضجت بجرائمه الحرمات، ورميت الكعبة بالمنجنيق وحرق بيت الله الحرام، وسالت الدماء في الشوارع... إلخ.

ولم تطل المدة بيزيد، فقد انتكث عليه عمله، وكبا به فعله، وقصف الله عمره، وانقضت أيامه مشيَّعة بلعنات الأبد والتأريخ.

وبويع لولده معاوية بن يزيد، وكان ذا عقلٍ وروية ودين، فنظر لنفسه، وزهد فيما رغب فيه غيره، فعزم على خلع نفسه، غير حافل بنكير الأمويين، ولا مستمع لآراء المحتفلين به، فجمع إليه القادة والعسكريين، وضم إليه المسؤولين والمقربين، وأضحى باللائمة على جده وأبيه، وشدد النكير عليهما، ووسمهما بعار لا يفنى، وأسمع القاصي والداني في محفل عام خطاب الاستقالة، وكان ذلك العمل جرأة كبيرة ما بعدها جرأة، أن يعمد خليفة أموي إلى الاجهار برأيه السياسي وقراره الخطير بهذا المستوى، والأعناق مُشْرئبة، والأبصار شاخصة، وجموع الشام مصغية، وعلى رؤوس الجميع الطير، وإذا به يحمد الله تعالى ويثني عليه، ويذكر النبي ويصلي عليه، ويقول: «أيها الناس: ما أنا بالراغب في الائتمار عليكم لعظيم ما أكرهه منكم، وإني

(١) ظ: تفصيل ذلك؛ الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٧/ ٥ ـ ١٢.

أعلم أنكم تكرهوننا أيضاً، لأن بلينا بكم، وبليتم بنا. ألا إنَّ جدي معاوية قد نازع في هذا الأمر من كان أولى به منه ومن غيره، لقرابته من رسول الله ﷺ وعظم فضله، وسابقته، أعظم المهاجرين قدراً، وأشجعهم قلباً، وأكثرهم علماً، وأولهم إيماناً، وأشرفهم منزلة، وأقدمهم صحبة، ابن عم رسول الله ﷺ وصهره وأخاه، زوّجه ابنته فاطمة، وجعله لها بعلاً باختياره لها، وجعلها له زوجة باختيارها له، أبا سبطيه سيدي شباب أهل الجنة، وأفضل هذه الأمة، تربية الرسول، ابني فاطمة البتول، من الشجرة الطاهرة الزكية، فركب جدي معه ما تعلمون، وركبتم معه ما لا تجهلون، حتى انتظمت لجدي الأمور، فلما جاءه القدر المحتوم، واخترمته أيدي المنون، بقي مرتهناً بعمله، فريداً في قبره، ووجد ما قدّمت يداه، ورأى ما ارتكبه واعتداه، ثم انتقلت الخلافة إلى يزيد أبي، فتقلّد أمركم لهوى كان أبوه فيه، ولقد كان أبي يزيد بسوء فعله، وإسرافه على نفسه، غير خليقٍ بالخلافة على أمة محمد ﷺ، فركب هواه، واستحسن خطأه، وأقدم على ما أقدم من جرأته على الله، وبغيه على من استحل حرمته من أولاد رسول الله ﷺ، فقلَّت مدته، وانقطع أثره، وضاجع عمله، وصار حليفَ حفرته، ورهين خطيئته، وبقيت أوزاره وتبعاته، وحصل على ما قدّم، وندم حيث لا ينفعه الندم، وشغلنا الحزن له عن الحزن عليه، فليت شعري ماذا قال؟ وماذا قيل له؟ هل عوقب بإساءته؟ وجوزي بعمله؟ وذلك ظنّي... وصرت أنا ثالث القوم، والساخط عليّ أكثر من الراضي، وما كنت لأتحمَّل آثامكم، ولا يراني الله جلّت قدرته متقلّداً أوزاركم، وألقاه بتبعاتكم، فشأنكم أمركم فخذوه، ومن رضيتم به

عليكم فولوه، فلقد خلعت بيعتي من أعناقكم والسلام»[1].

وأنت ترى معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان في هذا الخطاب رجل دين ورجل دولة في آنٍ واحد، أما أنه رجل دين فقد احتاط لنفسه، وأبى سياسة القهر والاضطهاد، فهو يعلن زهده في الامرة، وتحرجه عن قبول الخلافة، وهو يكره من الناس ما يكرهون منه لابتلاء أحدهم بالآخر، فلم يكن ليتأمر وهو ليس أهلاً لذلك، ولم يكن ليرضى وهو ساخط على الكره المتبادل؛ كره الراعي لرعيته، وكره الرعية للراعي. وإن جده معاوية قد نازع من هو أولى منه، وهو الإمام علي عليه السلام لقرابته من رسول الله أولاً، ولصفاته الذاتية ثانياً، فهو عظيم الفضل في القياس، وهو أول السابقين إلى الإيمان، وهو أعظم المهاجرين قدراً، وأشجعهم قلباً، وأكثرهم علماً، وأولهم إيماناً، وأشرفهم منزلة، وأقدمهم صحبة، وبذلك يكون قد احتج على المجتمع بلغته في الاحتجاج: الفضل، السابقة، القدر، شجاعة القلب، كثرة العلم، الأولية في الإيمان، شرف المنزلة، قدم الصحبة، وأضاف لذلك أنه صهر النبي وأخوه، وقد خصه بالتزويج بسيّدة نساء العالمين، فكان أباً لذرية الرسول، لا سيما سبطيه سيدي شباب أهل الجنة، وهما أفضل هذه الأمة المختصان دون سواهما بتربية الرسول لهما تربية ترشيحيَّة للإمامة والخلافة من بعد أبيهما، فكانا من الشجرة الطيبة الطاهرة الزكية، وحسبهما أنهما ابنا فاطمة بنت الرسول.

وأما أنه رجل دولة، فقد أبان في خطابه جرائر ما ارتكب معاوية وهو يتقلد الحكم باسم الإسلام ما يعلمه الجمع الحاضر، وقد ركب

---

(١) الدميري/ حياة الحيوان ١/ ٦١ وما بعدها.

معه هذا الجمع وآباؤهم ما لا يجهلون من عظيم المنكرات، حتى انتظمت أمور معاوية في ضوء ذلك من سفك للدماء، وهتك للحرمات، وتجاوز على المقدرات مما يكون معه الحكم بالإسلام متعذراً، فلا يُطاع الله من حيث يعصى، وإنَّ حكماً يقوم على الابتزاز وانتحال المناصب وادعاء الشرعية، وهو يخالف الشرعية حكم مدعٍ لا أصل له من الصحة، ثم أشار إلى عاقبة ذلك التطاول إذ اخترم جده القدر، واختطفته المنون، مرتهناً بعمله، ووجد ما عمله محضراً، دون أن تكون هناك دولة قائمة على أساس الإسلام، إذ عهد بقيادة هذه الدولة إلى شابٍ طائش لهوى في نفسه، وهو يزيد، ويزيد أبوه، وهو غير خليقٍ بالخلافة لما يعرفه فيه من سوء الفعل والاسراف على النفس يركب هواه، ويستحسن خطأه وخطاه، فأقدم على ما استحل من حرمة أولاد رسول الله ﷺ في مجزرة كربلاء الرهيبة، فقصف عمره وقلّت مدته، وانقطع أثره، فقدم على الله تعالى، ضجيعاً لعمله الشائن، وحليفاً لحفرته الخاوية، ورهيناً بخطيئته الكبرى، فبقيت أوزاره وتبعاته، وندم حيث لا ينفعه الندم، فشغل بالحزن له عن الحزن عليه. ثم تساءل عارفاً عن مصيره المحتوم بالعقاب الصارم، والجزاء المتفاقم، وذلك ظنُّه.

ثم أبان أنَّ حكماً هذه خصائصه، وتلك مميزاته وجرائره، لا يمكن أن يكون رضاً للناس ولا رضاً لله، فلا يكون هو أيضاً وريثاً لهذه الظاهرة الشاذة، فيصير ثالث القوم، والساخط عليه أكثر من الراضي منه، وما كان ليتحمَّل آثام الأمة، ولا يراه الله تعالى متقلِّداً لأوزارها، يلقاه بالتبعات، فاستقال تاركاً حبلها على غاربها.

فالرجل قد احتاط لنفسه ودينه، والرجل قد أنكر على أئمة الجور

والطواغيت، والرجل قد كشف عن سياسة الضغط والإرهاب، وقد أبى لنفسه أن يقتفي آثار جده وأبيه، فتركهم وشأنهم.

وكان وقع هذا الخطاب على الأمويين كالصاعقة التي لا تُبقي ولا تذر، وبذلك ينتهي حكم آل أبي سفيان، ليتسلم الحكم بنو العاص، وكان أولهم طريد رسول الله وابن طريده: مروان بن الحكم.

ومروان بن الحكم من الخلافة لا في العير ولا في النفير، فهو رجل مسخوط عليه برأي عامة الناس، وذو سابقة في التخطيط السياسي الذي انحرف عن الإسلام، حتى سمي «خيط باطل» لضلوعه في الباطل، وتلهفه على الشر، وهو المسؤول الفعلي الأول والأخير عن الفتنة أيام عثمان، وهو في طليعة المتمردين على أمير المؤمنين، والمحاربين له في الجمل وصفين، ولا يتمتع بأية فضيلة تؤهله لقيادة الأمة، وهو من الطلقاء وأبناء الطلقاء، كان الإسلام يتأنفهم حيناً، وينبذهم حيناً آخر، وهو بعد ممن لا يفكر بمشكلات الناس، بل هو ممن يزيدها تعقيداً، ويسعى إلى ذلك جاهداً، ولم يكن ليدور بخلده أن يتولى الخلافة يوماً ما، «حتى لقد همّ بمبايعة عبد الله بن الزبير لولا أن عبيد الله منعه من ذلك»[1].

وكان أتباع الأمويين من الانتهازيين والسفاكين هم المسؤولين عن ترشيح مروان لهذا المنصب، وفي طليعتهم السفاك الدموي الحصين بن نمير[2].

---

(١) المسعودي/ مروج الذهب ٣/ ٣٠.
(٢) ظ: ابن الأثير/ الكامل في التاريخ ٣/ ٣٠٧.

وبارك هذا الترشيح روح بن زنباع الشيخ الانتهازي المعروف، وقام بدور المزكّي لمروان بحسب المعيار الفئوي المتداول، فخطب أهل الشام: «يا أهل الشام: هذا مروان بن الحكم شيخ قريش، والمطالب بدم عثمان، والمقاتل لعليٍّ بن أبي طالب يوم الجمل ويوم صفين، فبايعوا الكبير»[1].

وبويع مروان، فانتهج سياسة السابقين في العنف والقسوة، فأخاف الآمنين، وروّع الناس، وجهر بسبّ أمير المؤمنين، وكان هذا هو المنهج الرسمي للنظام حتى دور مروان، مما حدا بالمسعودي أن يقول: «فاستخفى المؤمنون، وكان الشيعة تُطلب في أقطار الأرض تهدر دماؤهم وأموالهم، وأظهروا لعن أمير المؤمنين عليه السلام على منابرهم»[2].

إلا أن أيام مروان لم تطل، وهلك شر مهلك على يد زوجته بعد أشهر معدودة من خلافته، فتسلّمها بعده ولده عبد الملك بن مروان، وكان قبل الخلافة يظهر النسك تدليساً ورياءً، فلما آلت إليه الخلافة، كشف القناع عن حقيقته كما هي، وكان بيده المصحف فأطبقه، وقال: «هذا آخر العهد بك، أو قال: هذا فراق بيني وبينك»[3].

وهكذا فارق القرآن، وحكم بأحكام الجاهلية جلفاً بدوياً غليظ الطبع، لا يأتمر بمعروف، ولا يقلع عن منكر، ولا يصغي إلى نصح، حتى قال عن نفسه: «لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلاّ

---

(١) اليعقوبي/ التاريخ ٣/ ٣.

(٢) المسعودي/ إثبات الوصية/ ١٦٨.

(٣) ابن كثير/ البداية والنهاية ٨/ ٢٦٠.

ضربت عنقه»[1]. وكان طبيعياً في ضوء هذا السلوك أن يظهر الجبروت، ويُجاهر بالطغيان، ويستعين بالظلمة والتسلّط على العراق ـ مهد الثورة على الحكم الأموي ـ الحجاج بن يوسف الثقفي، القائل مقرراً: «والله ما أعلم اليوم رجلاً على ظهر الأرض هو أجرأ على دم مني»[2]. وقد عانت الأمة من هذا الوغد الأثيم ما فاق حد التصور جوراً وظلماً واعتسافاً، حتى قال الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز عنه: «لو جاءت كل أمة بخبيثها وفاسقها وجئنا بالحجاج لغلبناهم»[3]. واستعمل مروان على مدينة الرسول الأعظم ﷺ الطاغية السفّاك هشام بن إسماعيل المخزومي، وهو من أعتى خلق الله، ولم يكن ولاته في بقية الأقطار أقلّ ظلماً من الحجاج وهشام، وإنما كانوا بحيث يحسن اختيارهم لتنفيذ أشنع المهمات الدموية والإرهابية.

ولقد عانت الأمة والإمام عليه السلام منه العناء المرير، حتى حمل إليه الإمام مثقلاً بالحديد، والغل في يديه، على ما رواه الزهري[4] ولم ينزل الإمام على حكمه، ولا اعتنى بجبروته، ولا ألان له الحديث، فقد شاهده في الطواف فقال له مستثيراً: «يا علي بن الحسين إني لستُ قاتل أبيك، فما يمنعك من المسير إليّ؟ فقال الإمام عليه السلام: «إن قاتل أبي أفسد بما فعله دنياه عليه، وأفسد أبي عليه آخرته، فإن أحببت أن تكون هو فكن». . فانثنى عبد الملك متراجعاً، وقال: «كلا، ولكن سرْ إلينا

(١) السيوطي/ تاريخ الخلفاء / ٢١٩.
(٢) ابن سعد/ الطبقات ٦/٦٦.
(٣) ابن الأثير/ الكامل في التاريخ ٤/ ١٣٣.
(٤) ظ: ابن عنبة/ كفاية الطالب/ ٤٤٨.

لتنال من دنيانا». فلم يعبأ به الإمام[1] وتقضت أيام عبد الملك سراعاً، وانطوت أحلامه سراباً، ودنا منه الموت، فضرب على رأسه قائلاً ـ كما يقول الرواة: «وددت أني اكتسبت قوتي يوماً بيوم، واشتغلت بعبادة ربي عز وجل وطاعته»[2].

أترى هذا القول منه ـ إن صح ـ صحوة ضمير، ويقظة فكر، وكشفاً عن اضطرابه عما اقترفه من أعمال، واجترحه من سيئات، إلا أنني أشك أن يصدر هذا منه في حين يعهد إلى ولده الوليد بن عبد الملك بوصيته الشهيرة بالحجاج، وهو يُعيّنه للخلافة من بعده قائلاً:

«وانظر إلى الحجَّاج فأكرمه، فإنه هو الذي وطأ لكم المنابر، وهو سيفك يا وليد، ويدك على من ناواك، فلا تسمعن فيه قول أحد، وأنت إليه أحوج منه إليك، وادعُ الناس إذا متُّ للبيعة، فمن قال رأسه هكذا، فقل بسيفك هكذا»[3].

واستقبل الوليد خلافته بالحكم الطاغوتي المتجبر عام (٨٦ هـ) حتى قال عمر بن عبد العزيز عنه: «إنه ممن امتلأت الأرض به جوراً»[4] وسار على نهج أبيه في الاعتساف، وحسبك تقييماً له قول المسعودي: «إنه كان جباراً عنيداً ظلوماً غشوماً»[5] وتطاول به الزمان شيئاً ما حتى

---

(١) ظ: الحر العاملي/ اثبات الهداة/ ٥/ ٢٢٩.
(٢) ابن كثير/ البداية والنهاية ٩/ ٦٨.
(٣) السيوطي/ تاريخ الخلفاء/ ٢٢.
(٤) المصدر نفسه/ ٢٢٣.
(٥) المسعودي/ مروج الذهب ٣/ ٩٦.

استشهد الإمام على يديه عام خمسة وتسعين وظل الإمام حياً في مبادئه العليا يهمه الوعي الرسالي، والعمق القيادي، بما سيره داعياً في ظل دعائه، وما صوره إنساناً في رسالة الحقوق، وهو ما نحاول بحثه.

الفصل الثاني

الإمامُ الداعيةُ

١ ـ الوعي الرساليّ
٢ ـ القيادة الرائدة ومعالم التوحيدِ
٣ ـ العودة إلى الجذور الأولى
٤ ـ محمدٌ في رسالته الإسلامية
٥ ـ مرجعية أهل البيت
٦ ـ المعادُ في يوم القيامة
٧ ـ الدعاءُ على الظالمين
٨ ـ الاستقالةُ من الذنوبِ
٩ ـ مكارمُ الأخلاقِ
١٠ ـ البرُّ بالوالدين
١١ ـ حماية الثغور
١٢ ـ القرآنُ العظيمُ
١٣ ـ شهر رمضان
١٤ ـ الكيان الملائكي



الوعي الرسالي:

وكان نتيجة عصر الطواغيت في ضغطه، وتصاعد رهج الاستبداد على صعيده، وفقدان الوعي العقائدي في البلاد، وتلاحق الأزمات السياسية تنخر في قلب الدولة، أن عرضّت المسيرة الإسلامية للنكسات، وانحرف الاتجاه الصحيح طولياً. وتلكم أجواء باهتة الألوان في معطياتها المضادّة، تخيّم بظلالها على الساحة أفقياً، وتحجب بظلماتها المتراكمة الرؤية الثابتة، فيتلكأ التدبير، ويستولي الضياع، ويتجمَّد تفكير الأمة، فيتضاءل الأمل في التقويم، وتتحجم البادرة في الاصلاح. والصامدون ازاء هذه التقلبات في المناخ الاستراتيجي قلةٌ في كل عصر، وهم من الندرة بحيث يعدّون عدّاً، وقد اخترمت الثورات طائفةً من عَلِيةِ القوم، وقضت على جملة أخرى الإبادة الدموية الشاملة بينما ضمّت السجون الرهيبة، والمعتقلات القاسية جمهرة من الأعلام والأعيان وروّاد المسيرة الصاعدة، وطغى على السطح كلّ ما هو رخيص، فخمدت جذوة الدين الإلماضيَّة، وهدأت ثورة الفكر إلا ذبالة، وكمنت روح الإسلام في السرائر فحسب، وقاسى الأبناء نضال الآباء، وعُطّلت سنن السابقين من ذوي الفضل والحجى، وجحدت فضائل المهاجرين والأنصار ممن سبقوا إلى الإيمان، وعلا زعاق المنافقين، وانحلت عقدة الاجتماع، وتضاءل الأمل في الرجوع إلى الحضيرة الإسلامية، وذابت الأمة بسيلٍ من اللذائذ لا ينضب، وعكفت

على حياة مليئةٍ بالعبث والسرف، هذا فيما عدا كوكبة صالحة من الواعين، وقلة نادرة من العاملين، وكان حضور هؤلاء كفيلاً بدرء الاهتزازات النفسية التي تُصيب بالشلل عصب الأمة وتعيق جمهرتها عن العمل الواعي، وقد كان الإمام زين العابدين عليه السلام في طليعة هؤلاء، بل هو الرمز الذي مثَّل الحضور الدائم لدى غياب الوعي الديني.

وكان لا بدَّ للإمام أن يستقطب الجميع مصمماً على وحدة العمل في سبيل وحدة الأمة، وأن يتغافل الحيف الفردي الذي قد يصاب به أو يسدد نحوه، فبدأ رسالته بإعادة الثقة للنفوس المتطايرة شعاعاً، وأن ينمي ملكة الأبناء بما يذكرهم به من سابقة الآباء، وحدب بجد وإخلاص على إعطاء كل ذي حق حقه، وتكثيف الضوء على تلك التضحيات الفذة، وكشف النقاب عن المواقف المغبونة، عسى أن يقرب الحاضر إلى أمسه، ويحن الضليل إلى رشده، فتناول أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالثناء العاطر، وتولى ايضاح جهادهم الناصع بالقلم الصريح، وذكّر ببلائهم الحسن في سبيل الإسلام، ودعوتهم إلى الله، واستجابتهم للنداء، وتصميمهم على النصرة، ومفارقتهم الحلائل والأولاد إظهاراً لكلمة الله، وقتالهم الدامي في الله حتى هجرتهم العشائر، وانتفت منهم القرابات، قال الإمام:

«أَللَّهُمَّ وَأَصْحَابُ مُحَمَّدٍ خَاصَّةً الَّذِينَ أَحْسَنُوا الصَّحَابَةَ، وَالَّذِينَ أَبْلَوا الْبَلاَءَ الْحَسَنَ فِي نَصْرِهِ، وَكَانَفُوهُ وَأَسْرَعُوا إلى وِفَادَتِهِ، وَسَابَقوا إلَى دَعْوَتِهِ، وَاسْتَجَابُوا لَهُ حَيْثُ أَسْمَعَهُمْ حُجَّةِ رِسَالاَتِهِ، وَفَارَقُوا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ فِي إظْهَارِ كَلِمَتِهِ، وَقَاتَلُوا الآباءَ وَالأَبْنَاءَ فِي تَثْبِيتِ نُبُوَّتِهِ؛ وَانْتَصَرُوا بِهِ، وَمَنْ كَانُوا مُنْطَوِينَ عَلَى مَحَبَّتِهِ، يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ فِي

مَوَدَّتِهِ، وَالَّذِينَ هَجَرَتْهُمُ الْعَشَائِرُ إِذْ تَعَلَّقُوا بِعُرْوَتِهِ، وَانْتَفَتْ مِنْهُمُ الْقَرَابَاتُ إِذْ سَكَنُوا فِي ظِلِّ قَرَابَتِهِ. فَلاَ تَنْسَ لَهُمُ اللَّهُمَّ مَا تَرَكُوا لَكَ وَفِيكَ، وَأَرْضِهِمْ مِنْ رِضْوَانِكَ، وَبِمَا حَاشُوا الْخَلْقَ عَلَيْكَ وَكَانُوا مَعَ رَسُولِكَ دُعَاةً لَكَ إِلَيْكَ، وَاشْكُرْهُمْ عَلَى هَجْرِهِمْ فِيْكَ دِيَارَ قَوْمِهِمْ، وَخُرُوجِهِمْ مِنْ سَعَةِ الْمَعَاشِ إِلَىٰ ضِيقِهِ»[1].

ومن المقطوع به أن هذا الهدير الحافل بتعداد السابقين في النصرة والتضحية والإستجابة، له ظاهر في تعدد هذه الآثار الماثلة للعيان، وله ما وراء الظاهر في الاقتداء بسنن تلك الأمجاد، والعودة إلى ذلك المناخ الصالح، لا سيما أن القوم أبناء القوم، فما الذي قَعَدَ بهم عن خوض غمار النضال كما خاضه الآباء من أجل اعزاز الدين وحماية الإسلام. إن ابقاء شعلة النضال الحي من مقتضيات التسلسل التأريخي للأحداث، فإن لم يكن ذلك فلا أقل من النهج بسيرة أولئك في العزة والمنعة ومتابعة الحق المبين.

أضف إلى هذا كله أن تطلُّعات الإمام القيادية تقتضي توحيد الكلمة، ورأب الصدع، من أجل الإبقاء على ظاهر الإسلام ووحدته، وهذا منه على نهج متيقن، إذ لم يدع الإمام فرصة إلاّ اهتبلها للإعراب عن جوهر هذا الملحظ الذي يرمي إلى وحدة المسلمين. فقد نقل الرواة: أن جماعة من أهل العراق دخلوا على الإمام زين العابدين عليه السلام، وذكروا أبا بكر وعمر وعثمان بسوء ونالوا منهم، فقال لهم الإمام: ألا تخبروني من أنتم؟ أنتم من المهاجرين الأولين الذين

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الرابع.

أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله وأولئك هم الصادقون، قالوا: لا، قال: أفأنتم من الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يُحبّون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة!! فقالوا: لا، فقال الإمام عليه السلام: أما أنتم فقد تبرّأتم من أن تكونوا من هذين الفريقين، وأنا أشهد أنكم لستم من الذين قال الله في حقهم:

﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾[1].

اخرجوا عنّي فلا بارك الله فيكم[2].

هذا التوجه الرفيع كان مقصوداً إليه ذاتياً لا هامشياً، والإمام يخطط إليه مركزياً لا جانبياً، فلم يخص المهاجرين والأنصار بفضل الدعاء وحدهم، وإنما تعدّاهم إلى التابعين باعتبارهم قد اقتدوا بالأولين واتبعوهم بإحسان، فلا أقل من ذكرهم بالثناء الجميل، ونشر فضائلهم وصفاتهم ليكونوا لمن اتبعهم قدوة حسنة يقتدي بها، ويُستضاءُ بنور هديها، فأكد على حسن السيرة، وصدق السريرة، ونفاذ البصيرة هادين مهديين غير متَّهمين، فقال الإمام.

«اَللَّهُمَّ وَأَوْصِلْ إِلَى التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ الَّذِينَ يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ خَيْرَ جَزَائِكَ»[3].

---

(١) سورة الحشر، الآية: ١٠.

(٢) هاشم معروف الحسني/ سيرة الأئمة الاثني عشر ٢/ ١٨٢.

(٣) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الرابع.

ثم بيّن صفات هؤلاء التابعين فقال: «الَّذِينَ قَصَدُوا سَمْتَهُمْ، وَتَحَرَّوْا وجْهَتَهُمْ، وَمَضَوْا عَلى شَاكِلَتِهِمْ؛ لَمْ يَثْنِهِمْ رَيْبٌ فِي بَصِيْرَتِهِمْ، وَلَمْ يَخْتَلِجْهُمْ شَكٌّ فِي قَفْوِ آثَارِهِمْ وَالائْتِمَام بِهِدَايَةِ مَنَارِهِمْ، مُكَانِفِينَ وَمُؤَازِرِيْنَ لَهُمْ؛ يَدِيْنُونَ بِدِيْنِهِمْ، وَيهْتَدُونَ بِهَدْيِهِمْ، يَتَّفِقُون عَلَيْهِمْ، وَلاَ يَتَّهِمُونَهُمْ فِيمَا أَدَّوا إِلَيْهِمْ»[1].

ثم يصل الإمام إلى الهدف الأسمى، ويتجاوز النقطة الحرجة إلى السعة في الدعاء لتابعي التابعين إلى يوم الدين بمختلف الدعوات الصالحة التي يتقوم بلحاظها المجتمع الإسلامي، ويتبوأ ذروة مقعده في المجد والرفعة، ويصل إلى مرضاة الله تعالى رغبةً ورهبةً، فيكون ثمار ذلك إضاءة مسالك الحياة وإنارة عالم ما بعد الحياة، ويتوج أولئك وهؤلاء بأنفس ما يتوج به المسلم من صفات العز والكرامة، وسمات الحبّ والرحمة، ومظاهر البر والرحمة، فيقول:

«أَللَّهُمَّ وَصَلِّ عَلَى ٱلتَّابِعِينَ مِنْ يَوْمِنَا هَذا إِلَىٰ يَوْم ٱلدّينِ، وَعَلَى أَزْوَاجِهِمْ، وَعَلَى ذُرِّيَّاتِهِمْ، وَعلَى مَنْ أَطَاعَكَ مِنْهُمْ صَلاَةً تَعصِمُهُمْ بِهَا مِنْ مَعْصِيَتِكَ، وَتَفْسَحُ لَهُمْ فِي رِيَاضِ جَنَّتِكَ، وَتَمْنَعُهُمْ بِهَا مِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ، وَتُعِينُهُمْ بِهَا عَلَى مَا ٱسْتَعانُوكَ عَلَيْهِ مِنْ بِرٍّ، وَتَقِيهِمْ طَوَارِقَ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إلاَّ طَارِقاً يَطْرُقُ بِخَيْرٍ، وَتَبْعَثُهُمْ بِهَا عَلَى اعْتِقَادِ حُسْنِ الرَّجاءِ لَكَ، وَالطَّمَع فِيمَا عِنْدَكَ، وَتَرْكِ التُّهْمَةِ فِيمَا تَحْويهِ أَيْدِي الْعِبَادِ، لِتَرُدَّهُمْ إلى ٱلرَّغْبَةِ إِلَيْكَ وَٱلرَّهْبَةِ مِنْكَ، وَتُزَهِّدَهُمْ فِي سَعَةِ ٱلعَاجِلِ، وَتُحَبِّبَ إِلَيْهِمُ

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الرابع.

الْعَمَلَ لِلآجِلِ، وَالاسْتِعْدَادَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَتُهَوِّنَ عَلَيْهِمْ كُلَّ كَرْبٍ يَحُلُّ بِهِمْ يَوْمَ خُرُوجِ الأَنْفُسِ مِنْ أَبْدَانِهَا، وَتُعَافِيَهُمْ مِمَّا تَقَعُ بِهِ الْفِتْنَةُ مِنْ مَحْذُورَاتِهَا، وَكَبَّةِ النَّارِ وَطُولِ الْخُلُودِ فِيهَا، وَتُصَيِّرَهُمْ إِلَى أَمْنٍ مِنْ مَقِيلِ الْمُتَّقِينَ»[1].

هذه الفقرات مقصود إليها في ذاتها، لم تنتظم كيفما اتفق بل بعناية الأمر بالمعروف حيناً، والنهي عن المنكر حيناً آخر، والتوجه نحو الله بهما، والتذكير بأيامه العظمى، تزهيداً في سعة الدنيا، وتحبيباً للعمل إلى الأُخرى، فهي تستوعب الدعوة إلى عصمتهم من المعصية، والفسحة برياض الجنة، والمنعة من كيد الشيطان، والاعانة لما استعانوا عليه الله من البرّ، والوقاية من طوارق الليل والنهار، والاعتقاد بحسن الرجاء لله، والطمع فيما عنده، والرغبة إليه، والرهبة منه، والسعي الحثيث للآخرة، وتهوين الكروب عند خروج الأنفس، والمعاناة من الفتنة وكَبَّة النار، والصيرورة إلى مقيل المتقين.

والمعنى الإيحائي من وراء هذا كله إعادة النظام إلى الهيئة الاجتماعية في ضوء متطلبات الدين الحنيف بكل جزئياته وحيثياته الإنسانية الرفيعة، وسبيل ذلك كله الاعتدال في كل وجه، والاقتصاد في كل قصد. وإذا اتبع ذلك بكل دقة عاد المسلم إلى حضيرته التي عزل عنها، ومعنى ذلك عودة الوعي للناس وتهافته، ولم شعثه بعد شتاته، ولازم هذه العودة الخطوة العملاقة تجاه تعليمات الإسلام قبل اهتزاز

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الرابع.

الأهواء وتداعي القيم والتمزق اللامسؤول.

هذا الملحظ قد لا يستجيب له كثير من الغوغاء والهمج الرعاع، ولكن الصفوة المختارة تستجيب له كلّها، وإذا استجابت الصفوة تهيَّأ الكادر الرسالي العامل بكل قواه الخيّرة، واعتبر نفسه مسؤولاً عن حياة هؤلاء البسطاء من الناس ممن تتقاذف بأهوائهم النزعات اللاشعورية، وإذا تهيّأ المنقذ أمكن الخلاص عن طريق نشر الوعي الرسالي بين صفوف هؤلاء، وبتعبير آخر فإنَّ هذه الصفوة عبارة عن كادر متقدم يصبح مسؤولاً بين يدي الإمام في رصد تحركاته الدعائية للعودة بالوعي وتطبيق جوهر الإسلام، وتلك الطبقات العامة عبارة عن القاعدة الجماهيرية المسؤولة أمام الكادر المتقدم لأخذ التعليمات ورصد المعطيات الجديدة، وبذلك يرتفع المستوى الفكري والعقائدي عند كثير من هؤلاء إلى مضامين المتعلمين على سبيل نجاة، وإذا تمَّ هذا بلغت دعوة الإمام ذروتها بالاستجابة، وتذللت كثير من العقبات في طريق الوعي الرسالي، وتحقق الهدف التطبيقي والشكل التنظيمي في الأقل للسير على الخط العام الممنهج كما يراه الإمام.

إن التأمُّل الفاحص لأدعية الإمام في هذا الاتجاه الجديد، يوحي بأكثر من معنى عميق، إذ يتجلّى في مجموع هذه الحضيرة حدب الإمام الفائق في تخطيطه القيادي لإنقاذ الأمة من درك الانحطاط والتدهور الاجتماعي.

وإن الوقوف على حقائق الأشياء في دعوات الإمام المتلاحقة وهي مجرَّدة عن الزيف، تشد الإنسان المسلم إلى دينه عبر الاعتزاز

بنضاله الطويل في تاريخه الماضي، ليبني في ضوء ذلك الوهج الساطع توجهاته في تاريخه الحاضر، ويؤسس القاعدة المتينة لتاريخه المستقبلي.

ولمّا كان الإمام عليه السلام هو المسؤول الأول عن قيادة الأمة بعيداً عن الوجه الرسمي للدولة، فعليه ـ وقد فعل ذلك ـ أن يتبع أنجع السبل إلى تحقيق مسؤولية القيادة الرائدة بالعودة إلى الإسلام دون زيغ أو انحراف، لا كما يريد السلطان الحاكم، بل كما يريد الله ورسوله وأهل البيت، وبذلك يكون قد شخَّص الداء بأبعاده كافة، ليصف له الدواء بأجزائه كافَّة، وهذا هو جوهر السبب الذي نعدّ فيه الإمام داعيةً للإسلام في دعائه، ومبرمجاً لمبادئه العليا في دعواته، ومستمداً وحي الإسلام ـ ليس غير ـ في خطاه الرصينة.

والإمام بهذا البعد التنظيمي المسؤول نراه قد استبق الزمن لدرء المخاطر الوافدة على الدين بالتوجه لفطرة الإنسان الخالصة، وهو يُمسك بها، ويغذّيها معارفه وقيمه في عفوية لا ضغط معها ولا إكراه، ولما كان القسر والإكراه برنامجاً شاملاً يشهره المتسلطون في وجه الأمة، كانت الذائقة الفطرية البسيطة سلاح الإمام الفاعل في اجتذاب النفوس، وامتلاك الأحاسيس، دون العنف السياسي في إرادة الهدف الفئوي والإقليمي الذي تتطلبه السيطرة المفروضة.

والحديث إلى القلب ينبع من القلب، ودعاء الإمام بإيحاءاته كافَّة ينطلق من الأعماق فهو يخترق كل الأعماق ليستقر بها معلماً شاخصاً، وكياناً هادفاً يهدي سواء السبيل.

ليس في هذا الحديث مبالغة الرواة، ولا عنت الكتّاب، ولا

مساومة التاريخ، بل فيه الصورة الناطقة المُعبِّرة عن حقائق الأشياء، دون تزيّد على الواقع الصحيح، ولا افتيات على الحقيقة الحرة، بل هو الروح الخالص المستنبط من واقع الأحداث.

القيادة الرائدة ومعالم التوحيد:

عهد الناس بالجاهلية حديث، وأواصر الصلة قريبة، فكان على الإمام العودة بالناس إلى حضيرة التوحيد، والاطلال بهم على معالم الدين الجديد، ولا ضير أن يكون التحرّك الرسالي ضمن الحركة العامة عوداً على بدء، فيما لم تتركز الثوابت الأولى في العقيدة قد تذهب العقيدة شعاعاً، وقد تطير الجهود بداداً، وما زال الإمام ينطلق من قاعدة الشعور الواعي فما عليه إلا أن يستهدف الحالات اللاّشعورية التي إجتاحت هذا الأفق المتلبِّد بالاهتزازات العقائدية، ليثبت العقائد على أصولها الأولى، وتمتد معه حركة التثبيت الدائبة إلى جذورها من أجل الترسيخ أولاً، والبناء ثانياً، لذا نجد الإمام معنياً كل العناية بأصول الدين وحقائقه، ومتوجهاً لنشر أعلام تلك الأصول وألويتها، دون الخوض في الصنمية الجديدة التي عمل لها الحاكمون، فعادت عبادة الأشخاص والآراء بديلاً عن عبادة الأصنام والأوثان، فقد أبقى السلطان على جوهر الشرك، وتفنن بالصورة الاشراكية، فأعطى للطغاة والنزعات الضالة صفة التقديس والولاء والطاعة والإنابة، فعادت الصنمية بإطار جديد من الشرك الخفي أو العلني من صنع الطواغيت الجدد، وتلك صورتها الجديدة في النظام الجديد، بدعوى نيابة الله لمدَّعي الخلافة في الأرض، فهو يحكم باسم الله وإن أشرك بالله، وظلم عباد الله، وأكل

مال الله، كان ذلك في ظلّ التمهيد لهذه المحاور تحت أقنعة متعددة، أبرزها فلسفة الإرجاء وعقيدة الجبر بما أوجده علماء الكلام الرسميُّون، يصاحب ذلك القسر والإكراه تارة، وتسخير الأسلوب الديني تارةً أخرى وتعطَّلت المفاهيم التوحيدية من الأساس، وساد الاضطراب في تطبيقها على المصاديق، فسادت حياة من الوثنية تنظر لمركز السلطان الجائر وهي تضفي عليها هالات العزة والتقديس بلا حساب، حتى بدأ الضلال يدب إلى النفوس دبيباً يخالط الدماء والأعصاب والجوارح.

وكانت صرخات الإمام المدوية تتجاوب أصداؤها في الآفاق، وهو يبدأ بالتوحيد في توطيد أُسسه وأركانه، وتسيير مفاهيمه وأضوائه، في لفتات بارعة تهدم بنيان الصنمية الجديد، وتتولى إعلاء منار التوحيد، وتعبِّد الطريق إلى الله خالصة من الشوائب، يقول الإمام:

«أَلْحَمْدُ للهِ الأَوَّلِ بِلاَ أَوَّلٍ كَانَ قَبْلَهُ، وَالآخِرِ بِلاَ آخِرٍ يَكُونُ بَعْدَهُ، الَّذِي قَصُرَتْ عَنْ رُؤْيَتِهِ أَبْصَارُ النَّاظِرِينَ، وَعَجَزَتْ عَنْ نَعْتِهِ أَوْهَامُ الْوَاصِفِينَ»(١).

فهو الأول قبل الأشياء، والسابق قبل الإنشاء، لا يحدّه زمان ولا يحتويه مكان، فالزمان والمكان مخلوقات له، وهو الباقي بعد الفناء، والدائم عند الانعدام، فكما لا أول قبله، فلا آخر بعده، فهو إذاً يمثل الحضور الدائم، والحياة الاستمرارية الأبدية، والقدرة والعلم والغنى المطلق.

ونفى الإمام عنه الرؤية، وفي نفيها نفي للتجسيم لاستحالة الرؤية

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الأوّل.

عليه، وتعاليه عن الشبيه والتشبيه بكفوءٍ ما، وهذا ما يجعل أوهام الناس قاصرة وعاجزة عن إدراك ماهيته بوصف، أو الوصول إلى معرفته كما هو أهله بحدود، فهو حقيقة مطلقة فوق الأشياء، ولكنه يستحيل تصوره في وهم أو خاطرة أو فكر، دلّ على ذاته بذاته، وتعالى عن جميع مخلوقاته: «**ابتدعَ بقدرتِهِ الخلق ابتداعاً واخترعهم على مشيّته اختراعاً**»[1]. فقد كان الإِيجاد إبتكاراً دون حذو مثال، وابتداعاً دون سابق احتذاء، وكان ذلك تبعاً لإرادته ومشيئته دون مثل وشبيه، وإنما هو الاختراع المطلق، والخلق الابداعي الجديد، وهما ملحظان إِعجازيان يدلان على تفرده بالخلق وفق ما تقتضيه الحكمة الإلهية في جميع الخصوصيات، مما يستدل معه على تكامل الصفات الذاتية لله تعالى، وهي عين ذاته بما لها من معانٍ إيجابية ثبوتية بحصر الخلق به كالصفات الفعلية، كالخالق، والبارىء، والمبدع، والمصور...».

وهي كلها مفاهيم إيجابية تنحّل إلى مفاهيم سلبية بالنسبة لسواه تعالى، فهو الخالق وحده، ولا خالق سواه، وهو البارىء ولا بارىء سواه، وهو المبدع ولا مبدع سواه، فإذا كان الأمر كذلك فهو الإله ولا إله سواه، وهذا هو التوحيد الخالص نتيجة الاستدلال العقلي الذي أشار إليه الإمام بقوله: «**ثُمَّ سلكَ بهم سبيلَ إرادتِهِ، وبعثهُم في سبيل محبّته، لا يملكون تأخيراً عمّا قدّمهُم إليه، ولا يستطيعون تقديماً إلى ما أخّرهُم عنهُ**»[2].

والفقرات تتحدَّث عن الإختصاص الإلهي في كيفية التدبير،

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الأول.

(٢) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الأول.

وتحصر التدبير به دون سواه، ففي الخلق التقويمي للإنسان، وقد جعل في أحسن تقويم، خصائص مميزة لكل فرد عن فرد، في الجسم واللون والصوت وجزئيات الابداع بحيث تختلف في الأفراد اختلافها في الكيفيات مما هو معلوم في الفلسفة وعلم الطب، وعلم الأصوات وسوى ذلك، ولما كان الخلق ملازماً لمزايا التدبر كان هذا التدبير جزءاً من ذلك الخلق، وهو استدلال جديد على التوحيد، وكان هذا التدبير مختلفاً باختلاف هذا الخلق لا يملكون تأخير ما قدمهم به، ولا تقديم ما أخّرهم عنه، فهم مراتب ودرجات ومنازل، وهم أشكال شتّى، وهم صنوف متعددة، وفي ذلك تسخير للحياة الإنسانية بأرقى صورها إذ لو كانوا على شاكلة واحدة لتعطّلت الحياة الاجتماعية وأصابها البوار الشامل، والله يريد تسييرها وتسخيرها لإعمار الأرض واستثمارها من أجل الغاية الإلهية القصوى، وهي عبادته الخالصة كعلة في إيجاد الخلق.

وإذا استقل سبحانه بالتدبير، فقد استقل بالأرزاق لأنها جزءٌ من هذا التدبير العام، وإليه يشير الإمام بقوله:

«وجَعَلَ لِكُلِّ روحٍ منهُم قوتاً معلوماً مقسوماً من رزقه، لا ينقص من زَادَهُ ناقص، ولا يزيد من نقص منهُم زائد»[1].

فقد قدر الله سبحانه لكل إنسان قوته، وأفاض عليه رزقه، تعبيراً عما قرَّره في قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[2].

وكان هذا نابعاً عن تدبيره للكون، فالأرزاق إفاضة منه، وهو

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الأول.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٣٢.

مسببها، وكل سبب ناقص لتحصيل الأرزاق إلاّ أن يقترن بالسبب الذي تنتهي إليه الأسباب، وهو إرادة الله ومشيئته ليس غير، وليس لأحدٍ أن يفيض عليها شيئاً أو يخترم منها شيئاً، وليس لأحدٍ شأن في الزيادة والنقصان المقترنين بها وحدها، وذلك فضلٌ طائل من الله تعالى، إذ انحصرت الأرزاق بمقاديرها بيديه فحسب، فلا حيف ولا ظلم ولا اعتساف. أما بقية الأسباب الظاهرية والعلنيّة من العمل والإرادة ورأس المال والسعي فهي أسباب غير تامة العلة، إذ وراءها الأسباب التكوينية الثابتة التي لا تحيط بها مقدرة الإنسان ودواعيه على العمل والاكتساب، فما لم تتحقق الأسباب الكونية لا تتحقق موارد الأرزاق، حتى ينتهي ذلك بالضرورة إلى الله تعالى فهو الرازق ذو القوة المتين، حتى إذا استوفى الإنسان رزقه، واستكمل طعمته، وجد الله تعالى قد «**ضَرَبَ لَهُ فِي الْحَيَاةِ أَجَلاً مَوْقُوتاً، وَنَصَبَ لَهُ أَمَداً مَحْدُوداً، يَتَخَطَّىٰ إِلَيْهِ بِأَيَّامِ عَمُرِهِ، وَيَرْهَقُهُ بِأَعْوَامِ دَهْرِهِ؛ حَتَّى إذا بَلَغَ أَقْصَىٰ أَثَرِهِ، وَاسْتَوْعَبَ حِسابَ عُمُرِهِ قَبَضَهُ إِلَى مٰا نَدَبَهُ إِلَيْهِ مِنْ مَوْفُورِ ثَوَابِهِ، أَوْ مَحْذُورِ عِقَابِهِ، ﴿لِيَجْزِيَ الذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾**[1] **عَدْلاً مِنْهُ تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ، وَتَظَاهَرَتْ آلاؤُهُ؛ ﴿لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾**[2]»[3].

وكان هذا أيضاً تأكيداً عليه السلام على فلسفته الحكيمة بشأن التدبير العام لهذا الإنسان، ليستدل على حقيقة الولاية الإلهية المطلقة على

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣١.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٢٣.
(٣) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الأول.

الإنسان لا ولاية الحاكمين من الظلمة وأئمة الجور، وأن الدنيا هي السبيل الطبيعي إلى الآخرة، فما هذه الأيام إلاّ فرصة يتزوّد بها الإنسان للحياة الباقية، فإن إلى الله الرُجعى، فالأجل موقوت، والأمد محدود، والمرء يتخطّى بأيام عمره إلى ساعة حتفه، فإذا بلغ الأثر مقرره، واستوعب المرء ما قُدِّر له من عمره، قبضه إليه بالموت، ليقف به على موفور ثوابه أو محذور عقابه، فيجزي بالحسنى من أحسن، وبالسوأى من أساء، حكماً عدلاً، وقولاً فصلاً، فيكون الجزاء للناس من جنس العمل وسنخه، وبهذا تتحقق آلاء الله ونعمه حينما يكافىء كل ذي حق، ويعاقب كل ذي ذنب، وبذلك تبدو العدالة الإلهية، ويتجلّى مبدأ العدل في أصول الدين.

والإمام عليه السلام يعاود هذا المعنى ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، في صحيفته وفي غير الصحيفة أيضاً، فيصف الله حقّ صفته، ويوحّده حقّ توحيده، ويرى حيازته لملكوت كلِّ شيء كما هو أهله، وقهره بجبروته لكل شيء كما هي عظمته وكبرياؤه وعزّته، وهو يتطلب القرب إليه، ويتوسَّل الاقبال عليه، حتى يلحق بميدان المطيعين، تعبيراً عن طلب القربى المطلقة، والزُّلفى المتميزة لا كسائر الناس، فيقول عليه السلام:

«يَا مَنْ حازَ كُلَّ شيءٍ ملكوتاً، وقهر كل شيءٍ جبروتاً، أولج قلبي فرح الاقبال عليكَ، وألحقني بميدان المطيعين لك»[١].

حتى إذا قارب الليل الانقشاع، وأذن الفجر بالانبلاج، وجدته مناجياً لله بإخلاص التوحيد له، وحصر الاستعانة به، وقصر العبادة عليه، فهو مرشد الضَّال، ومعقل الخائف، وملجأ الصابرين، ولا راحة

---

(١) المجلسي/ بحار الأنوار ٤٦/ ٤٠.

لمن نصب لغيره بدنه، ولا فرح لمن قصد سواه بنيته. وكل أولئك من التوجهات عبارة عن حشد هائل للجماعة الإسلامية بالاعتصام توحيدياً، دون الهزة العاطفية في الاتكال على الناس، والاستعانة بالمخلوقين، فالله وحده هو الملجأ، يقول الإمام عليه السلام:

«يا مَنْ قصدَهُ الضالّون فأصابُوهُ مرشداً، وأمَّهُ الخائفونَ فوجدُوه معقلاً، ولجأ إليه العابدُون فوجدوهُ موئلاً، متى راحة من نصب لغيركَ بَدَنَهُ، ومتى فرح من قصَدَ سواكَ بنيّته. . . .»[1].

وكان الإلتجاء إلى الله سبحانه في الشدائد، والتوجه إليه في النوائب من جوامع ما عرف عنه في الاتكال، وفرائد ما أثر عنه من الانابة، حتى عاد ذلك مدرسة يقتدي بمناهجها القادة، ومنهجاً يهتدي به الروّاد الأوائل. فقد كان مما حُفظ عنه عليه السلام من الدعاء حين بلغه توجّه الطاغية مسلم بن عقبة المري إلى المدينة قوله:

«ربِّ كَم من نعمة أنعمتَ بها عليَّ قلَّ لَكَ عندها شكري، وكم من بليةٍ ابتليتني بها قلَّ لك عندها صبري، فيا مَن قلَّ عندَ نعمتِهِ شكري، فلم يحرمني، وقلَّ عند بلائه صبري، فَلَم يُخذلني، يا ذا المعروف الذي لا ينقطعُ أبداً، ويا ذا النعماءِ التي لا تحصى عدداً، صلِّ على محمّد وآل محمّد، وادفع عنّي شرّه، فإنِّي أدرأ بكَ في نحره، واستعيذ بِكَ من شرّه».

فقدم مسلم بن عقبة المدينة، وكان يقال لا يريد غير علي بن

---

(١) المجلسي/ بحار الأنوار ٤٦/ ٤٠.

الحسين عليه السلام، فسلم منه، وأكرمه وحيّاه ووصله[1].

وطبيعي أن الخلوص لله من كل شائبة، وتجريد الذات من الأسباب إلا سببه، كان الأصل الذي نجا به الإمام ممن أراده بذاته.

إن مفردات الأصول المتقدمة تتحدث ولا شك عن معالم التوحيد الفطري بالطريقة التي ابتكرتها قيادة الإمام الرائدة في محاولة هادفة بالعودة بالمسلم إلى الجذور الأولى في التوجه التوحيدي الخالص.

---

(١) المفيد/ الارشاد/ ٢٧٧.

العودة إلى الجذور الأولى:

وازداد الإمام بصيرة بالواقع اللاّمسؤول، وهو بإزاء صقل الذهنية المعاصرة، وحشد الطاقات الفاعلة الفتية، وتوزيع المهمات الشاقة في الاتجاه الصحيح، فلا أقلّ من العودة بالإنسان والإنسانية إلى الجذور الأولى في الإنابة والخضوع لله الواحد القهّار بأسلوبه الخاص ليقي الحياة القائمة من الاضطراب النفسي المُحدق، والتمزق الداخلي المتواجد، فكرر الإمام الدعوة من جديد إلى الله بأسلوب جديد، يضمن من خلاله التوجه الجديد دون حساسية سياسية، ولمّا كان المناخ القائم ملبّداً بتلك الحساسيات فعليه تكتيكياً الابتعاد عنها قدر المستطاع لئلا يُخنق المشروع في مهده، وهذا ما يقتضي الحيطة والحذر في كل كلمة مسؤولة يُطلقها الإمام، عسى أن لا تؤول في غير مرادها، ولئلا تُستغل بغير مسارها، وكان السبيل إلى ذلك الايغال الرسالي الدقيق في مناخ التوحيد، وحصر أبعاده المتعدّدة في خندق واحد يتبنّى الثناء العاطر على الله كما هو أهله، وإناطة العلل التامة به، وإرجاع الأسباب إليه وحده، وتلك حقيقة الفطرة الإنسانية، فكل علة لا ترتبط به ناقصة، وكل سبب لا يتصل به مجذوذ، وكل وسيلة دونه شلاّء.

إنَّ دساتير الكون الهائلة، وأنظمة الحياة المعقدة إنما يتم تقويمها بشكلها النهائي الثابت في ضمن الإرادة الإلهية النافذة، فلا أمر معها

لسواه، ولا استقلال بذاتيتها عنه، وإنك لتقرأ في كتب الصين واليابان القديمة جداً هذا القول:

«إن إله السماء هو الذي يصرف الأكوان، ويُدبر أمور الإنسان»[1] وهو قول نابع من صميم الفطرة الإنسانية، وإنَّ ما أفاضه زين العابدين عليه السلام نابع - دون ريب - من صفاء فطرته، ومتفجِّر من ينابيع نفسه، فقد ذاب حُباً في الله، وكان ممن اجتباهم الله وأخلصهم فتمثَّل بطريقة دعائه جلال توحيده لله، لينادي المسلمين: هلموا إلى الله في كل جزئية وكليَّة، فله العزّة والآلاء والنعماء والكبرياء وعليه فليتوكل المتوكلون، فالأمر إليه وحده، والحكم له وحده، فهو الحق المتعالي، يفيض ما يشاء من اللطف، وهو أرحم الراحمين.

إنَّ توحيد الإمام يريد أن يخلصنا من الشرك الخفي، فهو يعلمنا باختصار مكثّف أن لا استقلال لنا في شيءٍ مطلقاً في مجريات الحياة، وأحداث الكون، وعوامل التكوين، ويد التوسع والتدبير، التي تساعد جميعها على إفاضة النعم والحياة علينا، وفي ضوئها نستطيع البقاء والتصرُّف، ومن خلالها يتم تسخير الطاقات لنا بمحض إفاضته وإرادته، وما أفاضه علينا إنما كان بفضله تحنناً منه ورحمة، لا استحقاقاً منّا لذلك، بل هو تلطف محض منه تعالى، وما هيأه من الأسباب إنما هو إمداد من فيضه غير المتناهي، فبه وحده تتقوّم الأحداث، وتستنزل الأرزاق، وتتحقق الإرادات، لأنه وحده هو الذي تشخص إليه الأبصار، ومنه وحده ينطلق الأمر، فهو الأول والآخر، وهو الظاهر والباطن، له الأسماء الحسنى والأمثال العليا وحده لا شريك له.

---

(١) أحمد أمين/ التكامل في الإسلام ٤/ ٤.

وبعد هذا كله، وفوق هذا كله، تلمس الدعوة بحنان إلى فهم هذه الأبعاد المجهولة، وتقف بخشوعٍ عند هذه الحدود الصارمة، وتلحظ وأنت باهت إلى هذا التدبير الإلهي بما يؤكده الإمام، ويفيض بكثير من أبعاده في دعائه العظيم الذي علمه أبا حمزة الثمالي.

والحديث عن هذا الدعاء الطويل الشامل الغائص في الحقائق المثلى لا تتسع له المجلَّدات الضخمة فضلاً عن هذا الايجاز، ومعالم توحيد الله فيه ذات جوانب مضيئة مشرقة تستأهل دراسة خاصة أدعو لخوضها الشباب المتحفز الواعي، وهو من الإفاضة بحيث يتعسَّر على الباحث الإلمام بعجائب دقّته، والإحاطة بمضامين عرضه، فهو من آيات الدعاء الخالدة التي لا مثيل لها من قريب أو بعيد، وهو نصٌّ من النصوص التوحيدية العامرة بالإيمان والجلال، الصَّادعة بالتضرّع والخشوع، الناطقة بالانابة والتذلل، الحالمة بالسكون والخشية مما لا مزيد عليه في سواه من مأثور الدعاء، وليس بالاستطاعة البحثية العابرة الوقوف على جملة فقراته المترامية الأطراف، ولكنني أورد بعض شذراته في إناطة التدبير الإنساني إليه مما لا يُشركه به غيره، فهو فيه وله وبه تعالى، وذلك موضوع هذا الجزء من البحث، وهو مما يتعلق به في نظرة الإمام لهذا الملحظ الذي غفل عنه عصره، أو أُريد للعصر التغافل عنه في تخطيط للطواغيت الذين عبدوا دون الله، وهو ملحظ من ملاحظ الصنمية التي حدب الإمام على كسرها وتطويقها وحرص على إفشال مهمتها الغازية للعقول. قال الإمام عليه السلام:

«سيّدي أنا الصَّغير الّذي ربَّيته، وأنا الجاهلُ الذي علّمته، وأنا الضّال الذي هديتَه، وأنا الوضيعُ الذي رفعتهُ، وأنا الخائفُ الذي آمنته،

والجائع الذي أشبعتهُ، والعطشان الذي أرويته، والعاري الذي كسوته، والفقير الذي أغنيته، والضعيف الذي قوّيته، والذليل الذي أعزَزْته، والسَّقيم الذي شفيْته، والسَّائل الذي أعطيتَه، والمُذنِب الذي سَتَرْتَهُ، والخاطىء الذي أقلته، وأنا القليل الذي كثّرته، والمُستضعف الذي نصرتَه، وأنا الطّريد الذي أويته. . . . »[1].

هذا السيل الهادر من آلاء الله على الإنسان، هو الذي يسيره الإمام بين يدي المسلم ليعرف ربّه، ويوحّد خالقه، الذي تنقّل به من حال إلى حال في التربية والعلم والهداية والرفعة والأمن والشبع والري والإكساء، والغنى والعزة والقوة والشفاء والعطاء، والستر والإقالة والكثرة والنصرة والإيواء.

هذه المفردات الواسعة في دلالتها، لا يمكن استيعاب أبعادها، ولا يتأتى للإنسان الساذج إدراك آثارها، ولا على المحصي الدقيق حصر نعمائها، وهي كلها مظاهر وظواهر بوقت واحد تدعو إلى اخلاص العبادة لله، وحصرها به تعالت آلاؤه، وهي كلها إنما يقوم بها الله عزّ وجلّ، ولا قدير على تسييرها وتسخيرها وتفجيرها إلا الله وحده، فما قيمة الأشخاص والآراء والنزعات لتكون بديلاً عن الله فيما خطط له المتسلطون والطواغيت.

إن هذا الإحصاء من الإمام يقتلع جذور الوثنية البديلة من أساسها، ويحطم الصنمية الجديدة على صخرة الواقع الشامخ الذي يُمسك بيد من حديد على الجيل الجديد لينبذ التطرف وهالة القداسة

---

(١) ظ: عباس القمي/ مفاتيح الجنان/ ١٩١.

لدى الحاكمين ويرمي بها في مزبلة التاريخ، ويعود بالإسلام جديداً بعد اندراس موقت، ويعطي الحالة أهميتها في الثبات والنضال للتغيير الثوري، وقد كان على يد الإمام الطيّب المسالم العابد الورع زين العابدين وما أبلغ قول الإمام في الدعاء نفسه متجهاً نحو الله:

«معرفَتي يا مَولاي دليلي عليكَ، وحُبّي لكَ شفيعي إليكَ، وأنا واثقٌ من دليلي بدلالتك، وساكنٌ من شفيعي إلى شفاعتكَ»[1].

يقول الأستاذ أحمد أمين الكاظمي: «إنَّ موضوع معرفة الله تبارك وتعالى، وحالات النفس مع الله جلَّ جلاله لموضوع مهمّ خطير لا يمكن أن يعبر عنه تعبيراً يجلو غوره وحقيقته ما لم يدخل الإنسان نفسه في هذه الحياة الروحية الرفيعة. ولعله يشبه من يريد أن يتصوَّر للأشياء المادية بعداً رابعاً وهو الزمان، وهو بعد لم يقطع شوطاً في الرياضيات العالية والنظرية النسبية، فإن لغة الكلام لا تصلح أبداً لأن تجول في مثل هذه الأمور، وإنَّ موضوعاً عميقاً كهذا فوق متناولها، ولا يمكن للكلمات المشحونة بالصور الحسية أن تعبر عما يعلو على الحس، ويسمو إلى التجريد المحض»[2].

أمَّا النفوس القدسية التي تدعو بملكات روحانية خاصة، والتي تجرَّدت تجرُّداً خالصاً لله وحده، فهي المؤهلة وحدها لخوض غمار هذا المحيط المتلاطم، وكانت نفس هذا الإمام العظيم من أبرز المصاديق العليا لهذا الصفاء القدسي الوضّاء.

---

(١) ظ: عباس القمي/ مفاتيح الجنان/ ١٨٧.

(٢) أحمد أمين/ التكامل في الإسلام ٤/ ٧٢.

وإذا ودَّعنا دعاء أبي حمزة الثمالي، واتجهنا صوب الصحيفة السجادية عوداً على بدء، فسنجدها لا تكاد تخلو في شتى أدعيتها عن هذا الضوء الكاشف لآلاء الله، وعن إبراز مظاهر التعظيم لله لأنه أهله، وعن تسيير الحمد له مع عدم الإحاطة بحدوده، حتى يكون ذلك الحمد: **«حَمْداً لا منتهى لِحَدّه، ولا حِسابَ لِعَدَدِهِ، ولا مَبلغَ لغايتِهِ ولا انقطاعَ لأَمَدِهِ، حَمْداً يكونُ وَصْلةً إلى طاعتِهِ وعَفوْه، وسَبباً إلى رِضوانِهِ، وَذَرِيعةً إلى مَغْفِرَتِهِ، وطَرِيقاً إلى جَنَتِهِ، وخَفِيراً من نِقمَتِهِ، وأمناً من غَضَبِهِ، وظَهيراً على طَاعَتِهِ، وحَاجزاً عنْ معَصِيَتِهِ، وعوناً على تَأدِيةِ حَقّهِ وَوَظَائِفِهِ»**[1].

كلُّ هذا الحمد من أجل غاية قصوى يصل بها الإمام إلى صهر القلوب في عظمة الله، وتفرغ الأبدان لشكر نعمة الله، وانطلاق الألسنة في وصف منّة الله.

قال الإمام: **«اللهمَّ صلِّ على محمد وآله، واجعل سلامة قُلُوبنا في ذكر عَظَمَتِكَ وفَرَاغَ أبدانِنا في شُكْرِ نِعْمَتِكَ، وانْطِلاقَ ألسِنتِنَا في وَصفِ مِنَّتِكَ»**[2].

والإمام في مقام التوحيد يسرج أضواء التحميد لبيان الفيض الإلهي غير المحدود على البشرية، من مختلف زوايا اللّطف التي خصّ بها الله عباده وعمر الله بها البلاد، وزوّد بها الآفاق من الطاقات والخصائص نوراً وقوتاً وحفظاً، نستدلُّ بذلك على أنها جميعاً بقبضته وهي مطوية بيمينه، في كل الكيفيات وبمختلف الحالات، قال الإمام:

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الأول.

(٢) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الخامس.

لدى الحاكمين ويرمي بها في مزبلة التاريخ، ويعود بالإسلام جديداً بعد اندراس موقت، ويعطي الحالة أهميتها في الثبات والنضال للتغيير الثوري، وقد كان على يد الإمام الطيّب المسالم العابد الورع زين العابدين وما أبلغ قول الإمام في الدعاء نفسه متجهاً نحو الله:

«معرفَتي يا مَولاي دليلي عليكَ، وحُبّي لكَ شفيعي إليكَ، وأنا واثقٌ من دليلي بدلالتك، وساكنٌ من شفيعي إلى شفاعتكَ»[1].

يقول الأستاذ أحمد أمين الكاظمي: «إنَّ موضوع معرفة الله تبارك وتعالى، وحالات النفس مع الله جلَّ جلاله لموضوع مهمّ خطير لا يمكن أن يعبر عنه تعبيراً يجلو غوره وحقيقته ما لم يدخل الإنسان نفسه في هذه الحياة الروحية الرفيعة. ولعله يشبه من يريد أن يتصوَّر للأشياء المادية بعداً رابعاً وهو الزمان، وهو بعد لم يقطع شوطاً في الرياضيات العالية والنظرية النسبية، فإن لغة الكلام لا تصلح أبداً لأن تجول في مثل هذه الأمور، وإنَّ موضوعاً عميقاً كهذا فوق متناولها، ولا يمكن للكلمات المشحونة بالصور الحسية أن تعبر عما يعلو على الحس، ويسمو إلى التجريد المحض»[2].

أمَّا النفوس القدسية التي تدعو بملكات روحانية خاصة، والتي تجرَّدت تجرُّداً خالصاً لله وحده، فهي المؤهلة وحدها لخوض غمار هذا المحيط المتلاطم، وكانت نفس هذا الإمام العظيم من أبرز المصاديق العليا لهذا الصفاء القدسي الوضَّاء.

---

(١) ظ: عباس القمي/ مفاتيح الجنان/ ١٨٧.

(٢) أحمد أمين/ التكامل في الإسلام ٤/ ٧٢.

وإذا ودَّعنا دعاء أبي حمزة الثمالي، واتجهنا صوب الصحيفة السجادية عوداً على بدء، فسنجدها لا تكاد تخلو في شتى أدعيتها عن هذا الضوء الكاشف لآلاء الله، وعن إبراز مظاهر التعظيم لله لأنه أهله، وعن تسيير الحمد له مع عدم الإحاطة بحدوده، حتى يكون ذلك الحمد: «**حَمْداً لا منتهى لِحَدّه، ولا حِسابَ لِعَدَدِهِ، ولا مَبلغَ لغايتِهِ ولا انقطاعَ لأَمَدِهِ، حَمْداً يكونُ وَصْلةً إلى طاعتِهِ وعَفوْهِ، وسَبباً إلى رِضوانِهِ، وَذَرِيعةً إلى مَغْفِرَتِهِ، وطَرِيقاً إلى جَنَتِهِ، وخَفِيراً من نِقمَتِهِ، وأمناً من غَضَبِهِ، وظَهيراً على طَاعَتِهِ، وحَاجزاً عنْ معَصِيَتِهِ، وعوناً على تَأْدِيةِ حَقّهِ وَوَظَائِفِهِ**»[1].

كلُّ هذا الحمد من أجل غاية قصوى يصل بها الإمام إلى صهر القلوب في عظمة الله، وتفرغ الأبدان لشكر نعمة الله، وانطلاق الألسنة في وصف منّة الله.

قال الإمام: «**اللهمَّ صلِّ على محمد وآله، واجعل سلامة قُلُوبنا في ذكر عَظَمَتِكَ وفَرَاغَ أبدانِنا في شُكْرِ نِعْمَتِكَ، وانْطِلاقَ ألسِنتِنَا في وَصفِ مِنَّتَكَ**»[2].

والإمام في مقام التوحيد يسرج أضواء التحميد لبيان الفيض الإلهي غير المحدود على البشرية، من مختلف زوايا اللّطف التي خصّ بها الله عباده وعمر الله بها البلاد، وزوّد بها الآفاق من الطاقات والخصائص نوراً وقوتاً وحفظاً، نستدلُّ بذلك على أنها جميعاً بقبضته وهي مطوية بيمينه، في كل الكيفيات وبمختلف الحالات، قال الإمام:

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الأول.

(٢) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الخامس.

«أَللَّهُمَّ فَلَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا فَلَقْتَ لَنَا مِنَ الإِصْبَاحِ، وَمَتَّعْتَنَا بِهِ مِنْ ضَوْءِ ٱلنهارِ، وَبَصَّرْتَنَا مِنْ مَطَالِبِ الأَقْوَاتِ، وَوَقَيْتَنَا فِيهِ مِنْ طَوٰارِقِ الآفٰاتِ. أَصْبَحْنَا وأَصْبَحَتِ الأَشْيَاءُ كُلُّهَا بِجُمْلَتِهَا لَكَ سَماؤُهٰا وَأَرْضُهَا، وَمَا بَثَثْتَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا، سَاكِنُهُ وَمُتَحَرِّكُهُ، وَمُقِيمُهُ وَشَاخِصُهُ؛ وَمَا عَلاٰ فِي الْهَوَاءِ، وَمَا كَنَّ تَحْتَ ٱلثَّرىٰ»[1].

ثم يؤكد الإمام الحقيقة الكبرى القاضية بتوحيد الله عقلياً واستقرائياً، وهي استقلاله تعالى بالأمر والقضاء، والمنع والإعطاء، فلا شيء لغيره معه، ولا أمر إلاَّ ما قضى، قال الإمام:

«أَصْبَحْنَا فِي قَبْضَتِكَ، يَحْوِينَا مُلْكُكَ وَسُلْطَانُكَ، وَتَضُمُّنَا مَشِيئَّتُكَ، وَنَتَصَرَّفُ عَنْ أَمْرِكَ، وَنَتَقَلَّبُ فِيْ تَدْبِيرِكَ؛ لَيْسَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ إلاَّ مَا قَضَيْتَ، وَلاَ مِنَ الْخَيْرِ إلاَّ مَا أَعْطَيْتَ»[2].

ويورد الإمام بعض صفات الله الذاتية، وبعض صفات الأفعال وانحصارهما به دليل توحيده، ومنار وحدانيته، فهي خالصة له، خاصة به، دائرة عليه. قال الإمام:

«إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلٰهَ إلاَّ أَنْتَ؛ قَائِمٌ بِالْقِسْطِ، عَدْلٌ في الْحُكْمِ، رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ، مَالِكُ الْمُلْكِ، رَحِيمٌ بِالْخَلْقِ»[3].

ويتحدَّث الإمام عن قدرة الله تعالى، وهي من صفات الذات التي

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء السادس.
(٢) الصحيفة السجادية/ من الدعاء السادس.
(٣) الصحيفة السجادية/ من الدعاء السادس.

هي عين ذاته، وينيط بها تذليل الصعاب، وتسبب الأسباب، وإرادة الأشياء، يقول الإمام:

«ذَلَّتْ لِقُدْرَتِكَ ٱلصِّعَابُ، وتَسَبَّبَتْ بِلُطْفِكَ الأَسْبَابُ، وَجَرىٰ بِقُدْرَتِكَ الْقَضَآءُ وَمَضَتْ علَى إرَادَتِكَ الأَشْيَآءُ؛ فَهِي بِمَشِيَّتِكَ دُونَ قَوْلِكَ مُؤْتَمِرَةٌ، وَبِإرَادَتِكَ دُون نَهْيِكَ مُنْزَجِرَةٌ»[1].

ويُعاود هذا الإمام الحكيم تعقيب هذه القدرة المستطيلة بحيث يتقاصر عن ثنيها فيما تشاء كل الإرادات والقدرات والإشاءات، من شتى العوالم المؤتمرة بأمره، فهي وحدها المتحكّم في العوالم، ولا تحكّمَ للعوالم بها، وإنما تنطلق من تلك الكينونة المطلقة التي انطلقت بقوله «كُن فيكون» وهي تنيط كلّ متغيرات الكون حصراً بقدرته وإشاءته وإرادته وحدها لا سواها يقول الإمام:

«فَلاَ مُصْدِرَ لِمَا أَوْرَدْتَ، وَلاَ صَارِفَ لِمَا وَجَّهْتَ، وَلاَ فَاتِحَ لِمَا أَغْلَقْتَ، وَلاَ مُغْلِقَ لِمَا فَتَحْتَ، وَلاَ مُيَسِّرَ لِمَا عَسَّرْتَ، وَلاَ نَاصِرَ لِمَنْ خَذَلْتَ»[2].

والحديث عن هذا الاتجاه عند الإمام بمأثور دعائه، ومزبور بيانه، مترامي الأطراف، بعيد الغور، متسع النطاق، لا يُحاط بأبعاده كافة، ولا يُحصر بنعمائه كلها، وإنما هو غيض من فيض، ونختمه بقوله عليه السلام:

«يَا مَنْ ذِكْرُهُ شَرَفٌ لِلذَّاكِرِينَ، وَيَا مَنْ شُكْرُهُ فَوْزٌ لِلشَّاكِرِينَ، وَيَا

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء السابع.

(٢) الصحيفة السجادية/ من الدعاء السابع.

مَنْ طَاعَتُهُ نَجَاةٌ لِلْمُطِيعِينَ. . صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاشْغَلْ قُلُوبَنَا بِذِكْرِكَ عَنْ كُلِّ ذِكْرٍ، وَأَلْسِنَتَنَا بِشُكْرِكَ عَنْ كُلِّ شُكْرٍ، وَجَوَارِحَنَا بِطَاعَتِكَ عَنْ كُلِّ طَاعَةٍ»[1].

وهذا هو الحبُّ المطلق، والاندماج الحقيقي، والوله المتطاول بذاته تعالى، وهذا التأكيد المضني، والتوجه في المضيِّ نحوه، يوحي بأكثر من دلالة قاطعة في استثمار إيحائه الإلهي في تركيز العقيدة في القلوب، ونبذ الأوهام من الأعماق، وشحذ القرائح والأفكار لاستقبال الوعي النابض بالعقيدة الحقَّة حذر الانحراف.

إنَّ هدف الإمام من وراء هذا كله: هو العودة بالمسلم إلى جذوره الأولى يتلمسها بحرارة وشوق وانبعاث، بعد أن تعرضت تلك الجذور في نفسه إلى الاهتزاز والتراخي.

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الحادي عشر.

محمدٌ في رسالته الإسلامية:

وتحدّث الإمام عن النبوة متمثلة بالرسول الأعظم محمد ﷺ وحكى منّةَ الله به علينا دون الأمم والأجيال بقدرته الكاملة المطلقة المحيطة التي لا يفوتها شيء عَظُم أو لطف، فهو القدير على أعظم الإرادات، وهو القدير على دقائق الإيجاد، فكان من ذلك بل أهم من ذلك أن ختم بالمسلمين الأمم، وبرسالتهم الرسائل، ليجعلهم شهداء على الناس، وقد كثّرهم بعد القلة. قال الإمام:

«وَالْحَمْدُ للهِ الَّذِي مَنَّ عَلَيْنَا بِمُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ دُونَ الأُمَمِ الْمَاضِيَةِ وَالْقُرُونِ السَّالِفَةِ، بِقُدْرَتِهِ الَّتِي لاَ تَعْجِزُ عَنْ شَيْءٍ وَإِنْ عَظُمَ، وَلاَ يَفُوتُهَا شَيْءٌ وَإِنْ لَطُفَ، فَخَتَمَ بِنَا عَلَى جَمِيعِ مَنْ ذَرَأَ، وَجَعَلَنَا شُهَدَآءَ عَلَى مَنْ جَحَدَ، وَكَثَّرَنا بِمَنِّهِ عَلَى مَنْ قَلَّ»[1].

ثم صلّى على محمد ﷺ وخصّه بالصفات المثلى التي وهبها الله له، وبالاجتباء الذي اختاره فيه، فعرّض للمكروه بدنه، وحارب في رضاه أسرته، فأقصى الأدنين، وقربّ الأبعدين استجابة له، ووالى الأبعدين وعادى الأقربين في ذاته، كل ذلك بغية رضاه وطلب رحمته. قال الإمام:

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الثاني.

«أَللَّهُمَّ فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ أَمِينِكَ عَلَى وَحْيِكَ، وَنَجِيبِكَ مِنْ خَلْقِكَ، وَصَفِيِّكَ مِنْ عِبَادِكَ، إمَام ٱلرَّحْمَةِ، وَقَائِدِ الْخَيْرِ، وَمِفْتَاحِ الْبَرَكَةِ، كَمَا نَصَّبَ لأَمْرِكَ نَفْسَهُ، وَعَرَّضَ فِيْكَ لِلْمَكْرُوهِ بَدَنَهُ، وَكَاشَفَ فِي ٱلدُّعَآءِ إلَيْكَ حَامَّتَهُ، وَحَارَبَ في رِضَاكَ أُسْرَتَهُ، وَقَطَعَ فِيْ إحْيَاءِ دِينِكَ رَحْمَهُ، وَأَقْصَى الأَدْنَيْنَ عَلَى جُحُودِهِمْ، وَقَرَّبَ الأَقْصَيْنَ عَلَى ٱسْتِجَابَتِهِمْ لَكَ، وَوَالىٰ فِيكَ الأَبْعَدِينَ، وَعَادَى فِيكَ الأَقْرَبِينَ»[1].

إن هذا التوجُّه الخالص من النبي ﷺ في صد الأقرب لوجه الله، واحتضان الأبعد في سبيل الله، يواكب ذلك الاصطفاء العلوي الذي منحه الله إيّاه، ويتجاوب مع الاجتباء القربي الذي خصه به الله، فالرحمة تتبعه حتى عاد إمامها، والخير يُنسبُ إليه حتى كان قائده، والبركة يدل عليها لأن مفتاحها بيده. وهذا الذي ذكره الإمام من منح الله لنبيه وفتحه عليه، كان نتيجة إلزامية لتبليغه رسالة ربّه ناصباً، ومجاهدته في سبيله أعداءه متعرِّضاً للمكاره، وقد خاصم عشيرته وخاصّته من طواغيت قريش من أجل الدعوة الحقّة، فحارب الأسرة في رضا الله، وقطع بعض أرحامه إحياءً لدين الله، وأبعد أقرباءه لجحودهم الله، وهم القاطعون لرحمه في حقيقة الحال لأنه دعاهم لما يحييهم فما استجابوا، ووصلهم بما يُنجيهم فقطعوا، وقرّب الأباعد لاستجابتهم، فوالى الأبعدين وعادى الأقربين في ذات الله، وهكذا يكون المؤشر عند النبي ﷺ إلهياً لا عاطفياً، وموضوعياً لا سطحياً، فيقرّب من أدناه دينه، ويبعّد من نأت به عقيدته، فلا رحم ولا صلة ولا قرابة إلاّ بالله،

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الثاني.

ولا عداء ولا مجاهدة إلاّ في ذات الله.

وتحدث الإمام عن معاناة الرسول الأعظم ﷺ في التبليغ، ونضاله من أجل الدعوة، ونصحه للأمة، وهجرته الشريفة إلى المدينة، مبتعداً عن موطنه ومسقط رأسه، اعزازاً للدين، واستنصاراً على أهل الكفر، حتى تم له النصر بعون الله وتوفيقه، واستكمل له الفتح بالسعي الحثيث بإشاءته، متقوياً على ضعفه بنصر الله حتى أُفتتحتْ مكة، وكانت كلمة الله هي العليا وكلمة أعدائه هي السفلى. قال الإمام:

«وَأَدْأَبَ نَفْسَهُ فِي تَبْلِيغِ رِسَالَتِكَ، وَأَتْعَبَها بِالدُّعاءِ إِلَى مِلَّتِكَ، وَشغَلَهَا بالنُّصْحِ لأَهْلِ دَعْوَتِكَ، وَهَاجَرَ إلى بِلَادِ الْغُرْبَةِ، وَمَحَلِّ النَّأْي عَنْ مَوْطِنِ رَحْلِهِ، وَمَوْضِعِ رِجْلِهِ، وَمَسْقَطِ رَأْسِهِ، وَمَأْنَسِ نَفْسِهِ؛ إِرَادَةً مِنْهُ لإِعْزَازِ دِيْنِكَ، وَاسْتِنْصَاراً عَلَى أَهْلِ الْكُفْرِ بِكَ، حَتَّى اسْتَتَبَّ لَهُ مَا حَاوَلَ فِي أَعْدَائِكَ، وَاسْتَتَمَّ لَهُ مَا دَبَّرَ فِي أَوْلِيَآئِكَ. فَنَهَدَ إِلَيْهِمْ مُسْتَفْتِحاً بِعَوْنِكَ، وَمُتَقَوِّياً عَلَى ضَعْفِهِ بِنَصرِكَ؛ فغزاهم فِي عُقْرِ دِيَارِهِمْ، وَهَجَمَ عَلَيْهِمْ فِي بُحْبُوحَةِ قَرَارِهِمْ؛ حَتَّىٰ ظَهَرَ أَمْرُكَ، وَعَلَتْ كَلِمَتُكَ؛ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ»[1].

وحين انتهت مهمة الرسول متكاملة، ومثّل دوره القيادي مطمئناً واستجابت له النفوس مؤمنةً، دعا له برفع الدرجة، وعظيم الزُلفة، حتى لا يساوى في منزلة، ولا يُكافأ في مرتبة ملائكية أو بشرية، متعرفاً على أهل بيته والمؤمنين من أمته بحسن الشفاعة كما وعده الله. قال الإمام:

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الثاني.

«أَللَّهُمَّ فَارْفَعْهُ بِمَا كَدَحَ فِيكَ إِلَى ٱلدَّرَجَةِ الْعُلْيَا مِنْ جَنَّتِكَ، حَتَّى لاَ يُسَاوَىٰ فِي مَنْزِلَةٍ، وَلاَ يُكَافَأَ فِي مَرْتَبَةٍ، وَلاَ يُوَازِيَهُ لَدَيْكَ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلاَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَعَرِّفْهُ فِي أَهْلِهِ الطَّاهِرِينَ وَأُمَّتِهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ حُسْنِ ٱلشَّفَاعَةِ أَجَلَّ مَا وَعَدْتَهُ. يَا نَافِذَ الْعِدَةِ، يَا وَافِيَ الْقَوْلِ، يا مُبَدِّلَ ٱلسَّيِّئَاتِ بِأَضْعَافِهَا مِنَ الْحَسَنَاتِ، إِنَّكَ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ»[1].

وتناول الإمام قيادة الرسول الأعظم ﷺ من جانبٍ يتقارب من الوجه الأول في تبليغ الرسالة صادعاً بأمر الله، ناصحاً لعباده، ملتمساً إنجاز ما وعده من المقام المحمود يوم القيامة قرباً وشفاعةً وقدراً وجاهاً. قال الإمام:

«أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ كَمَا بَلَّغَ رِسَالَتَكَ، وَصَدَعَ بِأَمْرِكَ وَنَصَحَ لِعِبَادِكَ. أَللَّهُمَّ اجْعَلْ نَبِيَّنَا صَلَوَاتُكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَقْرَبَ النَّبِيِّينَ مِنْكَ مَجْلِساً، وَأَمْكَنَهُمْ مِنْكَ شَفَاعَةً، وَأَجَلَّهُمْ عِنْدَكَ قَدْراً، وَأَوْجَهَهُمْ عِنْدَكَ جَاهاً»[2].

وأكّد الدعاء له بمنازل الآخرة والدنيا، وشرف البنيان، وعظم الرهان، وتقبل الشفاعة، وإتمام النور، ورفع الدرجة؛ واستوفى الحديث عن الأحياء على سنته، والوفاة على ملته، والسيرورة على سبيله، والحشر في زمرته، وورود مشربه، وسقيا كأسه، وما يدور في هذا النحو، يقول عليه السلام:

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الثاني.

(٢) الصحيفة السجادية/ من الدعاء السابع والأربعين.

«أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَشَرِّفْ بُنْيَانَهُ، وَعَظِّمْ بُرْهَانَهُ، وَثَقِّلْ مِيزَانَهُ، وَتَقَبَّلْ شَفَاعَتَهُ، وَقَرِّبْ وَسِيلَتَهُ، وَبَيِّضْ وَجْهَهُ، وَأَتِمَّ نُورَهُ، وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ، وَأَحْيِنَا عَلَى سُنَّتِهِ، وَتَوَفَّنَا عَلَى مِلَّتِهِ، وَخُذْ بِنَا مِنْهَاجَهُ، وَاسْلُكْ بِنَا سَبِيلَهُ، وَاجْعَلْنَا مِنْ أَهْلِ طَاعَتِهِ، وَاحْشُرْنَا فِي زُمْرَتِهِ، وَأَوْرِدْنا حَوْضَهُ، وَاسْقِنَا بِكَأْسِهِ»[١].

وعرض الإمام في دعائه هذا حقيقة الصلاة عليه في ما يأمل من خير الله وفضله وكرامته، وحقيقة جزائه بما بلَّغ من الرسالة، وأدَّى من الآيات، ونصح للعباد، وجاهد في سبيل الله، ليذكر الناس بعظيم ما بذله من التضحيات، وجليل ما عرض له من المشاق، وفرط ما سبق له من المجاهدة، ومساحة ما أنجز من المكتسبات صابراً ومحتسباً، فقال:

«وَصَلِّ اللّهُمَّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ صَلاةً تُبَلِّغُهُ بِهَا أَفْضَلَ مَا يَأْمُلُ مِنْ خَيْرِكَ وَفَضْلِكَ وَكَرَامَتِكَ، إنَّكَ ذُوْ رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ، وَفَضْلٍ كَرِيمٍ. أَللَّهُمَّ اجْزِهِ بِمَا بَلَّغَ مِنْ رِسَالاتِكَ ، وَأَدَّىٰ مِنْ آيَاتِكَ، وَنَصَحَ لِعِبَادِكَ، وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِكَ، أَفْضَلَ مَا جَزَيْتَ أَحَداً مِنْ مَلاَئِكَتِكَ الْمُقَرَّبِينَ، وَأَنْبِيَائِكَ الْمُرْسَلِينَ الْمُصْطَفَيْنَ، وَٱلسَّلاَمُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ ٱلطَّيِّبِينَ الطّاهِرِينَ وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ»[٢].

وفي ملحظ جديد من الصلاة على نبيه المنتجب المصطفى

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الحادي والأربعين.
(٢) من الدعاء الحادي والأربعين.

المقرَّب المكرم، يزف الإمام أفضل صلوات الله، وأتم رحماته، وأمتع بركاته[1].

ويتابع الإمام ذلك بقوله: «رَبِّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ صَلاَةً زَاكِيَةً لاَ تَكُونُ صَلاَةٌ أَزْكَىٰ مِنْهَا، وَصَلِّ عَلَيْهِ صَلاَةً نَامِيَةً لاَ تَكُونُ صَلاَةٌ أَنْمَىٰ مِنْهَا، وَصَلِّ عَلَيْهِ صَلاَةً رَاضِيَةً لاَ تَكُونُ صَلاَةٌ فَوْقَهَا. رَبِّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ صَلاَةً تُرْضِيهِ وَتَزِيدُ عَلَى رِضَاهُ، وَصَلِّ عَلَيْهِ صَلاَةً تُرْضِيكَ وَتَزِيدُ عَلَى رِضَاكَ لَهُ، وَصَلِّ عَلَيْهِ صَلاَةً لاَ تَرْضَىٰ لَهُ إلاَّ بِهَا وَلاَ تَرىٰ غَيْرَهُ لَهَا أَهْلاً. رَبِّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ صَلاَةً تُجَاوِزُ رِضْوَانَك، وَيَتَّصِلُ اتِّصَالُهَا بِبَقَائِكَ، وَلاَ يَنْفَدُ كَمَا لاَ تَنْفَدُ كَلِمَاتُكَ. رَبِّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ صَلاَةً تَنْتَظِمُ صَلَوَاتِ مَلاَئِكَتِكَ وَأَنبِيآئِكَ وَرُسُلِكَ وَأَهْلِ طَاعَتِك، وَتَشْتَمِلُ عَلَى صَلَواتِ عِبَادِكَ مِنْ جِنِّكَ وَإِنْسِكَ وَأَهْل إجَابَتِكَ، وَتَجْتَمِعُ عَلَى صَلاَةِ كُلِّ مَنْ ذَرَأْتَ وَبَرَأْتَ مِنْ أَصْنَافِ خَلْقِكَ. رَبِّ صَلِّ عَلَيْهِ وَآلِهِ صَلاَةً تُحِيطُ بِكُلِّ صَلاَةٍ سَالِفَةٍ وَمُسْتَأْنَفَةٍ؛ وَصَلِّ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ صَلاَةً مَرْضِيَّةً لَكَ وَلِمَنْ دُونَكَ، وَتُنْشِيءُ مَعَ ذَلِكَ صَلاَةً تُضَاعِفُ مَعَهَا تِلْكَ الصَّلَوَاتِ عِنْدَهَا، وَتَزِيدُهَا عَلَى كُرُورِ الأَيَّامِ زِيَادَةً فِي تَضَاعِيف لاَ يَعُدُّهَا غَيْرُكَ»[2].

ويتضح تعداد هذه الأصناف من الصلوات على نبيّه شموليتها للكائنات المرئية وغير المرئية، واستيعابها لأبعاد الصلوات المتقبلة من شتى وجوهها، وإفاضتها لمزيد الرضا من جوانبها المتعددة، فقد تنوّع

---

(١) ظ: الصحيفة السجادية/ من الدعاء السادس والأربعين.
(٢) الصحيفة السجادية/ من الدعاء السادس والأربعين.

الإمام بإزجاء فيض هذه الصلوات في ظواهر دلالية وبيانية يمكن إجمالها بالآتي:

١ ـ **في نوعية الصلاة**: أنها في الغاية القصوى في التزكية والاجتباء.

٢ ـ **في تقبل الصلاة**: كونها مرضية لا صلاة فوقها، فهي ترضيه وتزيد على رضاه، وهي ترضي الله تعالى وتزيد على رضاه، وهي لا يرتضيها الله إلا له، فليس لها أهل سواه، والصلاة في هذا المستوى ـ والحالة هذه ـ صلاة جامعة مانعة مختصة به، ومقتصرة عليه.

٣ ـ **في عطاء الصلاة**: كونها في ذروة النَّماء وقمة العطاء.

٤ ـ **في حدود الصلاة**: كونها صلاة تجاوز في حدودها رضوان الله تعالى، ويتصل اتصالها بدوام بقائه، اللامحدود، وبكلماته التامة التي لا تنفد.

٥ ـ **عمومية الصلاة**: كونها تنتظم صلوات الملائكة والأنبياء والرسل وأهل الطاعة وتشتمل على صلوات الجن والإنس وأهل الإجابة، وتجتمع على صلاة كل من ذرأ الله من خلقه وكائناته الحية.

٦ ـ **إحاطة الصلاة**: كونها صلاة تحيط بكل صلاة سالفة ومستأنفة فهي تستقطب قديم الرحمة وحديث الكرامة، وبهذا فهي تجمع إلى جنب اللاّحق السابق، وإلى مصاف التليد الطريف لأنها مرضية لله فمن دونه، وهكذا تنشأ عنها صلاة تتضاعف بركاتها، وتترسخ رحماتها بمرور الزمن فتزداد إحاطة وتضاعيف وأرقاماً لا يعدّها إلا الله تعالى.

والظاهرة المتوافرة في هذه النصوص وسواها من الأدعية الأخرى

تأكيدها تواتر الصلاة على محمد وآل محمد في كل فقراتها الصلواتية بشكل ملحوظ ومقصود إليه في ذاته، وكأن محمداً وآله حقيقة واحدة غير قابلة للانفصال، وهما كيان متحد لا يجوز تجزأته، فلا يذكر رسول الله بالصلاة عند الإمام ـ إلا بضمٍّ آله إليه، كما صلى الله على إبراهيم وآل إبراهيم من ذي قبل، وآل الرسول هنا هم بخاصة الأئمة الاثنا عشر عليهم السلام وبضعته الزهراء عليها السلام.

لأنهم صفوة الكون، وخلاصة العالم، ودعاة الإسلام ومراجعه، كما سترى ذلك في المبحث الآتي بإذن الله.

مرجعية أهل البيت:

وتناول الإمام في مأثور دعائه أهل البيت عليهم السلام باعتبارهم ولاة الأمر وأئمة الأمة، لا باعتبار الرحم والقرابة وإذ عادى الإمام من هم أقرباؤه في ذات الله، وصافى الأبعدين في ذات الله أيضاً، وهذا هو المعلوم من سيرته، والمعهود في تعاليمه، فالمقرَّبون له أولياء الله، والمبعدّون عنه أعداء الله، حتى قيل فيه وفي أهل بيته، وهو لأبي فراس الحمداني:

كَانتْ مَوَدّةُ سَلْمَانٍ لَهُمْ رَحِماً   وَلَمْ يَكُنْ بَينَ نُوحٍ وابنهِ رَحِمُ

إلاّ أن الحال مختلفة مع أهل البيت في قرباهم، فهُمُ المنزهون وهُمُ المخلصون الّذين اصطفاهُمُ الله واجتباهم حتّى كان أجر الرسالة لو سئل هو مودة ذي القربى، فقال تعالى معلماً نبيه: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[1] والمراد بهذه القربى في المنظار الأخص بالزهراء والمعصومون الاثنا عشر عليهم السلام. لذلك كان الأصل موالاتهم والبراءة من أعدائهم، وأن الأعمال يُناط قبولها بهذا الملحظ الدقيق، فهي مشترطة بالولاية وإقرارها لمن لهم الولاية الإلهية المطلقة باعتبار الإمامة امتداداً للنبوّة، وباعتبار الأئمة حملة الرسالة بعد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأداة التبليغ وصنو القرآن العظيم وعدله بدليل الحديث المتواتر عن

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٣.

النبي ﷺ في ما أخرجه الترمذي، وأورده ابن الأثير بصيغتين[1]:

الأولى: عن جابر بن عبد الله الأنصاري فإنه قال:

«رأيت رسول الله ﷺ يقول في حجَّة الوداع يوم عرفة، وهو على ناقته القصواء يخطب، فسمعته يقول: «إني تَرَكْتُ فِيكُمْ ما إنْ أَخَذْتُم بِهِ لن تَضَلّوُا: كِتابَ اللهِ وَعِترَتي أَهْلَ بَيتِي».

الثانية: عن زيد بن أرقم، قال: قال رسول الله ﷺ:

«إني تَارك فِيكُمْ ما إنْ تَمَسكْتُمُ بِهِ لَنْ تَضِلوّا بَعْدِي، أَحَدُهُما أعظمُ مِنَ الآخَرِ، وَهُوَ كتابُ اللهِ حَبْلٌ ممدودٌ من السمَاءِ إلى الأَرْضِ، وَعِتْرتَي أهلَ بَيتِي، لنْ يَفْتَرِقَا حتى يَردا عليّ الحوضَ، فانظرُوا كَيفَ تَخْلِفُوني فِيهما».

والتحقيق أنهما حديثان منفصلان يؤكدان على حقيقة واحدة، وهي استخلاف النبي ﷺ للثقلين الكتاب والعترة، ومن هذا المنطلق يتحدث الإمام زين العابدين عليه السلام عن أهل البيت، فيقول:

«رَبِّ صَلِّ عَلَى أَطَايبِ أَهْلِ بَيْتِهِ الَّذِينَ اخْتَرْتَهُمْ لأَمْرِكَ، وَجَعَلْتَهُمْ خَزَنَة عِلْمِكَ، وَحَفَظَةَ دِينِكَ، وَخُلَفَاءَكَ فِي أَرْضِكَ، وَحُجَجَكَ عَلَى عِبَادِكَ، وَطَهَّرْتَهُمْ مِنَ الرِّجْسِ وَالدَّنَسِ تَطْهِيراً بِإرَادَتِكَ، وَجَعَلْتَهُمُ الْوَسِيْلَةَ إلَيْكَ، وَالْمَسْلَكَ إلَى جَنَّتِكَ»[2].

هذا النص على إيجازه يعطي لأهل البيت مفهوماً خاصاً واسعاً،

---

(١) ابن الأثير/ جامع الأصول ١/ ١٨٧، مطبعة السنة المحمدية/ القاهرة/ ١٩٤٩ م.

(٢) الصحيفة السجادية/ من الدعاء السادس والأربعين.

تتجلَّى فيه منزلة الأئمة، وتتحقق به خصائصهم الرسالية المستطيلة، فلا يُشاركهم فيها أحد من المسلمين، ولا يصل إلى دقائقها غيرهم من السابقين، وذلك أن هذه المميزات المبرمجة تجعلهم بحيث هم من المنزلة الخاصة التي تتولى إدارة شؤون الولاية الإلهية الحقَّة، وتنفرد ـ واقعاً ـ بقيادة الأمة دون الوجه الرسمي، وتهدي إلى لحاظ الاجتباء المطلق لمنصب الإمامة فيما ينبغي له من خصائص التفرُّد، ومتحدثة عن أسرار الاستمرارية لجوهر الرسالة بهذا الاستخلاف العريض الذي لم تجتمع مفرداته الهائلة إلا بتلك الصفوة المختارة من عباده المقرَّبين، وهي كما في النص تنحلّ إلى:

١ ـ الاختيار من الله للقيام بأمر الله صيانةً لدينه، وتبليغاً لرسالته.

٢ ـ الجعل التكويني لهؤلاء الولاة المقرَّبين منه جعلاً مركزياً تنطلق منه أشعَّة علمه في الآفاق، وعلم الله غير محدود، وعلمهم بإفاضته تعالى غير محدود لأنهم خزنة هذا العلم فهو منه إليهم ومنهم إلى الناس.

٣ ـ وصفهم الإمام بأنَّهم حفظة دين الله، وهذا الوصف يعني باللازم أمرين مهمين الأول: إنهم الأُمناء الذين يستحفظون هذا الدين فعند الأمين لا يستحفظ، وقد دلّ الاستقراء الذاتي لسيرة كل إمام بأنه المثال الأمانتي الأرقى في شؤون الدنيا والدين.

الثاني: دليل إحاطتهم بالتشريع الإسلامي في جزئياته وحيثياته كافة، لا يزيدون عليه، ولا ينقصون منه، فلا سبيل للأهواء، ولا طريق للعواطف، ولا تغيير ولا تبديل ولا إضافة، وهذا شأن الحافظ للدين.

٤ ـ اعتبارهم عليهم السلام خلفاء الله في أرضه بما لحقيقة الاستخلاف من متطلبات في القيام بالأمر، وإعمار الأرض، وإجراء الحياة، والطريق الموصل إلى الله بأدقِّ المعاني وأشملها التي تستقطب ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[١] مضافاً إلى قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾[٢].

٥ ـ وصفهم عليهم السلام بأنهم حجج الله على العباد، حيث نصبهم أعلاماً لدينه، ورمزاً شاخصاً للتبصُّر بحقائق الإسلام، وحصناً منيعاً لردّ عادية التشكيك والكفر والإلحاد، فهم الحجج الذين يُؤخذ منهم الدين، وهم أيضاً: الحجج الذين يحتجُّ بهم على العباد لئلا تكون للناس على الله حجة، فلما نصبهم لذلك كانت الحجة له على الناس.

٦ ـ تناول الإمام تطهيرهم عليهم السلام من الرجس ترجمة لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[٣] وهذا التطهير كان بإرادة الله تعالى، وهي الإرادة التكوينية التي جَبَل عليها أهل البيت بالتطهير من الرِّجس في دلالته كافة، وإطلاق دليل عدم تقييده بمصداق خاص أو محدَّد، وبذلك تدل الآية على العصمة العلمية والعملية لأئمة أهل البيت عليهم السلام، بمعنى أنهم مع الحق اختياراً وتوفيقاً، فهم يعلمون الواجبات ويعملون بها أداءً، وهم يعلمون المحرمات فلا يفعلونها ابتداءً وانتهاءً، وهم يسلكون بذلك سلوك العالم

---

(١) سورة البقرة: الآية، ٣٠.

(٢) سورة الأعراف: الآية، ٦٩.

(٣) سورة الأحزاب: الآية، ٣٣.

بجزئيّات التكاليف أمراً ونهياً فيؤدي ما توجب عليه منها بمحض اختياره وتوفيق الله لهذا الأداء، وهو يمتنع عن زواجره ونواهيه بمحض اختياره وتوفيق الله عزَّ وجلَّ، وبذلك تقترن الإرادة التكوينية الخاصة بهم في هذا الملحظ بالإرادة التشريعية التي يشترك معهم فيها الناس كافة، فهم لا يفعلون ما يفعلون جبراً بل بإرادة منهم، وهم لا يمتنعون عما يمتنعون عنه جبراً بل بإرادة منهم أيضاً، ولكن هذه الإرادة بتسديد ربَّاني كونهم من المصطفين الأخيار، وتلك إرادة الله تعالى في الاجتباء وهو مما امتازوا به عن العالمين لأنهم خزنةُ العلم، وحفظة الدين، وخلفاء الله في أرضه وحججه على عباده، ولمَّا ارتضاهم للقيام بأمره، بعد نبيه ﷺ باعتبارهم أوصياءه كانوا هكذا، وهنا يتجلّى الفرق بين العصمة والعدالة اللذين قد يلتبس أمرهما على الكثيرين، فالعصمة إرادة تكوينية خُصَّ بها المخلَصون بفتح اللاّم، فهي ليست من باب الملكات التي تتغير وتتحول وقد تزول، والعدالة اِستقامة في الشريعة توجب الامتناع عن المحرمات وأداء الواجبات ولكنها قد تتعرَّض للزوال، ولكنها أيضاً تعود بالتوبة، وذلك إذا اقترف العادل بعض الكبائر أو الصغائر المنصوص عليها في كتب الفقه وعلم الكلام، بأن طالبته نفسه بارتكاب هذه المآثم، فإنه يستغفر الله ويتوب فتعود عدالته، فهي معرضّة إذاً للارتفاع والعودة، وليست العصمة كذلك، فإن نفس المعصوم لا تنازعه في هوى، ولا توقعه في معصية، فلا تهاون عنده في واجب، ولا رضوخ لديه إلى محرَّم، لأنه في مقام هداية الناس، «وفاقد الشيء لا يعطيه» كما يقال. وعصمتُهُ علميةٌ عَمليةٌ.

هذا على سبيل الإشارة وليس على سبيل البحث إذ موضعه غير

هذا من كتب الكلام[1].

٧ ـ وقد كان الأئمة عليهم السلام وسيلة إلى الله تعالى، وهو يدعو إلى ابتغاء الوسيلة إليه، ولمّا كانت الصفات المتقدِّمة، والخصائص السالفة، جزءاً من ولايتهم الإلهية، كانوا الوسيلة إليه دون العباد، والمسلك إلى سننه على سبيل الرشاد، فبمتابعتهم يصل السالكون إلى الجنة، وبتوجيههم يتعهدون رياضة النفس فيخلِّصونها من الشوائب، وإذا خلصت النفوس من الشوائب والأوضار العالقة ازدادت قربى من الله، والتصقت زلفى لديه، هذا القرب وتلك الزلفى سبيل الجنة، والأئمة عليهم السلام بما أولوه للعباد من التسديد والوجه الصحيح الخالص كانوا الطريق إلى ذلك متفرِّدين به، لا يتقدمهم سابق، ولا يدرك شأوهم لاحق استئناساً بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾[2].

ولما كان الأئمة عليهم السلام على هذه الشاكلة من الصفاء والجهاد والرياضة دعا لهم الإمام بأصناف العطاء الجزل جزاءً على هذا السلوك الموصل إلى الله، والذائب في الله، والمتكل على الله، والمستعين بالله، قال الإمام عليه السلام:

«رَبِّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ صَلاَةً تُجْزِلُ لَهُمْ بِهَا مِنْ نِحَلِكَ وَكَرَامَتِكَ، وَتُكْمِلُ لَهُمُ الأَشْيَاءَ مِنْ عَطَايَاكَ وَنَوَافِلِكَ، وَتُوَفِّرُ عَلَيْهِمُ الْحَظَّ مِنْ عَوَائِدِكَ وَفَوَائِدِكَ. رَبِّ صَلِّ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ صَلاَةً لا أَمَدَ فِي

(١) ظ: المؤلف/ الفكر الإمامي من النص حتى المرجعية/ ٨٥ ـ ٩٠ + ١١٣ ـ ١٢٨.
(٢) سورة الحديد: الآية، ٢١.

أَوَّلِهَا، وَلاَ غَايَةَ لأَمَدِهَا، وَلاَ نِهَايَةَ لآخِرِهَا؛ رَبِّ صَلِّ عَلَيْهِمْ زِنَةَ عَرْشِكَ وَمَا دُونَهُ، وَمِلْءَ سَمٰاواتِكَ وَمَا فَوْقَهُنَّ، وَعَدَدَ أَرَضِيْكَ وَمَا تَحْتَهُنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ صَلاَةً تُقَرِّبُهُمْ مِنكَ زُلْفىٰ، وَتَكُونُ لَكَ وَلَهُمْ رِضىً، وَمُتَّصِلَةً بِنَظَائِرِهِنَّ أَبَداً»[1].

وهذا الدعاء يستنزل الألطاف الإلهيَّة بأبهى رتبها، وأسمى صورها، فهي تجمع إلى كمال الأشياء فضائل النوافل، وتصطنع توافر النصيب الأوفى لهم من عوائد الله التي لا يتناهى أمرها، وتضيف إلى ذلك صلاة لا أمد لأولها، ولا حدّ لمدَّتها، ولا نهاية لآخرها، وهي بمستوى الثقل والشمولية زنة العرش، وملء السَّماوَاتِ وما فوقها، والأرض وما تحتها وما بينها، ليكون ذلك تشريفاً لهم في القرب المنظور، وتعظيماً لمقامهم في الرِّضا والغبطة، موصلاً بصلاة إثر صلاة أبديَّة.

وهذه العوالم والمعالم لا إحاطة لها إلا بعلم الله، ولا تستنزلها إلاَّ قدرة الله، ولا تسخر أسبابها إلاّ بأمر الله وحده.

ويقف الإمام عند منزلة الإمام المفروض الطاعة، ويعدد من خصائصه ومميِّزاته ما يجمع به إلى جنب مقام الإمام جملة دقائق الإمامة في الولاية الإلهية والاستخلاف الأرضي، وكونه منصوراً بالملائكة، ومؤيَّداً بالعناية الربَّانية، والدعاء له بالنصرة والفتح وتقوية العضد، قال الإمام:

«اَللَّهُمَّ إِنَّكَ أَيَّدْتَ دِينَكَ فِي كُلِّ أَوَانٍ بِإِمَامٍ أَقَمْتَهُ عَلَماً لِعِبَادِكَ،

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء السادس والأربعين.

وَمنَاراً في بِلاَدِكَ بَعْدَ أَنْ وَصَلْتَ حَبْلَهُ بِحَبْلِكَ، وَالذَّرِيعَةَ إِلَى رِضْوَانِكَ، وَٱفْتَرَضْتَ طَاعَتَهُ، وَحَذَّرْتَ مَعْصِيَتَهُ، وَأَمَرْتَ بامْتِثَالِ أَوامِرِه، وَٱلانْتِهَآءِ عِنْدَ نَهْيِهِ، وَأَلاَّ يَتَقَدَّمَهُ مُتَقَدِّمٌ، وَلاَ يَتَأَخَّرَ عَنْهُ مُتَأَخِّرٌ، فَهُو عِصْمَةُ ٱللائِذِينَ، وَكَهْفُ الْمُؤْمِنِينَ، وَعُرْوَةُ الْمُسْتَمِسِكِينَ، وَبَهآءُ الْعَالَمِينَ»[1].

والإمام يؤكِّد في هذه الفقرات الحيّة على ما يأتي:

١ ـ إنَّ الله عز وجل قد أيّد دينه في كل زمان بإمامٍ أقامه علماً تهتدي به الناس، ومناراً تسترشد به العباد في البلاد.

٢ ـ إنَّ هذا الإمام كان من المنزلة بحيث وصل الله حبله بحبله، فكان وسيلة يُتذرَّع بها إلى رضوانه.

٣ ـ إنَّ هذا الإمام مفترض الطاعة من قبل الله تعالى، فأوعد على معصيته بالعقاب، وأمر بامتثال أمره، وأوجب الانتهاء عند نهيه، وهو المتقدِّم في شؤون الدين والدنيا، وإصلاح أمر المعاد والمعاش، فلا يجتازه متقدم، ولا يتأخر عنه متأخر، تعبيراً عن الانقياد المطلق له، والانصياع التام لتعليماته، والانصات إلى فيوضاته، والاقتداء الحثيث بهديه.

٤ ـ إنَّ هذا الإمام أحد سبل الرحمة، ووجوده مظنة البركة، فبه تدرأ الأخطار، وتنال به أسباب النجاة، فهو عصمة اللآئذ واللآجىء، وهو كهف المؤمن والمسلم، وهو العروة الوثقى للمتمسِّك، وهو النور الذي يهتدي بشعاعه العالم، هذا الإمام الذي سبق وصفه يعتبر ولياً لله، ومعنى هذه الولاية هي الولاية الإلهية، فهو يدعو له ـ في ما يلي ـ وقد

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء السادس والأربعين.

يُراد به صاحب الأمر عجّل الله فرجه، لأنه أحد مصاديق مفهوم الولاية من جهة، ولأن التعبير بالولي قد يقصد به الحجّة عَلَيْهِ السَّلَامُ، يقول الإمام:

«اَللَّهُمَّ فَأَوْزِعْ لِوَلِيِّكَ شُكْرَ مَا أَنْعَمْتَ بِهِ عَلَيْهِ، وَأَوْزِعْنَا مِثْلَهُ فِيهِ، وَآتِهِ مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً، وَافْتَحْ لَهُ فَتْحاً يَسِيراً، وَأَعِنْهُ بِرُكْنِكَ الأَعَزِّ، وَاشْدُدْ أَزْرَهُ، وَقَوِّ عَضُدَهُ، وَرَاعِهِ بِعَيْنِكَ، واَحْمِهِ بِحِفْظِكَ، وَاَنْصُرْهُ بِمَلآئِكَتِكَ، وَامْدُدْهُ بِجُنْدِكَ الأَغْلَبِ، وَأَقِمْ بِهِ كِتَابَكَ وَحُدُودَكَ وَشَرَائِعَكَ وَسُنَنَ رَسُولِكَ صَلَوَاتُكَ اللَّهُمَّ عَلَيْهِ وَآلِهِ. وَأَحْيِ بِهِ مَا أَمَاتَهُ الظَّالِمُونَ مِنْ مَعَالِمِ دِينِكَ، وَاجْلُ بِهِ صَدَأَ الْجَوْرِ عَنْ طَرِيقَتِكَ، وَأَبِنْ بِهِ الضَّرَّآءَ مِنْ سَبِيلِكَ، وَأَزِلْ بِهِ النَّاكِبِينَ عَنْ صِرَاطِكَ؛ وَامْحَقْ بِهِ بُغَاةَ قَصْدِكَ عِوَجاً، وَأَلِنْ جَانِبَهُ لأَوْلِيَآئِكَ، وَابْسُطْ يَدَهُ عَلَى أَعْدَائِكَ، وَهَبْ لَنَا رَأْفَتَهُ وَرَحْمَتَهُ وَتَعَطُّفَهُ وَتَحَنُّنَهُ. وَاجْعَلْنَا لَهُ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ، وَفِي رِضَاهُ سَاعِينَ، وَإِلَى نُصْرَتِهِ وَالْمُدَافَعَةِ عَنْهُ مُكْنِفِينَ، وَإِلَيْكَ وَإِلَى رَسُولِكَ صَلَوَاتُكَ اللَّهُمَّ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِذَلِكَ مُتَقَرِّبِينَ»(١).

وممّا تقدم تبدو حيثيات هذا الجزء من الدعاء مختصّة بصاحب الأمر الحجة ابن الحسن عجل الله فرجه حيث تؤكد فقراته على سلطات الإمام الشرعية بملامح لا تصح إلاّ به، ولا تصلح إلاّ به، باعتباره يمثّل خلافة الله في الأرض، وليكون هذا الدعاء شاملاً لأهل البيت كافة، فقد عمم في أجزائه الأولى، وقد خصص في جزئه الأخير، فهو يريد عموم الأئمة في ما سلف، وهو يريد خصوص صاحب الأمر في ما اختتم، وهذا يرجح عندي في أغلب الظن أن المقصود بهذا الحجة عَلَيْهِ السَّلَامُ

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء السادس والأربعين.

بعينه، وصاحب الزمان بذاته، لتكمل بذلك سلسلة مرجعية أهل البيت في حديثه عنهم بصيغة الدعاء، وليبشر المؤمنين بأن الدولة الكبرى قادمة، وذلك منح من الله يستوجب تقرير الشكر على نعمته على الحجَّة، كما يستوجب تقرير الشكر من العباد على تلك النعمة أيضاً، والتي يتوّجها الإمام بالسلطان النصير والفتح اليسير، ولا سلطان إلا لصاحب الأمر، ولا فتح إلا على يديه منذ عهد زين العابدين حتى الظهور، وذلك بالتأكيد على ما يأتي:

١ ـ إعطاء الإمام تلك السلطة الصارمة التي ينتصر بها على أعداء الله في منّ لدّني لا يتوسطه أحد من البشر مع نفوذ ذلك السُّلطان بالفتح بمعناه العسكري والمجازي معاً غير خاضع لتقدير العلة والمعلول في الأسباب والنتائج، بل هو فتح يسير بكل اسماح دون إعسار وعنف.

٢ ـ إفاضة المعونة الإلهية بكل أشكالها وبأوسع مدلولاتها التكوينية مستندة إلى ركن الله الأعزِّ الذي لا ذلّ معه، وتقوية عزيمة الإمام بعين الرعاية المطلقة آخذاً بعضده، وما يعني التعضيد بصورة جمعاء، وتوفير الحماية القصوى للإمام بالحفظ السديد، مؤيداً بنصر ملائكة الله الأبرار الأقوياء، وهو يمدّ بجند الله وقواه الكونية الغالبة لأعدائه، وتلك مواصفات دقيقة من مختصات دولة صاحب الأمر، حيث تنفجر الطاقات الغيبية، وتتجلّى العناية الإلهية لتأييد مسيرة الإمام في إدارة شؤون العالم.

٣ ـ ذلك كلِّه، وأكثر من هذا كله، من أجل أن يقيم الإمام حكومة السماء في الأرض بكتاب الله العظيم، وتطبيق حدود الله وشرائعه في ضوء سنن نبيه، ولم يتأتَ ذلك لأحدٍ، والتواتر يشير بل يصرِّح بتصريف

شؤون ذلك وتدبيره للحجة ابن الحسن أرواحنا فداه.

٤ ـ ويُجسِّد الإمام في تعبيره رسالة الإمام الشرعي الحاكم في إحياء ما أماته الظالمون من معالم الدين، وإظهار حقيقة الدين بإزاحة الصدأ المتراكم على رسومه، ليظهر الدين على الدين كله ولو كره الكافرون، حتى لا يلحق الضير بسبيل من أراد سلوك الطريق إلى الدين القويم بعد أن عاد متَّسماً بالنقاء من الشوائب، وتحقيق ذلك لا يتم إلا بآخر الزمان على يد المنقذ الحقيقي للبشرية عجَّل الله فرجه.

٥ ـ ثم يتناول الإمام أعداء الدين وأولياءه، فيدعو بزوال الحائدين عن الصراط المستقيم ـ وهم يواجهون صاحب الأمر ـ ومحق البغاة الظالمين الذين يحاولون الانحراف عن الدين، كما يدعو بإلانة الجانب وخفض الجناح لأوليائه، ويكرِّس القول ببسط السلطة والنفوذ على أعدائه، ويطلب من الباري أن يهب للمسلمين عطف صاحب الزمان ورحمته ولطفه وتحننه على المسلمين، وأن نكون جميعاً سامعين مطيعين، نسعى في رضاه، وإلى نصرته، ونحيط به للدفاع عنه، متقرِّبين بذلك إلى الله ورسوله، وكفى بهما وسيلة وزلفى.

وبعد أن يودع الإمام الأئمة في هذا الدعاء الضخم، يستدعي أولياء الإمام إلى التمسُّك بآثار هؤلاء الأئمة، ويتوسل إلى الله أن يكون المسلمون على اعتراف بذلك المقام الأسمى، وعلى اتصال مباشر بذلك المنهج الرحيب، وعلى اقتفاء بتلك الآثار، وذلك في شذرات ذهبية توخى بتهيئة الجماعة الصالحة القائلة بالإمامة عقيدةً وعملاً واجتهاداً وانتظار الفرج، فيضع المرء بين يدي رسالته. يقول الإمام:

«أَللَّهُمَّ وَصَلِّ عَلَى أَوْلِيَائِهِمُ الْمُعْتَرِفِينَ بِمَقَامِهِم، الْمُتَّبِعِينَ

مَنهَجَهُمُ، الْمُقْتَفِينَ آثَارَهُمُ، الْمُسْتَمْسِكِينَ بِعُرْوَتِهِمُ، الْمُتَمَسِّكِينَ بِوَلاَيَتِهِمُ، الْمُؤْتَمِّينَ بِإِمَامَتِهِمُ، الْمُسَلِّمِينَ لأَمْرِهِمُ، الْمُجْتَهِدِينَ فِي طَاعَتِهِمُ، الْمُنْتَظِرِينَ أَيَّامَهُمُ، الْمَادِّينَ إِلَيْهِمْ أَعْيُنَهُمُ»[1].

والدلالة الإيحائية في هذا النصّ تنهض بإيجاد الصيغة الواضحة لمفهوم القول بالإمامة، وما يجب أن يكون عليه أتباع الأئمة في الاتّصال بألصق الصفات تأثيراً في الترشيح لأن يكونوا في الخط الأول من اليقين بتمام الخصائص الجدية التي يصبحون من خلالها أتباعاً بالمعنى الدقيق، وهي: الولاء المطلق الخالص، الاعتراف بالكيان الأسمى لمقام الأئمة، الاتباع الحقيقي لمنهجهم، الاقتفاء لآثارهم، التعلق الشديد بعروتهم الوثقى، التمسُّك بولايتهم العظمى، الائتمام بإمامتهم المفروضة شرعاً، الانقياد لأمرهم النافذ تشريعاً، الاجتهاد في طاعتهم بتحمل المشاق والمصاعب، الانتظار لفرجهم وأيام حكمهم الإلهي العادل، قصر النظر عليهم ـ دون سواهم ـ في مدّ الأعين واستطالة الأعناق.

وفي هذا السياق يعبِّر الإمام عن مدى اللوعة والأسى حيناً والبيان والحجاج النقدي حيناً آخر، باستعراض مناصب الأئمة التي احتجنت دونهم، ويؤكد ابتزاز المعنيين لمراتبهم التي رتبها الله لهم، ويعرض للمظلومية الكبرى التي نزلت بهم، ويضع عيد الأضحى ويوم الجمعة في مراسمها، وما فيهما من هداية الناس، وقيادة الأمة، وتوجيه العباد بين يدي حديثه نموذجاً لذلك الابتزاز الذي أُغيرَ فيه على منازل أهل

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء السادس والأربعين.

البيت، باعتبارهما ـ صلاة الأضحى والجمعة ـ مظهراً من مظاهر القيادة، وقد أدليت لأعدائهم، وهي من مختصَّاتهم. يقول الإمام:

«اَللَّهُمَّ إنَّ هَذَا الْمَقَامَ لِخُلَفَائِكَ وَأَصْفِيَائِكَ، وَمَوَاضِعَ أُمَنَائِكَ فِي الدَّرَجَةِ الرَّفِيعَةِ الَّتِي اخْتَصَصْتَهُمْ بِهَا قَدِ ابْتَزُّوهَا وَأَنْتَ الْمُقَدِّرُ لِذَلِكَ، لاَ يُغَالَبُ أَمْرُكَ، وَلاَ يُجَاوَزُ الْمَحْتُومُ مِنْ تَدْبِيرِكَ كَيْفَ شِئْتَ وَأَنَّى شِئْتَ، وَلِمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ، غَيْرُ مُتَّهَمٍ عَلَى خَلْقِكَ ولا لإرادَتِكَ، حَتَّى عَادَ صَفْوَتُكَ وَخُلَفَاؤُكَ مَغْلُوبِينَ مَقْهُورِينَ مُبْتَزِّينَ، يَرَوْنَ حُكْمَكَ مُبَدَّلاً، وَكِتَابَكَ مَنْبُوذاً، وَفَرَائِضَكَ مُحَرَّفَةً عَنْ جِهَاتِ إِشْرَاعِكَ، وَسُنَنَ نَبِيِّكَ مَتْرُوكَةً»(١).

هذا الاحتجاج الهادف يصوّر لنا بكل تأكيد استعداد خلائف الجور، ودعاة الأنظمة الوضعية المتأرجحة، على حقوق الأئمة التشريعية في الفروع، كما تمَّ لهم سلب حقوقهم التكوينية في الأصول، فمقام صلاة الجمعة والعيدين بما يتبعهما من قيام وإمامة، وما يصحبهما من خطب ومواعظ، وما يهدفان له من تذكير بالله وإصلاح للناس، كل ذلك مركزياً لخلفاء الله في الأرض الذين اجتباهم بالمنزلة الرفيعة، كما اصطفاهم لهذه المهمّات وسواها، وجعلها من خصائصهم التي لا يشاركهم بها أحد إلاّ ابتزازاً واقتطاعاً واعتداءً، وقد كان الأمر كذلك إذ اعتدى الخلفاء الرسميون على هذا المقام الخاص، واستولوا عليه باطلاً، وكان ما جرى من هذا الالتفاف المفضوح بعين الله تعالى، مجالاً للاختبار فيه للبشر، ومناطاً للامتحان الذي أخفق فيه الكثيرون،

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء السابع والأربعين.

فقد كان ما وقع على الأئمة من حيفٍ واضطهاد وامتهان بقدر سابق بعلم الله أنهم سيُغلبون ويُقهرون، وكان هذا القدر اختيارياً لا قدر جبر وإلجاء منه تعالى، وقد حدث باختيار القائمين على السلطان، وقد سبق بعلمه وقوعه، وجرى على ذلك في لوح قضائه، غير منتسبٍ له، ولا متعلّق بقهره، بل هو مما استأثر به المبتزون لمقدّرات الأئمة، فهم وحدهم المسؤولون عن هذا الابتزاز، وتلك النزغات التي غيّرت وجه التاريخ، وبدّلت سنن التشريع، وأحدثت في الإسلام ما ليس منه، والله لا يُغلب على أمره، ولا يُتجاور على محتوم تدبيره، فله الأمر كله في التدبير والتكوين والابرام أنى شاء وكيف شاء، ولكن اقتضت عدالة السماء أن لا يترك الناس سدى، وشاءت الحكمة الإلهية أن يعرض الناس على الفتنة والابتلاء لتمحيص أعمالهم عن كثب، ليثيب الله ويعاقب عن حجة دامغة، وهو تعالى وحده العالم بمواطن الصلاح ومعالم الفساد التي اتخذها العباد، فهو غير متّهم على خلقه في التكوين والتشريع، ولا رادّ لإرادته.

كان نتيجة هذا الاختبار الصعب أن ترك الناس ما استنّ لهم الله تعالى، وأَغرقوا في الفتنة إغراقاً عجيباً حتى سقطوا فيها، واتّبعوا أهواءهم دون وازع من عقل أَو دين، فعاد صفوة الله وخلفاؤه في أرضه محكومين لا حاكمين، وكان الأئمة الحق مغلوبين مقهورين مبتزين، يرون حكم الله مبدّلاً، وكتابه منبوذاً مطرّحاً، وفرائضه محرّفة على غير ما استن الشارع المقدَّس، وما استنه الرسول الأعظم(ص) عاد متروكاً لا يعمل به، بكل ذلك نجد الإمام في غير موضع من هذا الدعاء يتَّجه باللعنة على أعداء الأئمة شمولاً واستيعاباً لأن هؤلاء الأعداء مسؤولون

مسؤولية مباشرة عن تضييع الدين، ولا يخصُّهم وحدهم بذلك بل يضمُّ إليهم الراضي بفعالهم وأشياعهم وأتباعهم باعتبارهم شركاء في الجريمة، ومساعدين على اقصاء أهل البيت عن مراتبهم، قال الإمام: **«اللَّهمَّ العن أعداءَهُم من الأوّلين والآخرينَ، ومن رضيَ بفعالِهِم، وأشياعهم وأتباعهم»**[1].

بينما دعا الإمام في قبال ذلك الدعاء للأئمة القائمين على شؤون العدل والخير والرحمة بتعجيل الفرج لهم، والروح والنصرة والتمكين والتأييد، قال الإمام: **«وعجّل الفَرَجَ والروحَ والنَّصرة والتمكين والتأييد لهُمْ»**[2].

وهذا بدليل المخالفة يُوحي بأنهم في شدَّة وضيق، ويقضي بأنهم مغلوبون على أمرهم، لا تمكين لهم في الأرض.

وهذا الوقوف الطويل من الإمام عند منازل الأئمة عليهم السلام والحديث عن مظلوميتهم، والدعاء لهم بالفرج والتأييد الإلهي، يدلُّ بالفعل على أهميَّة هذا الموضوع، وأحقيته بالبحث والتمحيص، فقد وضع الإمام النقاط على الحروف كما يقولون، وأشار إلى مواطن العزة والرفعة للمقام، وصرّح بالظلامة الصارخة على الحقوق واعتبر الأئمة أوّلياء الله على السبيل، اجتباهم للهداية، وجعلهم خلفاءه في أرضه، اشترط لهم الولاية، وأناط بهم صلاح الإسلام.

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء السابع والأربعين.

(٢) الصحيفة السجادية/ من الدعاء السابع والأربعين.

المعاد في يوم القيامة:

ويتحدَّث الإمام عن يوم القيامة واثقاً، ويتناوله بمختلف المناسبات مطمئناً، فهو يخالج نفسه وكيانه، ويمتزج بروحه وتفكيره، حقيقةً ثابتةً لا ريب فيها، وهو يعمل لذلك العمل كلِّه، وهو يطمح أن يكون من ورثة جنَّة النعيم، وهو من الذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة، ومن الذين يسارعون في الخيرات ويستبقون إليها، استعداداً لذلك اليوم؛ يقول الإمام:

«وَاجعلنَا من عِبادِكَ الصَّالحينَ ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1] ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾[2] ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾[3]»[4].

ويضيف الإمام إلى هذا خوف عقاب الوعيد، وثواب اليوم الموعود، وذلك باخلاص التوبة، وقبول المراجعة، والعودة إلى الطاعة.

يقول الإمام: «اللَّهمَّ ارزُقنَا خوفَ عِقَاب الوَعيدِ، وَشوقَ ثوابِ

---

(١) سورة المؤمنون: الآية، ١١.
(٢) سورة المؤمنون: الآية، ٦٠.
(٣) سورة المؤمنون: الآية، ٦١.
(٤) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الثالث والأربعين.

المَوعودِ حتَّى نَجِد لَذَّةَ ما نَدعُوكَ بِه، وكآبةَ ما نَستجيرُكَ منه، وَاجعَلنا عِندَكَ من التوَّابينَ الَّذينَ أوجَبتَ لَهم محبَّتَك، وقَبلتَ منهم مُراجعةَ طَاعتِكَ»[1].

ونجد الإمام يمهد للحديث عن يوم القيامة بعدة ملاحظ، أبرزها ذكر الموت الذي هو أول مشاهد العالم الآخر فيقول:

«سُبحانَكَ قَضيتَ على جَميعِ خَلقِكَ الموت: مَنْ وَحَّدكَ وَمَنْ كَفَر بِكَ، وكلٌ ذائقٌ الموتَ وكُلٌّ صائِرٌ إليكَ، فَتَبارَكتَ وتَعَالَيتَ لاَ إله إلاَّ أنتَ وَحدَكَ لاَ شَريكَ لك. . . »[2].

هذا التمهيد في غمار هذه الحقيقة الكبرى التي لا مناص منها، ولا فرار عنها، يتبعها الإمام بحقيقة مذهلة أخرى تصوِّر هذا الخلق، وقد انقطع من الدنيا أثره، وامَّحى ذكره، وكُتب نسياً منسياً في حياته الأولى، فالصورة ليست الصورة الطَّبيعيَّة فقد تغيرت، والجسم ليس ذلك الجسم فقد بلي، والأعضاء لا زينة فيها ولا رواء معها فقد تفرَّقت، والأوصال لا حيوية بها، ولا اكتناز لديها فقد تقطعت، فهي هي وهي غيرها نتيجة البلى والاندثار والتمزُّق، حينذاك يكون الالتجاء الحق لله الحق ليس غير. والإمام بإزاء هذه المشاهد الهائلة يتوسَّل إلى الله أن يكون مظنَّةً لمواطن الرحمة الإلهية، وأن يكون في زُمرة أولياء الله وأحبائه، وفي جوار الله ومنعته، فهو يجرد من نفسه مثالاً لسائر المؤمنين، ويصوِّر نفسه في موقع غيره من المسلمين، فتلمسه أخاً

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الرابع والأربعين.

(٢) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الحادي والخمسين.

شفيقاً، وأباً رحيماً، وهكذا تجد الصورة متكافئة الأبعاد، يقول الإمام: «**مَولايَ وارْحَمْنِي إذا انْقَطَعَ مِنَ الدنيا أثَري، وامَّحَى مِنَ المَخْلُوقِينَ ذِكْري، وكنتُ مِنَ المَنْسِيينَ كَمَنْ قَدْ نَسِيَ. مَولاي وارْحَمْنِي عِنْدَ تغيُّرِ صُورَتي وَحَالي إذا بَلِيَ جِسْمِي، وتفرَّقت أعْضَائي، وَتَقَطَّعتْ أوْصَالِي، يا غَفْلَتي عَمَّا يُرادُ بِي، مَولايَ وارْحَمْنِي في حَشْرِي وَنَشرِي، واجعلْ في ذَلِكَ اليوم مَعَ أوليائِكَ مَوْقِفي، وفي أحِبائِكَ مَصْدَرِي، وفي جِوارِكَ مَسكَني يا رَبَّ العَالَمِينَ**»[1].

ويطيب للإمام أن يفصح عما في مكنون جوانحه من انتزاع طول الأمل عن مهاوي النفس، والادّراع بالعمل الصادق على الفور دون تسويف، والإعداد لهذا وذاك أولاً بأول بحيث لا يؤمّل استتمام ساعة بعد ساعة، ولا اتصال نَفَس بنَفَس، متصوراً الموت مثالاً نصب عينيه، متحصناً بصالح الأعمال، مستعداً إلى لقاء الله، معتبراً الموت مأنساً، وريادته مأمناً، والاشتياق إليه ديدناً، فيسعد به المرء زائراً، ويأنس به قادماً، فلا يشقى بضيافته، ولا يخزى بزيارته، ومعنى ذلك التهيؤ التام لمقابلة تلك الساعة الحرجة بعوالمها الغيبية المعقّدة، وإذا تحصل ذلك بالاستعداد المبكر، كان الموت ـ بداهةً ـ باب مغفرة ومفتاح رحمة.

قال الإمام عليه السلام: «**اللَّهمَّ صَلِّ عَلى محمَّدٍ وآلِه، واكفِنا طُولَ الأمَلِ، وَقَصِّرهُ عَنَّا بِصِدقِ العملِ حتَّى لا نُؤمّل استتمام ساعة بَعدَ ساعَة، وَلاَ استيفاءَ يَومٍ بَعَدَ يَوم، ولا اتصَالَ نفسٍ بنفسٍ، وَلا لحوقَ قَدَمٍ بِقَدمٍ، وَسَلِّمنَا مِن غرورِهِ، وآمِنّا مِن شُرورِهِ، وأنصِب الموتَ بَين أيدينا نَصيباً، وَلا تجعَل ذكرنا لِه غِبّاً، واجعَل لنا مِن صالح الأعمالِ عملاً نَستَبطئ**

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الثاني والخمسين.

مَعَهُ المَصيرَ إليكَ، وَنَحرص لَه عَلى وَشَكِ اللِّحاقِ بِكَ، حَتَّى يَكونَ الموتُ مَأنسنا الَّذي نَأنَس بِه، ومَألفنا الَّذي نَشتاق إليه، وَحَامَّتنَا الّتي نُحبّ الدنوّ منها، فإذا أورَدتّه عَلينا، وَأنزَلتَه بِنَا، فأسعِدنَا بِهِ زَائراً، وآنِسنَا بِه قادماً. وَلاَ تُشقِنا بِضَيَافَتِهِ، وَلاَ تخزِنَا بزِيَارَتِه، واجعَلهُ باباً من أبوابِ مغفرتِكَ، ومِفتاحاً مِن مَفاتيحِ رَحمَتك، أمِتنَا مُهتَدينَ غير ضَالّينَ، طائِعينَ غَير مُستكرِهين، تَائِبينَ غَيرَ عَاصينَ وَلاَ مُصرّينَ، يَا ضَامِنَ جزاءِ المُحسِنين، وَمُستَصلِحَ عَمَل المُفسِدين»[1].

ويبدو من خاتمة هذا الدعاء التضرُّع الخالص بأن يكون الموت مع الاهتداء لا الضلال، وفي طواعية لا استكراه، وعند التوبة لا المعصية، ولدى الإقلاع عن الذنوب لا الإصرار، هذا الخضوع في الطلب الاسترحامي متجهٌ إلى من ضمن جزاء المحسنين، ومتردد على من يستطيع استصلاح عمل المفسدين، وذلك الله وحده.

ولعلَّ من أروع فصول الإنابة أن يتوجَّه الإمام لله تعالى بالقرآن العظيم في تهوين سكرات الموت، وتنفيس كرب السياق، وتفريج جهد الأنين، وترويج ترادف الحشارج، فيقول:

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلى محمّدٍ وَآلِه، وَهَوِّن بالقرآنِ عِندَ الموت ـ عَلى أنفُسنا ـ كَربَ السّياقِ، وَجهدَ الأنين، وَترادف الحشارج إذا بَلَغت النّفوس التّراقي، وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ، وَتجلّى مَلَكُ الموت لقبضها مِن حُجب الغيُوب، ورَماهَا عَن قوسِ المَنايا بأسهم وَحَشة الفِراقَ، وَداف لَها مَن ذُعافِ المَوتِ كأساً مَسمومةَ المَذاقِ، وَدنا مِنّا إلى الآخرة رَحيلٌ

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء التاسع والثلاثين.

وانطلاق، وَصارَت الأعمال قَلائد في الأعناقِ، وَكانت القُبور هي المأوى إلى مِيقاتِ يَوم التّلاق»[1].

وهذه القطعة الفنية تصوّر في عمق بليغ حسرة الفراق، وشدَّة النزع، ونهاية الأجل، مستخدمة وقع السجع في التركيب الجملي، ليُضاف لوقع الهول في المسار الغيبي، فالموت يتجلى بأفظع صوره وقد بلغت الروح الحلقوم، وتعطل الاستنجاد بالطبيب، وتوقفت الحركة، وسكنت الأجهزة، وتناول المسجّى كأس الموت، يتجرعها غصة بعد غصة، ودنا الالتحاق بالله وكأنَّ الدنيا لم تكن، وطوقت الأعناق بقلائد الأعمال، وآوى الإنسان لقبره إلى يوم يُبعثونَ.

إنها لصورة مرعبة حقاً تجسد نهاية المسيرة للكائن الإنساني في الحياة، وتعبِّر عن مصيره المحتوم؛ وهنا يجب التفريق بين حالة المتقين عند الموت وبين حالة الظالمين في ضوء ما ورد في القرآن الكريم، فإن للمتقين مناخاً نفسياً مريحاً تتلقَّاهم به الملائكة بالبشارة العظمى كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2]، وليس بين وفاتهم والبشارة فاصل زمني بدلالة عدم العاطف بين الجملتين في الآية، فهو موت عنده البشارة.

بينما تتحدَّث آيتان في سورة النحل عن المقصِّرين والظالمين لأنفسهم بالوقت نفسه، فتصور الضغط النفسي والهول المفزع بالوعيد القاتل: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الحادي والأربعين.
(٢) سورة النحل: الآية، ٣٢.

﴿بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٢٨ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾[1].

ويواصل الإمام دعاءه في كشف تلك الكروب، وعرض تلك المشاهد، ويستعين بالله تعالى أن يكون القبر خير المنازل، فيفسح في ضيق لحده، ولا يفضح صاحبه بموبقات آثامه، يقول الإمام عليه السلام:

«اللَّهمَّ صَلِّ عَلى محمَّدٍ وآلِهِ، وَبَارِكْ لَنا في حُلولِ دَارِ البَلى، وطُولِ الإقامَةِ بَين أطباقِ الثَّرى، واجعَلِ القُبورَ بعدَ فِراقِ الدّنيا خيرَ مَنازِلنَا، وأفسح لَنا بِرَحمتِكَ في ضيقِ مَلاَحِدنا، وَلاَ تَفضَحنا في حَاضِري القِيَامة بموبقاتِ آثامنا...»[2].

ويعاود الإمام طلب الرحمة بالقرآن في يوم المعاد، ويستجير بعزِّه من ذلّ المقام، ويتوسل أن يثبت به عند اضطراب الجواز، وزلل الأقدام، وأن تنوّر به ظلمات القبور قبل البعث، وينجّى به من كل كرب عند الساعة، وشدائد أهوال القيامة، وبياض الوجه يوم الحسرة والندامة، يقول الإمام:

«وَارحَم بالقُرآن في مَوقِف العَرضِ عليك ذُلَّ مَقامِنَا، وَثبّت بِهِ عِندَ اضطرابِ جسرِ جَهنَّم يَومَ المَجازِ عَليها زَللَ أقدامِنَا، وَنوّر بِهِ قَبلَ البَعثِ سُدَفَ قُبورنا، وَنجِّنا بِهِ من كُلِّ كَربٍ يَومَ القِيامةِ، وَشَدائِد أهوَالِ يَومِ الطَّامَّةِ، وَبَيِّض وُجُوهنَا يومَ تَسودّ وُجوه الظَّلَمة في يَومِ الحَسرَةِ وَالندامة،

(١) سورة النحل: الآيتان، ٢٨ ـ ٢٩.

(٢) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الحادي والأربعين.

وَاجعَل لَنا في صُدورِ المُؤمنينَ وِدّاً، وَلا تَجعلَ الحَياةَ عَلَينَا نَكَداً»[1].

ويعرض الإمام بأصالة وموضوعية إلى مقدمات يوم القيامة حتى العرض والحساب، منذراً تارة ومخوِّفاً تارةً أخرى، داعياً مرة ومرشداً مرة، مبيِّناً حيناً ومفصلاً أحياناً، يبدأ ذلك بمواعظه الزاجرة، وينهيه بالملحظ الغيبيّ المرتقب، وكما هي عادته بليغاً ولا يتلكأ، وزاهداً لا يتصنَّع، وداعياً لا يتزلزل.

يقول الإمام في إحدى مواعظه القيِّمة:

«أيّها النَّاس: اتَّقوا الله، وَاعلموا أنَّكم إليه رَاجعُون، فـ ﴿تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾[2].

«وَيحَك ابنَ آدَم الغَافِل، وَلَيسَ مغفولاً عَنهُ، إنَّ أجَلكَ أسرعُ شَيءٍ إليك، قَد أقبَلَ نَحوَك حَثيثاً يَطلبُكَ، وَيُوشَك أن يُدركَكَ، فَكأنَّ قد أوفيت أجَلَك، وقَد قَبضَ المَلك روحَك، وصُيِّرت إلى قَبركَ وَحيداً، فَردّ إليكَ رُوحَك، واقتحَم عَليكَ مَلكان: مُنكر وَنكير لمسألتِكَ، وشديد امتحانكَ، ألا وَإنَّ أوَّل ما يسألانَك عن رَبِّك الَّذي كُنتَ تَعبده، وَعَن نَبيكَ الَّذي أُرسلَ إليكَ، وَعن دينكَ الَّذي كنتَ تُدين بِهِ، وَعَن كِتابِكَ الَّذي كُنتَ تتلوه، وَعن إمامِكَ الَّذي كُنتَ تَتولاَّه، وَعن عُمركَ فيما أفنَيته، وَعن مالكَ مِن أين اكتسبته، وفيما أنفقته؛ فخُذ حِذرَكَ وانظر

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الحادي والأربعين.

(٢) سورة آل عمران: الآية، ٣٠.

لِنفسكَ، وأعدَّ الجوابَ قبلَ الامتحانِ والمسألة والاختِبار، فإن تكُن مُؤمناً عَارفاً بدينكَ، مُتّبعاً للصَّادقينَ، مُوالياً لأولياءِ الله لقَّنك الله حُجَّتك، وَأنطقَ لِسانَكَ بِالصَّواب، فأحسنْتَ الجَوابَ، وَبُشّرتَ بالجنَّة والرضوان مِنَ الله، وَاستَقبلتكَ المَلائِكة بالروحِ والريحانِ، وَإنْ لم تَكن كذلِكَ تَلجلَجَ لِسانكَ، وَدُحِضَت حُجّتكَ، وَعييّتَ عَنِ الجَوابِ، وبشِّرتَ بالنَّارِ، وَاستَقبَلتك مَلائكةُ العَذاب بنُزلٍ من حميم، وَتصلية جحيم»[1].

وهنا تتفجر العودة بالوعي الغيبي إلى ذهن الإنسان، فتصقل من روحه، وتجلو صدأ السنين عما حوله، راجعاً إلى الله شاء أو أبى، فهو وإن غفل فليس مغفولاً عنه؛ الأجل مسرع الخطوات، فكأن قد استوفيت المدَّة، والموت حثيث في الطلب فكأن قد انقضت الأيَّام، وما هي إلا لحظات وإذا بالروح تتحرَّر من البدن، وإذا بالبدن جثة هامدة، وإذا بالقبر يستقبل المرء وحيداً، وتعود إليه الروح في نحو ما في مساءلة دقيقة تستقطب مرافق حياته الأولى في شؤون الدين والدنيا: الكتاب، الإمام، الإيمان، العمر، المال، فتتموج الأحلام شعلة جديدة، وتتجدد الأماني قوة وجاذبية، وتتحرَّك النفوس قوةً وضعفاً؛ ولكنها: أحلام حياة أخرى، وأمانيّ عالم ثانٍ، ونفوس الخوف والرجاء، في حديث مروّع عن عالم البرزخ بما أكَّده القرآن الكريم، وروته السنة الشريفة، حتى يعود القبر ـ كما تقول الرواية ـ روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حُفر النيران.

وهنا تتجلّى حقيقة الفرز المضني بين الحجة الناطقة لدى

---

(١) ابن شعبة/ تحف العقول/ ٢٤٩.

المؤمن، وبين تلجلج اللسان ودحض الحجة لدى أعداء الله، فالمؤمن يبشّر بالجنّة والرضوان، وأولئك يستقبلون العذاب والخزي، وفي أعقاب هذا المشهد ما هو أعظم وأفظع من حياة البشر. يقول الإمام:

«وَاعلم يا بن آدم أنَّ ما وراءَ هذا أعظمُ وأفظعُ، وأوجَعُ للقلُوب يَومَ القِيامة ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾[1]، يجمَعُ الله فيه الأوَّلينَ والآخِرينَ، يومَ يُنفخُ في الصّور، ويُبعثر فيهِ القُبور، ذَلكَ يَومُ الآزِفة، إذ القُلوب لَدى الحناجِر كاظمين، ذَلكَ يوم لا تُقالُ فيه عَثرة، ولا تؤخذ من أحدٍ فِدية، وَلا تُقبَل من أحدٍ معذرة، ولا لأحدٍ فيه مُستقبل توبة، لَيس إلاَّ الجَزاءَ بالحسناتِ، والجزاءَ بالسّيئات، فَمن كانَ مِنَ المؤمنينَ عَمِلَ في هذه الدنيا مثقالَ ذَرةٍ مِن خَيرٍ وَجده، ومَن كانَ مِن المؤمنين عَمِلَ في هذه الدنيا ذرَّة مِن شَرٍ وَجده»[2].

هذا الجزء يستند في جذوة مفاهيمه إلى القرآن، فقد استشهد بآيات القرآن، وازدانت ألفاظه بعبارات القرآن، واعتمدت استنباطاته على مدركات القرآن، فهو يتحدث عن يوم القيامة في شدته وعسره، ويُعنى بخصائصه ومشاهده، فهو يوم مجموع له الناس قدامى ومحدثين، وهو يوم ينفخ بالصور، يُبعثر به ما في القبور، وهو يوم الآزفة، وفيه تبلغ القلوب الحناجر، ولا تقال عثرة، ولا تؤخذ فدية، ولا تُقبل معذرة، ولا لأحد توبة، والجزاء يكون وفاقاً في الحسنات والسيئات، والعلم يوزن بأقل معاييره إن شراً فشر وإن خيراً فخير.

---

(١) سورة هود: الآية، ١٠٣.

(٢) ابن شعبة/ تحف العقول/ ٢٤٩، القرشي/ حياة زين العابدين ٢/ ٥٣.

وكل هذه الأعراف من مضامين القرآن، ولا غرابة في ذلك. فأهل البيت عدل القرآن، ولسان القرآن، وترجمان القرآن.

ويعرض الإمام في هذا الصدد مفهوماً يكاد يكون مجهولاً وجديداً على الفهم الأولي لمشاهد القيامة، هذا المفهوم بتلخيصه بأن موازين المجازاة العادلة ودواوين الأعمال الإنسانية، إنما تنصب لأهل الإسلام وحدهم دون سواهم من الكفرة والمشركين إذ لا نصيب لهم من ذلك، وإنما يُدعّون إلى جهنم دعاً، ويحشرون إلى جهنم زمراً، وذلك قوله عليه السلام:

«اعلموا عبادَ الله أنَّ أهلَ الشِّرك لا تُنصَب لهم المَوازين، وَلا تُنشرُ لَهم الدَّواوين، وإنما يُحشرون إلى جهنَّم زُمراً، وإنَّما تُنصَب الموازين، وتُنشر الدَّواوين لأهل الإسلام»[1].

ويحذّر الإمام من يوم القيامة، ويدعو الناس إلى الاستعداد له، والحذر من مزالقه، بالامتناع عن المعاصي الموبقة، ويرغّب أن يقترن العلم بالعمل خوفاً من الله، وإيثاراً للطاعة، فهما مؤتلفان لا ينفصلان، ليكون ذلك أدنى من العذر فهو أرجى للنجاة. يقول الإمام:

«فالحَذر الحذر مِن قبل النَّدامة وَالحسرة، وَالقدوم عَلى الله، والوقوفِ بَينَ يَديه، وتَالله مَا صدر قَوم قَطّ عَن مَعصية الله إلاَّ إلى عذابِه، وما آثر قوم قَطّ الدُّنيا على الآخِرة إلاَّ ساءَ منقَلبهم، وَساءَ مَصيرهم، وَما العِلمُ بالله والعَمل بِطاعَته إلاَّ إلفان مؤتلفان، فمن عَرف الله خافه، فحثَّه الخوف على العَمل بطاعة الله، وإن أرباب العلم وأتباعهم الذين عَرفوا

---

(١) المصدر نفسه والصفحة.

الله فعَملوا له، وَرغبوا إليه، وقد قال الله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[1]. فَلا تَلتمسوا شَيئاً مِن هذه الدُّنيا بِمَعصية الله، وَاشتَغلوا في هذهِ الدُّنيا بطاعةِ الله، واغتنموا أيَّامها، وَاسعوا لما فيهِ نَجاتكم غداً مِن عَذابِ الله، فإنَّ ذَلك أقلّ للتَبِعةِ، وأدنى من العذر، وأرجى للنجاة»[2].

ويربط الإمام بين حقيقة الطاعة الخالصة وحقيقة الولاية الإلهية، على العباد، فيدعو لذلك مستأنساً، ويحذّر من اتباع الجبابرة معاوداً، ويُلزم الصالحين باتّباع أولي الأمر، وهما معاً عبيد الله وهو مسائلهم غداً.

يقول الإمام: «فَقدِّموا أمرَ الله وَطاعَته وطَاعَة مَن أوجبَ الله طَاعَته بَينَ يَدي الأمورِ كلّها، وَلا تُقَدِّموا الأمور الوارِدةِ عَليكُم مِن طَاعَة الطَّواغيت، وَفِتنة زهر [ة] الدُّنيا بَينَ يَدي أمر الله وطَاعَته، وَطَاعَةِ أُولي الأمرِ مِنكُم، وَاعلموا أنّكم عَبيدُ الله، ونَحنُ مَعَكم، يحكم عَلينا وَعَليكُم سَيّدٌ حاكم غداً، وهوَ مُوقّفكم، ومُسائلَكم، فأعِدُّوا الجَوابَ، قَبلَ الوُقوفِ وَالمُساءَلَةِ والعَرَضِ عَلى رَبِّ العالَمين»[3].

وهكذا وبكلِّ أصالة وجديّة ومتابعة، نجد الإمام زين العابدين عليه السلام مواكباً لمسيرة المعاد في يوم القيامة بمقدماته ونتائجه، يوحي بأبعاد العمل إليه في الحياة الدنيا، ويعرض مشاهد أهواله في الحياة الأخرى، ويستدعي بينهما الزهد المحبب للمعتبرين، ويسترعي

---

(١) سورة فاطر: الآية، ٢٨.

(٢) المفيد/ الأمالي/ ١١٧.

(٣) المفيد/ الأمالي/ ١١٧.

الفكر للنظر في حياة القبر، وهو ما يعبر عنه بالبرزخ في القرآن، ويخلص إلى ضرورة إطاعة أهل البيت وأولي الأمر، وهما حقيقة واحدة عنده، فأولو الأمر هم أهل البيت، وأهل البيت هم أولو الأمر، هذه الاطاعة التي نهد إليها، جزء لا يتجزأ من شؤون المعاد، فهو إنما يؤكد عليها حذر المساءلة يوم القيامة عند العرض على الله.

والقيم الشيّقة التي سيّرها الإمام في هذا الملحظ العظيم في أولياته ومواقفه ومصائره، قد توحي باهتمامات تنبع من صميم ذاته المرهفة تلك الاهتمامات الريادية تمليها عليه طبيعة الاعراض غير المسؤول عن حضيرة الدين من قبل غالبية الناس المفتونين بزهرة الحياة، واللاهثين وراء السراب دون عائدية، فسعى الإمام إلى تخفيف غلوائهم وكبح جماحهم، بلفت النظر لذلك اليوم الكبير، فإن وراء اليوم غداً، ووراء الحياة حساباً، ووراء الحساب ثواباً أو عقاباً، هذا التسلسل المنطقي يقضي أن يكون الاعداد مسبقاً والعمل له آنفاً، فهو بإزاء طرح هذه الحقائق داعية لتهذيب الضمير، وإيقاظ الحسّ، إلزاماً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتنبيهاً لأصل من أصول الدين، يفيد منه نافذ البصيرة، وينصبه المتقي مناراً يهتدي به.

الدعاء على الظالمين:

وكان عصر الإمام يزخر بطواغيت الظلمة، وكان يشاهد من ظلم الناس ما لا يستطيع دفعه، وكان المتظلم لا يقوى على رفع ظلامته، فالسياط تلهب الظهور، والسجون تمتلىء بالوافدين، والأنفاس مضطربة لا تستقر، والنفوس هاطعة وخانعة، وكان هذا الظلم بشتى صوره لا يقتصر على فئة معينة من الناس، وإنَّما يشمل الناس كلهم في ميسمٍ من مياسمه، وهو ينال الإمام كما ينال الآخرين، ويطاله كما يطال المظلومين، ولا اعتداء يدفع، ولا متظلم يسمع، وكان لا بد للإمام أن يقف ازاء هذه الظاهرة المتخلفة موقف المقارع ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وأنَّى يستطيع ذلك بطُرقه الدفاعية، وأن يعالجه بوسائله المنطقية، والاعتساف ذو حبل ممدود، والإرهاب ذو صوت متطاول، وحياة الناس بين هذين في سلسلةٍ من المآسي، وأيَّامهم في ظلام دامس لا ينحسر، ودفع الظلامات من الواجبات على الأئمة ما قدروا على ذلك؛ فإذا انتفى الاقتدار انتفى الفرض، ولكن الإمام يلجأ إلى صيغته المفضلة في الانقطاع إلى الله، وترك ذلك إليه، يقول الإمام:

«يَا مَن لاَ يَخفىٰ عَليهِ أنباءُ المُتَظلّمين، ويا مَن لاَ يحتاجُ في قَصصهِم إلى شَهاداتِ الشَّاهِدين، وَيا مَن قَرُبَت نُصرَتهُ مِن المَظلومين، وَيا مَن بَعد عَونه عَن الظّالمين، وَقد عَلمتُ يَا إلهي، مَا نَالَني مِن فلان

ابن فلان مما حَظرتَ، وانتهكه منّي مِما حَجزتَ عليه، بَطراً في نِعمَتكَ عِنده، واغتراراً بنكيركَ عَليه»[1].

وفي هذه اللوحة الرائعة يُصوّر الإمام إحاطة الله اللامتناهية في حوادث الأشياء، ويعبر عن اطلاعه الشمولي على ما خفي وما حجب، فلا تعجزه الأخبار، ولا تفوته الأنباء، فهو عالم بها جميعاً، وهو حاكم عليها جميعاً، فأنباء المتظلمين تصله دون خفاء، وظلاماتهم تعرض عليه دون شهادات، فلا يحتاج إلى بيّنة، ولا يستعرض ما أصيبوا به بشهود، ونصرته قريبة وإن خالها الظالمون بعيدة، وغلبته واقعة وإن طال الزمان، هذا القرب وذلك الوقوع يؤكد بُعدَه تعالى عن معونة الظالمين، ويُنزِّه ساحته عن تسلط الحاكم الغاشم، وإنما يملي لهم ليزدادوا إثماً، ويفسح لهم في المدة والأجل ليقيم الحجة، ويعرضهم على الفتنة ليشدد في الامتحان، وكما امتحن المظلوم في البلاء، فقد امتحن الظالم بامتداد أسباب الرخاء وقد يُعطي الإمام في اللفظ المخصوص دلالة العموم، وقد يضفي طابع الشموليَّة للظالم، فلا يسميه باسم، وإنما يعبر عنه «فلان ابن فلان» فكأنه يلقننا أن ندعو على كلّ ظالم بدعائه، ويطبقّ عموم الحالة ولو كانت مخصوصة السبب، والمتبادر إليه أن خصوص المورد لا يخصص الوارد ولا يمنع من إرادة العموم بوجهٍ من الوجوه، وهنا يرد إبهام اسم الظالم ولا مانع من تشخيصه فيما اقترف من الأوزار، وما انتهك من الحرمات، كفراناً بالنعمة، واغتراراً بنكير الله فيما منع واحتجز.

ويستعدي الإمام الله عزَّ وجلَّ بأخذ الظالم بقوته، واشغاله عنه

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الرابع عشر.

بشؤونه الخاصة، واصابته بالعجز عما يرومه ويحاوله، ويدعو عليه بإمساك ظلمه وعدم تمكينه منه، يستحثُّ العون عليه، ويستنزل العصمة من أفعاله، ويستدعي المنعة من أن يكون في مثل حاله في ظلم الأبرياء، ومصادرة حرية الناس، وفي ذلك تصريح شديد بالنكير على الظالمين في أساليب ظلمهم كافة، قال الإمام:

«اللَّهمَّ فَصلِّ عَلى محمّدٍ وآلهِ، وَخذ ظَالمي وَعدُوي عَن ظُلمي بِقوتكَ، وافلل حدَّه عنّي بقدرتك، واجعلْ لَه شُغلاً فيما يَليهِ، وعجزاً عَمّا يُناويه، اللَّهمَّ وَصلِّ عَلى مُحمَّدٍ وَآله، وَلا تُسوّغ لَه ظُلمي، وأحسِن عليه عَوني، واعصِمني مِن مِثل أفعَاله، وَلاَ تَجعَلني في مِثل حَاله»[1].

ويرجو الإمام من الله رجاء العبد الذليل من المولى الجليل أن يكون بمعونته على عدوه إعانة عاجلة غير مؤجلة، تشفي غيظه، وتنتصف له حتى يعود حنقه عليه وقاءً منه، وأن يعوضه العفو من ظلمه، ويبدله حسن الصنيع برحمته عن سوء صنيعه، فكل المكاره تهون دون غضبك وانتقامك، وكل المصائب عادية بسيطة دون موجدتك، كما كره الله للإنسان أن يُظلِم، فهو يريد الابتعاد عن الظلم الواقع عليه والصادر منه، وذلك بطلب العافية من البلاء، والاستنارة بهدي الحق دون الاعتداء. يقول الإمام:

«اللَّهمَّ صَلِّ عَلى محمَّدٍ وآلهِ، وأعِدني عَليهِ عَدوى حَاضِرة، تكُون مِن غَيظي بهِ شِفاءً، وَمِنْ حنقي عَليه وقاءً، اللَّهمَّ صَلِّ عَلى محمدٍ وآله، وَعوّضني من ظُلمه لي عَفوكَ، وأبدِلني بِسوء صَنيعهِ بي رحمَتكَ، فَكلُّ

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الرابع عشر.

مَكروهٍ جَلَل دونَ سَخطِكَ، وَكُلّ مرزئةٍ سَواءٌ مع موجِدَتِكَ، اللَّهمَّ فَكما كَرَّهتَ إليَّ أن أُظلَم، فَقِني مِن أن أَظْلِمَ»[1].

ويتوجّه الإمام أن لا يشكو مما نزل به إلى أحد سواه، ولا يستعين بحاكم يقتصّ له غيره، ويسترعي صلة دعائه بالإجابة، واقتران شكايته بتغيير حاله إلى الأفضل، وأن لا يفتنه باليأس من الانصاف، ولا يفتن الظالم بالأمن من الانكار، فيسيغ الظلم، ويأخذ الحقوق، مستعلياً بالمخاصمة، ويسأله أن يعرفه حدود الانتقام فلا يجرأ على المزيد، وأن يتلطف بإجابة دعاء المضطر فيقف به عليه، وفيه لمح إلى قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾[2]. فهو دعاء لكشف السوء دون التصريح به. قال الإمام:

«اللَّهمَّ لا أشكو إلى أحدٍ سِواكَ، وَلا أستعين بحاكمٍ غَيركَ، حَاشَاكَ فَصَلِّ عَلى محمَّدٍ وآلِهِ، وَصِل دُعائي بالإجابةِ، وأقرن شِكايتي بالتَّغيير، اللَّهمَّ لا تفتني بالقُنوطِ من إنصَافكَ، وَلاَ تفتنه بالأمنِ من إنكَارِكَ، فَيُصرّ على ظُلمي، وَيُحاضِرني بِحقّي، وَعَرّفه عَمَّا قَليل مَا أوَعدتَ الظَّالِمين، وعرّفني مَا وَعَدتَ مِن إجَابةِ المُضطَرين»[3].

ويعطف الإمام بلفتة بارعة إلى قبول ما قضى الله له وعليه، وتفضّي الرضا بما أخذ له ومنه، والافضاء بالدعاء إلى الهداية للتي هي أقوم، والتوفيق لما هو أسلم، فإن كانت الخيرة بتأخير الانتقام ممن

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الرابع عشر.
(٢) سورة النمل: الآية، ٦٢.
(٣) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الرابع عشر.

ظلمه إلى يوم الدين فليكن ذلك بتأييد من الله له، تأييد بنية صادقة تسلّم للقضاء، وصبر دائم لا جزع معه، هذا مع الاستعاذة في حفظه من الرغبة السيئة، والاعتصام به من الضجر والملل وهلع أهل الحرص، متأمّلاً تصوير ما أعدّ له من الذخائر في قلبه وكأنه يراه: الثواب له، والعقاب لخصمه، بجعل ذلك سبباً للقناعة بالقضاء الإلهي، وثقة بالاختيار المهيب.

ويختتم الإمام هذا الدعاء بالتأمين على الاستجابة، والثناء على الله بما هو أهله، وتلك سمة بارزة بأدعية الإمام يحصر بها الإشاءة والقدرة والإجابة والتعظيم بالله تعالى، قال الإمام:

«اللَّهمَّ صَلِّ عَلىٰ مُحمّدٍ وآلِهِ، وَوَفّقني لِقبولِ مَا قَضيتَ لِي وَعَليَّ، وَرَضّني بِما أخذتَ لي وَمِنّي، واهدني للتي هي أقوم، واستعملني بما هُو أسلَم، اللّهمَّ وإنْ كانَت الخِيرة لي عندَك في تأخير الأخذ لي، وَتركِ الانتقامِ مِمَّنْ ظَلَمني إلى يوم الفَصلِ ومَجمَعِ الخَصم، فصَلِّ عَلى محمّدٍ وَآلِهِ، وَأيّدني مِنكَ بنيّة صَادِقةٍ وَصَبرٍ دَائمٍ، وأعِذْني مِن سوءِ الرَّغبةِ وَهَلَعِ أهلِ الحِرصِ، وَصَوّر في قَلبي مِثالَ مَا ادّخرتَ لي مِن ثَوابِكَ، وَأعدَدتَ لِخصمي مِن جَزائكَ وعِقَابِكَ، وَاجعَل ذَلِكَ سَبباً لِقَناعَتي بِما قَضَيتَ، وثِقَتي بِمَا تَخيَّرتَ، آمين رَبَّ العَالمين، إنَّكَ ذُو الفَضلِ العَظيم، وَأنتَ عَلى كُلِّ شيءٍ قَدير»[١].

والدلالة الإيحائية في هذا الدعاء تقف بك على مدى الظلم والجور والاعتساف والاضطهاد اللاّئي تعرّض لها الإمام، وتُشعرك

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الرابع عشر.

بالألم النفسي الكامن لديه بحيث يستدعي من الله الصبر الدائم على هذا العذاب الموقّت، بتصوير ما ادّخر له من الثواب، وتلك معاناة حقيقية نزلت بالإمام مباشرة.

وهذا الدعاء بأصالته الفنية تلمس فيه جملة من الحقائق التي تستلهم لدى الغور في أعماقه، مما لا يستغني عنها في مواكبة الروح العقائدية الخالصة التي تنيط بالله تعالى صغريات الأمور وكبرياتها، ذلك مما يشكّل ظواهر إيجابية جديرة بالتأمل.

الظاهرة الأولى: إحاطة الله التكوينية بدقائق الأحداث فهي بعينه، وفي ظل مشيئته المطلقة التي لا يعزب عنها شيء وإن قلّ، ولا يغرب عن ساحتها عظيم وإن جلّ، فهو بالمرصاد لا تخفى عليه خافية، وهو القدير الذي لا تجارى قدرته، بيده تغيير الأحوال، ومن عنده تكييف الإرادة، ومن ذلك ـ مصداقاً لهذا المفهوم ـ اختبار الظالم، وامتحان المظلوم، مع ادّخاره النصرة لأهل الإيمان عاجلاً أو آجلاً، وابتعاد عونه عن الظالمين، فلا يعين ظالماً على ظلمه، ولا يؤيد طاغية على إسرافه، وهولهما بحيث المراقبة الاحصائية.

الظاهرة الثانية: التأكيد أنَّ الله تعالى عزيز ذو انتقام، فهو وإن أمهل الظالم إلى حين إلاَّ أنه لا يهمله أبداً، بل يأخذه أخذ عزيز مقتدر، والدليل الاستقرائي يساعد على هذا الاعتبار، فقد اندرست آثار الظلمة، وانهارت أحلام الطغاة، وعاد ما تمتعوا به حيناً، بيتاً من تبن تذروه الرياح، وتلاشت القوة والفتوة والعظمة المصطنعة، وانحطَّ العناد والاصرار والاستكبار، ولو كانت هذه المعايير تبقي أحداً لبقي الظالمون لأنهم قضوا حياتهم متمتعين بها، ولكنها جميعاً عادت عليهم حسرات،

وأسلموا إلى أعمالهم، وسوف يلقون غيّاً.

الظاهرة الثالثة: توحي بأنَّ الله قدير على اشغال الظالم بنفسه، وإلهائه بشؤونه الخاصة، وإغوائه بما يزين له سوء عمله بعيداً عن المظلوم في ساحته، وبذلك يكون الله عوناً للمظلوم فيعصمه من أفعاله، بل يتفضّل عليه فلا يجعله كالظالم في التجاوز والإسراف.

الظاهرة الرابعة: الإشارة بوضوح هادىء إلى كرم الله ورأفته ورحمته، فهو القدير وحده أن يعوِّض المظلوم بالعفو عنه، وأن يبدله بالرحمة، وهذا ملحظ مهم يذخر به المظلوم امدادات الغيب لتكون في ميزان حسناته، وضمن أعماله الصالحة، تعويضاً له عما فقده في الدنيا من الحرية والإرادة والحقوق.

الظاهرة الخامسة: التنبيه على ضرورة الاعتصام بالله وحده، فلا ييأس المظلوم من رَوح الله، فهو القادر على التغيير، ينتقم من الظالم في حين الانتقام، ويجيب المضطر حين امتلأ الكأس.

الظاهرة السادسة: التوجيه على رضا المظلوم بخيرة الله، فإنَّ شاء عجّل بالنصرة له، وإن شاء ترك النقمة ليوم الفصل، وكلاهما في صالح المظلوم، وإن جهل الحكمة في ذلك.

وبعد: فهذا الدعاء كنز من كنوز المعرفة الإنسانية، وهو من غرر الأدعية تسليماً وإنابة، ومن أعمقها أثراً في أصول البلاغة العربية تعبيراً وتمثيلاً وصورة.

الاستقالة من الذنوب:

والإغراق في الإنابة لله تعالى، والإمعان في الرجوع إليه، والتوجُّه في العودة إلى حضرته... كل أولئك مخائل وعلائم وسمات تسيطر على الشعور الداخلي بعفوية مطلقة لأنها عرفانية المصادر، وتنطلق من هاجس ذاتي متبلور بداعي الرجاء والخوف والأمل، يدعو الإمام أن يُتطلع إلى الله شاخصاً في غفران الذنوب وستر الخطايا، وهذا هو الدرس الجديد الذي يعلّمنا إياه، فلا ذنوب لديه ولا خطايا، ولا زلل في مسيرته العبادية ولا انحراف، ولا زيغ في السلوك ولا عِوج، فهو معصوم بالضرورة، وهو محبوٌ بالولاية الإلهية لأنه من المخلصين (بفتح اللام)، هذا الخلوص التكويني يوحي بأكثر من مؤشر إضافي إلى حياة الإمام في الاجتباء المطلق والاصطفاء العريض الذي يُفلسف قضية هذه العصمة العلمية والعملية بوقت واحد، فهو بتركيب إرادي يتفاعل مع الحياة في كل إفرازاتها السلبية والإيجابية، وهو بمنظور عملي يدرك مواطن الطاعة بأدق تفصيلاتها، ويعلم مساوىء المعصية بكل أجزائها، ويتزود بأرقى موارد الطاعة مُريداً مختاراً، وهو يتجنَّب كل مزالق المعصية بإرادة واختيار لا جبر معهما ولا عنت، وإذا كان هذا واضحاً من فلسفة العصمة، تجلى لنا بوضوح مدرك هذا الاستغفار من الذنوب، والاستعفاء من الخطايا، بأنه درجة خاصة في الاستزادة من النقاء، وخصوصية إيمانية محضة في الاستعانة بالله على فروض العبادة، ومنزلة

متوازنة من الاستكانة لله في رحاب رحمته المترامية، وتلك برمجة منظمة في طريق الوصول يقف بها الإمام القائد مع أمته بشتى أصنافها على جادة الاستقامة، ومن هنا يخلص إلينا القول برسالية الإمام اجتماعياً، فهو يؤدب غيره بالدعاء إلى نفسه، وهو يدعو سواه إلى الاقتداء بهديه الرِّسالي ذلك ليضع بين يدي الأوَّابين إلى الله وسيلة القرب والزلفى، وهو بذلك وحده يستطيع أن يوصل العبد المتجاوز إلى مرفأ العفو والرضوان، وهي مهمة صعبة الاستجابة لدى السواد الأعظم إلا بعد عناء طويل، وقد كان ذلك.

وكان من شأن الإمام التمرّس التدريبي على هذا العناء، فهو يريد للإنسان الملتزم الاتجاه بكل مشاعره وأحاسيسه، وميوله ورغباته، ورضاه وسخطه نحو الله وحده، ويحاول بإصرار عجيب ـ كما في برامج الصحيفة السجادية وسواها ـ أن يلتجىء هذا الإنسان إلى الله اِلتجاء المحتاج إلى ذي الحول والطَّول، فلا استقلالية للإنسان فيما خوّله به الله، وإنما تتكاتف الأسباب، وتتمثل الذرائع مستعيناً بها، ويبقى التدبير في صيغته الإرادية مقترناً بإشاءة الله تعالى، وهذا هو المنهج الواقعي الذي يربط المرء بربِّه بعيداً عن مظاهر الشرك الخفي والمغلّف والصريح، وهو بعد خلاصة السلوك الرياضي الرَّفيع الذي ندب إليه الشرع الإسلامي بكل ما استطاع من تأكيد وتوجيه وتخطيط خالصاً من كل أولويات الاتّكال على غير الله، سائراً في الخط الذي عبّده رسول الله ﷺ، وفي ضوء ذلك يدرك التائه معلم الهدي الإلهي، ويستوثق الغريق من الكينونة في شاطىء الأمان، وهذا هو المفزع الإلزامي للمسلم في جهاد النفس.

وكان الدعاء السادس عشر من الصحيفة السجادية ميداناً متسعاً، يبدأ ذلك بالثناء الخاص المقصور على الله استغاثةً وفزعاً، خيفة وأنساً، غوثاً وعضداً، حيث وسعت رحمته، وقد جعل لكل مخلوقٍ نصيباً من نعمته، وكان عفوه مستعلياً على عقابه، ورأفته تسعى أمام غضبه، وعطاؤه أكثر من المنع، يعطي دون عوض، ويتسع بلا جزاء، يعاقب العصاة بما يستحقون، فلا تجاوز ولا تفريط، وهذا ما يمثله المقطع الأول من دعائه العتيد، قال الإمام عليه السلام: **«اللّهمَّ يَا مَنْ بِرحمَتِهِ يَستغيثُ المُذنِبُونَ، وَيَا مَنْ إلى ذكر إحسانه يفزَع المُضطرّونَ، وَيَا مَنْ لِخَيْفَتِهِ يَنْتَحِبُ الخاطِئُونَ، يَا أُنسَ كُلِّ مُستوحِش غريب، وَيَا فَرَجَ كُلِّ مَكروب كئيب، وَيَا غوثَ كُلّ مخذولٍ فريد، ويا عَضُدَ كُلِّ مُحتاج طريد؛ أنتَ الذي وسعتَ كلّ شيءٍ، رحمةً وعلماً، وأنت الذي جَعَلْتَ لِكُلِّ مخلوقٍ في نعمَتِكَ سهماً، وأنتَ الذي عفوه أعلى من عقابه، وأنتَ الذي تَسعى رحمته أمامَ غضَبِهِ، وأنتَ الذي عطاؤه أكثر من مَنْعِهِ، وأنتَ الذي اتسعَ الخلائقُ كُلّهم في رحمَتِهِ، وأنتَ الذي لا يرغَبُ في جزاءِ من أعطاهُ، وأنتَ الذي لا يُفرّطُ في عقابِ من عصاه»**[1].

بعد هذا التمهيد للغاية القصوى التي يتوخّاها جاهداً، يعرض نفسه أمثولة للمسلم المنيب، ويجرِّد من ذاته عبداً أوقرت الخطايا ظهره، وأفنت الذنوب عمره، وأقدم على المعصية بجهله، والإمام - كما ثبت الاستدلال عليه آنفاً - منزّهٌ عن هذا المدرك بكل أبعاده، ولكنّه في ساحة الحضور الإلهي ينشد إليه الانشداد الكلي. بحيث يصور

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء السادس عشر.

لنا ذلك مثلاً يراد، حتى تجده متذللاً في طلب الرحمة، يتضرع في إبلاغ الدّعاء، ويستفهم عن سبل الرجاء، بالبكاء تارة، والتذلل تارة أخرى، وبالالتجاء حيناً، والتوكُل حيناً آخر، والله لا يخيّب من لا يجد غيره مفيضاً، ولا يخذل من لا يستغني عنه معيناً، فلا يعرض عن العبد وقد أقبل عليه، ولا يحرمه وقد رغب فيه، ولا يجبهه بالرد وقد انتصب بين يديه، وصف نفسه بالرحمة فاندفعت كالسيل، وسمى نفسه بالعفو لعفوه عن عظائم الذنوب والجرائر، فمن أجدر منه؟ يقول الإمام: «**وَأَنَا - يَا إلهي - عبدُكَ الذي أمرتَهُ بالدُعاء فقالَ: لبّيْكَ وَسَعْدَيك، ها أنا ذَا - يَا رَبِّ - مطرُوحٌ بينَ يديكَ، وأنَا الذي أَوقَرت الخَطَايَا ظَهرَهُ، وَأَنَا الذي أفنَتْ (أَفْنَت) الذُنُوب عُمرَه، وأنَا الّذي بِجَهْلِهِ عَصَاكَ، وَلَمْ تَكُنْ أهلاً مِنْهُ لذَاكَ، هل أنتَ - يا إلهي - رَاحمٌ مَنْ دَعَاكَ فَأُبْلِغَ في الدعاء؟ أمْ أنتَ غافِرٌ لِمَنْ بَكَاكَ فأسرعَ في البكاءِ؟ أمْ أنتَ مُتجاوزٌ عمّنَ عفَّرَ وَجهَهُ لَكَ تَذللاً؟ أمْ أنتَ مُغنٍ من شكا إليكَ فقره توكُّلاً؟ إلهي لا تُخيّب مَن لا يَجدُ مُعطياً غيرَكَ، وَلاَ تخذِل مَنْ لا يستغني عنكَ بأحدٍ دُونَكَ، إلهي فصلِّ على مُحمّد وآلهِ، ولا تُعرضْ عنّي وقد أقبَلْتُ علَيْكَ، ولا تحرمني وقد رغبتُ إليكَ، وَلاَ تجبهني بالرَّد وقد انتصبتُ بين يديكَ، أنتَ الذي وصفت نفسكَ بالرحمة، فصلِّ على مُحمّد وآلهِ وارحمني، وأنتَ الذي سمّيتَ نفسك بالعفوّ فاعفُ عني**»[1].

ويصعد المقطع الثالث من الدعاء تلك الأنفاس الحرّى الملتهبة ويجسِّد صورة الجوارح المرتجفة حياءً من الله، فالقلب في وجيب لا يستكن، والصوت في خفاء لا يتردد، واللسان في إعياء لا ينبس، فكم

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء السادس عشر.

من عيبٍ ستره الله، وكم من ذنبٍ أخفاه الله، وكم من شائبةٍ لم يهتك سترها، ولم يقلده عارها، ولم يظهر سوأتها، ومع هذا كله لم ينتهِ العبد العاصي عن السوء، فما أجهله عقلاً، وما أغفله قلباً، ومن أبعد منه في استصلاح نفسه، وقد أجرى الله عليه نعمه فيما رزقه فأنفق ذلك بالمعصية، فمن أبعد غوراً منه في الباطل، ومن أشدُّ إقداماً منه على السوء، يستجيب للشيطان في دعوته، ويتغاضى عن دعوته في جنب الله، ودعوة الله إلى الجنَّة لا شك في ذلك، ودعوة الشيطان إلى النار لا شك في ذلك أيضاً. يقول الإمام عليه السلام: «قَد ترَى - يا إلهي - فَيضَ دَمعي من خيفَتِكَ، ووجيبَ قلبي من خشْيَتِكَ، وانتقاضَ جوارحي من هيبتِكَ، كُلّ ذلك حياءً مِنكَ لِسُوءِ عَمَلي، ولذاك خَمَدَ صَوتي عن الجأرِ إليكَ، وَكلَّ لساني عن مُناجاتِكَ، يا إلهي فَلَكَ الحمْدُ، فَكَم من عائبَةٍ سترتَها عليّ فلم تفضحني، وَكم من ذنبٍ غطيّتَهُ عليّ فلم تشهرني، وَكَمْ من شائبةٍ ألممتُ بها فلم تهتِك عني سترها، ولم تقلّدني مَكرُوهَ شنارِهَا، وَلَمْ تبدِ سوأتها، لمن يلتمِس معَايبي من جيرتي وحسَدَة نعمَتِكَ عِندي، ثم لم ينهني ذلِكَ عن أن جريتُ إلى سوءِ ما عهدت مني!! فمن أجهل مني - يا إلهي - برشدِهِ، ومَن أغفَلُ مِني عن حظّهِ، ومن أبعدُ مِنّي من استصلاح نفسه، حين أُنفقُ ما أجرَيتَ عليَّ من رزقِكَ فيما نهيتني عنهُ من معصيتك، وَمَن أبعَدُ غوراً في الباطِل، وأَشدُّ إقداماً على السّوءِ منّي حينَ أقِفُ بين دعوتِكَ ودعوةِ الشيطان، فأتّبع دعوتَهُ على غير عمىً مني في معرفَةٍ بِه، وَلا نسيانٍ من حفظي لَهُ، وأنا حينئذٍ موقنٌ بأنَّ مُنتهى دعوتِكَ إلى الجنّة، ومُنتهى دعوَته إلى النارِ»[1].

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء السادس عشر.

ثم يثير الإمام العجب حين يشهد على نفسه معترفاً، ويعدِّد ما كان مكتوماً من أمره معلناً، وأعجب منه أناة الله وإبكاؤه في المعاجلة تأنياً منه وتفضُّلاً عليه، حتى يرتدع عن المعصية لأنَّ عفوه أحبّ إليه من العقوبة، وهذا العبد أكثر ذنوباً عند الاحصاء، وأقبح آثاراً لدى الاستدراج، وأشنع أفعالاً في الاستيعاب، يسرع إلى الباطل، ويضعف عند الطاعة، ولا انتباه يوقظه، ولا رقابة تزجره، العيوب والذنوب في ظلِّه، والخطايا والمآثم في رقبته، أسرته الذنوب رقيقاً، وأثقلته الخطايا صنوفاً ولا يطلق أسرها إلا العفو، ولا يخفف ثقلها إلا المن، والعفو والمن كلاهما منه تعالى. قال الإمام عليه السلام: **«سُبحانَكَ ما أعْجَبَ ما أشهدُ بهِ على نفسي، وأعدّدُهُ من مكْتوم أمري، وأعجبُ من ذلكَ أناتُكَ عنّي وإبطاؤكَ عن مُعاجَلَتي، وَلَيْسَ ذلكَ مِنْ كَرَمي علَيْكَ، بل تأنياً مِنكَ لي، وتفضُلاً منكَ عليَّ، لأن أرْتدعَ عن معصيتِكَ المُسخِطَةِ، وأقلَع عن سيّاتي المُخلِقَة، ولأن عفوَكَ عنّي أحبُّ إليكَ من عُقوبتي، بل أنَا ـ يا إلهي ـ أكثرُ ذُنوباً، وأقبَحُ آثاراً، وأشنعُ أفعالاً، وأشدُّ في الباطِلِ تهوّراً، وأضعَفُ عَنْدَ طَاعَتِكَ تيقظاً، وأقلّ لِوَعيْدِكَ انتباهاً وارتقاباً مِنْ أن أُحصي لكَ عيوبي أو أقدر على ذِكْرِ ذنوبي، وإنَّما أُوبّخ بهذا نفسي طَمَعاً في رأفَتِكَ التي بها صلاحُ أمر المُذنبين، وَرَجَاءً لرحْمَتِكَ التي بها فِكَاك رقابِ الخاطئين، اللّهمَّ وَهذه رقبَتِي قَد أرَّقتها الذنوب، فصلِّ على مُحمَّد وآله، وأعِتقْها بعفوكَ، وهذا ظهري قد أثقلتْهُ الخطايا، فصلِّ على مُحمّد وآله وخفّف عنهُ بمنّكَ»**[1].

ثم يسترسل الإمام في هذا الدعاء المتموج رقةً وحناناً واعترافاً،

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء السادس عشر.

فيصوّر حالة المذنب المقصّر، ويجرِّد من نفسه نموذجاً لذلك، فيضيف أن لو بكى حتى تسقط أشفار العين، وانتحب حتى ينقطع الصوت، وانتصب حتى انتفاخ القدمين، وركع حتى انخلاع الصلب، وسجد حتى تنقلع العيون، واستعاض عن الطعام بالتراب، وعن الماء بالرماد، وذكر الله حتى يتعب اللسان من طول الذكر، ولم يرفع طرفه إلى السماء استحياءً، فإن ذلك كله لا يمحو سيئةً بحسب الاستحقاق، وإنما هو عفو الله الذي تفضَّل به على العباد دون وجوبه عليه، بل هو تحنن ورحمة، إذ الجزاء النار من أول معصية، فإن عذّب فبغير ظلم، وهو الربّ العادل الرحيم.

إنَّ هذه الرؤية في استيعاب موارد الخضوع والخشوع لله تعالى توحي بضرورة استكناهها لدى الأوبة في الحضور، وتترجم بوعي متزايد حقيقة استحضارها في تهذيب السلوك، ويعقبها بالتضرع الصارخ إلى الله الذي ستره فلم يفضحه، وحلم عليه فلم يعاجله بالعقوبة، وتفضَّل عليه فلم يغيّر النعمة، ولم يُكدِّر المعروف، ويستدعيه بحرارة الشوق أن يرحم استكانته ببابه، وشدَّة افتقاره إليه، ويعرض إلى سوء موقف العصاة عسى أن لا يُعدّ منهم، يقول الإمام عليه السلام: **«يا إلهي لو بَكيتُ إليكَ حتى تسقُطَ أشفَارُ عَيني، وانتحَبتُ حتى يَنْقطِعَ صوتي، وقُمتُ لكَ حتى تتنشَّرَ قدماي، ورَكَعْتُ لكَ حتى ينخلِعَ صُلبي، وسجدتُ لكَ حتى تتفقأ حدقتاي، وأكلتُ تُرابَ الأرض طُول عُمري، وشربتُ ماءِ الرماد آخر دهري، وذكرتُكَ في خلالِ ذلكَ حتى يَكِلَّ لساني، ثُم لَمْ أرْفعْ طرفي إلى آفاقِ السماء استحياءً منكَ، ما استوجبتُ بذلك محو سيئةٍ واحدةٍ من سيّئاتي، وإن كُنْتَ تغفر لي حين استوجبُ**

مغفرتكَ، وتعفو عني حين أستحقُّ عفوك فإن ذلك غير واجب لي باستحقاق، ولا أنَا أهلٌ له باستيجاب، إذ كانَ جزائي منكَ في أوّل ما عصيتُكَ النّار، فإن تُعَذِّبْنِي فأنتَ غيرُ ظالمٍ لي، إلهي فإذ قد تغمّدتني بسترك فلم تفضحني، وتأنيتني بكرمك فلم تُعاجلني، وحلُمت عني بتفضلكَ فلم تُغيّر نعمَتكَ عليَّ، ولم تُكدِر معروفكَ عندي، فارحم طُولَ تضرُّعي، وشدَّةَ مسكنتي، وسُوءَ موقفِي»[1].

ويختتم الإمام دعاءه في فصله الأخير بطلب الوقاية من المعاصي والتوفيق للطاعة ورزق الإنابة، والتطهير من الذنوب بالتوبة، والتأييد بالعصمة، والاستصلاح بالعافية، واستمراء ذائقة المغفرة بحلاوتها، وأن يجعله طليق العفو، عتيق الرحمة، مأموناً من السخط، مبشراً بذلك عاجلاً لا آجلاً، وذلك ما لا يضيق على سعة الله، ولا يثقل عليه، ولا يشتد أمره عند الله، ولا يعجزه في هباته العظيمة التي دلّت عليها آياته التدوينية في القرآن، وتحدثت عنها آياته التكوينية في الإرادة، واحتشدت بها آياته التشريعية في الأحكام، ونطقت بها آياته الكونية في الآفاق، فهو يفعل ما يشاء، ولا اعتراض على تفضُّله وعطاياه، فالأمر إليه وحده، وهو على كلِّ شيء قدير. يقول الإمام عليه السلام: «اللّهمَّ صلِّ على محمد وآله، وقني من المعاصي، واستعملني بالطاعةِ، وارزُقني حُسنَ الإنابةِ، وطهّرني بالتوبَةِ، وأيّدني بالعصمةِ، واستصلِحْنِي بالعافيةِ، وأذقني حلاوةَ المغفرة، واجعلني طليقَ عفوِكَ، وعتيقَ رَحْمَتِكَ، واكتب لي أماناً من سخطِكَ، وبشّرني بذلك في العاجل دونَ الآجل، بُشرى أعرفها، وعرّفني فيه علامةً أتبيّنها، إنّ ذلِكَ لا يُضيقُ عليكَ في وسعك،

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء السادس عشر.

ولا يتكأدك في قدرتك، ولا يتصعدك في أناتِكَ، ولا يؤودُكَ في جزيلِ هباتِكَ التي دلّت عليها آياتُكَ، إنّكَ تفعلُ ما تشاءُ، وتحكمُ ما تريد، إنّكَ على كُل شيء قدير»[1].

والطريق في هذا الدعاء الجليل ـ وقد بلغ به الإمام غايته ـ أنه يجمع بين الخضوع والخشوع طي فقراته، والخضوع مما تختصّ به جوارح الإنسان في مجالات الطاعة، وقد استنفدها الإمام في شذرات الدعاء، والخشوع مما يختص به القلب والفؤاد في استشعار الخشية والتذلل النفسي.

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء السادس عشر.

مكارم الأخلاق:

ومكارم الأخلاق عند الإمام فلسفة خاصة متفتحة، تعنى بارتفاع مستوى الإنسان إلى مرتبة العبودية الخالصة، فإذا بلغ الإنسان تلك المرتبة، عادت صياغته الفكرية والذاتية صياغة ذات بعد تكويني متطور يوحي بالانصياع لأمر الله في كل شاردة وواردة، فهو من الله وإلى الله، فلا يستقلّ بشيء إلا بإشاءة الله، ولا يصل إلى شيء إلا بأمر الله، ليس له من الأمر شيء، وكل شيء موكول إلى الله جزءاً أو كلاًّ، يتضرَّع بلهفةٍ إلى ساحة قدسه وعظمته وجلالته أن يبلغ بإيمانه أكمل الإيمان، والإيمان مراتب، وهو يريد أسمى تلك المراتب حتى يذوب في الله انصهاراً، ويرى أن لا تأثير له بشيء إلا بالله، حتى يسلم له تسليماً يقينياً، وينيب إليه إنابةً مطلقة، لا رجعة معها ولا عودة منها، وتلك أمارات دالة على إرادة الإيمان المحض، وبالله وحده تتحقق درجات ذلك الإيمان، وعليه الاتّكال في تسيير مختلف الأمور، فهو الماسك بأزمَّتها، وهو المعين على تذليلها، ومنه اللطف تفضُّلاً في إرادة الحياة، وبه الاستعانة في استمرارية الاخلاص والثبات والصلاح.

يقول الإمام عليه السلام: «**اللَّهُمَّ صلِّ على مُحمّد وآلهِ، وبلِّغَ بإيماني أكملَ الإيمان، واجعل يقيني أفضل اليقين، وانتهِ بنيتي إلى أحسن**

النيّاتِ، وبِعَمَلِي إلى أحسنِ الأعمال، اللَّهُمَّ وفّر بِلُطفِكَ نيتي، وصححْ بما عندَكَ يَقيني، وَاستصلح بقُدرَتِكَ ما فَسَدَ مِنّي»[1].

هذا المقطع من الدعاء يفيض بالتوجُّه لله تعالى أن يبلغ بإيمانه أقصى درجات الإيمان رفعةً وشموخاً وقراراً، وبيقينه أسمى مراتب اليقين فضلاً ومنزلةً ومكاناً، وبنيته إلى متناهى النيّات الحسنة إخلاصاً وصدقاً وإرادة، وبعمله إلى أحسن الأعمال طاعةً وتخيّراً وقبولاً، ثم يتضرَّع بالإضافة إلى ذلك كله بتوفير النيَّة الحسنة الخيّرة بلطفه الخفي والجلي، وتصحيح اليقين بما عنده من ملكوت السماوات والأرض، واستصلاح ما فسد منه بالقدرة الطائلة التي لا تضارع ولا تضاد. ثم يتوسل الإمام مستوهباً بكفايته عما يشغله الاهتمام به، واستعماله فيما يُسألُ عنه يوم القيامة، واستغلاله لأيامه في الدنيا بما ينفعه بالآخرة، واستغنائه بواسع الرزق، وأن لا تطغيه النعمة، يضيف لهذا كله طلب العز مع التواضع، والتوفيق للعبادة خالصة دون شائبة العُجب المفسد لها، وأن يجري للناس الخير على يديه دونَ مَنّ، وأن يهب له من لدنه رفيع الأخلاق دون فخرٍ على الناس.

يقول الإمام عليه السلام: **«اللَّهُمَّ صلِّ على محمّدٍ وآلِهِ، واكفِني ما يَشغَلُني الاهتمامُ بهِ، واستعملني بما تسألني غداً عنهُ، واستفرغ أيامي فيما خَلقتني لهُ، وأغنني وأوسع عليّ في رزقِكَ، ولا تفتنّي بالبَطَرِ، وأعزّني ولا تبتلني بالكِبر، وعبّدني لكَ ولا تُفسد عبادَتي بالعُجبِ، وأجر للناسِ على يديَّ الخيرَ، ولاَ تمحقْهُ بالمنِّ، وهبْ لي معالي الأخلاقِ،**

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء العشرين.

واعصمني من الفخرِ»[1].

ويواصل الإمام هذا المنظور بذاته الصافية متحدِّثاً عن سكون النفس إلى ما فيه العزة ورفيع الدرجة، مع خلوص الظاهر وذلة الباطن، مستوحياً الهدى الذي لا بديل عنه، ومسترشداً الطريق الذي لا انحراف معه، ومستلهماً النيَّة الراشدة التي لا شك فيها، ومتطلباً استمرار الطاعة في هذا العمر القصير، والابتعاد عن مهاوي المعصية في هذا الزمن الجائر، متجنباً مزالق الشيطان وموارد المقت والغضب، حتى ليكون الموت مع رضا الله تعالى أحبَّ إليه من الحياة على طولها وعرضها مع غضبه ومقته وسخطه.

قال الإمام عليه السلام: **«اللَّهمَّ صلِّ على مُحمّدٍ وآلِهِ، ولا تَرْفعْنيَ في النَّاسِ دَرَجَةً إلا حططتَني عندَ نفسي مِثلَها، ولا تُحدِثَ لي عزاً ظاهراً إلاّ أحدثتَ لي ذلّة باطنة عندَ نفسي بقدرها، اللَّهُمَّ صلِّ على مُحمّد وآلِ محمّد، ومتّعني بهدىً صالح لا أسْتَبدِلُ بهِ، وطريقة حقٍ لا أزيغُ عنها، ونيّة رُشدٍ لا أشكُّ فيها، وعمّرني ما كانَ عُمري بذْلةً في طاعتِكَ، فإذا كانَ عُمري مَرْتعاً للشيطانِ فاقبضني إليكَ قبلَ أن يَسبقَ مقتُكَ إليَّ، أو يستحكمَ غضبُكَ عليّ»**[2].

ويفجّر الإمام الطاقات الكامنة في نفسه بهذا الدعاء، فيرسي دعائم النضال السلبي ضد الظالمين، ويجلّي صفحات الدين الحق في المعاملة وصدق النية والعلاقات الإنسانية المتميِّزة، فيدعو إلى درء

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء العشرين.
(٢) الصحيفة السجادية/ من الدعاء العشرين.

الفرقة، ووحدة الكلمة، وإصلاح ذات البين، وخفض الجناح، وحسن السيرة، والسبق إلى الفضيلة بما مرّ ذكره في موضع آخر من هذه الرسالة، ثم يؤكِّد الإمام بعض الحقائق الدقيقة في موضعها وزمنها المناسب لها، يقول الإمام عليه السلام: **«اللّهمّ صلِّ على مُحمّد وآلِهِ، واجعلْ أوسعَ رزقِكَ عليَّ إذا كَبِرْتُ، وأقوى قوتِكَ فيّ إذا نصبتُ، ولا تَبْتَلِيني بالكَسَلِ عن عبادَتِكَ، ولا العَمَى عن سبيلِكَ، ولا بالتعرُّض لِخلافِ محبَتِكَ، ولا مُجامعَةِ من تفرّقَ عنكَ، ولا مُفارقَةِ من اجتمعَ إليكَ»**[1].

وهذه اللمحات النادرة تجمع إلى دقَّة المعرفة صدق التجربة، وإلى روح الإنابة رقَّة السؤال، وإلى حسن المسألة موضوعية الطلب، فهو يتضرع بحرارة أن يوسع الله تبارك عليه برزقه عند الكبر، لأن الإنسان حينما يبلغ من العمر عتياً، تتلاشى قواه، ويصبح عاجزاً عن الكدّ والكدح، ويُبتلى عادة بكثرة العيال والحقوق، فهو أحوج إلى المال من غيره من الشباب الذي يستطيع النضال والمواصلة في العمل والارتزاق والجد. ويواصل الإمام طلب ما يدور في هذا المضمار، فيستدعي أرقى درجات القوة عند التعب والنصب كيلا يتوقف عن العمل الأبقى، وأن لا يبتلى بالكسل والوهن عن صنوف العبادة والطاعة، فإذا كسل الإنسان اتكل، وإذا اتكل لم يعمل، وإذا لم يعمل لم ينتج، ولم يبلغ ثمار السعي للآخرة، وهي الهدف الأسمى في مسيرة الأبرار والصالحين، لهذا يعقِّب على هذه الحقيقة بطلب الاستمرار على الهدى فلا يعيى بالسبيل القويم، ولا يضيق ذرعاً بالنهج الهادف، ولا يعرض

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء العشرين.

لخلاف ما أمر به الله أو نهى عنه، ويتوّج كل ذلك بأن يكون حبه في ذات الله، وبغضه في ذات الله، فلا يوالي من خالف الله، ولا يفارق من وافق الله، وهذا منتهى الاخلاص.

ويعرض الإمام إلى جانب مهمّ من جوانب مكارم الأخلاق العليا، فيقول: **«اللّهمَّ اجعلني أصُولُ بِكَ عندَ الضرورَةِ، وأسألُكَ عندَ الحاجةِ، وأتضرَّعُ إليكَ عندَ المَسكنَةِ، ولا تفتنّي بالاستعانَةِ بغيرِكَ، إذا اضطررتُ، ولاَ بالخُضوع لسؤال غيرِكَ إذا افتقَرْتُ، ولاَ بالتضرّعِ إلى مَن دُونَكَ إذا رَهبْتُ، فاستحقَّ بذلِكَ خذلانَكَ ومَنْعَكَ وإعراضَكَ، يا أرحَمَ الرّاحِمِين»**[1].

والاعتداد بالله في مواجهة الأحداث، والالتجاء إليه في درء النوازل، والاتكال عليه في كشف الكربات، كل أولئك ليس من قبيل الترف في الدعاء، أو البطر في السؤال، وإنما تلجىء إليه الضرورة، ولا عبث في الضرورة، وتدعو إليه الحاجة ولا طغيان عند الحوائج، وهكذا ملحظ هذا الدعاء عند الإمام، فالصولة بالله، والتضرُّع إلى الله، وطلب العون من الله، أصداء مدوية لما يمرّ به من الحاجة والافتقار إلى الله، فلا يستعين بسواه، ولا ينظر إلا إلى مولاه، وهذا من أبلغ مراصد التلطف بالدعاء في إنزال حوائجه كافة بالله، فلا يضطر لغيره، ولا يخضع لسؤال خلقه، ولا يتضرع في خوف الإله، وبذلك يأمن مواطن الردّ والمنع والخذلان.

ويتناول الإمام من مراتب مكارم الأخلاق، ما ينزِّه به نفسه،

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء العشرين.

ويطهّر ساحته، ويقوّم فيه سلوكه، ويداوي به قلبه، ويصلح فيه لسانه، ويوفق فيه بين ردّ الغضب وتطلّب الرضا، ويعالج به دوافع النفس الإنسانية في الانتقام بقول أو فعل، ويجابه به الأدران الاجتماعية في الشتم وشهادة الزور والاغتياب، فيقول:

«اللَّهمَّ اجعل ما يُلقي الشيطانُ في رَوعي من التمنّي والتظنّي والحَسَدِ ذكراً لِعَظَمَتِكَ، وتَفَكّراً في قُدرَتِكَ، وتَدْبيراً على عدوّكَ، وما أجرى على لساني من لفظةِ فُحشٍ، أو هُجرٍ، أو شتمِ عرضٍ، أو شهادة بَاطلٍ، أو اغتياب مؤمِنٍ غائِبٍ، أو سبِّ حاضِرٍ، وَمَا أشبَهَ ذَلِكَ نُطقاً بالحمْدِ لَكَ، وإغراقاً في الثناءِ عليْكَ، وذهاباً في تمجيدِكَ، وشُكراً لِنعمَتِكَ، واعترافاً بإحسانِكَ، وإحصاءً لِمنّتِكَ»[1].

وتوجّه الإمام في هذا المقطع إلى الله تعالى بأن يكون في النتيجة ما يلقي الشيطان من الأماني والظنون وعوالم الغيرة والحسد والشؤون الأخرى على القلب ذات محور عكسي لتعود موجباً فاعلاً لذكر عظمة الله وعليائه، فيقلع القلب وصاحب القلب عن توافه الأمور، متفكراً في قدرة الله المترامية، ومتدبِّراً في تدبيره تعالى على أعدائه، وبهذا الاحساس العالي ينشط الإنسان للعبادة، ويفيق من غيبوبة السكر، فيهجر مواطن الزلل في القول، ويتّجه نحو الثناء المطلق لله، وحديث الإمام في هذا السياق، وفي ظلِّ هذا النسق الإيحائي يتمثل المثل العربي القديم «إياكِ أعني واسمعي يا جارة»!! فهو يواجهنا بالحقيقة ليوجّهنا، وهو يصكنا بالمآخذ لينقذنا، وهو يقف بنا عند المخالفة ليهدينا أمثل

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء العشرين.

سبل الوفاق، وهو يرصدنا ونحن نهوي في وادٍ سحيق لينقذنا من مهاوي الطريق، ويضع الإمام لذلك نماذج مما اعتاد عليه الناس برصدٍ من الشيطان: فاحش القول.. شتم الأعراض.. هجر اللسان. شهادة الباطل.. اغتياب الغائب.. سبّ الحاضر.. وما جرى هذا المجرى من نقائص الأقوال، وبذيء العبارات. والإمام في ضوء هذا الانحدار اللساني لدى فصيل كبير من الدهماء، يسأل الله أن يجعل ما أجراه الشيطان على مثل هذا اللسان في اتجاه معاكس يكون موجباً فعلياً للنطق بحمد الله، والإغراق بثنائه، والذهاب كل مذهب في تمجيده، وصياغة كل ذلك في هيكلية توظيفية يتداعى بين يديها المراد ليعود شكراً لله على نعمته، واعترافاً بإحسانه، وإحصاءً لمننه، وبذلك يتدارك الإنسان ما فات، ويكفّر المتورط عما بدر، ويؤوب الفارّ إلى الله، فيرد كيد الشيطان.

إن هذه الفقرات البليغة لتأخذ بيد المسلم الحق إلى الجادة، وإنها لتهديه بأمان إلى الصراط القويم، يكافح بها الخطل، ويناضل هجمات الهوى، ويستعدي النفس ضد الباطل.

ويعرض هذا الإمام العظيم إلى جانب آخر عظيم، فيستدفع بالله الظلم واقعاً عليه أو صادراً منه، ويستنجد ضارعاً بطلب الهداية والغنى والقدرة منه وحده، وهو يفد بذلك على الله طلباً لمغفرته، واشتياقاً لعفوه وتجاوزه، واثقاً بفضله تعالى، فليس عنده ما يوجب المغفرة، ولا في عمله ما يستحق به العفو، فالتقصير واضح الدلائل، وقد حكم على نفسه بذلكِ، فليس له إلا فضل الله، فليتفضل عليه تلطفاً، وليتداركه تحنناً، ولينطقه نطق الهداة، ويلهمه التقوى، ويوفقه للتي هي

أزكى، ويستعمله بما هو أكثر رضا لله، فيسلك به أمثل الطرق، وأن يجعله في استمراريَّة من الهداية في حياته حتى مماته، أو في دنياه وآخرته كما يبدو من النص الإشارة إلى ذلك.

يقول الإمام عليه السلام: **«اللَّهُمَّ صلِّ على مُحمّدٍ وآلِهِ، ولا أُظْلَمَنَّ وأَنْتَ مُطيقٌ للدفع عنّي، ولاَ أظْلِمَنَّ وَأَنْتَ القادرُ على القَبْضِ منّي، ولا أضلنّ وَقد أمكنتكَ هدايتي، ولا أفْتَقِرَنّ ومن عندِكَ وسعي، ولا أطْغِيَنَّ ومِنْ عِنْدِكَ وجْدي، اللَّهمَّ إلى مغفِرتكَ وفَدْتُ، وإلى عَفوِكَ قَصَدْتُ، وإلى تجاوزِكَ اشْتَقْتُ، وبِفَضْلِكَ وثِقْتُ، وَلَيْسَ عندي ما يُوجبُ لي مغفِرَتكَ، ولاَ في عَمَلي ما أسْتَحِقُّ بِهِ عَفوكَ، وَمَالي بعد أنْ حَكَمْتُ على نَفْسِي إلاّ فَضْلكَ، فَصلِّ على مُحَمّدٍ وآلِهِ، وتفضّل عليَّ اللَّهُمَّ وأنطِقْنِي بالهُدى وأَلهِمْنِي التقوى، ووفّقني للتي هي أزكى، واستعملني بما هُوَ أرضى، اللَّهُمّ أُسلُكْ بي الطريقة المُثلى، واجعلني على مِلّتِكَ أموتُ وأحيا»**[1].

ثم يتسامى الإمام بدعائه إلى جلائل الأبعاد السلوكية، واصطفاء أمهات الفضائل، والغوص في أعماق الكمالات، بما يصلح الذات، ويقوّم الوعي الديني، متطلّعاً إلى ذروة الكمال النفسي والخلقي، ومتجهاً إلى القصاص الإلهي في تخليص النفس وإصلاحها، وإلا فهي هالكة أو تتاح لها فرصة من هداية أو عصمة.

يقول الإمام عليه السلام: **«اللَّهمَّ صَلِّ على مُحَمّدٍ وآلِهِ، ومَتّعني**

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء العشرين.

بالاقتصادِ، واجعلني من أهلِ السَدادِ، ومن أدلّة الرَّشادِ، ومن صالحي العبادِ، وارزقني فوزَ المَعَادِ، وسلامَةَ المِرصَادِ، اللَّهُمَّ خُذ لِنفسكَ من نَفسي ما يُخلّصُها، وأبقِ لنفسي من نفسي ما يُصلحُها، فإنَّ نفسي هالكةٌ أو تعصمها»[١].

ثم يؤوب الإمام إلى الله بتلك الروح المشبعة بالتقوى، ويتوسَّل إليه بذلك الكيان المليء بالنقاء، فالله تعالى هو العدة عند الحزن، وهو المنتجع لدى الحرمان، وبه الاستغاثة في الكوارث، وعنده الخلف مما فات، وبيده صلاح ما فسد، ولديه تغيير ما ينكر، يمنّ قبل البلاء بالعافية، ويجود قبل السُّؤال بالعطاء، ويتفضَّل قبل الضلال بالرشاد، ومن كان هكذا وهو هكذا دائماً وأبداً، فهو حريٌّ بأن يكفي الإنسان جرائر العباد، وأن يهب له الأمن يوم المعاد، وأن يمنح عبده الارشاد الحسن في كل الأحوال.

يقول الإمام عليه السلام: **«اللَّهُمَّ أنتَ عِدَتي إن حَزِنتُ، وأنتَ مُنتَجَعِي إن حُرمتُ، وبِكَ اسْتِغاثتي إن كَرِثْتُ، وعندِكَ مما فات خَلَفٌ، ولِمَا فَسَد صَلاحٌ، وفيما أنكرتَ تغييرٌ، فأمنُنْ عليَّ قبل البلاءِ بالعافيةِ، وقَبْلَ الطلبِ بالجِدَة، وقبل الضَّلاَلِ بالرَشادِ، واكفني مؤونةَ مَعَرَّة العِبادِ، وهبْ لي أمنَ يوم المعادِ، وامنحني حُسنَ الإرشاد»**[٢].

وبعد هذه المعاني العرفانية التي تؤكد مكارم الأخلاق بأبرز صورها الإنسانية الفذَّة، يتجه الإمام إلى قمة جديدة في إطار تلك

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء العشرين.
(٢) الصحيفة السجادية/ من الدعاء العشرين.

المكارم العليا، فيستميح الله تعالى لطفه ونعمته، وكرمه وحسن صنيعه، والكون في ذرى ظله الوريف، والادراع برضاه المنيع، والتمسك بأزكى الأعمال إذا أشكلت المسالك، والاقتداء بأرضى الملل إذا تناقضت. وهذا ملّخصٌ وافٍ بطلب الهداية من أقصر طرقها، وأسلم غاياتها، مناطةً بالله وحده.

يقول الإمام عليه السلام: **«اللّهُمَّ صلِّ على مُحمّدٍ وآلِهِ، وادرأ عنّي بلُطفِكَ، وأَغذُنِي بنعمَتِكَ، وأصلِحني بكَرَمِكَ، وَداوِني بِصُنْعِكَ، وأظلني في ذرَاكَ، وجلّلني رِضَاكَ، ووفِقني إذا اشتَكَلت عليّ الأمور لأهْداهَا، وإذا تشابهت الأعمال لأزكاها، وإذا تناقضت المِلَل لأرضاها»**[1].

وينصرف الإمام بتضرع خالص، وينيب بقلب تقطر منه نفحات الحب الإلهي، فيدعو الله متذللاً أن يهبه كفاية الأمور، ويَسِمَهُ بحُسنِ الولاية، ويزينه بنعم الهداية، وأن لا يمتحنه بالسعة في كل شيء، وأن يمنحه الدعة في العيش في رخاء غير مقترن بالكد الشديد، وأن يستجيب دعاءه مقبولاً غير مردود فهو موحّدٌ لم يجعل لله نداً، ولم يدعُ معه مثلاً وأحداً، ويتوسل بعد هذا متشفعاً بالنبي وآله ليمنعه من الاسراف والعبث والتلف، وأن يجعل ما يملكه مباركاً دائماً نامياً يصيب به طريق الهداية لأعمال البر فيما ينفق.

يقول الإمام عليه السلام: **«اللّهُمَّ صلِّ على مُحمّد وآلِهِ، وتَوِّجْنِي بالكفَايَةِ، وَسُمني حُسنَ الولايَةِ، وَهبْ لي صِدقَ الهدايَةِ، ولا تفتنّي بالسَّعَة، وامنحني حُسنَ الدِّعةِ، وَلا تَجْعل عيْشِي كدّاً كدّاً، ولا تردّ**

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء العشرين.

دُعائي عَليَّ رَدّاً، فإني لا أجعلُ لَكَ ضِداً، ولا أدعو معَك نِداً، اللَّهُمَّ صلِّ على مُحمَّدٍ وآلِهِ، وامنعني من السَّرَف، وحصِّن رزقي مِن التَلَفِ، ووفِّر مَلَكَتِي بالبَرَكَةِ فيه، وأَصِبْ بي سبيلَ الهداية للبر فيما أُنفِقُ منه»[1].

ويستمر الإمام بالدعاء في شؤون الرزق الحلال وشجونه بما عرض له البحث في موضع آخر من الرسالة بحدود استعراضية ومكثفة فيما سبق، ويختتم الإمام دعاءه هذا بهذه الفقرات:

«اللهمَّ صلِّ على مُحمّدٍ وآلِهِ، وارزُقنِي صحَّة في عِبادةٍ، وفراغاً في زَهادة، وعلماً في استعمال، وورعاً في إجْمَالٍ، اللهم اختم بعفوك أجلي، وحقّق في رجاء رحمتك أملي، وسهّلْ إلى بلوغ رضاك سُبُلي، وَحَسِّن في جميع أحوالي عملي، اللهم صلِّ على محمدٍ وآله ونبّهني لِذِكْرِكَ في أوقات الغفلة، واستعملني بطاعتك في أيام المهلة، وأنهج لي إلى محبتك سبيلاً سَهْلَةً، أكمل لي بها خير الدنيا والآخرة.

اللَّهُمَّ وصلِّ على مُحَمَّدٍ وآلِهِ، كأفضل ما صلَّيت على أحدٍ من خلقِكَ قبلَهُ، وأنتَ مُصلٍّ على أحدٍ بعدَهُ، وآتنا في الدُّنيا حسَنَةً وفي الآخرة حسنة، وقني برحمتِكَ عذابَ النارِ»[2].

وهذا الختام في روعته يشتمل على ثلاثة مؤشرات موضوعية:

الأول: يتناول الحياة الروحية المحضة في أبعادها التوظيفية القصوى: صحة العبادة، التفرغ للزهد في الحياة، الاعراض عن الدنيا،

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء العشرين.

(٢) الصحيفة السجادية/ من الدعاء العشرين.

الإمعان بالعمل، العمل بالعلم، التورع عند الشبهات، القصد في السعي، الاعتدال دون إسراف.

الثاني: جعل الله نصب عينيه في شتى المجالات، فلا ينساه في لحظة، ولا يتغافل عنه في لقطة، ينبهه عند الغفلة، ويوفقه أيام الدنيا للطاعة، ويعينه بخط مستقيم إلى المحبة، ويحقق له الخير العميم في الدنيا والآخرة متكاملاً غير منقوص.

الثالث: نظره البعيد إلى اليوم الآخر وكأنه يراه في كل مشاهده، فيتطلب أن يختم الله بالعفو الآجل، وأن يحقق رجاءه في الرحمة، وأن يسهّل ـ دون مشقة ـ سبله إلى رضاه، وأن يحسن عمله في كل الأحوال حتى يكون كل عمله متوّجاً بأحسن العروض.

أضف إلى هذه المؤشرات الفاضلة إن الإمام يوالي صلواته على النبي وآله في رفع درجاته السامية كأفضل ما صلّى على أحد من العالمين سابقاً ولاحقاً، ويختم ذلك بأن يؤتى في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وأن يُوقّىٰ عذاب النار.

هذا الدعاء بتفصيلاته الآنف ذكرها، صفحة مشرقة من صفحات مكارم الأخلاق الفضلى التي يدعو إليها الإمام دعوة خالصة، فهو من خلالها ينيط بالله الاشاءة، وَيخلص عليه التوكل، ويقصر به الاستعانة، يندبه ـ وحده ـ مستغيثاً ليثبته على القول الثابت، ويجأر إليه في استلهام أسمى الصفات والشمائل، ويطلب منه الوقوف بأناة وصبر وعزيمة على خير الدنيا والآخرة، مستميحاً إيّاه العفو، ومتوسلاً به في الرضا.

كل ذلك ما يهبه الله وحده، ومن كانت هكذا خصائصه في ذاته القدسية كان ما يهبه عظيماً متناسباً مع هذه الخصائص.

البرّ بالوالدين:

الصلة بين الولد وأبويه تبقى بحاجة إلى مسح شامل يضع النقاط على الحروف، وهذا المسح الشمولي يفتقر إلى صقل إيديولوجي يستلهم الجذور الإنسانية الراسخة التي تربط الفرع بالأصل، ويسترعي عمق العلاقة التي تخصُّهما، وتستوعب شتى السبل التوثيقية التي تمسكهما، فهما تشكيلة بنائية واحدة، وإن تبرعمت منها الأغصان المتدّلية مجموعة أو متفرِّقة، إضافة إلى أواصر الحب والحنان المتبادلين، ووشائج الشفقة والمودّة الممتدين بداية ونهاية.

ويبدو أن الإمام كان معنياً عناية خاصة بحفظ العلاقات القائمة بين الآباء والأبناء على مستوى رفيع بما يتخللها من واجبات مفروضة وحقوق متكافئة ومروءات قائمة. الإمام يعتبر البرّ حقيقة ثابتة بالأفعال، لا مرايا تهتزّ بمجرَّد تلاعب في الألفاظ، لا يكتفي بفارغ القول دون العمل، ولا بظاهر البر البرّاق دون الحقائق، ذلك ما دعاه حازماً إلى أن يغوص في أعماق الموضوع مستجلياً مراشده، ويخوض شتى الغمرات مستقصياً شذراته، ومعقباً أصناف الثغرات مستملياً متطلباته، ومتتبعاً كل الجزئيات، راصداً للبعد الواقعي.

بعد هذا كله تجد الإمام بجدارة فائقة ينبري للحديث الموضوعي في هذا المناخ المشحون ضمن مجالين متقابلين: الحياة الدنيا في شتَّى

نوازعها، والحياة الآخرة في أبرز مقتضياتها، ثم يوفق بينهما توفيقاً عجيباً، فترى البرّ ـ من خلال هذا الجهد ـ وكأنك تمسكه، وتشاهد الاحسان المندوب إليه وكأنك تلمسه، يجمع لك بين الأمرين، ويوقفك على المنهجين، فلا يفرط في جانب دينوي على حساب جانب أخروي، ولا يقف عند طرف إلا منبّهاً على الطرف الثاني، ولا يثير قضية إلا بحلٍّ توفيقي، ولا يطرح مسألة دون جواب موضوعي توظيفي.

هذا المنهج الجديد الذي اختطه الإمام قاصداً إليه، يسير بك بأناة وطمأنينة إلى ينابيع الإيمان الأولى، ويخطو بك واثقاً إلى مصادر التشريع الإلهي الثابت، فلا لفّ ولا دوران، بل العودة المباركة إلى مناخ النبي وأئمة أهل البيت في العطف واللطف والبرِّ والحياة الكريمة اللينة، فلا عَنَت ولا عُسر ولا إحراج، الاستزادة من كل خير، والاستنارة بكل وهج، والاستقامة في كل سبيل، مؤشرات بارزة في الهدي والوعي والتوجيه. دعائية الإمام في هذا الملحظ غاية موضوعية، لا تكاد تجيل طرفك في فقرة منها حتى تطل على فقرة أمثل، ولا تستطرف شذرة نادرة فيها حتى تقف عند شذرة أثمن، ولا تتأقلم بتوجيه صاعد فيها حتى تتجاوزه إلى ما هو أشد تأثيراً والتصاقاً بقلبك وضميرك وشعورك وجوارحك، وهذا شأن كل ما هو أصيل ومبتكر، تنعم بحقائق الأشياء مجردة عن الطلاء، وتضع يديك على مواطن العلاج رتيبة ناجعة، وتقتصر بنفسك على مواهب الرحمة ندية فسيحة، فأنت بين هذا وذاك في أفق جديد لا عهد لك به من ذي قبل، تصيب به ما تشاء من ثمرات البر ونفحات الاحسان، ما يملأ نفسك غبطةً وسروراً.

لقد كان من دعاء الإمام لأبويه عليهما السلام، ما يقوّم به أودَنا، ويوقظ

به ضمائرنا، ويهيىء به نفوسنا: البِرّ في أسمى مظاهره ومعالمه، الطاعة في أيسر سبلها وفروضها، الاحسان في أبرز سماته وعلائمه، يقول الإمام ممهداً بين يدي الموضوع:

«اللّهُمَّ صلِّ على مُحمّدٍ عبْدِكَ وَرَسُولِكَ وَأهلِ بيتِهِ الطّاهرينَ، وَأخصصهُم بأفْضَلِ صَلواتِكَ ورَحْمَتِكَ وَبَرَكَاتِكَ وَسلاَمكَ، واخصُص اللّهُمَّ والِدَيَّ بالكَرَامَةِ لَدَيْكَ، والصَّلاَةِ منكَ يا أرحَمَ الرّاحمين»[1].

هذه مقدمة طالما استعملها الإمام في الصلاة على النبيِّ وآله، يضعها في موقعها من كل دعاء ومسألة، ويتوّج بها كل حديث وبيان، تنبيهاً على سموِّ منزلة المتوسل به، وإلحاحاً في الذكر المناسب المخصص له، واستئناساً بالدلالة الإيحائية التي تشير إلى أهمية هؤلاء بالذات بين يدي كل دعاء وطلب واسترحام، وهنا بعد ذلك يطلق الإمام تخصيص الكرامة لوالديه من الله، وهي كرامة لا تحد بحدود لأنها مقترنة بفضل الله ورحمته، وهما لا يتناهيان. ويبدأ الإمام بالدعاء موضوعياً، فيقول:

«أَللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَأَلْهِمْنِي عِلْمَ مَا يَجِبُ لَهُمَا عَلَيَّ إلْهَاماً، وَاجْمَعْ لِي عِلْمَ ذَلِكَ كُلِّهِ تَمَاماً، ثُمَّ اسْتَعْمِلْنِي بِمَا تُلْهِمُنِي مِنْهُ، وَوَفِّقْنِي لِلنُّفُوذِ فِيمَا تُبَصِّرُنِيْ مِنْ عِلْمِهِ، حَتَّى لاَ يَفُوتَنِي اسْتِعْمَالُ شَيْءٍ عَلَّمْتَنِيهِ، وَلاَ تَثْقُلَ أَرْكَانِي عَنِ الحُفُوفِ فِيمَا أَلْهَمْتَنِيهِ»[2].

هذه اللمحات النابضة من الدعاء، توحي بعظيمِ مكانة الوالدين

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الرابع والعشرين.
(٢) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الرابع والعشرين.

عند الله، وتؤكّد جلالة المنزلة والقدر الشامخ لهما، فالإمام يتوسَّل بالله أن يلقي في روعه، علم ما يجب لهما من الحق، وأن يلهمه ذلك إلهاماً حتى ينهض بثقل التكليف بأداء حقِّهما، ويستقصي ذلك بأن يجمع له علم ذلك بجزئيّاته كافة ليتفرَّغ لأدائه متكاملاً، ثم يستدعي التوفيق للعمل بما يلهمه الله، ويلقيه على قلبه، ليصل نافذاً إلى تلك الظِلال الفسيحة فيما يبصّره فيه، ليستعمل ذلك كله بطاعتهما، والاحسان إليهما، بعفوية تلقائية دون أن تثقل جوارحه وأعضاؤه بالاحاطة التامة المفروضة عليه من حقهما.

ويتَّجه الإمام إلى الله بمحمد وآله أن يجعله مهيباً لهما منتهى الهيبة كما يهاب السلطان الظالم، وأن يبرهما برَّ الأم الرؤوم بولدها، وأن يجعل ذلك قرةً لعينه يهفو لها كما يهفو شديد النعاس إلى النوم، وأن يثلج بها صدره كما يثلج شديد العطش ببارد الماء.. هذا الدعاء بهذه اللهفة المبرّحة يورده الإمام ليؤثر الأبوين على نفسه مندفعاً، ويقدم هواهما على هواه مؤثراً، ويسعى إلى رضاهما على رضاه جاهداً، وبعدها يتوسَّل إلى الله أن يستكثر هذا القليل من برهّما، وأن يستقل هو بنفسه هذا البرّ وإن كان كثيراً، حتى يوالي إحسانه، ويواصل إكرامه، يقول الإمام عليه السلام:

«أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، كَمَا شَرَّفْتَنَا بِهِ، وَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، كَمَا أَوْجَبْتَ لَنَا الْحَقَّ عَلَى الْخَلْقِ بِسَبَبِهِ. أَللَّهُمَّ اجْعَلْنِي أَهَابُهُمَا هَيْبَةَ السُّلْطَانِ الْعَسُوفِ، وَأَبَرُّهُمَا بِرَّ الأُمِّ الرَّؤُوفِ؛ وَاجْعَلْ طَاعَتِي لِوٰالِدَيَّ وَبِرِّيْ بِهِمَا أَقَرَّ لِعَيْنِي مِنْ رَقْدَةِ الْوَسْنَانِ، وَأَثْلَجَ لِصَدْرِي مِنْ شَرْبَةِ اَلظَّمْآنِ؛ حَتَّى أُوثِرَ عَلَى هَوَايَ هَوَاهُمَا، وأُقَدِّمَ على رِضَايَ رِضَاهُمَا،

وَأَسْتَكْثِرَ بِرَّهُمَا بِي وَإِنْ قَلَّ، وَأَسْتَقِلَّ بِرِّي بِهِمَا وَإِنْ كَثُرَ»[١].

ثم يُحدِّد الإمام مظاهر البر، ويُفجّر موارد الاحسان، ويشرح ملامح الهيبة، ويُلخّص مفردات الحنو واللطف، ذلك في خطوات أحسبها جديدة على مناخ التمرّد والانفلات الذي واكب الفترة التي عاشها الإمام في حكم الطواغيت، وهذه الفقرات تدلُّ على ذاتها بذاتها، وتعبر عن جمال مكنوناتها دون تعليق أو إضافة أو شرح.

يقول الإمام عليه السلام:

«أَللَّهُمَّ خَفِّضْ لَهُمَا صَوْتِي، وَأَطِبْ لَهُمَا كَلاَمِي، وَأَلِنْ لَهُمَا عَرِيكَتِي، وَاعْطِفْ عَلَيْهِمَا قَلْبِي، وَصَيِّرْنِي بِهِمَا رَفِيقاً، وَعَلَيْهِمَا شَفِيقاً، أَللَّهُمَّ اشْكُرْ لَهُمَا تَرْبِيَتِي، وَأَثِبْهُمَا عَلَى تَكْرِمَتِي، وَاحْفَظْ لَهُمَا مَا حَفِظَاهُ مِنِّي فِي صِغَرِي. أَللَّهُمَّ وَمَا مَسَّهُمَا مِنِّي مِنْ أَذىً، أَوْ خَلَصَ إِلَيْهِمَا عَنِّي مِنْ مَكْرُوهٍ، أَوْ ضَاعَ قِبَلِي لَهُمَا مِنْ حَقٍّ.. فَاجْعَلْهُ حِطَّةً لِذُنُوبِهِمَا، وَعُلُوّاً، في دَرَجَاتِهِمَا، وَزِيَادَةً فِي حَسَنَاتِهِمَا؛ يَا مُبَدِّلَ السَّيِّئَاتِ بِأَضْعَافِهَا مِنَ الْحَسَنَاتِ»[٢].

ويؤكّد هذا المنحنى مراعاة الأدب الجمّ مع الوالدين: خفض الصوت، لين الجانب، ميل القلب، رفيقاً دون عنف، وشفيقاً بلا دالّةٍ، شكراً للتربية، وذكراً للمعاناة الأبوية، متوسلاً بإثابتهما على تكرمته، وجزائهما على رعايته، وحفظهما على حفظه في مراحل حياته الأولى صغيراً وناشئاً ومترعرعاً، فمسّهما الأذى ونالهما المكروه، فضاعت

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الرابع والعشرين.

(٢) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الرابع والعشرين.

لهما الحقوق الواجبة مما يستدعي الدعاء لهما بأن يجعل ذلك وضعاً للذنوب، وعلواً في الدرجات، وزيادة في الحسنات، وبذلك يجتمع خير الدنيا وثواب الآخرة، والله يضاعف لمن يشاء، بل يبدل السيئات إلى حسنات، فيغفر لمن يشاء من عباده، ويبدل سيئاتهم إلى حسنات تفضُّلاً منه ورحمة.

ويتابع الإمام هذه المهمَّة الإنسانية بوهج من فكره الثاقب، فيتلافى ما يمكن أن يحصل للأبوين من الغفلة أو التهاون أو التقصير، فيورد مظان تجاوزه على لسان الولد البار، فيقول الإمام عليه السلام:

«أَللَّهُمَّ وَمَا تَعَدَّيَا عَلَيَّ فِيهِ مِنْ قَوْلٍ، أَوْ أَسْرَفَا عَلَيَّ فِيْهِ مِنْ فِعْلٍ، أَوْ ضَيَّعَاهُ لِي مِنْ حَقٍّ، أَوْ قَصَّرا بِي عَنْهُ مِنْ وَاجِبٍ.. فَقَدْ وَهَبْتُهُ لَهُما، وَجُدْتُ بِهِ عَلَيْهِمَا، وَرَغِبْتُ إِلَيْكَ فِي وَضْعِ تَبعَتِهِ عَنْهُمَا، فَإِنّي لاَ أَتَّهِمُهُمَا عَلَى نَفْسِيْ، وَلاَ أَسْتَبْطِئُهُمَا فِي بِرِّي، وَلا أَكْرَهُ مَا تَوَلّيَاهُ مِنْ أَمْرِي يَا رَبِّ، فَهُمَا أَوْجَبُ حَقّاً عَلَيَّ، وَأَقْدَمُ إِحْسَاناً إِلَيَّ، وَأَعْظَمُ مِنَّةً لَدَيَّ.. مِنْ أَنْ أُقَاصَّهُمَا بِعَدْلٍ، أَوْ أُجَازِيَهُمَا عَلَى مِثْلٍ»[1].

وهذه الاشارات الحيَّة الصريحة تتدارك ما قد يحصل في خضم الحياة الصاخب، من تجاوز لا يقصد إليه تعمداً، ولا يَرِدُ تشفياً، وإنَّما يتراءى من قبل بعض الآباء تجاه جملة من الأبناء عفوياً، أو بشيء من اللامبالاة التربوية، أو بنوع من التهاون البريء، يتمثل ذلك بعدّة فرضيات قد تحدث: الاعتداء بالقول القارص، الاسراف في المجابهة، التضييع لبعض الحقوق، التقصير في الواجب المعيّن، هذه مؤشرات قد

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الرابع والعشرين.

تكون وقد لا تكون، فإذا كانت فالإمام يوجهنا بلطفه وتلطفه أن نقابل هذا التجاوز بالهبة لهما، ونرغب إلى الله تعالى في وضع تبعة ذلك عنهما، فلا عتاب ولا عقاب ولا مساءلة، والابن البارّ النموذج لا يتّهم أبويه على نفسه، ولا يستبطئهما في الإحسان إليه، ولا يكره توليتهما أمره صغيراً كان أو كبيراً، فهما أوجب حقّاً عليه من كل أحد في الوجود، وأقدم إحساناً من كل محسنٍ في الحياة، وأعظم امتناناً من أن يأخذ حقه منهما ـ لو ضاع ـ قِصاصاً، أو أن يجازيهما على ما فعلا معه مجازاة صارمة.

ثم يستفهم الإمام تذللاً في ردّ هذه المآخذ، فيقول:

«أَيْنَ إذاً يَا إلَهِيْ طُولُ شُغْلِهِمَا بِتَرْبِيَتِي؟! وَأَيْنَ شِدَّةُ تَعَبِهِمَا فِي حِرَاسَتِيْ؟! وَأَيْنَ إقْتَارُهُمَا عَلَى أَنْفُسِهِمَا لِلتَّوْسِعَةِ عَلَيَّ؟! هَيْهَاتَ مَا يَسْتَوْفِيَانِ مِنِّي حَقَّهُمَا، وَلاَ أُدْرِكُ مَا يَجِبُ عَلَيَّ لَهُمَا، وَلاَ أَنَا بِقَاضٍ وَظِيفَةَ خِدْمَتِهِمَا. فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ؛ وَأَعِنِّي يَا خَيْرَ مَنِ اسْتُعِينَ بِهِ، وَوَفِّقْنِي يَا أَهْدَى مَنْ رُغِبَ إلَيْهِ، وَلاَ تَجْعَلْنِي فِي أَهْلِ العُقُوقِ لِلآباءِ وَالأُمَّهاتِ يَوْمَ تُجْزىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ»[١].

هذا الاستيضاح صرخة مدوّيةً من الضمير الإنساني الأرقى تهزّ الكيان من أعماقه، وتستثير الحميّة من الداخل يصعّدها الإمام للأجيال لتتلمس أثرها في مسارب الحياة كافةً. فهو يعتذر للأبوين عن الهنات المفترضة، وهو يكافئهم بالحسنى عن الزلل الجزئي المتوقَّع، ولكن هذا وذاك لا يؤثر من قريب أو بعيد عن المسيرة النضالية الجادة للآباء

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الرابع والعشرين.

في سبيل الأبناء، إن طول المعاناة المضنية بالتربية الحقة، وشدة الوطأة في استيحاء الوقاية والعناية والرعاية، وحقيقة التقتير المعاشي على النفس للتوسعة على الولد، كل أولئك دلائل بارزة يستلهم إفرازها العظيم الأبناء للتوعية فيما قام به الوالدان من جلائل الأعمال، وتتابع المسؤوليات، وفلسفة الايثار، فلا يستوفيان حقَّهما من الأبناء، ولا يدرك الولد ـ مهما كان باراً بهما ـ من حقِّهما ما يجب لهما، ولا هو بقادر بحال على أداء واجب ما قابلاه به من نفحات ولمسات وهبات، يقصر عن ردها، ويعجز عن شكرها، لذلك كله يستنجد الإمام عليه السلام بالله عز وجل، ويستعين به على التوفيق لتوظيف أسمى ما ينبغي فعله وعمله وقوله بحقِّهما، وأن لا يجعله من أهل العقوق للوالدين يوم يقوم الناس لرب العالمين.

وكان ختام المسك لهذا الدعاء العظيم قوله عليه السلام:

«أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، وَاخْصُصْ أَبَوَيَّ بِأَفْضَل مَا خَصَصْتَ بِهِ آبَآءَ عِبادِكَ الْمُؤْمِنِينَ وَأُمَّهَاتِهِمْ؛ يَا أَرْحَمَ ٱلرَّاحِمِينَ؛ أَللَّهُمَّ لاَ تُنْسِنِي ذِكْرَهُمَا فِي أَدْبَارِ صَلَوَاتِي، وَفِي آنٍ مِنْ آنآءِ لَيْلِي، وَفِي كُلِّ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ نَهَارِي. أَللَّهُمَّ صَلِّ علَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ؛ وَاغْفِرْ لِي بِدُعَآئِي لَهُمَا، وَاغْفِرْ لَهُمَا بِبِرِّهِمَا بِي مَغْفِرَةً حَتْماً، وَارْضَ عَنْهُمَا بِشَفَاعَتِي لَهُمَا رِضَى عَزْماً، وَبَلِّغْهُمَا بِالْكَرَامَةِ مَواطِنَ ٱلسَّلاَمَةِ. أَللَّهُمَّ وَإِنْ سَبقَتْ مَغْفِرَتُكَ لَهُمَا فَشَفِّعْهُمَا فِيَّ، وَإِنْ سَبَقَتْ مَغْفِرَتُكَ لِي فَشَفِّعْنِي فِيهِمَا، حَتّى نَجْتَمِعِ بِرَأْفَتِكَ فِي دَارِ كَرَامَتِكَ وَمَحَلِّ مَغْفِرَتِكَ وَرَحْمَتِكَ. إِنَّكَ ذُو

الْفَضْلِ الْعَظِيمِ، وَالْمَنِّ الْقَدِيْمِ، وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ»[1].

وقد استشرفت هذه الخاتمة الذروة العليا بالدعاء للوالدين بأفضل ما خصّ الله به آباء عباده المؤمنين من المغفرة والرحمة والرضا والثواب، وأضاف إلى ذلك الطلب بإلحاح وإلحاف أن لا ينسى ذكرهما في مواطن الإجابة: ادبار الصلاة، آناء الليل، ساعات النهار، ويوشح ذلك بأن يغفر الله له بدعائه لأبويه، وأن يغفر لهما ببرِّهما به مغفرة قطعيّة محتومة، وأن يرضى عنهما رضاً بالغاً متيناً في قوة وعزم، وأن يبلّغهما بتكريمه لهما مقام السّلامة في الآخرة، فإن سبقت مغفرة الله لهما فليجعلهما شفيعين له، وإن سبقت المغفرة له فليشفعه فيهما، وهذا من أبلغ الدعاء وأوفقه للاجتماع في دار الكرامة، وهي دار السلام، وهي الجنة التي وُعِدَ المتقّون.

هذه الدعوات الفارهة في ظلالها، الرائعة في مواردها، الهادئة في سكونها، يسيّرها الإمام برجاء وأمل عريضين ويودعهما الله الكريم باعتباره ذا الفضل العظيم الذي لا يتناهى، وهو ذو المنّ القديم الذي لا يحدد، وهو ذو الرحمة المستفيضة، يقف كل راحم ـ مهما عظم ورؤُوفَ ـ دونه بالرحمة.

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الرابع والعشرين.

حماية الثغور:

ومصلحة الإسلام ـ في نظر الإمام ـ فوق كل مصلحة مهما كبرت، وحياة المسلمين عزةً وكرامة هيَ الأولى والأخيرة في تطلُّعات الإمام، وأمن الناس في طمأنينةٍ مُهّمتُهُ في النضال الدعائي الملتزم، ومنعة الإيمان هو سبيل المدافعين والذابّين عن حوزة الدين، واستقرار الأوضاع الداخلية دون ضغوط خارجية أو إضافية هي المعوّل لديه في ظل القيادة الواعية.

هذه المراصد الأمنية التي تحيط دولة الإسلام دِعةً واستقراراً تستوفي عدتها عند الإمام بشذراتٍ من دعائه التوجيهي يختص به أهل الثغور والمرابطين لحماية الدولة عند حدود البلدان الإسلامية سواء أكانوا جيشاً أم رصداً أم شرطة أم مقاومة مشروعة شعبية أو قيادية على حدّ سواء.

الإمام في دعائيته الهادفة يولي هذا الجانب الخطير اهتمامه الخطير أيضاً، ويخصص له صفحات مشرقة نضالية من الدعاء الهادف، يبرمج الأبعاد، ويعالج المؤثرات، ويضع الحلول.

الإمام في دعائه لحماية الثغور وتحصين الحدود ورصد التحرُّكات تقف به عند قائد حربي متمرِّس، ومصلح اجتماعي مُتحضِّر، وخبير دبلوماسي متحفز، وعالم نفساني متدرب، ومرشد روحي

متطوِّر، وعابد إنساني منيب، وزاهد في الحطام متورع، وصامد في وجه الأحداث متوكل، وداعية إلى الله في الذروة ورائد في السياسة الحقَّة لا يجارى، ومتفرد بالإمامة الإلهية، لا يهادِنُ ولا يماري ولا يتلكأ، ومحيط بجغرافية البلاد بطولها وعرضها، ومؤتمن على حياة الناس في صبر ومعاناة، ترى في كل هذا وفوق هذا كله: الدين إلى جنب السياسة الرشيدة، والحميّة الدينية بمصافّ الخبرة القيادية، والتضرُّع التعبدي إلى جنب التوكُّل العقائدي، والتشخيص الاجتماعي بإزاء التوجيه الريادي، والدعوة إلى الجهاد في ظل التصميم الإرادي، والوعي التكاملي في رحاب الحلول الشامخة، تجد هذا كله في فقرات دعائه الخاص للثغور ومرابط المسلمين في شموليته وتخطيطه، وكأنك بين يدي خبير استراتيجي في وعيه وترصُّده وإفاضاته.

لا أغالي إذا قلت إنَّ هذا الدعاء صفحة خالدة في تاريخ التراث الإسلامي، ولا أبالغ إذا اعتبرته لوحة فنية في ترسيم معالم الصيانة والدفاع عن الدولة، ولا أتجاوز الحقيقة إذا تتبعته وثيقة تاريخية لتحصين الحدود جزءاً من متطلبات الأمن والاستقرار للبلاد.

الإمام في هذا الدعاء يلج صلب الموضوع دون مقدمة، ويغوص في أعماقه دون تمهيد، وكأنك متلهف إلى ذلك تلهفاً، ومستبقٌ إلى أبعاده تحسباً، ومتوجهٌ إلى تناوله تخطيطاً، فيقول مبتدئاً:

«أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ؛ وَحَصِّنْ ثُغُورَ الْمُسْلِمِينَ بِعِزَّتِكَ، وَأَيِّدْ حُمَاتَهَا بِقُوَّتِكَ، وَأَسْبِغْ عَطَايَاهُمْ مِنْ جِدَتِكَ. أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ؛ وَكَثِّرْ عِدَّتَهُمْ، وَٱشْحَذْ أَسْلِحَتَهُمْ، وَاحْرُسْ حَوْزَتَهُمْ، وَامْنَعْ حَوْمَتَهُمْ، وَأَلِّفْ جَمْعَهُمْ، ودَبِّرْ أَمْرَهُمْ، وَوَاتِرْ بَيْنَ مِيرِهِمْ، وَتَوَحَّدْ بِكَفَايَةِ

مُؤَونِهِمْ، وَٱغْضُدْهُمْ بِٱلنَّصْرِ، وَأَعِنْهُمْ بِٱلصَّبْرِ، وَالْطُفْ لَهُمْ فِي الْمَكْرِ»[1].

هذه البداية الموسوعية تخص ما يلي دار الحرب، وتعنى بتحصين الثغور وتقويتها بعزة الله التي لا عزَّة بعدها، وتدعو لتأييد حماتها، ودعم رعاتها بقوته التي لا مزيد عليها، ولا قوة وراءها، وتستوهب توسعة العطاء والحباء والامداد من غنى الله الذي لا يحدُّ، وتستجلي شحذ الأسلحة بحيث تكون سريعة النفاذ، قاطعة الحد، وتجمع في ظلال تطلُّعها الواعي إلى: حفظ الحوزة، منع الحومة، إلفة الجمع، تدبير الأمر. وتتمنَّى ايصال ما يمتارونه من المطاعم والمآكل بحيث لا تنقطع في مصادرها ومواردها، وإلصاق كفايتهم بكل ما يحتاجون إليه بالله وحده متفرِّداً، وإناطة تقويتهم بنصره، وتحصين إعانتهم بالصبر، وتوجيه معالجتهم الأمور بلطيف المكر.

ويتابع الإمام عليه السلام الدعاء بجوامع الكلم بقوله:

«أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ؛ وعَرِّفْهُمْ مَا يَجْهَلُونَ، وَعَلِّمْهُمْ مَا لاَ يَعْلَمُونَ، وَبَصِّرْهُمْ مَا لاَ يُبْصِرُونَ»[2].

هذه الفقرات الثلاث تجمع في إيحاءاتها مظانّ الحكمة، من شتى وجوهها: الدعوة للحماة والكفاة بعرفان ما يجهلونه من شؤون الدين، وأمور الحرب، وأصول الحماية، ومكائد الحيطة. التوجه أن يحيطهم الله تعالى علماً بما لا يعلمونه من كليات التقدير وجزئيّات التدبير في

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء السادس والعشرين.

(٢) الصحيفة السجادية/ من الدعاء السادس والعشرين.

العدة واليقظة والحذر. . الابتهال أن يبصرهم الباري ما يبصرونه من التنبه القلبي والإبصار الشعوري مما تتطلبه مقتضيات الأحداث، ومتطلبات الاستعداد والأهبة.

بعد رصد هذه الجوانب الحيوية نفسياً، يؤكِّد الإمام في ما يلي من غرر الدعاء حقيقة ربط النضال الرسالي بالعقيدة الخالصة من كل الشوائب والانتهازية، وهو يدير معالم لقاء الأعداء دون اهتزاز أو تردد بعيداً عن النكسات والكوارث من وجه، وبعزلة عن الأطماع والرغبات والأهواء من وجه آخر، وهو يحمل ذلك بمؤشرات إبداعية في الجمع النوعي المتكامل لهذا الملحظ الهائل في الخلوص والنزاهة والاصطفاء، فلا ذكر للدنيا في زخارفها، ولا عطف على المال في حبه، الجنَّة نصبَ العين، والآخرة مؤشر الأبصار، ومساكن الخلد ثمن التضحية، ومنازل الكرامة ثمرة الجهاد، والحور العين، أنهار الماء واللبن والعسل والخمر، الرحيق المختوم، أقسام الشجر بأصناف الثمر، كلها حوافز أخروية للثبات عند الزحف، وعوامل تثبيتية في الصمود فلا فرار ولا إدبار عند ملاقاة الأقران ومقارعة الأنداد. يقول الإمام عليه السلام:

«أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ؛ وَأَنْسِهِمْ عِنْدَ لِقائِهِمُ الْعَدُوَّ ذِكْرَ دُنْيَاهُمُ الْخَدَّاعَةِ الْغَرُورِ، وَامْحُ عَنْ قُلُوبِهِمْ خَطَرَاتِ الْمَالِ الْفَتُونِ. واجْعَلِ الْجَنَّةَ نَصْبَ أَعْيُنِهِمْ، وَلَوِّحْ مِنْهَا لأَبْصَارِهِمْ مَا أَعْدَدْتَ فِيهَا مِنْ مَسَاكِنِ الْخُلْدِ وَمَنَازِلِ الْكَرَامَةِ وَالْحُورِ الْحِسَانِ وَالأَنْهَارِ الْمُطَّرِدَةِ بِأَنْوَاعِ الأَشْرِبَةِ وَالأَشْجَارِ الْمُتَدَلِّيَةِ بِصُنُوفِ الثَّمَرِ، حَتَّى لاَ يَهُمَّ أَحَدٌ مِنْهُمْ

بِالإِدْبَارِ، وَلاَ يُحَدِّثَ نَفْسَهُ عَنْ قِرْنِهِ بِفِرَارٍ»[1].

وإذا كان التفكير القتالي متجهاً نحو الله في آماله، ومنشغلاً بما أعده الله للمرابطين من هذه اللذائذ الحسيّة، مضافاً إلى المقام الروحي المتميّز في رحاب الحياة الأخروية بما يصاحبها من الألطاف والامدادات التي ترتفع بالمعنويات إلى مستوى التضحية والفداء، فإن النفوس المباشرة للحرب تكون أشد عزيمة وقوة، وأعظم عزّة ومنعةً، وبذلك يضلّ الأعداء وتكسر شوكتهم، وييأس الكافرون وتقلم أظفارهم، ويجبن المعتدون فيطيرون هلعاً، ويفرّق بينهم وبين الأسلحة، ويحال بينهم وبين المعدات القتالية، فتنخلع القلوب فرقاً وفزعاً، وتزلزل النفوس خوفاً وجزعاً، فيحال بينهم وبين أزودتهم، وتشتبه عليهم المسالك فيزدادون حيرةً وضلالاً، وتنطمس عليهم الوجوه ظلمةً وانحساراً، فيقطع الله عنهم المدد، وينقص العدد، ويملأ القلوب رعباً، ويقبض الأيدي عن البسط، والألسن عن النطق، وبذلك يشرّد بهم فراراً، وينكّل بهم خزياً وعاراً، ويوليهم الانتكاس في كل الجهات، ويقطع بخزيهم الأطماع للقادمين من ورائهم.

يقول الإمام عليه السلام: **«اَللَّهُمَّ افْلُلْ بِذَلِكَ عَدُوَّهُمْ، وَاقْلِمْ عَنْهُمْ أَظْفَارَهُمْ، وَفَرِّقْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَسْلِحَتِهِمْ، وَاخْلَعْ وَثَائِقَ أَفْئِدَتِهِمْ، وَبَاعِدْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَزْوِدَتِهِمْ، وَحَيِّرْهُمْ فِي سُبُلِهِمْ، وَضَلِّلْهُمْ عَنْ وَجْهِهِمْ وَاقْطَعْ عَنْهُمُ الْمَدَدَ، وَانْقُصْ مِنْهُمُ الْعَدَدَ، وَامْلأْ أَفْئِدَتَهُمُ الرُّعْبَ، وَاقْبِضْ أَيْدِيَهُمْ عَنِ الْبَسْطِ، وَاخْزِمْ أَلْسِنَتَهُمْ عَنِ النُّطْقِ، وَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ،**

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء السادس والعشرين.

وَنَكِّلْ بِهِمْ مَنْ وَرَاءَهُمْ، وَاقْطَعْ بِخِزْيِهِمْ أَطْمَاعَ مَنْ بَعْدَهُمْ»[١].

ويوالي الإمام عليه السلام دعاءه العريض بصيغة الأمر، طلباً من الله، وتضرُّعاً إلى ساحة عظمته وكبريائه، فيقول:

«أَللَّهُمَّ عَقِّمْ أَرْحَامَ نِسَآئِهِمْ، وَيَبِّسْ أَصْلاَبَ رِجَالِهِمْ، وَاقْطَعْ نَسْلَ دَوَابِّهِمْ وَأَنْعَامِهِمْ؛ لاَ تَأْذَنْ لِسَمآئِهِمْ فِي قَطْرٍ، وَلاَ لأَرْضِهِمْ فِي نَبَاتٍ. أَللَّهُمَّ وَقَوِّ بِذَلِكَ محَالَّ أَهْلِ الإِسْلاَمِ، وحَصِّنْ بِهِ دِيَارَهُمْ، وَثَمِّرْ بِهِ أَمْوَالَهُمْ، وَفَرِّغْهُمْ عَنْ مُحَارَبَتِهِمْ لِعِبَادَتِكَ، وَعَنْ مُنَابَذَتِهِمْ لِلْخَلْوَةِ بِكَ، حَتَّى لاَ يُعْبَدَ فِي بِقَاعِ الأَرْضِ غَيْرُكَ، وَلاَ تُعَفَّرَ لأَحَدٍ مِنْهُمْ جَبْهَةٌ دُونَكَ»[٢].

وهذه الدعوات المترادفة تخلص إلى مؤشرين واضحين:

الأول: الدعوة على الأعداء بالنقص والضعف والفقر والادقاع.

الثاني: الدعوة إلى تقوية المسلمين، وتحصين ديارهم، وتثمير أموالهم، والتفرُّغ لهم بالعبادة وإخلاص الإنابة، حتى تكون العبادة لله وحده خالصة في بقاع الأرض كافة.

ويتطلَّع الإمام بقريحته الصافية إلى نحو خاص في الدعاء للغزاة. يقول الإمام عليه السلام:

«أَللَّهُمَّ اغْزُ بِكُلِّ نَاحِيَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَنْ بِإزَآئِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَأَمْدِدْهُمْ بِمَلاَئِكَةٍ مِنْ عِنْدِكَ مُرْدِفِينَ. حَتَّى يَكْشِفُوهُمْ إِلَى

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء السادس والعشرين.

(٢) الصحيفة السجادية/ من الدعاء السادس والعشرين.

مُنْقَطَعِ التُّرابِ قَتْلاً فِي أَرْضِكَ وَأَسْراً، أَوْ يُقِرُّوا بِأَنَّكَ أَنْتَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ وَحْدَكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ.

أَللَّهُمَّ وَاعْمُمْ بِذَلِكَ أَعْدَاءَكَ فِي أَقْطَارِ الْبِلاَدِ مِنَ الْهِنْدِ والرُّوم وَالتُّرْكِ وَالْخَزَرِ وَالْحَبَشِ وَالنُّوبَةِ وَالزَّنْجِ وَالسَّقَالِبَةِ وَالدَّيَالِمَةِ وَسَائِرِ أُمَمِ الشِّرْكِ الَّذِينَ تَخْفَى أَسْمَاؤُهُمْ، وَصِفَاتُهُمْ، وَقَدْ أَحْصَيْتَهُمْ بِمَعْرِفَتِكَ، وَأَشْرَفْتَ عَلَيْهِمْ بِقُدْرَتِكَ»[1].

والإمام عن طريق الدعاء يدعو المسلمين إلى جهاد عدوِّهم من المشركين، ويدعو الله تعالى أن يمدهم بالملائكة المتتابعين، حتى انكشاف الكفرة وإدالة المشركين، فتطهر الأرض من أرجاسهم، أو يصبحوا مسلمين مقرّين بالربوبية والتوحيد. ثم ينصّ الإمام بعد التعميم على أقوام وأقوام بأن يشمل التطهير أو الاقرار أعداء الله في شرق الأرض وغربها، ممن عددهم من الأمم والشعوب والقوميّات التي تناهض الدين، وممن لم يعددهم الإمام لخفاء أسمائهم وسماتهم ونسبهم، والله قد أحصاهم بمعرفته، وأحاط بهم بقدرته.

ثم يتفرغ الإمام للدعاء على المشركين فيقول:

«أَللَّهُمَّ اشْغَلِ الْمشْرِكِينَ بِالمُشْرِكِينَ عَنْ تَنَاوُلِ أَطْرَافِ الْمُسْلِمِينَ، وخُذْهُمْ بِالنَّقْصِ عَنْ تَنَقُّصِهِمْ، وَثَبِّطْهُمْ بِالْفُرْقَةِ عَنِ الاحْتِشَادِ عَلَيْهِمْ، أَللَّهُمَّ أَخْلِ قُلُوبَهُمْ مِنَ الأَمَنَةِ، وَأَبْدَانَهُمْ مِنَ الْقُوَّةِ، وَأَذْهِلْ قُلُوبَهُمْ عَن الاحْتِيَالِ، وَأَوْهِنْ أَرْكَانَهُمْ عَنْ مُنَازَلَةِ الرِّجَالِ، وَجَبِّنْهُمْ عَنْ مُقَارَعَةِ

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء السادس والعشرين.

الأَبْطَالِ، وَابْعَثْ عَلَيْهِمْ جُنْداً مِنْ مَلاَئِكَتِكَ بِبَأْسٍ مِنْ بَأْسِكَ كَفِعْلِكَ يَوْمَ بَدْرٍ، تَقْطَعُ بِهِ دَابِرَهُمْ، وَتَحْصُدُ بِهِ شَوْكَتَهُمْ؛ وَتُفَرِّقُ بِهِ عَدَدَهُمْ. اَللَّهُمَّ وَامْزُجْ مِيَاهَهُمْ بِالْوَبَآءِ، وَأَطْعِمَتَهُمْ بِالأَدْوَآءِ، وَارْمِ بِلاَدَهُمْ بِالْخُسُوفِ، وَأَلِحَّ عَلَيْهَا بِالْقُذُوفِ، وَافْرَعْهَا بِالْمُحُولِ. وَاجْعَلْ مِيَرَهُمْ فِي أَحَصِّ أَرْضِكَ وَأَبْعَدِهَا عَنْهُمْ، وَامْنَعْ حُصُونَهَا مِنْهُمْ، أَصِبْهُمْ بِالْجُوعِ الْمُقِيمِ وَالسُّقْمِ الأَلِيمِ»[1].

وهذا المقطع الضخم يتعاود المشركين في مرافق حياتهم الدنيا كافة، ولا يشغل المشرك شيءٌ غير حياته ورفاهيته، وأكله وشربه واستقراره وأمنه وراحته، فإذا تلاشى أمله منها انتهى كل شيءٍ بالنسبة له، والإمام يقوّم هذا الملحظ بأبعد صوره، فيدعو الله أن يشغلهم بالحروب والفتن فيما بينهم، وهذا ما يعكّر صفو الأمن والدعة، وأن يأخذهم بالنقص في أعدادهم، وهذا ما يطوّح بحياتهم الاجتماعية، وأن يفلّ عزائمهم بتفريق الكلمة حتى ينشغلوا بالوهن عن الالتفاف على المسلمين، وهذا ما يفكك وحدتهم العصبية، فلا القلوب آمنة، ولا الأبدان قوية؛ وأن يذهل قلوبهم عن التماس الحيلة والمكر، وهذا ما يضعف عزمهم ويبدي خورهم، وأن يوهن تلك العزائم عن منازلة الرجال، وهذا ما يهدّ ركنهم، ويقعد بهممهم عن معالي الأمور، وأن يجبّنهم عن محاربة الأكفاء، وهذا ما يلقي في روعهم الخوف والفزع، وأن يبعث عليهم جنداً من الملائكة متدرِّعين بالشدة، والبأس والغلبة كما فعل ذلك يوم بدر، وهذا ما يصيبهم بالشلل والهلع وعدم الحركة،

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء السادس والعشرين.

إذ لا مقاومة لملائكة الله، فيُقطع دابرهم، وتخضد شوكتهم، ويُفرّق جمعهم، وتذهب عزّتهم أدراج الرياح.

ويتعقّبهم الإمام بملحظ آخر شديد المأخذ، عزيز الاستفادة، دقيق المصادرة، وذلك بالدعاء أن يمزج الله مياههم بالأوبئة والجراثيم وهو ما تؤكده الدراسات البيئية المعاصرة، وأن يخلط أطعمتهم بالأمراض والأسقام، وهو ما تلوّح به مقررات الطب الحديث، يضيف إلى ذلك أن يخسف الله بهم الأرض فلا يفيدون منها شيئاً صالحاً، وأن يشملها بالبلاء كثرةً وتعدداً حتى تصاب بالجدب والقحط، وأن يجعل ما يمتارون من الحبوب وأصناف الأطعمة، ومختلف الغذاء في أجدب أرض، بعيدة عن العشب والكلأ، وأن يصيبهم نتيجة ذلك بالجوع المتوطن المقيم، وأن ينزل بهم المرض الأليم.

بعد هذه الجولة الاستيعابية في الدعاء على المشركين جسدياً ومعنوياً واجتماعياً واقتصادياً وبيئياً، ينبعث الإمام عليه السلام في المقابل الفاصل بالدعاء للمحاربين والمجاهدين من المسلمين، والمناضلين الحقيقيين من أتباع السنة المحمدية بلقاء اليسر، واستقبال النصر، وتهيئة الأمر، ونجح المطلب، وخيرة الأصحاب، وقوة الظهير، واتساع النفقة، ومتعة النشاط والحيوية، والصبر على الجهاد، والاستجارة من الاستيحاش، ونسيان الأهل والولد في ذات الله، واختيار النية الحسنة، واستيلاء الصحة والعافية، واصطحاب السلامة والخير، واستبعاد الخور والجُبن، واستلهام الجرأة والإقدام، وتمرس الشدة والقوة، وأن يكون الغازي في سبيل الله مؤيداً بالنصر، ومدرّعاً بالسنة، ومسدَّداً بالحكم، في معزلٍ عن الرياء والسمعة والاعتبارات الدنيوية الزائلة، ذائباً في

الحبِّ الإلهي، فإذا وقف بازاء الصف قلّ العدو في عينه، وصغر شأنه في قلبه، فتكون الدولة له لا لهم، فإن ختم الله له بالسعادة، وقضى له بالشهادة، فبعد اجتياح الأعداء بالقتل، وبعد اجهادهم بالأسر، وبعد أن تأمن أطراف المسلمين، ويولي الأعداء مدبرين، لتكون كلمة الله هي العليا، وحزبه هو الأقوى، وحظه هو الأوفى. يقول الإمام عليه السلام:

«أَللَّهُمَّ وَأَيُّمَا غَازٍ غَزَاهُمْ مِنْ أَهْلِ مِلَّتِكَ أَوْ مُجَاهِدٍ جَاهَدَهُمْ مِنْ أَتْبَاعِ سُنَّتِكَ. . لِيَكُونَ دِينُكَ الأَعْلَى وَحِزْبُكَ الأَقْوَىٰ وَحَظُّكَ الأَوْفَىٰ. فَلَقِّهِ الْيُسْرَ، وَهَيِّىءْ لَهُ الأَمْرَ، وَتَوَلَّهُ بِٱلنُّجْحِ، وَتَخَيَّرْ لَهُ الأَصْحَابَ، وَاسْتَقْوِ لَهُ الظَّهْرَ، وَأَسْبِغْ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّفَقَةِ. وَمَتِّعْهُ بِٱلنَّشَاطِ، وَأَطْفِ عَنْهُ حَرَارَةَ الشَّوْقِ، وَأَجِرْهُ مِنْ غَمِّ الْوَحْشَةِ، وَأَنْسِهِ ذِكْرَ الأَهْلِ وَالْوَلَدِ، وَاثُرْ لَهُ حُسْنَ ٱلنِّيَّةِ، وَتَوَلَّهُ بِالْعَافِيَةِ، وَأَصْحِبْهُ السَّلامَةَ، وَأَعْفِهِ مِنَ الْجُبْنِ، وَأَلْهِمْهُ الْجُرْأَةَ، وَارْزُقْهُ ٱلشِّدَّةَ، وَأَيِّدْهُ بِالنُّصْرَةِ، وَعَلِّمْهُ السِّيَرَ وَٱلسُّنَنَ، وَسَدِّدْهُ فِي الْحُكْمِ، وَاعْزِلْ عَنْهُ الرِّيَآءَ، وخَلِّصْهُ مِنَ ٱلسُّمْعَةِ، وَاجْعَلْ فِكَرَهُ وَذِكْرَهُ وَظَعْنَهُ وَإِقَامَتَهُ فِيْكَ وَلَكَ. فَإِذا صَافَّ عَدُوَّكَ وَعَدُوَّهُ. . فَقَلِّلْهُمْ فِي عَيْنِهِ، وَصَغِّرْ شَأْنَهُمْ فِي قَلْبِهِ، وَأَدِلْ لَهُ مِنْهُمْ وَلاَ تُدِلْهُمْ مِنْهُ؛ فَإِنْ خَتَمْتَ لَهُ بِٱلسَّعَادَةِ، وَقَضَيْتَ لَهُ بِالشَّهَادَةِ، فَبَعْدَ أَنْ يَجْتَاحَ عَدُوَّكَ بِالْقَتْلِ، وَبَعْدَ أَنْ يَجْهَدَ بِهِمُ الأَسْرُ، وَبَعْدَ أَنْ تَأْمَنَ أَطْرَافُ الْمُسْلِمِينَ، وَبَعْدَ أَنْ يُوَلِّيَ عَدُوُّكَ مُدْبِرِينَ»[1].

ولم يكن للمسلمين أن ينفروا كافَّة، وإنما ينفر رعيلٌ منهم للجهاد، ويرابط رَعيلٌ آخر دِرأً له، أو مستخلفاً على عياله وارتباطاته،

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء السادس والعشرين.

وهذا القسم الثاني يخصُّه الإمام بجزءٍ من هذا الدعاء الهادف: بأن يؤجر بما فعل وقدّم وأمدّ وأعان، وزناً بوزن، ومثلاً بمثل، كما يُؤجر الغازي والمجاهد في سبيل الله، وأن يعوِّضه عاجلاً فيما ينتفع به في الدنيا، وآجلاً فيما ادَّخر له يوم القيامة. يقول الإمام عليه السلام:

«أَللَّهُمَّ وَأَيُّمَا مُسْلِمٍ خَلَفَ غَازِياً أَوْ مُرَابِطاً فِي دَارِهِ، أَوْ تَعَهَّدَ خَالِفِيهِ فِي غَيْبَتِهِ، أَوْ أَعَانَهُ بِطَائِفَةٍ مِنْ مَالِهِ، أَوْ أَمَدَّهُ بِعِتَادٍ، أَوْ شَحَذَهُ عَلَى جِهَادٍ، أَوْ أَتْبَعَهُ فِي وَجْهِهِ دَعْوَةً، أَوْ رَعىٰ لَهُ مِنْ وَرَآئِهِ حُرْمَةً. فَأَجْرِ لَهُ مِثْلَ أَجرِهِ وَزْناً بِوَزْنٍ وَمِثْلاً بِمِثْلٍ. وَعَوِّضْهُ مِنْ فِعْلِهِ عِوَضاً حَاضِراً يَتَعَجَّلُ بِهِ نَفْعَ مَا قَدَّمَ وَسُرُورَ مَا أَتىٰ بِهِ، إلى أَنْ يَنْتَهِيَ بِهِ الْوَقْتُ إِلَى مَا أَجْرَيْتَ لَهُ مِنْ فَضْلِكَ، وَأَعْدَدْتَ لَهُ مِنْ كَرَامَتِكَ»[1].

ولما كانت مسؤولية الإمام مباشرة تجاه الإسلام فيما يعانيه، وهمَّته مقتصرة على تطلُّعاته فيما يدفع به إلى الشوط المتقدِّم، وحياته موهوبة لحياة الشريعة الغرّاء، فقد دعا لكل مسلم أهمَّه أمرُ الإسلام، وأحزنه تحزّب أهل الشرك عليه، وقعدت به الأسباب عن متابعة الغزو والجهاد، ضعفاً أو فاقةً أو عذراً، دعا له أن يكتب اسمه في العابدين، ويجعل ثوابه كالمجاهدين، ويسلكه في نظام الشهداء والصالحين، وهي نظرة قياديّة ثاقبة تبتعد عن الأثرة في استنان الحقوق، وتقترب من الحقِّ المطلق في توزيع الواجبات. يقول الإمام عليه السلام:

«أَللَّهُمَّ وَأَيُّمَا مُسْلِمٍ أَهَمَّهُ أَمْرُ الإِسْلاَمِ وَأَحْزَنَهُ تَحَزُّبُ أَهْلِ ٱلشِّرْكِ عَلَيْهِمْ. فَنَوىٰ غَزْواً، أَوْ هَمَّ بِجِهَادٍ فَقَعَدَ بِهِ ضَعْفٌ، أَوْ أَبْطَأَتْ بِهِ فَاقَةٌ،

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء السادس والعشرين.

أَوْ أَخَّرَهُ عَنْهُ حَادِثٌ، أَوْ عَرَضَ لَهُ دُونَ إِرَادَتِهِ مَانِعٌ. فَاكْتُبِ اسْمَهُ فِي الْعَابِدِينَ، وَأَوْجِبْ لَهُ ثَوَابَ الْمُجَاهِدِينَ، وَاجْعَلْهُ فِي نِظَامِ الشُّهَدَآءِ وَالصَّالِحِينَ»[1].

ومسك الختام في هذا الدعاء النابض توجّه الإمام بالصلاة على النبي وآله صلاة زاكية عالية، لا ينتهي أمدها، ولا يحصى عددها، أتم ما مضى من صلوات الله على أحدٍ من أوليائه، والله هو المنّان الذي لا يُجارى، والحميد الذي لا يرام، والمبدىء للخلق والمعيد له، وفوق هذا فهو الفعّال ـ بصيغة المبالغة القائمة لما يريد ـ يقول الإمام عليه السلام:

«أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ وَآلِ مُحَمَّدٍ، صَلاَةً عَالِيَةً عَلَى ٱلصَّلَوَاتِ، مُشْرِفَةً فَوْقَ ٱلتَّحِيَّاتِ، صَلاَةً لاَ يَنْتَهِي أَمَدُهَا، ولا ينقطع عددها، كَأَتَمِّ مَا مَضىٰ مِنْ صَلَوَاتِكَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ أَوْلِيَآئِكَ، إِنَّكَ الْمَنَّانُ الْحَمِيدُ، الْمُبْدِىءُ الْمُعِيدُ، الفَعَّالُ لِمَا تُرِيْدُ»[2].

أيّةُ عقليةٍ هذه التي فجّرت ينبوع هذا الدعاء؟ وأية روحية هذه التي أوحت بكلماته العُجاب؟ وأيّةُ مسؤولية هذه التي نهضت بهذا العبء الثقيل؟ إنها عقلية وروحية ومسؤولية هذا الإمام الداعية وكفى.

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء السادس والعشرين.
(٢) الصحيفة السجادية/ من الدعاء السادس والعشرين.

القرآنُ العظيمُ:

والقرآن العظيم يقع عند الإمام الموقع الأول في الاعتزاز والتكريم، يحتلُّ مكانه الأسمى في قلبه، وتتقاطر آياته من شفتيه، يقف عند زواجره ونواهيه عاملاً، ويسير مع حكمه وأمثاله معتبراً، ويُوطّد تعليماته وتشريعاته مقنناً، ويستوحي عبره ومواعظه مسترشداً، يبكيه الوعيدُ في فقراته، ويحييه الرجاء في مكنونات عداته، يتدبَّر شأنه بإمعانٍ، ويستنطق دلالاته بأناة، لا تعزب عن ذهنه هدايته، ولا تغيب عن ذاكرته تلاوته، ولا تنتهي عند نفسه عجائبه، ولا تتلاشى في ذاته أشعته، فهو المنار الهادي، وهو السراج المضيء، لأنه كتاب الله الأكبر، وكلامه المتفوِّق الأعلى، وهو بعدُ أحد الثقلين، وهما وصية الرسول الأعظم ﷺ في تجنب الضلال والتمسُّك بالإيمان، فهو والحالة هذه: العروة الوثقى، والحجَّة الكبرى، والآية العظمى، وحسبك في هذه الحقائق حجة دامغة لمن ألقى السمع وهو شهيد.

وقد كان الإمام عليه السلام مواظباً على قراءته، ومواظباً على مدارسته، وقد خصّه بدعاء مفصّل، سبقت بعض فقراته، ونقف عند بعضها هنا، وقد كان من دعائه عند ختمه قوله عليه السلام:

«اَللَّهُمَّ إِنَّكَ أَعَنْتَنِي عَلَى خَتْمِ كِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَهُ نُوراً، وَجَعَلْتَهُ مُهَيْمِناً عَلَى كُلِّ كِتَابٍ أَنْزَلْتَهُ، وَفضَّلْتَهُ عَلَى كُلِّ حَدِيثٍ قَصَصْتَهُ، وَفُرْقَاناً

فَرَقْتَ بِهِ بَيْنَ حَلالِكَ وَحَرَامِكَ، وَقُرْآناً أَعْرَبْتَ بِهِ عَنْ شَرَائِعِ أَحْكَامِكَ؛ وَكِتَاباً فَصَّلْتَهُ لِعِبَادِكَ تَفْصيلاً، وَوَحْياً أَنْزَلْتَهُ عَلَى نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ صَلَواتُكَ عَلَيْهِ وَآلِهِ تَنْزِيلاً. وَجَعَلْتَهُ نُوراً نَهْتَدِي مِنْ ظُلَمِ ٱلضَّلاَلَةِ وَالْجَهَالَةِ بِاتِّبَاعِهِ، وَشِفَآءً لِمَنْ أَنْصَتَ بِفَهْمِ التَّصْدِيقِ إلى اسْتِمَاعِهِ، وَمِيزَانَ قِسْطٍ لاَ يَحِيفُ عَنِ الْحَقِّ لِسَانُهُ، وَنُورَ هُدىً لاَ يُطْفأُ عَنِ ٱلشَّاهِدِينَ بُرْهَانُهُ، وَعَلَمَ نَجَاةٍ لاَ يَضِلُّ مَنْ أَمَّ قَصْدَ سُنَتِهِ؛ وَلاَ تَنَالُ أَيْدِي الْهَلَكَاتِ مَنْ تَعَلَّقَ بِعُرْوَةِ عِصْمَتِهِ»[1].

وقد بدأ الإمام ببيان منزلة القرآن، فتحدَّث عن علوِّ شأنه، ورفيع كيانه، واستعان بالقرآن نفسه على صنعته، واستخلص من غرر آياته بعض خصائصه، فقد أنزله الله نوراً، وجعله مشرفاً على كل كتاب، وفضّله على كل حديث مبين، وجعله ميزاناً ومعياراً للتفريق بين الحلال والحرام، وقرآناً يظهر ويكشف الشرائع الحقَّة، وكتاباً مفصلاً دون إجمال، لما يشاء في الحكم والغرر والأنظمة، وسبل الهدى، ووحياً منزّلاً على محمد ﷺ تنزيلاً، ونوراً تتجلّى به حقائق الصور للإنسان دون شك أو ريب أو طلاء، وشفاءً لمن اتخذه لذلك، وألقى سمعه لفهم التصديق، وميزان عدل لا ينحرف، ولا يميل عن الحق كما لا يميل وسط الميزان عن القسط، ونور هداية لا يُطفأ، وعلم نجاة لا يضلُّ من قصد سنته الغراء، ولا يزيغ من تعلَّق بعروته الوثقى.

ثم يعرض الإمام أن تكون قراءته قراءة العارفين، ورعايته رعاية أهل الفضل والعرفان والسلوك الفريد، يفاد منها في الاعتقاد، ويفزع

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الحادي والأربعين.

إليها في المتشابهات، ويرجع إليها بالمحكمات والواضحات من بيانه، فقد أنزل على نبيِّه مجملاً، وألهمه الله تفصيله مكملاً، وورث أهل بيته علمه مفسَّراً، فكانوا أفضل خلق الله علماً، وأقوى حملته نفساً، فهم القادة والحملة والدعاة، وبذلك يكون الأداء في بيان مبهمه، وردّ متشابهه إلى محكمه، وبيان ناسخه من منسوخه، وتفصيل مجمل علومه وأحكامه راجعاً إليهم عليهم السلام، وعائداً بسبيل واضح قويم إليهم دون سواهم. يقول الإمام عليه السلام:

«اللَّهُمَّ فَإِذْ أَفَدْتَنَا الْمعُونَةَ عَلَى تِلاَوَتِهِ، وَسَهَّلْتَ جَوَاسِيَ أَلْسِنَتِنَا بِحُسْنِ عِبَارَتِهِ، فَاجْعَلْنَا مِمَّنْ يَرْعَاهُ حَقَّ رِعَايَتِهِ، وَيَدِينُ لَكَ بِاعْتِقَادِ التَّسْلِيمِ لِمُحْكَمِ آيَاتِهِ، وَيَفْزَعُ إِلى الإِقْرَارِ بِمُتَشَابِهِهِ وَمُوضَحَاتِ بَيِّنَاتِهِ. أَللَّهُمَّ إِنَّكَ أَنْزَلْتَهُ عَلَى نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مُجْمَلاً، وَأَلْهَمْتَهُ عِلْمَ عَجَائِبِهِ مُكَمَّلاً، وَوَرَّثْتَنَا عِلْمَهُ مُفَسَّراً، وَفَضَّلْتَنَا عَلَى مَنْ جَهِلَ عِلْمَهُ، وَقَوَّيْتَنَا عَلَيْهِ لِتَرْفَعَنَا فَوْقَ مَنْ لَمْ يُطِقْ حَمْلَهُ»(١).

ويتناول الإمام فضل الله باجتبائه خيرة خلقه من أهل البيت لحمل القرآن، ليربط بين الثقلين، ويوازن بين الوديعتين، يقول الإمام:

«أَللَّهُمَّ فَكَمَا جَعَلْتَ قُلُوبَنَا لَهُ حَمَلَةً، وَعَرَّفْتَنَا بِرَحْمَتِكَ شَرَفَهُ وَفَضْلَهُ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ الْخَطِيبِ بِهِ، وَعَلَى آلِهِ الْخُزَّانِ لَهُ، وَاجْعَلْنَا مِمَّنْ يَعْتَرِفُ بِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِكَ، حَتَّى لاَ يُعَارِضَنَا الشَّكُّ فِي تَصْدِيقِهِ، وَلاَ يَخْتَلِجَنَا الزَّيْغُ عَنْ قَصْدِ طَرِيقِهِ»(٢).

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الحادي والأربعين.

(٢) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الحادي والأربعين.

والإمام هنا يصرح مجاهراً بأنَّ أهل البيت عليهم السلام هم حَمَلَةُ القرآن، فهما فرسا رهانٍ في مضمار الإيمان المطلق اللامحدود، ويدعو الله تعالى أن يستمر هذا التناول للقرآن في التصديق اليقيني دون شكٍ طارىء كما هي الحال عند الكافرين والمنافقين، ولا يكتفي بهذا حتى يضيف إليه الطلب الآتي:

«أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاجْعَلْنَا مِمَّنْ يَعْتَصِمُ بِحَبْلِهِ، وَيَأْوِي مِنَ الْمُتَشَابِهَاتِ إلى حِرْزِ مَعْقِلِهِ، وَيَسْكُنُ فِي ظِلِّ جَنَاحِهِ، وَيَهْتَدِي بِضَوْءِ صَاحِبِهِ، وَيَقْتَدِي بِتَبَلُّجِ إسْفَارِهِ، وَيَسْتَصْبِحُ بِمِصْبَاحِهِ، وَلاَ يَلْتَمِسُ الْهُدَىٰ فِي غَيْرِهِ»[١].

هذه الاستمرارية المنشودة بهدي القرآن، يتطلَّع الإمام معها إلى الاعتصام الوثيق بحبله، وينشد السكن إلى ملجئِه الحريز، ويواكب الاهتداء بشعاعه الفيّاض الذي شبَّهه بضوء الصباح المنتشر، ويصاحب الاقتداء بتبلُّج اسفاره المتلألىء ظهوراً، ويديم الاستصباح بنوره الذي لا ينطفىء فهو كالصباح المتوهِّج سناءً، يلتمس كل ذلك ولا يلتمس الهدى بسواه. ويتداعى الإمام لهذا الربط التشريعي بين الكتاب والعترة، فيقول:

«أَللَّهُمَّ وَكَمَا نَصَبْتَ بِهِ مُحَمَّداً عَلَماً لِلدَّلاَلَةِ عَلَيْكَ، وَأَنْهَجْتَ بِآلِهِ سُبُلَ الرِّضَا إلَيْكَ فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاجْعَلِ الْقُرْآنَ وَسِيلَةً لَنَا إلَى أَشْرَفِ مَنَازِلِ الْكَرَامَةِ، وَسُلَّماً نَعْرُجُ فِيهِ إلَى مَحَلِّ السَّلاَمَةِ، وَسَبَباً نجْزَىٰ

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الحادي والأربعين.

بِهِ النَّجاةَ فِي عَرْصَةِ الْقِيامَةِ، وَذَرِيعَةً نَقْدَمُ بِهَا عَلَى نَعِيْمِ دار الْمُقَامَةِ»[1].

وهنا يبدو جلياً أنَّ الرسول الأعظم قد نُصبَ من قبل الله تعالى علماً للدلالة على القرآن، وجعل النهج لرضاه بآله لأنهم يسلكون بالناس الطريق الموصلة إلى رضوانه، فهم حملة علم النبي ﷺ وألوية هديهِ، وهم ورثة مقامه وحفظَةُ سرّهِ، والإمام بالصلاة عليه وعليهم يستلهم ذلك الظلَّ الوارف، ويتطلب تلك الهبة الأسنى عطاءً من الله أن يوفقه للعمل بالقرآن العظيم، شرائعه وأحكامه، سننه وفروضه، ليصل به إلى أشرف مهابط الكرامة عنده، وأن يتدرَّج به سلّمَ السلامة إلى رحاب رضوانه، وأن يُعطى بسببٍ من حبل القرآن المتين، الجزاءَ الأوفى في ساحة يوم القيامة، متذرعاً بها وسيلة تطلّ به على نعيم الجنة السرمدي الذي لا يحول ولا يزول، وقد عبّر عنها بدار المُقامة إذ لا دار بعدها، والإنسان مقيم فيها لا راحل، ومستقر في ظلالها لا مسافر.

ويتضرَّع الإمام إلى الله مستشفعاً بالنبيِّ وآله أن يضع عنه بالقرآن ثقل الذنوب والأوزار، وأن يهب له محاسن الأخلاق، وأن يقفو به آثار من عمل بالقرآن قائماً بأمره ساعات الليل وآناء النهار، تطهيراً من الدنس بتطهيره، واتباعاً لمسالك من استضاء بهداه، ممن لم يلههم الأمل في الدنيا عن العمل الصالح، ولم يقطعهم عنه بخُدع الغرور. يقول الإمام عليه السلام: **«أَللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاحْطُطْ بِالْقُرْآنِ عَنَّا ثِقْلَ الأَوْزَارِ، وَهَبْ لَنَا حُسْنَ شَمَائِلِ الأَبْرَارِ، وَاقْفُ بِنَا آثَارَ الَّذِينَ قَامُوا لَكَ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ، حَتَّى تُطَهِّرَنَا مِنْ كُلِّ دَنَسٍ بِتَطْهِيرِهِ،**

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الحادي والأربعين.

وَتَقْفُوَ بِنَا آثَارَ الَّذِين اسْتَضَاؤُوا بِنُورِهِ، وَلَمْ يُلْهِهِمُ الأَمَلُ عَنِ الْعَمَلِ فَيَقْطَعَهُمْ بِخُدَعِ غُرُورِهِ»[1].

والإمام عادة ما يتكلم بصيغة الجمع، وقد يريد بذلك أن يشمل ببركة دعائه المؤمنين كافةً، فهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو أحرى بالدعاء لهم، فإن كان ذلك فهو، وإلا فهو يتكلم باسم الخاصَّة من الصالحين، والقادة من الأئمة الطاهرين، وهم أول المؤمنين وسادة المسلمين.

ويواكب الإمام هذا المنطلق العجيب مقدِّماً القرآن بين يدي نوازعه الخيّرة، ومتوجِّهاً به لدى ما يصبو إليه من صفاء ونقاء، ومبرمجاً في ضوئه سيرة الاقتداء به في فهم عجائبه، واستكناه زواجره وأمثاله، وتمثل صلابة ذلك وقوة أثره فيما ضعفت عن حمله الجبال الرواسي. يقول الإمام عليه السلام:

«أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاْجْعَلِ الْقُرْآنَ لَنَا فِي ظُلَم اللَّيَالِي مُؤنِساً، وَمِنْ نَزَغَاتِ الشَّيْطَانِ وَخَطَرَاتِ الْوَسَاوِسِ حَارِساً، ولأَقْدَامِنَا عَنْ نَقْلِهَا إلى الْمَعَاصِيْ حَابِساً، وَلأَلْسِنَتِنَا عَن الْخَوْضِ فِي اْلباطِلِ مِنْ غَيْرِ مَا آفَةٍ مُخْرساً، وَلِجَوَارِحِنَا عَنِ اقْتِرَافِ الآثَامِ زَاجِراً، وَلِمَا طَوَتِ اْلغَفْلَةُ عَنَّا مِنْ تَصَفُّحِ الاعْتِبَارِ نَاشِراً، حَتَّى تُوصِلَ إلَى قُلُوبِنَا فَهْمَ عَجائِبِه، وزَوَاجِرَ أَمْثَالِهِ الَّتِي ضَعُفَتِ الْجِبَالُ الرَّوَاسِيْ عَلَى صَلاَبَتِهَا عَنِ احْتِمَالِهِ»[2].

وقد استوعب هذا المقطع المناخ الداخلي للإنسان في ضوء

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الحادي والأربعين.

(٢) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الحادي والأربعين.

القرآن، فنصبه مؤنساً في ظُلَم الليالي، وحارساً من نزغات الشيطان وخطواته، كما استوعب السلوك الخارجي للجوارح والأعضاء، فجعله حابساً للأقدام عن السير إلى المعاصي، ومخرساً للألسن عن الخوض في الباطل من غير عاهةٍ، وزاجراً للجوارح عن اقتراف الخطايا والآثام، وناشراً للوعي عند الغفلة في إدراك الأحداث والاعتبار بمجرياتها، كل ذلك من أجل أن تصل القلوب إلى تفهُّم عجائب القرآن وزواجره في عِظاته وأمثاله، ومجموعة مكنوناته التي ضَعُفت الجبال عن حملها واحتمالها مع شدَّتها وصلابتها مشيراً بذلك إلى قوله تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1].

ويكرِّر الإمام عليه السلام هذه المعاني العليا من أجل خلوص النفس وخلاصها، فيعنى بإصلاح الظاهر وصحَّة الضمائر، وتطهير القلوب، والنَّقاء من الآثام، جاعلاً القرآن عاملاً حثيثاً إلى جمع الشتات، ونميراً عذباً يُستقى به عند الهواجر الحرار، وأن يكتسى به حُلَل الأمان يوم لا ينفع مال ولا بنون، فبه الأمن عند الفزع الأكبر، وهو الملجأ عند الطامّة في النشور، ومن كان القرآن وليّه وشفيعه وعاصمه وقائده، فهو الفائز عند البعث.

ويترصَّد الإمام هذا المنحى في بؤرة أخرى تشمل حياة العِزّ والرفاه ورغد العيش، وتتلبث سعة الأرزاق ببركة القرآن، وأن يتجنَّب مذموم الطباع، ودنيء الخصال، وأن يعطى العصمة من هوة الكفر ودواعي النفاق، وبذلك يصور القرآن كائناً حياً متحرِّكاً يقود إلى

---

(١) سورة الحشر: الآية، ٢١.

رضوان الله وجنانه، ويذود عما يوجب غضب الله في الدنيا، ويشهد على أداء الواجبات والامتناع عن المحرَّمات، وفي كون القرآن قائداً وذائداً وشاهداً جمعٌ نوعي لأبرز خصائص القرآن في شموليته وعالميته ومسؤوليته. يقول الإمام عليه السلام:

«أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاجْبُرْ بِالْقُرْآنِ خَلَّتَنَا مِنْ عَدَمِ الإمْلاَقِ، وَسُقْ إلَيْنَا بِهِ رَغَدَ الْعَيْشِ وَخِصْبَ سَعَةِ الأَرْزَاقِ، وَجَنِّبْنَا بِهِ الضَّرَائِبَ الْمَذْمُومَةَ ومَدَانِيَ الأَخْلاَقِ، وَاعْصِمْنَا بِهِ مِنْ هُوَّةِ الكُفْرِ وَدَوَاعِي النِّفَاقِ، حَتَّى يَكُونَ لَنَا فِي الْقِيَامَةِ إلَى رِضْوانِكَ وَجِنَانِكَ قَائِداً، وَلَنَا فِي الدُّنْيا عَنْ سُخْطِكَ وَتَعدِّي حُدُودِكَ ذَائِداً، وَلِمَا عِنْدَكَ بِتَحْلِيلِ حَلاَلِهِ وَتَحْرِيمِ حَرَامِهِ شَاهداً»[1].

وأنت تقترب من نهاية هذا الدعاء تكتشف لوحةً فنيّةً عن حياة الموت، ومشاهد البعث والنشور، تجدها في غير هذا الموضع من البحث.

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الحادي والأربعين.

شهر رمضان:

وللإمام في شهر رمضان سيرةٌ خاصةٌ قلّ من يدانيه فيها، فهو شهر الله الأعظم، وهو ربيع النفوس في الاقبال والسلوك، وهو مظنَّة التوبة النصوح، وفيه يصبّ الخير صبّاً، والإمام يستقبل هذا الشهر بما يتناسب وحرمته، ويتعامل فيه بضوء منزلته الكبرى، يحيي ليله بالعبادة، ويطوي نهاره بالصيام، ويوازن أيامه بعظيم الحلم، وكريم الصفح، فلا يضرب عبداً ولا أمةً، وإذا أذنب بعض مواليه عفا عنه ولم يعاقبه، فإذا كان آخر ليلة من رمضان دُعي إليه من أذنبوا من مواليه، وقرّرهم جميعاً بذنوبهم وبما ارتكبوا، يعترفون بذلك فيعفو عنهم، ويلقّنهم القول: اللّهم اعفُ عن عليّ بن الحسين كما عفا عنّا، فأعتقه من النار، كما أعتق رقابنا.

وكان يَعتِقُ في آخر الشهر ما بين العشرين رأساً إلى أقل أو أكثر[1]. ويروى عنه فيه: أنه لم يترك نوعاً من أنواع البرّ والخير إلا أتى به، وكان لا يتكلّم إلا بالتسبيح والاستغفار والتكبير، وإذا أفطر قال: «**اللَّهمَّ إنْ شئْتَ أنْ تَفْعَل فعَلْتَ**»[2].

وكان الإمام يتطلع إلى شهر رمضان بشوقٍ عظيمٍ لا يباريه شوق، ويجد بحلوله لذة كبرى لا تدانيها لذّة، وله في ذلك اعتبارات خاصة

---

(١) ظ: المجلسي/ بحار الأنوار/ ٤٦/ ١٠٤ وما بعدها.
(٢) الكليني/ فروع الكافي ٤/ ٨٨.

فوق الاعتبارات المطروحة في التداول، فهو يواكب هلاله عند الرؤية فيخصّه بدعاء رقيق يفيض سحراً وعذوبةً، وهو يترقب اطلال الشهر بحرارةٍ وحيويةٍ وتلهّفٍ، ويثني عليه ثناءً عطراً نديّاً، وهو يترصد سحره إذا غارت النجوم وانحدرت الكواكب، فيكلله بدعاء عجيب لا مثيل له في البلاغة والتضرع والانابة، وهو يودعه وداع المحبّ الواله، ويكاد يتقطع حسراتٍ على فراقه.

الإمام في كل هذه المراصد الدقيقة يمثّل داعية إلى الله في تعظيم شعائره، وتبجيل أيامه، وسأقف عندها بشيء من النظر والتحليل الموجز. كان من دعائه عليه السلام إذا دخل شهر رمضان قوله:

«أَلْحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا لِحَمْدِهِ، وَجَعَلَنَا مِنْ أَهْلِهِ، لِنَكُونَ لإِحْسَانِهِ مِنَ ٱلشَّاكِرِينَ، وَلِيَجْزِيَنَا عَلَى ذَلِكَ جَزَاءَ الْمُحْسِنِينَ، وَالْحَمْدُ للهِ الَّذِي حَبَانَا لِدِينِهِ، وَٱخْتَصَّنَا بِمِلَّتِهِ، وَسَبَّلَنَا فِي سُبُلِ إِحْسَانِهِ، لِنَسْلُكَهَا بِمَنِّهِ إِلَى رِضْوَانِهِ. حَمْداً يَتَقَبَّلُهُ مِنَّا. وَيَرْضَىٰ بِهِ عَنَّا»[1].

هذا التمهيد كان بين يدي الدخول في صلب الموضوع، ولما كان رمضان هبةً من الله لعباده، وسبيلاً من سبله إلى طاعته، فقد مهّد له الإمام بالحمد لله الذي هدى لحمده، وصيّره من أهله ليكون في عداد أولي الشكر، فيجزى جزاء من أحسن؛ وثنّى بالحمد عليه لحبوته الطائلة بدينه، واختصاص منّته في إدخاله إيَّاه بطرق ذلك الإحسان القائد إلى رضوانه.

وتحدث الإمام عن الطرق المؤدّية إلى هذا النحو، فقال:

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الثالث والأربعين.

«وَالْحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَ مِنْ تِلْكَ ٱلسُّبُلِ شَهْرَهُ رَمَضَانَ شَهْرَ ٱلصِّيَامِ، وَشَهْرَ الإِسْلاَمِ، وَشَهْرَ ٱلطَّهُورِ، وَشَهْرَ ٱلتَّمْحِيْصِ، وَشَهْرَ الْقِيَامِ ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[1]. فَأَبَانَ فَضِيْلَتَهُ عَلَى سَائِرِ الشُّهُورِ بِمَا جَعَلَ لَهُ مِنَ الحُرُمَاتِ الْمَوْفُورَةِ، والْفَضَائِلِ الْمَشْهُورَةِ؛ فَحَرَّمَ فِيْهِ مَا أَحَلَّ فِي غَيْرِهِ إعْظَاماً، وَحَجَرَ فِيْهِ الْمَطَاعِمَ وَالْمَشَارِبَ إكْرَاماً؛ وَجَعَلَ لَهُ وَقْتاً بَيِّناً، لاَ يُجِيزُ جَلَّ وَعَزَّ أَنْ يُقَدَّمَ قَبْلَهُ، وَلاَ يَقْبَلُ أَنْ يُؤَخَّرَ عَنْهُ. ثُمَّ فَضَّلَ لَيْلَةً وَاحِدَةً مِنْ لَيَالِيهِ عَلَى لَيَالِيْ أَلْفِ شَهْرٍ، وَسَمَّاهَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ، تَنَزَّلُ الْمَلآئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بإذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلاَمٌ دَآئِمُ الْبَرَكَةِ إلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ عَلَى مَنْ يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ بِمَا أَحْكَمَ مِنْ قَضَائِهِ»[2].

وقد لخّص الإمام هذه الإفاضة المجزية عظمة شهر رمضان، فهو شهر الله، وهو شهر الصيام، وشهر الإسلام، وشهر الطهور، وشهر التمحيص لاختبار المطيع من العاصي، فبه تمتحن الأعمال تجربةً، وهو شهر الصلوات المتقبَّلة، وهو الشهر الذي أُنزل فيه القرآن لهداية الناس ببراهينه الواضحة مفرقةً بين الحق والباطل، وقد خصّه الله بحرماتٍ عديدة وفضائل مخصوصة، فحرّم فيه ما أباح في غيره من الأكل والشرب والجماع وسائر المفطرات، وكان هذا المنع احتراماً له وتكريماً، ووقّته توقيتاً بيّناً فهو الشهر التاسع من الشهور عند الله، لا يقدَّم ولا يؤخَّر ولا ينسأ، وخصّه بليلة القدر التي هي خيرٌ من ألف

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.
(٢) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الثالث والأربعين.

شهر، وتنزل فيها الملائكة والروح بإذن الله من كل أمر، سلام هي حتى مطلع الفجر.

ويتضرَّع الإمام باستكانةٍ أن يُلْهَمَ هو والمسلمون معرفة فضله، وإدراك أوج منزلته، وإجلال حرمته ومكانته، والإلتزام التام بما منع فيه وحظر، والإعانة على أداء فرضه بحفظ الأعضاء عن الزلل، واستعمالها في العبادة الفعليَّة، وندب السمع والبصر إلى الابتعاد عن اللغو واللهو والزيغ، والأيدي والأرجل عن المحرَّمات، والبطون عن تناول الحرام، والألسن عن الهذر والغيبة، فلا نتكلف إلا ما يقرّب من الثواب، ولا نتعاطى إلا ما يحفظ من العقاب، خلوصاً لوجهه تعالى، دون رياءٍ أو سمعةٍ أو اشراكٍ، رضا الله وحده هو المعوَّل عليه، وهو الحافز إليه. يقول الإمام عليه السلام:

«أَللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَأَلْهِمْنَا مَعْرِفَةَ فَضْلِهِ، وَإِجْلاَلَ حُرْمَتِهِ، وَالتَّحَفُّظ مِمَّا حَظَرْتَ فِيهِ، وَأَعِنَّا عَلَى صِيَامِهِ بِكَفِّ الْجَوَارِحِ عَنْ مَعَاصِيكَ، وَاسْتِعْمَالِهَا فِيهِ بِمَا يُرْضِيكَ، حَتَّى لاَ نُصْغِيَ بِأَسْماعِنَا إلى لَغْوٍ، وَلاَ نُسْرِعَ بِأَبْصَارِنَا إِلَى لَهْوٍ، وَحَتَّى لاَ نَبْسُطَ أَيْدِيَنَا إِلَى مَحْظُورٍ، وَلاَ نَخْطُوَ بِأَقْدَامِنَا إلى مَحْجُورٍ، وَحَتَّى لاَ تَعِي بُطُونُنَا إلاَّ مَا أَحْلَلْتَ، وَلاَ تَنْطِقَ أَلْسِنَتُنَا إلاَّ بِمَا قُلْتَ، وَلاَ نَتَكَلَّفَ إلاَّ ما يُدْنِي مِنْ ثَوَابِكَ، وَلاَ نَتَعَاطَى إلاَّ الَّذِي يَقِيْ مِنْ عِقَابِكَ. ثُمَّ خَلِّصْ ذَلِكَ كُلَّهُ مِنْ رِئَآءِ الْمُرَائِينَ وَسُمْعَةِ الْمُسْمِعينَ، لاَ نُشرِكُ فِيه أَحَداً دُونَكَ، وَلا نَبْتَغِيْ فِيهِ مُراداً سِوَاكَ»[1].

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الثالث والأربعين.

ثم يعرض الإمام إلى أهميَّة الصلاة في مواقيتها، وحدودها، وفروضها، ووظائفها، ومنازلها، وأركانها في ضوء ما سنّه رسول الله ﷺ، في الركوع والسجود وبقية فواضلها على أتمّ طهور وأسبغه، مترتبةً في أوضح خشوع وأبلغه، ومؤدّاة على الوجه الأكمل. يقول الإمام عليه السلام:

«اَللّهُمَّ صَلِّ على مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَقِفْنَا فِيْهِ عَلَى مَوَاقِيْتِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ بِحُدُودِهَا الَّتِي حدَّدْتَ، وَفُرُوضِهَا الَّتِي فَرَضْتَ، وَوَظَائِفِهَا الَّتِي وَظَّفْتَ، وَأَوْقاتِهَا الَّتِي وَقَّتَّ، وَأَنزِلْنَا فِيهَا مَنْزِلَةَ الْمُصِيبِينَ لِمَنَازِلِهَا، الْحَافِظِينَ لأرْكَانِهَا، الْمُؤَدِّينَ لَهَا فِي أَوْقَاتِهَا، عَلَى مَا سَنَّهُ عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ صَلَوَاتُكَ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فِي رُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا وَجَمِيْعِ فَوَاضِلِهَا عَلَى أَتَمِّ الطَّهُورِ وَأَسْبَغِهِ، وَأَبْيَنِ الْخُشُوعِ وأَبْلَغِهِ»[1].

وهذا التفصيل في جزئيَّات الصلاة وأركانها، والتأكيد على جملة أوقاتها وسننها، نابعان عن أهميَّتها القصوى في نظر الإسلام والإمام، فلا تهاون ولا استخفاف ولا تردد، حيث يقام هذا الفرض بصوره المتكاملة المسنونة. وفي ملحظ جديد تجد الإمام يقول:

«وَوَفِّقْنَا فِيهِ لأَنْ نَصِلَ أَرْحَامَنَا بِٱلبِرِّ والصِّلَةِ، وَأَنْ نَتَعَاهَدَ جِيرَانَنَا بِالإفْضَالِ وَالْعَطِيَّةِ؛ وَأَنْ نُخَلِّصَ أَمْوَالَنَا مِنَ ٱلتَّبِعَاتِ، وَأَنْ نُطَهِّرَهَا بِإخْرَاجِ ٱلزَّكَوَاتِ. وَأَنْ نُرَاجِعَ مَنْ هَاجَرَنَا، وَأَنْ نُنْصِفَ مَنْ ظَلَمَنَا، وَأَنْ نُسَالِمَ مَنْ عَادَانَا، حَاشَا مَنْ عُودِيَ فِيْكَ وَلَكَ فَإِنَّهُ الْعَدُوُّ الَّذِي لاَ نُوالِيهِ، وَالْحِزْبُ

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الثالث والأربعين.

الَّذِي لاَ نُصَافِيهِ. وَأَنْ نَتَقَرَّبَ إِلَيْكَ فِيهِ مِنَ الأَعْمَالِ الزَّاكِيَةِ بِمَا تُطَهِّرُنَا بِهِ مِنَ ٱلذُّنُوبِ، وَتَعْصِمُنَا فِيهِ مِمَّا نَسْتَأْنِفُ مِنَ الْعُيُوبِ، حَتَّىٰ لاَ يُورِدَ عَلَيْكَ أَحْدٌ مِنْ مَلاَئِكَتِكَ إِلاَّ دُونَ مَا نُورِدُ مِنْ أَبْوَابِ الطَّاعَةِ لَكَ، وَأَنواعِ ٱلْقُرْبَةِ إِلَيْكَ»[1].

وفي هذا الملحظ حفاظ أصيلٌ على العلاقات الإنسانية والاجتماعية في صلة الأرحام وتعاهد الجيران بالبرِّ والافضال، وتخليص الأموال من التَّبعات المالية ليعود فضل ذلك للفقراء والمحرومين، ومراجعة من قطع، ومعاودة من هجر، وإنصاف من ظُلم وظلَم، ومسالمة من عادى لا مطلقاً بل يُستثنى فيه العداء في الله وله، فهو العدو الحقيقي الذي لا يُوالى، ولا يسالم ولا يُصافَى.

ثم يتدرَّج الإمام في التقرب إلى الله بالأعمال الزاكية بما يطهِّر النفوس من الآثام، ويعصم الذوات من الذنوب والخطايا، لتكون الطاعات الصاعدة إليه رفيعةً قدسية متكاثرة في عداد طاعة الملائكة، أو هي أغزر منها، ممَّا يتوجب بها القرب من ساحة القدس والعَظَمَة.

ويتوسَّل الإمام عليه السلام بحرمة شهر رمضان وحقِّه، ومن تعبّد لله فيه، من ملكٍ مقرّب أو نبيّ مرسل أو عبد صالح، أن يصلي على محمد وآله، وأن يكون أهلاً لما وعد الأولياء من الكرامة، وإيجابها لهم وللمؤمنين بمستوى ما أوجب لأهل الطاعة المبالغين في الإنابة، وأن يجعله في عداد من استحقَّ الرفيع الأعلى، وأن يصلي على محمد وآله، ويجنبه والمسلمين الميل عن التوحيد، والتقصير في مواطن التمجيد،

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الثالث والأربعين.

والشك في الدين، والعمى عن السبيل المستقيم، والغفلة عن الحرمة، والانخداع بالشيطان الرجيم. يقول الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«أَللَّهُمَّ إِنِّي أَسأَلُكَ بِحَقِّ هَذَا الشَّهْرِ، وَبِحَقِّ مَنْ تَعَبَّدَ لَكَ فِيهِ مِن ٱبْتِدَائِهِ إِلَى وَقْتِ فَنَائِهِ: مِنْ مَلَكٍ قَرَّبْتَهُ، أَوْ نَبِيٍّ أَرْسَلْتَهُ، أَوْ عَبْدٍ صَالِحٍ اخْتَصَصْتَهُ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَأَهِّلْنَا فِيهِ لِمَا وَعَدْتَ أَوْلِيَآءَكَ مِنْ كَرَامَتِكَ، وَأَوْجِبْ لَنَا فِيهِ مَا أَوْجَبْتَ لأَهْلِ الْمُبَالَغَةِ فِي طَاعَتِكَ، وَاجْعَلْنَا فِي نَظْمِ مَن ٱسْتَحَقَّ ٱلرَّفِيْعَ الأَعْلَى بِرَحْمَتِكَ. أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَجَنِّبْنَا الإِلْحَادَ فِي تَوْحِيدِكَ، وَالتَّقْصِيرَ فِي تَمْجِيدِكَ، وَٱلشَّكَّ فِي دِينِكَ، وَالْعَمىٰ عَنْ سَبِيْلِكَ، وَالإِغْفَالَ لِحُرْمَتِكَ، وَٱلانْخِدَاعَ لِعَدُوِّكَ الشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ»[1].

وأنت في ظلال هذه الفقرات تقارب الإنابة القصوى في سبلها، وتلمس الاستقامة في منهجها، قرباً من الله لا يبتعد، وابتعاداً من الزيغ لا يقترب، ورجوعاً إلى القصد لا ينحرف، وذلك مسلك مُشرأبٌ من مسالك الإمام في فلسفة الدعاء.

ويتذلل الإمام مستجيراً كما هو شأنه، فيطلب من الله تعالى عتق رقبته من النار، وأن يكون في مرافقة هذا الشهر العظيم من خيرة صحابته في محق الذنوب وسلخ التبعات، وتصفية الخطايا، والتخلُّص من سيئات الأعمال، ويدعو بالاستقامة عن الميل، والتقويم من الزيغ، والاستعاذة من الشيطان، والاستزادة من العبادة، وتزيين الأوقات بالطّاعة، والإعانة على الصّوم نهاراً، والصلاة والخشية والخشوع ليلاً،

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الثالث والأربعين.

والذلة بين يدي الله فلا يشهد عليه نهاره بغفلةٍ، ولا ليله بتفريط.

هذه المفردات بضمٍّ بعضها إلى بعض، تؤكد بمجموعها على صدق العمل، وثبات العقيدة، وصلابة الإيمان، فهي تضع شهر رمضان موضع الوساطة الحيّة لتطبيق كل مظاهر ودواخل الأعمال الصالحة التي يقترب العبد بممارستها الفعلية ـ روحية كانت أو جسدية ـ إلى أسمى مراتب الصديقين والمتعبدين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً. يقول الإمام عليه السلام:

«أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَإِذَا كَانَ لَكَ فِيْ كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِيْ شَهْرِنَا هَذَا رِقَابٌ يُعْتِقُهَا عَفْوُكَ، أَوْ يَهَبُهَا صَفْحُكَ. فَاجْعَلْ رِقَابَنَا مِنْ تِلْكَ ٱلرِّقَاب، وَاجْعَلْنَا لِشَهْرِنَا مِنْ خَيْرِ أَهْلٍ وَأَصْحَابٍ. أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِهِ، وَٱمْحَقْ ذُنُوبَنَا مَعَ امِّحاقِ هِلاَلِهِ، وَاسْلَخْ عَنَّا تَبِعَاتِنَا مَعَ ٱنْسِلاَخِ أَيَّامِهِ، حَتَّى يَنْقَضِيَ عَنَّا وَقَدْ صَفَّيْتَنَا فِيهِ مِنَ الْخَطِيئَاتِ، وَأَخْلَصْتَنَا فِيه مِنَ ٱلسَّيِّئَاتِ. أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَإِنْ مِلْنَا فِيهِ فَعدِّلْنا، وَإِنْ زُغْنَا فِيهِ فَقَوِّمْنَا، وَإِنْ اشْتَمَلَ عَلَيْنَا عَدُوُّكَ الشَّيْطَانُ فَاسْتَنْقِذْنَا مِنْهُ. أَللَّهُمَّ اشْحَنْهُ بِعِبَادَتِنَا إِيَّاكَ، وَزَيِّنْ أَوْقَاتَهُ بِطَاعَتِنَا لَكَ، وَأَعِنَّا فِي نَهَارِهِ عَلَى صِيَامِهِ، وَفِي لَيْلِهِ عَلَى الصَّلاَةِ وَٱلتَّضَرُّعِ إِلَيْكَ وَالْخُشُوعِ لَكَ، وَٱلذِّلَّةِ بَيْنَ يَدَيْكَ، حَتَّى لاَ يَشْهَدَ نَهَارُهُ عَلَيْنَا بِغَفْلَةٍ، وَلاَ لَيْلُهُ بِتَفْرِيطٍ»[1].

ويختتم الإمام دعاءه هذا بذكر المعاد وشؤونه بما أثبتناه في غير هذا الموضع.

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الثالث والأربعين.

كان هذا الدعاء في استقبال شهر رمضان، وله دعاءٌ في سحره على سبيل الابتهال والمناجاة تتمثَّل به إنابة الخاشعين مصوّرة، وتتجسَّد فيه روحية المنقطعين شاخصةً، فيه منزلة القرب الإلهي، وبه تذلل الكائن الإنساني، مستوى الصلاح والورع في ذروته، ومشهد الإخلاص والمثالية في قمَّته، ويصح للسالكين التعبير عن هذا الدعاء بأنه شعار القلّة من الصالحين ـ وكهف الندرة العاملة من العارفين، إنَّه الدعاء المعروف بدعاء أبي حمزة الثمالي لأنه هو الذي رواه عن الإمام باعتباره من تلامذته، وهذا الدعاء مشهور شهرة مستفيضة تشتمل عليه كتب الأدعية والذاكرين بسندٍ معتبرٍ، وحسبك أن يورده الشيخ الطوسي في مصباح أدعيته، والشيخ الكفعمي في مصباحه، والشيخ القمّي في مفاتيحه، فيه من أدب الدعاء أروعه، ومن حسن التلطف والدعاء أرقه، ومن جودة المعاني أعلاها كعباً، ومن دقَّة المباني أسماها قدراً، يتحبب إلى الله بتواضع منقطع النظير، ويلوذ به بالتجاء لا مثيل له، وينقطع إليه فلا يستعين بسواه، ويتودد له فلا يرى غيره، ويقف ببابه مسترحماً، ويسأله مستوهباً، ويُبادره مستعفياً، ويتهيَّأ له متعبئاً، ويناجيه متضرعاً، يعرض عمله على الله، ويضع أمله بالله، ويستنزل الرحمة من الله، وهذا شأن ما هو أصيل لا ينازع.

جمع هذا الدعاء إلى أصالة التعبير بلاغة التصوير التعبُّدي وأضاف إلى جنب التوجُّه التذللي شمائل الاعتراف بالعجز والوهن والضعف أمام تلك القُدرة الجبَّارة المستفيضة، فهو بالله لا سواه في مقام الرغبة والرهبة، وهو معه في ركاب الصدق والمعرفة، فيه الخلوص من الشوائب، والمنعة من الجرائر، تقرأ فيه الإمام وكأنك تنظره، ويتحدث

به إليك وكأنك تلمسه، تتجلّى فيه الفطرة نقيةً، وتبدو فيه الطبيعة بلا طلاء، تكفَّل الكثيرون بشرحه، وأفاض المؤلفون بذكره، وما عساني أن أفعل، وهو قطعة فنية فريدة، يبدو أوله كوسطه، ووسطه كآخره، وهو أشهر من أن يذكر، وهو أعظم من أن يذاع، حتى لقد استظهره بعضهم على طوله، واستوعب فقراته مع إطنابه، وما لا يدرك كلهُ لا يُترك كله، وسأقتطع لك مقطعاً من أوله، وآخر من وسطه، وسواهما من خواتيمه، وهذا جُهد المُقل وبضاعة المختصر تدليلاً على ما أفضت، وبرهاناً على ما قدّمت. يقول الإمام في أول هذا الدعاء العظيم:

«إلَهِي لاٰ تُؤَدِّبْنِي بِعُقُوبَتِكَ، وَلاٰ تَمْكُرْ بِي فِي حِيلَتِكَ، مِنْ أيْنَ لِيَ الْخَيْرُ يٰا رَبِّ وَلاٰ يُوجَدُ إلاَّ مِنْ عِنْدِكَ، وَمِنْ أيْنَ لِيَ النَّجٰاةُ، وَلا تُسْتَطاعُ إلاَّ بِكَ، لاٰ الَّذِي أحْسَنَ اسْتَغْنَىٰ عَنْ عَونِكَ وَرَحْمَتِكَ وَلاٰ الَّذِي أسٰآءَ وَاجْتَرَأ عليْكَ وَلَمْ يُرْضِكَ خَرَجَ عَنْ قُدْرَتِكَ، بِكَ عَرَفْتُكَ، وَأنْتَ دَلَلْتَنِي عَلَيْكَ، ودَعَوْتَنِي إلَيْكَ، وَلَوْلاٰ أنْتَ لَمْ أدْرِ مٰا أنْتَ»[1].

بهذه الفقرات الرائعة يستهلّ الإمام دعاءه، وقد حَصَرَ النجاة بالله، فاستعفى عن العقوبة، وفرق من المكر، فالخير كلُّ الخير من الله، والرحمة عنده في ساحته، والقدرة متوافرة في حوزته، فلا يستطاع إلاَّ به، ولا يُستغنى عن رحمته بعوض أو مثيل، ولا يخرج المسيء عن قدرته أنَّى كان، دلّ على ذاته بذاته، فبه عُرف، وهو الذي دل على معرفته، ودعا الناس إليه، ولولاه لم يدر ما هو.

ثم يستدرج الإمام في ذكر الحمد لله على أياديه العليا في استجابة

---

(١) عباس القمي/ مفاتيح الجنان/ ١٨٦.

الدعاء وتلبية المسألة، والنداء عند الحاجة، والصوت عند الخلوة سرّاً، فلا يرجى غيره ولو رُجي لأخلف، ويحمده بالاتكال عليه دون الناس، والتحبب إليه وهو الغنيُّ الذي يحكم على عبده وكأنه لا ذنب له، فهو حقيقٌ بالحمد، وسبل الحاجات إليه مشرعة، والاستعانة مباحة، وأبواب الدعاء مفتوحة، فهو للراجي بموضع الإجابة، وللملهوف بمرصد الاغاثة، . . وهكذا تجد الإمام يسوق التضرُّع بموضع الحمد، ويضع الدعاء بموقع الثناء، وينزل الطلب بمنزلة التوحيد، وينيط الأمور كلها بالله تعالى، ولا استقلالية للعبد في شأن ذلك[١].

ويسترفد الإمام الله من آلائه، ويستوهبه من نعمائه، ويصفه بأرقى صفاته العليا، ويتضرَّع إليه بأسمائه الحسنى، فيفيض عليك جواً من الهيبة، ويقف به عند باب الرحمة. يقول الإمام عليه السلام:

«يٰا غَافِرَ الذَّنْبِ؛ يٰا قٰابِلَ التَّوْبِ، يٰا عَظِيمَ الْمَنِّ، يٰا قَدِيمَ الْإِحْسٰانِ، أَيْنَ سَتْرُكَ الْجَمِيلُ، أَيْنَ عَفْوُكَ الْجَلِيلُ، أَيْنَ فَرَجُكَ الْقَرِيبُ، أَيْنَ غِيٰاثُكَ السَّرِيعُ، أَيْنَ رَحْمَتُكَ الْوٰاسِعَةُ، أَيْنَ عَطٰايٰاكَ الْفٰاضِلَةُ، أَيْنَ مَوٰاهِبُكَ الْهَنِيئَةُ، أَيْنَ صَنٰائِعُكَ السَّنِيَّةُ، أَيْنَ فَضْلُكَ الْعَظِيمُ، أَيْنَ مَنُّكَ الْجَسِيمُ، أَيْنَ إِحْسٰانُكَ الْقَدِيمُ، أَيْنَ كَرَمُكَ يٰا كَرِيمُ، بِهِ وَبِمُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ فَاسْتَنْقِذْنِي، وَبِرَحْمَتِكَ فَخَلِّصْنِي، يٰا مُجمِلُ، يٰا مُنْعِمُ، يٰا مُفْضِلُ»[٢].

ولك أن تجول في مرابع هذا الدعاء الوريف، فتقطف من يانع

---

(١) ظ: المرجع نفسه/ ١٨٧.

(٢) عباس القمي/ مفاتيح الجنان/ ١٨٨.

ثمره ما تشاء، ولك أن تتبع مصادره لتجدها من نفحات القرآن العظيم؛ دائرة معارف متطوِّرة، وموسوعة خواطر متيقظة، ومجموعة ظواهر قيّمة. يستغرق عشرات الصفحات في رحاب عظمة الله وساحة عزّه وقدسه، ويستوعب مئات الأوصاف في مجال التوحيد والتقديس، ويتقاطر بآلاف الآنّات والحسرات والآهات في مواطن السؤال والاستصراخ والاغاثة، وهكذا حتى يختتمه بقوله عليه السلام:

«وَاقضِ لي بِالحُسنىٰ، وَبَارِكْ لي في جَميعِ أموري، وَاقضِ لي جَميعَ حَوائجي، اللَّهمَّ يَسّر لِي مَا أخافُ تَعسِيرهُ، فإن مَا أَخَافُ تعسيره عَلَيكَ سهلٌ يَسيرٌ، وَسهِّل لي مَا أخافُ حُزُونته، ونَفِّس عَنّي مَا أخافُ بَلِيّتَهُ يَا أَرحَمَ الرَّاحِمين.

اللَّهمَّ إملأ قَلبِي حُبّاً لَكَ وخشيةً مِنكَ، وَتَصْديقاً لَكَ، وإيماناً بِكَ، وَفَرَقاً مِنْكَ، وَشوقاً إليكَ يَا ذَا الجَلالِ والإكرامِ.

اللَّهمَّ إنَّ لَكَ حُقوقاً فتَصدَّق بِها عَليَّ، وَللناسِ قِبَلِي تَبِعاتٌ فَتَحَمَّلها عَنّي، وَقَد أوْجَبْتَ لِكلِّ ضَيف قرى، وأنَا ضَيفُكَ، فاجْعَلْ قِرايَ اللّيلَةَ الجَنَّة، يَا وَهَّابَ الجنَّةِ، ويا وَهَّاب المَغْفِرة، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ بِكَ»[1].

وتبرز في هذا الدعاء ملامح مدرسة أخلاقية لا تنفد فرائدها، سيّرها الإمام بإطار عرفاني متميز للداعين في سحر شهر رمضان، فتجد الأبرار من الصفوة عُكَفّاً على قراءته وتداوله والتأسي به.

(١) المرجع نفسه/ ٢٠١.

وتتابع نفس الإمام عليه السلام وشائج شهر رمضان بما فيها من البركة والرَّحمة والعفو، فتودعه بكلمات عطرة، وتخصّه بدعاء سيّار، جمع إلى عمق الإيحاء الموضوعي دقَّة التعبير الفني، وسخّر إلى جنب الملحظ العبادي الوادع الهدف البلاغي النابض، فكأن كلاً فاصلاً يتمم بعضه بعضاً. يقول الإمام عليه السلام:

«اَللَّهُمَّ يَا مَنْ لاَ يَرْغَبُ فِي الْجَزَآءِ، وَيا مَنْ لاَ يَنْدَمُ عَلَى الْعَطَآءِ، وَيَا مَنْ لاَ يُكَافِىءُ عَبْدَهُ عَلَى ٱلسَّوْآءِ، مِنَّتُكَ ابْتِدَآءٌ، وَعَفْوُكَ تَفَضُّلٌ، وَعَقُوبَتُكَ عَدلٌ، وَقَضَاؤُكَ خِيَرَةٌ؛ إنْ أَعْطَيْتَ لَمْ تَشُبْ عَطَآءَكَ بِمَنٍّ، وَإِنْ مَنَعْتَ لَمْ يَكُنْ مَنْعُكَ تَعَدِّياً. تَشْكُرُ مَنْ شَكَرَكَ وَأَنْتَ أَلْهَمْتَهُ شُكْرَكَ، وَتُكَافِىءُ مَنْ حَمِدَكَ وَأَنْتَ عَلَّمْتَهُ حَمْدَكَ، تَسْتُرُ عَلَى مَنْ لَوْ شِئْتَ فَضَحْتَهُ، وَتَجُودُ عَلَى مَنْ لَوْ شِئْتَ مَنَعْتَهُ، وَكِلاَهُمَا أَهْلٌ مِنْكَ لِلْفَضِيحَةِ وَالْمَنْعِ. غَيْرَ أَنَّكَ بَنَيْتَ أَفْعَالَكَ عَلَى ٱلتَّفَضُّلِ، وَأَجْرَيْتَ قُدْرَتَكَ عَلَى ٱلتَّجَاوُزِ، وَتَلَقَّيْتَ مَنْ عَصَاكَ بِالْحِلْمِ، وَأَمْهَلْتَ مَنْ قَصَدَ لِنَفْسِهِ بِالظّلْمِ. تَسْتَنْظِرُهُمْ بِأَنَاتِكَ إلى الإنَابَةِ، وَتَتْرُكُ مُعَاجَلَتَهُمْ إلَى التَّوْبَةِ؛ لِكَيْلاَ يَهْلِكَ عَلَيْكَ هَالِكُهُمْ، وَلاَ يَشْقىٰ بِنِعْمَتِكَ شَقِيُّهُمْ إلاَّ عَنْ طُولِ الإعْذَارِ إلَيْهِ، وَبَعْدَ تَرَادُفِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ؛ كَرَماً مِنْ عَفوِكَ يَا كَرِيمُ، وَعَائِدَةً مِنْ عَطْفِكَ يَا حَلِيمُ»[1].

وقد أملت هذه الفقرات الرائعة جملة من الحقائق:

١ ـ عطاء الله جوداً وكرماً دون جزاء أو تخلّف أو ندم.

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الرابع والأربعين.

٢ ـ عفو الله تفضُّلاً، وعقوبته عدلاً، وحكمه وقضاؤه تخيّراً.

٣ ـ يعطي فلا يمنّ بعطائه، ويمنع فلا يتعدَّى بمنعه.

٤ ـ يشكر من ألهمه الشكر ويكافىء من علّمه الحمد.

٥ ـ يستر على من لو شاء فضحه، ويجود على من لو شاء منعه، تفضُّلاً منه وتجاوزاً.

٦ ـ يتلقَّى المعصية بالحلم، والظلم للنفس بالامهال، انظاراً دون معاجلة.

٧ ـ لا يهلك هالك، ولا يشقى شقيٌّ إلاَّ بعد طول اعذار، كرماً من عفوه، وعائدة من عطفه، فتعالى الله عمَّا يصفون.

ويعرض الإمام بفقرة رائعة يتيمة لفتح باب التوبة بأبلغ تعبير، وأرصن معيار، يحيط بالمعنى المراد ليقول الإمام:

«فَما عُذرُ مَنْ أغْفَلَ دُخُولَ ذَلِكَ المَنْزِل بعد فَتْح البابِ وإقامةِ الدليل»[١].

ويتدرَّج الإمام إلى الترغيب بدلائل الله عباده على الفوز بالوفادة وبحسن العبادة احساناً وامتناناً، كما لو فعل ذلك مخلوق يوصف بالإحسان والامتنان، وأصبح محموداً في كل لسان، فكيف بالله تعالى: يقول الإمام عليه السلام:

«ولَوْ دَلَّ مَخْلُوقٌ مَخْلُوقاً.. مِنْ نَفْسِهِ على مِثْلِ ٱلَّذِي دَلَلْتَ عَلَيْهِ

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الرابع والأربعين.

عِبَادَكَ مِنْكَ كَانَ مَوْصُوفاً بالإِحْسَانِ، وَمَنْعُوتاً بِالامْتِنانِ، وَمَحْمُوداً بكلِّ لِسَانٍ»[1].

ويعدد الإمام آلاء الله ونعماءه بما غمر به عباده ليخلص إلى ذكر شهر رمضان ممهّداً له. يقول الإمام عليه السلام:

«أَللَّهُمَّ وَأَنْتَ جَعَلْتَ مِنْ صَفَايَا تلك الْوَظَائِفِ وَخَصَائِصِ تِلْكَ ٱلْفُرُوضِ شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي اخْتَصَصْتَهُ مِنْ سَائِرِ ٱلشُّهُورِ، وَتَخَيَّرْتَهُ مِن جَمِيعِ الأَزْمِنَةِ وَالدُّهُورِ، وَآثَرْتَهُ عَلَى كُلِّ أَوْقَاتِ السَّنَةِ بِمَا أَنْزَلْتَ فِيهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالنُّورِ، وَضَاعَفْتَ فِيهِ مِنَ الإِيْمَانِ، وَفَرَضْتَ فِيْهِ مِنَ ٱلصِّيَامِ، وَرَغَّبْتَ فِيهِ مِنَ ٱلقِيَامِ، وَأَجْلَلْتَ فِيهِ مِنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ التِي هِيَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ»[2].

ويعرض الإمام لتفضل الله على المسلمين بإيثارهم بهذا الشهر دون الأمم وأهل الملل والنحل، فصاموا نهاره بأمره، وقاموا ليله بعونه، تعرضاً للرحمة، وتسبباً في المثوبة، والله المليء بما رغب فيه إليه، وهو الجواد بما سئل، القريب إلى من حاول القرب، بعد هذا عرض الإمام إلى إقامة رمضان مقام حمد، وصحبته صحبة مبرور، ومفارقته عند تمام وقته، وانقطاع مدَّته، ووفاء وعده، بما يعتبر وثيقة تعبدية في أوراق شهر رمضان[3].

ويودِّع الإمام شهر رمضان بما يناسبه، ويسلّم عليه باعتباره شهر

---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الرابع والأربعين.
(٢) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الرابع والأربعين.
(٣) ظ: الصحيفة السجادية/ فقرات ما قبل الختام من الدعاء الرابع والأربعين.

الله الأكبر، قربت به الآمال، ونشرت فيه الأعمال، ويكرر الإمام السلام على رمضان قريناً، وأليفاً، ومجاوراً، وناصراً، ويعرّج على ذكر حرمته لما فيه من عتقاء الله من ناره، ويضع لكل ذلك ما يساوقه من الأوصاف، وما يحقق معانيه من الألفاظ، ويعاود ما خصّه الله به من محو الذنوب، وستر العيوب، ويكرّر من كل وجه كاشفاً عن فضل الشهر وعظمته، ويضع بين يدي ذلك ما يبهرك ويعجبك من الخصائص والسِّمات والمزايا، فتبصر ما لا يُبصر، وتنظر ما لا يُنظر، فيستلُّكَ من غفلتك، وينبهك من رقدتك حتى يختتم ذلك بالصلاة على نبيه بهذا الشكل الأصيل، فيقول عليه السلام:

«أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ نَبِيِّنَا وَآلِهِ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى مَلآئِكَتِكَ الْمُقَرَّبِينَ؛ وَصَلِّ عَلَيْهِ وَآلِهِ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى أَنبِيَآئِكَ الْمُرْسَلِينَ؛ وَصَلِّ عَلَيْهِ وَآلِهِ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ وَأَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ، صَلاَةً تَبْلُغُنَا بَرَكَتُهَا، وَيَنَالُنَا نَفْعُهَا، وَيُسْتَجَابُ لَهَا دُعَآؤُنَا. إِنَّكَ أَكْرَمُ مَنْ رُغِبَ إِلَيْهِ، وَأَكْفَىٰ مَنْ تُوُكِّلَ عَلَيْهِ، وَأَعْطَىٰ مَنْ سُئِلَ مِنْ فَضْلِهِ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»[1].

وهكذا يودِّع الإمام شهر رمضان بمثل ما استقبله فيه مقترناً بالدعوات الصالحات في كل إفرازاتها الموضوعية.

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الرابع والأربعين.

الكيانُ الملائكي:

وازدهرت الحياة المادية بكل مظاهرها الوهمية الزائلة، فعاد الإنسان السَّاذج ملكاً لها، ومتعلِّقاً بها، وحريصاً عليها، وانجذبت لها النفوس بكل أحلامها وشهواتها، وتدافع الناس على حطامها، فعلا من استعلى، وتجبّر من تجبّر في سلطان الدنيا وعبثها، وصاغ الابتعاد عن التقوى لهؤلاء وهؤلاء بيوتاً من خيال، فركنوا إلى هذا السراب الخادع، والتجأوا إلى ذلك الظل الزائل، فنبّه الإمام إلى ضآلة هذا الوهم، بتصوير روحي متجسّد لحياة الملائكة في قدسيتها وقوتها وعظمتها، وهي خاشعة لله، مترقبة لإنفاذ أمره، وعدّد الإمام من خصائصها ومراتبها، ما تهون كل خصيصية ومرتبة دونه، مبتدأ بحملة العرش الذين لا يفترون من تسبيحه، ولا يسأمون من تقديسه، ولا يتعبون من عبادته، ولا يؤثرون التقصير عن الاجتهاد في أمره، ولا يغفلون عن الوله إليه، فصلّى عليهم جميعاً، وبدأ بإسرافيل صاحب الصور وهو ينتظر الإذن الخاص في حلول الأمر، وميكائيل في عظيم منزلته، وجبرائيل الأمين على وحي الله، والروح الذي على ملائكة الحجب، والروح الذي من أمر الله، وعلى الملائكة من دونهم من سكّان السماوات، وخزّان المطر، وزواجر السحاب، ومشيعي الثلج والبرد، والهابطين مع قطر المطر إذا نزل، والقوّام على خزان الرياح، والموكّلين بالجبال، وملائكة المياه، ورسله من الملائكة، إلى أهل الأرض في البلاء

والرخاء، والسفرة الكرام البررة، والحفظة الكرام الكاتبين، وملك الموت وأعوانه، ومنكر ونكير، وروما فتّان القبور، والطائفين بالبيت المعمور، ومالك وخزنة النيران، ورضوان وسدنة الجنان، وسائر الملائكة والمسلّمين على أهل الجنة، والزبانية، ومن ترك ذكره من الملائكة بمختلف شؤونهم مما لا يعلم، وسكّان الهواء والأرض والماء من الملائكة، ومن يقوم على إدارة شؤون الخلق منهم[1].

وما تقدّم يعدّ عرضاً نموذجاً لسجلّ منفذي أمر السماء وهم الملائكة، وفي ذلك إشارة موحية لمهامهم ومنازلهم، وتلويح بمراتبهم ومقاماتهم، وهم جميعاً مكلّفون بأعمال مختلفة، ومضطلعون بمهام متفاوتة، تختلف بطبيعة المنازل، وتتفاوت تبعاً للأوامر، كل ينفّذ ما عليه عند صدور الأمر المطاع من الله، وهم فيما هم عليه بحيث تختلف مهمّة أحدهم عن الآخر، فمنها ما يتعلق بالتبليغ، وأخرى بالايصال إلى ملك سواه، وأخرى بالتوسُّط للتدبير، وغير ذلك لإنزال الهلاك والعذاب، ومثلهم للبعث أو التسخير أو الاحصاء، كلُّ ذلك في ضوء قوله تعالى:

﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾[2].

وهذا المقام محفوف بالصلاحيات الخاصَّة لكل منهم، والمخوَّلة إليهم من قبله تعالى، تخويلَ تلَقٍ وتنفيذ، لا تخويل إحداث وإيجاد، فلا أمر إلا لله، ولا فَعل إلا بأمره، وهم ممثلون مطيعون طبقاً لقوله

---

(١) ظ: الصحيفة السجادية/ من الدعاء الثالث.

(٢) سورة الصافات: الآية، ١٦٤.

تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[1].

وإذا كان الأمر كذلك وهو كذلك، فإننا نلمح جيِّداً ما يومىء إليه الإمام في الصلاة على الملائكة المقرَّبين، وذلك لالقاء الضوء الكاشف عن تلك السلطات الهائلة التي يتمتعون بها، وليس لهم من الأمر شيء، إلا بما خوِّلوا به، فما هي قيمة هذا الإنسان الطاغي الذي لا يملك حيثية معينة إلا بإشاءة الله تعالى، واقتران إرادته الإلهية بذلك، ومع هذا وذاك فقد يتناسى الإنسان هذه الحقيقة، فينسب السلطان أو القدرة أو العلم أو الرزق أو التقدم إليه، وذلك تعبير صارخ عن تمرُّده وجبروته دون الاقرار بعدم استقلاله بشأن مهما كان ضئيلاً، أما الذين محّضوا الإيمان محضاً فيعلمون علماً يقينياً جازماً أن لا دخل لهم في الحوادث والمكتسبات اطلاقاً إلا بتسديد من الله وإشاءة منه، فهم بذلك أذلاء في أنفسهم، وأعزاء عند الله نتيجة الإقرار والإنابة. ولا نريد أن نتطرَّف في أبعاد فلسفية بعيدة عن الفهم المعاصر، وإلا لكان لنا حديث مستفيض عن الفيض الإلهي في ضوء ما حققه فلاسفة الإسلام، إلا أننا نشير في المقام إلى أن الملائكة الذين ذكرهم الإمام وأراد إيقاظ الغافلين في سرد إمكاناتهم، وتفصيل تكاليفهم ومهماتهم، ليس لهم في أي أمر استقلالية ذاتية تنسب إليهم، ولا تصرف في الأمر يعود لهم، وما يصدر عنهم مرتبط بإشاءة الله وقدرته، وهذا واقع التكليف والأمر.

فما أفاضه الإمام بتعظيم منازلهم الرفيعة، وما اضطلعوا به من مهمَّات لا يطيقها أحد، ولا يبلغها بشر، إنما كانت لأنهم ممتثلون منفذون لتلك الأوامر الصادرة من ساحة العزة والكبرياء التي تتلاشى

---

(١) سورة الأنبياء: الآية، ٢٧.

أمامها كل عزة، وتتطأطأ دونها كل كبرياء، فليعتبر الإنسان الذي يتحدث إليه الإمام بقوله:

«اللَّهُمَّ وَحَمَلَةُ عَرشِكَ الذينَ لا يَفْتَرُونَ من تسبيحِكَ، وَلاَ يسْأَمُونَ من تقْدِيسِكَ، وَلا يَسْتَحْسِرُونَ منْ عِبَادَتِكَ، وَلا يُؤثِرُونَ التقصِيرَ على الجدِّ في أمرِكَ وَلاَ يَغْفَلُونَ عن الولَهِ إليكَ»[1].

من هم هؤلاء؟ هم الجمع الملائكي لا سيما إسرافيل صاحب الصور ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾[2] منبِّهاً بذلك صرعى رهائن القبور[3]... وميكائيل ذو الجاه عند الله، وصاحب الجاه الرفيع من طاعته[4] وجبرائيل الأمين على الوحي، والمطاع في أهل السماوات، المكين لدى الله، المقرَّب عنده[5] المعني بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾[6] وفي إشارة واضحة يؤكد الإمام على نوعين من الملائكة مضافاً إلى الروح الأمين، الأول: الروح الذي على ملائكة الحجب، والثاني: الروح الذي هو من أمره[7].

مما يعني أن الروح يسمَّى به جبرائيل، ويسمَّى به آخران أحدهما الذي على الحُجُبِ من الملائكة، وثانيهما الروح الذي من أمر الله

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الثالث.
(٢) سورة يس: الآية، ٥١.
(٣) ظ: الصحيفة السجادية/ من الدعاء الثالث.
(٤) ظ: الصحيفة السجادية/ من الدعاء الثالث.
(٥) ظ: الصحيفة السجادية/ من الدعاء الثالث.
(٦) سورة التكوير: الآيات، ١٩ ـ ٢١.
(٧) ظ: الصحيفة السجادية/ من الدعاء الثالث.

والمشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1] والسياق القرآني يساعد على ذلك إذ لم يرد الروح في القرآن دالاً على الروح الإنساني في مقابل البدن بقولنا: الإنسان روح وبدن، في كل آياته المشتملة على هذا اللفظ كما عليه المحققون من علماء التفسير، فروح القدس هو جبرائيل كما في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾[2] وهو الرُّوح الأمين كما في سورة التكوير[3] وسواها من الآيات، ونصّ الإمام على سواه، والأوّل على ملائكة الحُجُبِ، والثاني الروح المرتبط بأمر الكينونة المطلقة المتمثل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[4].

فهذا السِّياق القرآني يساعد على ذلك الاعتبار الذي قسم فيه الإمام الملائكة، والروح الأخير هو الذي تجهل حقيقته عادةً باعتباره من أمر الله بدليل ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ وللمفسِّرين في هذا الملحظ أقوال متضاربة، وما أوردناه قد لا يخلو من وجهٍ، والله سبحانه وتعالى هو العالم.

ويبدو من دعاء الإمام أنَّ الملائكة الذين تقدم ذكرهم هم في أعلى المراتب بدليل قوله عليه السلام دون فاصلة:

«اللَّهُمَّ فصلِّ عَلَيْهِمْ وعَلى الملائِكَةِ مِنْ دُونِهم من سُكَّانِ

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٨٥.

(٢) سورة البقرة: الآية، ٨٧، ٢٥٣.

(٣) الآية: ٢١.

(٤) سورة آل عمران: الآية، ٥٩.

سماواتِكَ، وأهلِ الأمانةِ عَلَى رَسالاَتِكَ والذِينَ لا تَدْخُلُهُمْ سَآمَةٌ من دُؤوبٍ، وَلاَ إعياءٌ من لُغُوبٍ، وَلاَ فُتُورٌ ولا تَشْغَلُهُمْ عن تسبيحِكَ الشهواتُ، ولا يَقْطَعُهُمْ عَنْ تَعْظِيمِكَ سَهْوُ الغَفَلاَتِ، الخُشَّعُ الأبصَارِ فَلاَ يَرُومُونَ النَظَرَ إليكَ، النّواكِسُ الأذقَانِ الذينَ قد طَالَتْ رَغْبَتُهُمْ فيما لديْكَ، المستهترون بذِكْرِ آلائِكَ، وَالمتواضِعُونَ دُونَ عَظَمَتِكَ، وَجَلاَلِ كِبريَائِكَ»[١].

لقد فَصّل الإمام القول في خصائص هؤلاء الملائكة فمن هم دون الطبقة الأولى كما في الفصل السابق، فأبان أنّهم متوثبون في يقظة استمرارية فلا سأم ولا إعياء، ولا فتور، لا تشغلهم الشهوات عن التسبيح إذ لا شهوة في البين، ولا يقطعهم سهو الغفلات عن التعظيم إذ هم في نشاط وحيوية، أبصارهم خاشعة، وأذقانهم نواكس، رغبوا فيما عند الله، واشتهروا بذكر نعمائه، من أبرز صفاتهم التواضع دون عظمة الله، والاخبات إلى جلال كبريائه وعزّته.

هذه الدلالات الإيحائية في تبجيل هذه الأصناف من الملائكة، لا ينافي الهدف الأسمى الذي نظر إليه الإمام في الثناء على جميع الملائكة بمختلف مراتبهم، فهم أهلٌ للصلاة الزاكية، والدعاء المخلص البريء، كرامتهم من الله سابقة للبيان، ومنزلتهم عند الله غنية عن المزيد، والثناء عليهم في القرآن حجة بيضاء تكشف عن تلك المخائل الشفافة في تلقّي الأوامر، وتنفيذ المهمّات.

سدّدنا الله من الزلل، إنه سميع مجيب.

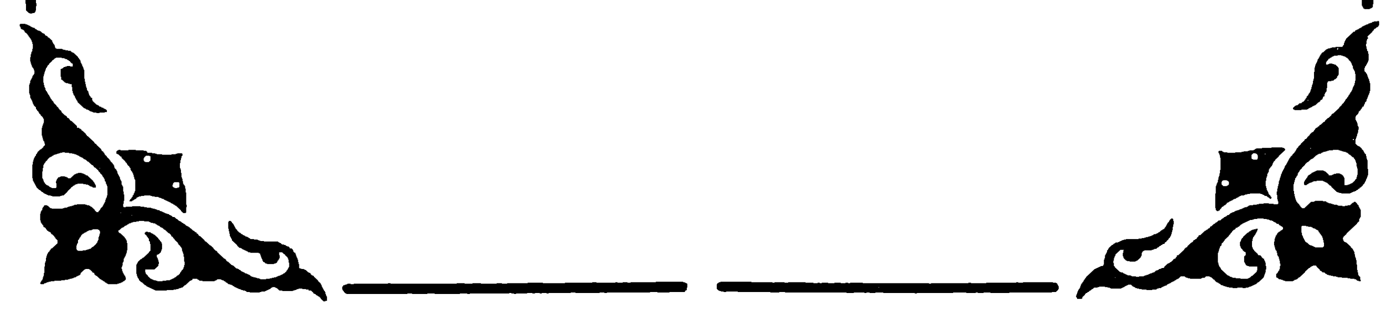
---

(١) الصحيفة السجادية/ من الدعاء الثالث.

الفصل الثالث:

الإمامُ الإنسانُ

١ ـ ديباجةُ حقوق الإنسان عند الإمام
٢ ـ حقوق النفس والجوارح
٣ ـ حقوق الأفعال
٤ ـ حقوق الدولة ونظام الحياة
٥ ـ حقوق الأرحام والولاء
٦ ـ الحقوق الاجتماعية
٧ ـ الحقوق المالية والقضائية
٨ ـ الحقوق الاصلاحية المشتركة
٩ ـ الحقوق الأخلاقية الاستراتيجيّة
١٠ ـ مبادىء الإمام والإعلان العالمي لحقوق الإنسان





ديباجة حقوق الإنسان عند الإمام:

الإنسان الإمام أو الإمام الإنسان يبرز دوره في إرساء دعائم حقوق الإنسان في ضوء تعليمات القرآن الكريم، ومن خلال معطيات الدين الإسلامي الحنيف في رسالته الفريدة «رسالة الحقوق».

هذه الرسالة للإمام زين العابدين عليه السلام، رويت بعدَّة طرق حديثية معتبرة، أبرزها طريق أبي حمزة الثمالي (رض) تلميذ الإمام الخاص، وقد رواها عنه الشيخ الصدوق في «الخصال»، والشيخ الكليني فيما أفاد السيد علي بن طاوس في «فلاح السائل»، والحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحرّاني في «تحف العقول».

هذه الرسالة بفقراتها وموادّها تشتمل على خمسين حقاً إنسانياً وحقاً، عاماً وخاصاً ومشتركاً بينهما. ويمكننا تقسيم هذه الحقوق بحسب عائديتها إلى جملة من الموضوعات كالآتي:

أولاً: حقوق النفس والجوارح، وتشتمل على الفقرات الآتية:

١ ـ حقّ الله على العباد.

٢ ـ حقّ النفس.

٣ ـ حقّ اللسان.

٤ ـ حقّ السمع.

٥ ـ حقّ البصر.

٦ ـ حقّ اليد.

٧ ـ حقّ الرجلين.

٨ ـ حقّ البطن.

٩ ـ حقّ الفرج.

ثانياً: حقوق الأفعال، وتشتمل على الفقرات الآتية:

١ ـ حقّ الصلاة.

٢ ـ حقّ الحج.

٣ ـ حقّ الصوم.

٤ ـ حقّ الصدقة.

٥ ـ حقّ الهدي.

ثالثاً: حقوق الدولة ونظام الحياة، وتشتمل على الفقرات الآتية:

١ ـ حقّ السلطان.

٢ ـ حقّ المعلم.

٣ ـ حقّ السائس بالملك.

٤ ـ حقّ الرعية.

٥ ـ حقّ المتعلمين.

٦ ـ حقّ الزوجة.

٧ ـ حقّ المملوك.

رابعاً: حقوق الأرحام والولاء، وتشتمل على الفقرات الآتية:

١ ـ حقّ الأمّ.

٢ ـ حقّ الأب.

٣ ـ حقّ الولد.

٤ ـ حقّ الأخ.

٥ ـ حقّ المُنعم بالولاء.

٦ ـ حقّ المولى.

خامساً: الحقوق الاجتماعية، وتشتمل على الفقرات الآتية:

١ ـ حقّ صاحب المعروف.

٢ ـ حقّ المؤذّن.

٣ ـ حقّ إمام الجماعة.

٤ ـ حقّ الجليس.

٥ ـ حقّ الجار.

٦ ـ حقّ الصاحب.

سادساً: الحقوق المالية والقضائية، وتشتمل على الفقرات الآتية:

١ ـ حقّ الشريك.

٢ ـ حقّ المال.

٣ ـ حقّ الغريم.

٤ ـ حقّ الخليط.

٥ ـ حقّ المدّعي.

٦ ـ حقّ المُدّعى عليه.

سابعاً: الحقوق الاصلاحية المشتركة، وتشتمل على الفقرات الآتية:

١ ـ حقّ المستشير.

٢ ـ حقّ المشير.

٣ ـ حقّ المستنصح.

٤ ـ حقّ الناصح.

٥ ـ حقّ الكبير.

٦ ـ حقّ الصغير.

ثامناً: الحقوق الأخلاقية الاستراتيجيَّة، وتشتمل على الفقرات الآتية:

١ ـ حقّ السائل.

٢ ـ حقّ المسؤول.

٣ ـ حقّ من أدخل السرور.

٤ ـ حقّ المُسيء.

٥ ـ حقّ أهل المِلّة.

٦ ـ حقّ أهل الذمّة.

وقد وضع الإمام لها مقدَّمةً إجماليةً فلسفَ بها هذه الحقوق في التقسيم والاستيعاب، وبيّن حصرها في هذه المواد، فكان تصنيفه هذا عبارة عن «ديباجة» ببلُغرافية فريدة، فيما أوجبه من حقوق، وما حصر بها من تنظيم، وما أودع فيها من لوائح، ثم عاد بعد ذلك إلى الإفاضة

في حيثياتها الحقوقية. قال الإمام عليه السلام في ديباجة رسالة الحقوق:

«اعلَمْ أنَّ لله عزّ وجلّ عليكَ حُقُوقاً مُحيطَةً بك في كلِّ حركةٍ تحرَّكتها، أو سكنةٍ سكنتها، أو حالٍ حِلْتها، أو منزلةٍ نزلتها، أو جارحةٍ قلّبتها، أو آيةٍ تصرَّفتَ فيها، فأكبرُ حُقوقِ الله تَبَارَكَ وتعَالى عَلَيكَ، ما أَوجَبْ عليْكَ لنفسِهِ من حقِّه الذي هو أصلُ الحقوقِ، ثُمَّ ما أوّجَبَ الله عزّ وجلّ عليكَ لِنفْسِكَ من قرنِكَ إلى قدمِكَ على اختلاف جوارِحكَ، فَجَعَلَ عزّ وجلّ للسانِكَ عَلَيكَ حقّاً، ولِسَمعكَ عليكَ حقاً، ولِبصَرِكَ عَلَيْكَ حقّاً، وليدِكَ عَلَيْكَ حقّاً، ولِرجلِكَ عليكَ حقاً، ولِبَطْنِكَ عَلَيْكَ حقّاً، ولِفَرْجِكَ عَلَيْكَ حقّاً، فهَذِهِ الجوارِحُ السبْعُ التي بها تكونُ الأفعالُ، ثمَّ جَعَلَ عزّ وجلّ لأفعالِكَ عَلَيكَ حُقوقاً، فَجَعَلَ لِصلاتِكَ عَلَيْكَ حقّاً، ولِصَومِكَ عَلَيْكَ حقّاً، ولِصَدَقَتِكَ عَلَيْكَ حقّاً، ولهديِكَ عَلَيْكَ حقّاً، ولأفعَالِكَ عَلَيْكَ حقّاً.

ثمَّ يُخْرِجُ الحقوقَ مِنْكَ إلى غيرِكَ من ذوي الحقوقِ الواجبَةِ عليْكَ فأوجبُهَا عليْكَ حقُوقُ أئمتِكَ، ثم حُقُوقُ رعيّتِكَ، ثمَّ حُقوق رَحمِكَ، فهذه حقوقٌ تتشَعّبُ منها حُقوقٌ، فحقُوقُ أئمّتِكَ ثلاثةٌ، أوجبُها عليْكَ حقُّ سائِسِكَ بالسُلْطَانِ، ثم حقُّ سائِسِكَ بالعِلْمِ، ثم حقُّ سائِسِكَ بالمُلْكِ، وكلُ سائِسٍ إمامٌ.

وحقوقُ رعيّتِكَ ثلاثةٌ: أوجبُهَا عَلَيْكَ حقُّ رَعيّتِكَ بالسُلْطَانِ، ثم حَقُّ رعيّتِكَ بالعِلْمِ، فإنَّ الجاهِلَ رعيّةُ العالِمِ، ثم حقُّ رعيّتِكَ بالمُلْكِ من الأزوَاجِ وما مَلَكتِ الأيمانُ، وحُقوقُ رعيّتِكَ كثيرةٌ متّصلةٌ بقدَرِ اتّصال

الرَّحمِ في القرابَةِ، وأوجبُها عليكَ: حقُّ أُمِّكَ، ثم حقّ أبيكَ، ثم حقُّ ولدِكَ، ثم حقُّ أخيكَ، ثم الأقربُ فالأقربُ، والأولى فالأوْلى، ثم حقُّ مولاك المنعم عليكِ، ثمّ حقُّ مولاك الجارية نِعْمَته عَلَيْك[1] ثم حقُّ ذوي المعروف لديكَ، ثم حقُّ مؤذِّنِكَ لِصَلاَتِكَ، ثم حقُّ إمامِكَ في صَلاتِكَ، ثم حقُّ مالكَ، ثمّ حقُّ جلِيسِكَ، ثم حقُّ جارِكَ، ثم حقُّ صاحبِكَ، ثم حقُّ شريكِكَ، ثُمَّ حقُّ مالك، ثم حقَّ غريمِكَ الذي تُطالِبُهُ، ثم حقُّ غريمِكَ الذي يُطالِبُكَ، ثمَّ حقُّ خليطِكَ، ثمّ حقُّ خصمِكَ المُدَّعِي علَيْكَ، ثُمَّ حقُّ خصمِكَ الذي تَدّعي عليهِ، ثُمّ حقُّ مُسْتَشيرِكَ، ثُمّ حقُّ المُشيرِ عليْكَ، ثُم حقُّ مُسْتَنْصِحِكَ، ثُمَّ حقُّ الناصِحِ لكَ، ثُمّ حقُّ من هو أكبرُ منكَ، ثُمّ حقُّ مَنْ هو أصْغَرُ منْكَ، ثُمّ حقُّ سائِلِكَ، ثُمّ حقُّ من سَأَلْتَهُ، ثُمّ حقُّ من جرى لَكَ على يديهِ مساءةٌ بقولٍ أو فِعْلٍ، عن تعمّد أو غيرِ تعمّدٍ، ثُمّ حقُّ أهلِ مِلّتِكَ عليْكَ، ثُمَّ حقُّ أهلِ ذِمّتِكَ، ثُمَّ الحُقوقُ الجاريةُ بقَدر عِلَلِ الأحوالِ وتصرُّف الأسباب. فطوبى لِمَنْ أعانَهُ الله على قضاءِ ما أوجبَ عليهِ من حقُوقِهِ، ووفّقَهُ لذلِكَ وسدَّدهُ»[2].

هذه المفردات الاجمالية التي ذكرها الإمام مختصراً لها، عبارة عن منهجية ساقها بين يدي الحقوق الحادية والخمسين التي سيفصّل فيها القول بحدود البلاغة الموضوعية دون تزيّد أو تنطّع أو تمحلٍ، شأنه في هذا شأن سلاسله الذهبيَّة التي صاغها بين يدي الدعاء الهادف كما في الفصل المتقدم الذي كان فيه داعية في المستوى العالمي، كما هو

---

(١) كذا في الأصل، وهو تصحيف، إذ تقدم ذكر المولى المنعم عليه، ولما سيأتي في تفصيل هذه الحقوق بقوله (ع) «حقُّ مولاك الجارية نعمتك عليه».

(٢) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٦٥ ـ ٥٦٦.

في هذا الفصل الإنسان النموذجي بسويّةٍ عالميةٍ أيضاً.

إنَّ انطلاق الإمام الإنساني في هذه الحقوق الشاملة لمشكلة الإنسان في حياته وآخرته، والمستوعبة لقضاياه المصيرية في النفس، والجوارح، والأفعال، والدولة، والنظام العام، والقرابة، والأرحام، والاجتماع، والمال، والقضاء، والأخلاق، أطروحة إنسانية لحقوق الإنسان من قبل أن يولد دعاة حقوق الإنسان بعشرات القرون والأجيال، وهي بعد شذرات إشارية لما عليه القرآن العظيم في تشريعه، والسنَّة النبوية في أحكامها، وسيرة أهل البيت في سننها، تعبّر عن مدى التفكير الأصيل لدى خلوٍّ الميدان من القيادة الرائدة، وتنفذ مقتضيات الإنسان الجديد لدى الخواء الروحي والاجتماعي والسياسي الذي تعاني منه المجتمعات المتقوقعة على الذات والمصلحة المحورية الانطوائية، لهذا فرسالة الحقوق التي فجّرها فكر الإمام وثيقة تاريخية مهمّة في سبيل اذكاء الروح النضالية لدى الإنسان من جهة، ووثيقة إنسانية من جهة أخرى تعبّر عن الوعي الرسالي الذي يحمله فكر الإمام للأجيال المتحضِّرة، ووثيقة اجتماعية تحقق العدالة والمروءة والمساواة من جهة ثالثة.

وفوق هذا كله، فهي طرح للتعايش الروحي مع حقيقة الحياة في مرافقها كافَّة، وهي المنهج البديل عن القوانين الوضعية التي تجنح في كثيرٍ من الأحيان إلى زاوية خاصة تحقق مصلحة فئوية معينة.

تقرأ هذه الحقوق فتلمسها بمنأى عن الأثرة والاستثمار الذاتي، وتعركها فتجدها بعيدة عن الوعي المحدود والمتحزّب، وتخبرها فتقف عند نموذج أرقى متطور في سبيل الكائن الإنساني، تدفع به إلى حضارة

لم تكن، وتدلّه نحو ظواهر لم تتحقق في المجتمع المادي، وتأخذ بيده لما فيه التقدم الحضاري، والرعاية الاجتماعية، والحياة المثلى.

يقول الأستاذ باقر شريف القرشي: «من المؤلفات المهمة في دنيا الإسلام «رسالة الحقوق» للإمام الأعظم زين العابدين عليه السلام، فقد وضعت المناهج الحيّة لسلوك الإنسان، وتطوير حياته، وبناء حضارته، على أسس تتوفر فيها جميع عوامل الاستقرار النفسي، ووقايته من الاصابة بأيِّ لونٍ من ألوان القلق والاضطراب وغيرهما مما يوجب تعقيد الحياة. لقد نظر الإمام الحكيم بعمق وشمول للإنسان، ودرس جميع أبعاد حياته وعلاقاته مع خالقه، ونفسه وأسرته، ومجتمعه، وحكومته، ومعلمه، وغير ذلك، فوضع له هذه الحقوق والواجبات، وجعله مسؤولاً عن رعايتها وصيانتها ليتم بذلك إنشاء مجتمع إسلامي تسوده العدالة الاجتماعية والعلاقات الوثيقة بين أبنائه من الثقة والمحبة وغيرهما من وسائل التطور والتقدم الاجتماعي. وفي ما أعتقد أنه لم يسبق نظير لمثل هذه الحقوق التي شرّعها الإمام العظيم، سواء في ذلك ما شرعه العلماء في عالم الفكر السياسي أم الاجتماعي وغيرهما مما قننوه لحقوق الإنسان، وروابطه الاجتماعية، وأصوله الأخلاقية، وأسسه التربوية»[1].

أضف إلى هذا كلّه، تلك المزايا الفريدة التي تمتلك مشاعر الإنسان وأحاسيسه، وتكتب له الاطمئنان والحياة الآهلة بالوعي والفهم بما يتحدث عنه الأستاذ الجليل السيد حسن السيد علي القبانجي بقوله: «رسالة الحقوق للإمام علي زين العابدين عليه السلام يفيض بها الوجدان

---

(١) باقر شريف القرشي/ حياة الإمام زين العابدين ٢/ ٢١٩.

روعةً وجلالاً، ويمتلىء بها القلب طمأنينة وإيماناً، وتثير في الأسماع بهجة ورضا، وتحرِّك في النفوس عواطف وأحاسيس، وهي لعمري رائد الفكر الإنساني، وسجل المعرفة، وفوق ذلك كله إنها الوسيلة لفهم الإنسان نفسه، وما فطرت عليه من مواهب ونزعات. إنها رسالة تهدي للتي هي أقوم في التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه، وبين مشاعره وسلوكه، وبين عقيدته وعمله، فإذا هي مشدودة إلى العروة الوثقى التي لا تنفصل، متطلعة إلى الأعلى وهي مستقرة على الأرض، وإذا العمل بها عبادة متى توجَّه الإنسان به إلى الله، ولو كان هذا العمل متاعاً واستمتاعاً بالحياة.

إنها رسالة تهدي للتي هي أقوم في علاقات الناس بعضهم ببعض، أفراداً وأزواجاً، وحكوماتٍ وشعوباً، ودولاً وأجناساً، تقيم هذه العلاقات على الأسس الوطيدة الثابتة التي لا تتأثر بالرأي والهوى... إنها لنور العدل في الملك، ونور الإيمان في الدين، ونور الصدق في العمل، ونور الحياة الحقَّة في الأمة»[1].

والحديث عن «رسالة الحقوق» يطول في تقريظها، ويتَّسع كبيراً إلى مسايرة أبعادها، ولكن نصوصها خير متحدث عن كنوزها، وفقراتها نعم المُعين على سبر أغوارها، فهي ألقٌ لا ينطفىء شعاعه، وقبسٌ لا تخبو أنواره، تهدي إلى الحقِّ، ويهتدي بها السائرون.

وسيكون الحديث عنها بحسب عائدية موضوعاتها التي قدَّمناها في أوَّل هذا المبحث، وفي ذلك إلقاء الضوء الكاشف عن جوهرها الأصيل الذي لا يضاهى، ومن الله العون والتوفيق والسداد.

---

(١) حسن القبانجي/ شرح رسالة الحقوق ١/ ١١ ـ ١٢.

حقوق النفس والجوارح:

وللنفس الإنسانية حقٌّ مستطيل على الإنسان، فهي الكائن الروحاني في هذا الوجود، وهي الذات التي اصطفاها الله لحمل أمانته، واجتباها للاضطلاع بثقل الرسالة، إنها اللطف الإلهي المستفيض الذي أودعه في هذه الأرض، وقولبها بهذا الجسم العجيب في تركيبه، الدقيق في مخائل صنعه، فكانت الجوارح التي بها يدرك حقائق الكون، ويستعين بها على مسالك الحياة، ولكلٍّ من النفس والجوارح حقوق فوقية تكون مراعاتها ضماناً استراتيجياً لبناء الهرم الاجتماعي المتكامل بعيداً عن الأثرة والاعتداء والجدب الثقافي، وكلها منوطة ببارئها الذي صوَّرها فأحسن تصويرها، لهذا يبدأ الإمام بالحق الأكبر الذي لا محيص عنه، ولا فرار من حكومته، فهو الأول والآخر والظاهر والباطن، منه انطلقت عوالم الوجود وإليه تعود، هذا الحقّ الأولي والأولوي هو حق الله على العباد. ويجمله الإمام بقوله:

١ ـ «فأمّا حقُّ الله الأكبر عليْكَ، فأن تعبُدَهُ لا تُشْرِكْ بِهِ شيئاً، فإذا فعَلْتَ بالإخلاَصِ جَعَلَ لَكَ على نفْسِهِ أن يكفيكَ أمرَ الدُنيا والآخرة»[١].

هذا الحقُّ هو الحق الأكبر، وما دونه حقوق فرعية، وروافد تصبُّ

(١) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٦٦.

في ذلك المحيط الهادر، كما أنها تنبع منه، وكل كبيرٍ صغيرٌ بالنسبة إليه، وكل عظيمٍ متضائلٌ بالإضافة له، وهذا الحق يتمثل بحقيقتين ونتيجة، الحقيقة الأولى: أن يعبد وحده دون شريك انطلاقاً من قوله تعالى ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾[1] والحقيقة الثانية: إناطة ذلك بالإخلاص دون رياءٍ أو سمعة أو وصولية، انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ . . . ﴾[2] فإذا تحقق هذا الفرضان، وتجاوبت النفس الإنسانية معهما تجاوباً فعلياً تحققت النتيجة الكبرى التي أخذها الله على نفسه، وجعلها لعبده تفضُّلاً منه ورحمة، وهي أن يكفيه ما أهمَّه من أمر الدنيا والآخرة، في شتَّى المشكلات، وأصعب المهمَّات، إذ يهديه سواء السبيل، فيتبصر في شؤون الدنيا فتنثال عليه حلولها، ويتدبر بأمر الآخرة فتتذلل له سبلها، فيأخذ من الأولى بطرفٍ من الكفاية، ويأخذ من الأخرى بحبلٍ من النجاة، فتكون حيازته لأطراف الحياتين بيسر وسماح، وسعادته في الدارين بتسديد من الله وتوفيق، وبذلك يجتمع له ما يجتمع لعباد الله الصالحين من اللطف العميم والفضل المتكامل، وبذلك يكون على سبيل واضح من قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[3].

٢ ـ وهنا يأتي الحقُّ الثاني بعد أداء الحق الأول بأعلى مراتب صيغه وامتثاله، وهو حق النفس، يقول الإمام بإيجاز ما بعده إيجاز: **«وحقُّ نفسِكَ عليكَ أن تستعملَها بطاعةِ الله عزَّ وجلّ»**[4]. واستعمال

---

(١) سورة الإسراء: الآية، ٢٣.

(٢) سورة الأعراف: الآية، ٢٩، وقد وردت في سور أخرى.

(٣) سورة البقرة: الآية، ٢٠١.

(٤) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٦٦.

النفس بطاعة الله تعالى في كلّ الأحوال والظروف والطوارىء فضيلة ما بعدها فضيلة، وحقيقة ما فوقها حقيقة، وهذه النفس بخلوصها في الطاعة، وصفائها في الإنابة، وإناطتها الأمور بالله تعالى، تقربها من الدرجة العظيمة التي يتحدَّث عنها الله تعالى بقوله: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾[1].

وهذا النداء للنفس المطمئنة بالرجوع إلى الله بمنتهى الرضا يتوشَّح بأهم من دخول الجنة، وهو الدخول في عباد الله من الشهداء والصديقين والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، فالاجتماع والكون في زمرة الأنبياء، وفي القرب من محمد وآل محمد، أحبّ إلى النفس الإنسانية المجرَّدة من دخول الجنة، فإن الالتقاء بهؤلاء المقرَّبين هو الفرصة العظمى التي لا تدانيها فرصة، ومن ثمّ يأتي النداء بدخول الجنة، فقدّم الله الأهم بالتقاء العباد المصطفين، وثنّى بالمهم وهو دخول الجنة. وبعد الحق الأكبر وحق النفس، ينطلق الحديث نحو التركيز على حقوق الجوارح.

٣ ـ ويبدأ الإمام بأعظمها مكاناً لدى الإنسان، وهو اللسان فيقول:

«وَحَقُّ اللِّسَانِ إكرامُهُ عَنِ الخَنَى، وتعْويدُهُ الخيرَ، وتركُ الفُضُول التي لا فائدةَ لها، وبالبرِّ بالناسِ وَحُسْنُ القولِ فيهم»[2].

وهذا أول الجوارح حقوقاً وهو اللسان، ويضع له الإمام برنامجاً

(١) سورة الفجر: الآيات، ٢٧ ـ ٣٠.
(٢) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٦٦.

خاصاً مكثَّفاً يشمل أمهات العوائد الأخلاقية، فإكرامه عن الفحش والبذاءة والهذر كل أولئك من الخنى الذي يجب اجتنابه والابتعاد عنه، وتعويده رياضة على تلمّس الخير وتلبّث مصادره، والانقياد له في رصد مظانه من كلِّ الوجوه مما ينبغي الاقتراب منه حتى يعود ذلك عادة، وترك التطفُّل في الحديث، ونبذ الفضول من القول، مما لا فائدة به، ولا عائدية منه ملحظ حثيث لا بدَّ من الالتزام به، ليكون ما يتفوَّه به ذا نفع عام، وثمرة إيجابية لا ضياع معها للوقت والقول، والبرّ بالناس في جميل الحديث، ورفيع الاستشهاد، وانتقاء العبارة، مضافاً إلى حسن القول فيهم، والكشف عن محاسنهم، والتلطف في مخاطبتهم، والثناء عليهم، كلُّ أولئك رصيد أخلاقي متحفّز للأخذ بمضامين الحديث الشريف «الكلمةُ الطيبة صدقةٌ».

٤ ـ وهذه الحاسَّة العجيبة في إحساسها، الفريدة في تلقّيها، وهي السمع، لها حقٌ ثابتٌ لا يضيّع، يجمله الإمام بالتحديد: «**وَحقُّ السَمْعِ تنزيهُهُ عن سماع الغيبة، وما لا يحلُّ سَمَاعُهُ**»[١] الغيبة باعتبارها سلاح المجتمعات المتخلِّفة، وإدام أهل النار كما في بعض الروايات، ودليل البطالة والفراغ القاتل، ومهمّة الفاشلين في الحياة والمتخلِّفين عن الركب الصاعد، وفيها كثيرٌ من الحسد الذي يجرّ إليها، والأنانية الذاتية التي تدعو لها، والاعتداء الصارخ على الآخرين دون مسوّغ شرعي أو اجتماعي، وهي بعد من الكبائر التي أوعد الله عليها دخول النار، كما أنها في المقياس الديني مسقطة للعدالة والوثاقة، وفوق هذا وذاك قوله تعالى نهياً وتمثيلاً: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ

---

(١) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٦٦.

أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ . . . ﴾[1].

وهذا التشبيه التمثيلي في الجزء الأخير من الآية أنزل الغيبة بالمنزلة التي تنفر فيها الطباع ولا تسيغها النفوس من أكل لحم الأخ ميتاً، وهو مكروه اجماعاً، ومرفوضٌ طباعاً، فكيف تستطيبه الأرواح الشريرة. وأضاف الإمام إلى جانب هذا المدرك في التنزيه تنزيه السمع عما لا يحلّ سماعه من الفحش والبذاء والقول الحرام، وتنزيهه عن استماع الغناء ومعازف الطرب مما يدعو إلى الانحلال والميوعة.

٥ ـ وعطف الإمام على البصر، فَخَصّهُ من قوله بإحدى جوامع الكلم، فقال: «**وحقُّ البصرِ أن تغضّه عمّا لا يَحُلُّ لَكَ، وتعتبر بالنظر بِهِ**»[2] وهذان المؤشران في حق البصر مستلان من القرآن العظيم، بأن يقصر على ما هو مباح، ويغضّ عما لا يحلّ، قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ . . . ﴾[3] وبالنسبة للمؤمنات قال تعالى:

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ . . . ﴾[4] وقد ربط بين غض البصر وحفظ الفرج، لأن البصر هو الوسيلة التي يتطاول بها الإنسان للوصول إلى هتك الحرمة إن أطلق له العنان كما هو الشأن اليوم والمتعارف إلا من عصَمَ الله تعالى.

والمؤشر الثاني؛ هو الاعتبار بالنظر، وقياس حوادث الأشياء

---

(١) سورة الحجرات: الآية، ١٢.
(٢) الشيخ الصدوق/ الخصال ٥٦٦/٢.
(٣) سورة النور: الآية، ٣٠.
(٤) سورة النور: الآية، ٣١.

بالبصر، فيكتسب العبرة بالنظر، ويحقق السلامة بصدق التدبر ودقة الإمعان، ويجيل طرفه في خلق السَّماوات، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[1].

٦ ـ ويوجز الإمام جماع القول في حقِّ اليد، وبقوله: **«وحقُّ يَدِكَ أن لا تبسطها إلى ما لا يحلُّ لكَ»**[2].

وهذا القول الجامع في حق اليد يتسع وينتشر ليشمل المنع عمّا حرّم الله كافَّة، في الاعتداء، السرقة، الغصب، القتل، الأذى، الإشارة العدوانية، فلا يبسطها الإنسان في هذه الشؤون التي ترد به بل يقبضها عندها، ويطلقها فيما هو مباحٌ أو مندوب إليه، كالصدقة، والعطاء، والمساعدة، والجهاد في سبيل الله، ونصرة المظلوم، وردّ كيد المعتدين، وأمثال هذه الأطروحات واجبةً أو مندوبةً، مستحبةً أو مسنونةً، وكم للإنسان المسلم من مجال عريض في هذا المضمار الفسيح.

٧ ـ وبعد اليد في رسمها المفروض لها، يأتي تقييد حركة الرجلين بقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: **«وَحَقُّ رِجْلَيكَ أنْ لا تمشي بِهِمَا إلى ما لا يحلُّ لَكَ، فبهما تقفُ على الصراطِ، فانْظُرْ أنْ لا تزلَّ بكَ فتردى في النّار»**[3].

وطرق الإباحة متوافرة المسالك، لا يَضِلُّ من توخاها، ولا يحيد عن الحق من استعان بها على ترفيه نفس، أو قضاء وطر، أو قصد

---

(١) سورة آل عمران: الآية، ١٩١.

(٢) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٦٦.

(٣) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٦٦.

صديق، أو دفع معرّة، وآلة ذلك الرجلان من الإنسان، فحريٌّ به أن لا يستعملهما في حرامٍ، ولا يجريهما في محظور، ولا يلهث بهما وراء الشهوات، فبهما يقف على الصراط، فيجتازه إن أحكم سبيل الجادة، ويتردّى منه إلى النار مع زلل الخطى، فليتذكر الإنسان ذلك اليوم حين تتعطل الجوارح عن الحركة، ويصبح جثة هامدة لا يقوى على الحركة، وذلك معنى قوله تعالى بحدود معتبرة: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾[1] ونتيجة هذا الالتفات أن يساق إلى الله سوقاً، فمن زلَّ هوى، ومن ثبتَ نجا.

٨ ـ **«وَحَقُّ بطنِكَ أنْ لا تَجْعَلْهُ وِعاءً للحرام، ولا تزيد على الشبع»**[2] وقد أجمل الإمام حق البطن بملحظين عظيمين، أحدهما شرعي: بأن لا يجعل مخزوناً فارغاً بالحرام، فإن الامتلاء الحقيقي بالحلال، وثانيهما صحي، بأن لا يتجاوز قدر الحاجة في الطعام، وما سوى ذلك فإنه التخمة والبطنة والاسراف، وإذا امتنع الإنسان عن تناول الحرام مالاً أو ميتة أو سواهما بورك له فيما أكل وتناول، وإذا امتنع عن العبث والاسراف متجاوزاً حدود الشبع، وهو لا يحاول ذلك، كان صحيحاً معافى، لا يدنو منه السقم، ولا يستطيل إليه الداء، وبالجمع بين هذا وذاك يقفز بروحه عن الآثار النفسية السيئة للمحرّمات، وينجو ببدنه عن الآفات والأمراض المصاقبة لمراحل الاتخام.

٩ ـ **«وحقُّ فرجِكَ أن تُحصّنَهُ عن الزّنى، وتحفَظَهُ من أن يُنظر**

---

(١) سورة القيامة: الآيتان، ٢٩ ـ ٣٠.

(٢) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٦٦.

إليه»[1] والفرج هنا تعبير إيحائي عن الجهاز التناسلي لدى الذكر والأنثى، وحصانته فيما أباح الله من الزواج وما ملكت اليد، قال تعالى في مواصفات المؤمنين حقاً:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾[2] فإذا تعدى الإنسان هذا الحدّ فهو الاعتداء الصريح، والإمام بهذه الحقيقة يواكب معطيات القرآن الإنسانية بالنسبة للجنسين، فهو يشدّد على غض النظر لأنّه فاتحة الزنى، وهو يشدد على حفظ الفروج لأنها مظنة الفساد، وبغضّ النظر عن الدلالة لجنس الفرج في إطلاقه، فآيات سورة النور تصرّح بهذا التشديد، وذلك التذكير لكلا الجنسين، ويعطي لذلك منهجاً صارماً، واستفتاءات شرعية فيها كل ما يريده المسلم الغيور، قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾[3].

وينتقل الإمام إلى ضرورة الاحتراس من أن ينظر لعورة المؤمن ويوصي بالتحرز الشديد من النظر لدى الجنسين.

---

(١) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٦٦.

(٢) سورة المؤمنون: الآيات، ٥ ـ ٧.

(٣) سورة النور: الآيتان، ٣٠ ـ ٣١.

حقوق الأفعال:

وهي حقوق ما يفعله الإنسان عليه، وحقوق الإنسان عليها في ضوء أدائها بشروطها المقرَّرة شرعاً، فلهذه الأفعال حقوق على الإنسان تكون عايديتها له فتؤدي الحقوق إليه كما أداها بطقوسها المفروضة، فهي إذاً حقوق متبادلة إن صح التعبير.

١ ـ وأول هذه الحقوق حق الصلاة، يقول الإمام عليه السلام: **«وحقُّ الصلاة أن تعلمَ أنّها وفادةٌ إلى الله عزّ وجلّ، وأنتَ فيها قائماً بين يدي الله عزَّ وجلّ، فإذا علمتَ ذلك قُمْتَ مقام العبد، الذليل، الحقيرِ، الراغبِ، الرّاهبِ، الراجي، الخائفِ، المُستكينِ، المُتضرِّعِ، المُعظِّم لمن كانَ بين يديهِ بالسُّكونِ والوقارِ، وتقبلُ عليها بقلبِكَ، وتُقيمُها بحدُودِها وحقُوقِهَا»**[1].

شرع الإمام ـ بادىء ذي بدء ـ بعدِّ الصلاة علاقة بين العبد وربِّه، وإذا كان الأمر كذلك وهو كذلك، فعلى الإنسان العمل الجدّي لشدّ أواصر هذه العلاقة متانةً وأولويةً باعتبار أنها أرقى درجات العلاقات الروحية، فإذا علم أنها تفوق هذه العلاقة إلى ما هو أعظم منها منزلة، وأرفع منها درجة، وعادت بمنزلة الوفادة إلى الله، فعليه أن يحسن هذه الوفادة، ويلتزم التزاماً دقيقاً بجوانبها الموضوعية والوضعية، حين تؤدّى

---

(١) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٦٦.

بأفضل صورها، وهو يقوم فيها بين يدي جبار السماوات والأرض، وقد ورد عن جملة من أئمة أهل البيت عليهم السلام: أنهم كانوا يصفرُّون تارةً، ويخضرّون تارة أخرى، إذا قاموا إلى الصلاة، فإذا سُئِلَ أحدهم عن هذه الحالة، أجاب ـ بما مؤدّاه ـ أنه يقوم بين يدي جبّار السماوات والأرض يكون ذلك عادة منهم عليهم السلام بعد عرض استفهام إنكاري أو تقريري كأن يقول: أوتدري بين يدي من أقوم؟.

فإذا كان الأئمة بولايتهم التكوينية بأدقّ معانيها في مثل هذا الاضطراب عند أداء الصلاة، وإذا كان الإمام زين العابدين نفسه يهتزُّ كالسعفة إذا اشتد بها الريح في هذا المقام كما هو مؤدّى بعض الروايات، فما بالك بهذا الإنسان العادي في كل شيء، وإذا علم ذلك فعليه أن يقوم بها مقام العبد الذي ليس له التصرف بشيء فهو مملوك، الذليل الذي لا عزّ له إلاّ بالله، الحقير بالنسبة لمخلوقات الله العليا والسفلى المرئية والمصوَّرة والمتخيلة، فهو جزء بسيط تافه من هذه العوالم الكبرى المترامية الأطراف، تؤذيه البقة، وتميته الشرقة على حد تعبير أمير المؤمنين عليه السلام، الراغب في ما أعدّه الله لقائمي الصلاة من المتقين من الثواب العظيم في درجات الآخرة، ولدى مستقر رحمته مع الشهداء والصالحين والصديقين وحسن أولئك رفيقاً، الراهب من غضبه وانتقامه وسخطه ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1]. الراجي رحمة ربِّه ولطفه وإحسانه في الدنيا والآخرة، الخائف من عدله وقضائه وأليم عقابه يوم يقال للمخفِّين جوزوا، وللمُثقلين حِطُّوا، المستكين لأمر الله فلا استقلالية له بشيء، والمستكين له بذلّةٍ وسكون

---

(١) سورة الشعراء: الآيتان، ٨٨ ـ ٨٩.

وخشية وسؤال، المتضرع له بالمهمات، ودرء الكوارث، وطلب المغفرة، والتوفيق الاستمراري بالبقاء على الإسلام والإيمان حتى الموت، كما قال الصدّيق يوسف فيما حكاه الله عنه: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[1].

فإنه طلب الاستمرار في إسلامه وإخباته حتى وفاته، لا أنه طلب الوفاة كما جاء عن بعضهم، هذا التضرع يصحبه التمسكن لله عز وجل، وذلك التمسكن عادة ما يكون سبيلاً إلى الخشوع لله تعالى، والوقوف بين يديه في سكون ووقار، والإقبال بالقلب عليه عند صلاته هذه، شرط إقامته بحدودها المشروعة، وأدائها بحقوقها المفروضة.

٢ ـ والحقُّ التالي من حقوق ما يؤديه الإنسان بأفعاله حق الحج باعتباره فرضاً من الله على عباده المؤمن والكافر، إلا أن الكافر يجب عليه الحج ولا يصحُّ منه، لأنه يفقد شرط الإسلام، بدليل عمومه على الناس كافة بقوله تعالى:

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ ﴾[2] واطلاق لفظ الناس على المخاطبين بوجوب الحج لم يقيد بالمسلم حتى يختص به وحده، وقد بيّنَ الإمام في إفاضته عن الحج القول: **«وَحَقُّ الحجِّ أن تعلم أنَّهُ وفادةٌ إلى ربكَ، وفِرَارٌ إليه من ذُنوبِكَ، وبه قبُول توبَتِكَ، وَقَضاءُ الفرض الذي أوجبَهُ الله عليكَ»**[3].

---

(١) سورة يوسف: الآية، ١٠١.

(٢) سورة آل عمران: الآية، ٩٧.

(٣) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٦٦.

والحجُّ وفادةٌ إلى الله، وقصدٌ لساحة عزَّته وعظمته، وإلمامٌ بشعائر بيته الحرام، وقضاء لوجوب المناسك في الأداء، تنشقّ عنه المعادلات الشرعية بفرض يشترك فيه المال والبدن، وتنجذب إليه القلوب والأرواح وهي ساهمة في خضمّ الروح الإلهي المتزاحم، فتجد كل نفس مطمئنة مناها، وتتلقّى كل سريرة هداها، فبه وبما يضمّ من فريد الطقوس تتحقق أماني المسلمين، وتتبرعم أحلامهم بأفقٍ من الروحانية الخالصة يدفع بهذه الألوف المتراصة إلى شاطىء آمن من العفو الإلهي، وبه يفر المرء من ذنوبه إلى ربِّه، ومن جرائره إلى بارئه، ومن تجنيه وتطاوله وتماديه إلى قبول التوبة، أضف إلى ذلك كلِّه تأدية هذا الفرض العظيم، وقضاء هذا المنسك المتميز بأعماله الشاقة حيناً، والمكلّفة حيناً آخر، والمكثفة بآثارها القصوى، وأداء هذا كله توفيق من الله لانجاز مهمة شاقة، يُثابُ عليها الإنسان، ويقابل من أجلها بالكرامة في الدارين باعتباره ضيفاً على الله، ولا بد للضيف من حسن الوفادة، ومن أحسن وفادة من الله عز وجل لعبده المطيع.

٣ ـ ويتناول الإمام شرائح الصوم بحقِّه الموسّع الذي يقضي بصيام الجوارح والمدارك والأجهزة التناسلية والبطن والحواس، فيقول «**وحقُّ الصوم أن تعلمَ أنَّهُ حِجَابٌ ضربَهُ الله على لسانِكَ وسَمْعِكَ وبصرِكَ وبطنِكَ وفرْجَك ليسترَكَ به من النارِ، فإنْ ترَكْتَ الصوْمَ خَرقْتَ سِتْر الله عليكَ**»[(١)]. يا له من استيعاب لهذا الحجاب الحاجز عن المحارم والمباحات على حدّ سواء، فالصوم ذلك الغطاء الواقي عن زلل اللسان، وذلك الحجاب الضارب بأطنابه على اللسان من الهذر والكذب

---

(١) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٦٦.

والغيبة، وهو الحاجز الطبيعي للسمع والبصر عن المحارم، وهو الرادعُ العفوي للبطن والفرج عن المباح، عبّر ما شئت عنه، حجاب، حاجز، رادع، واقٍ، فإنه الساتر عن العذاب في النار، وهو الدافع بالإنسان إلى الثواب الجزيل، فقد ورد مضمون الحديث القدسي عن الله تعالى: **«كل الأعمال لبني آدم إلا الصَّوم فإنه لي، وأنا مُجاز عليه. . .»**.

يا لها من رحمة فيَّاضة تضاف إلى تلك الألطاف السنية، فالله هو المجازي على الصيام، لأن الصيام له، وهو سِترُهُ الذي جَلَّلَ به العبد، فإن ترك ذلك الصوم خُرق ذلك الستر، وكان إلى الفضيحة أقرب، ومن الخسران قاب قوسين أو أدنى، ويكفي أنه سنة الله في عباده، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1].

وكتابة الصوم قضاءٌ، وقضاؤه فرضٌ، وفرضُهُ واجبٌ، ولا مناص من أداء الواجب بأسلم مظاهره، ولا بد من توخّي قبول هذا العمل، وقبوله منوطٌ بالتقوى: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾[2].

٤ ـ والحقُّ الرابع هنا حق الصدقة، والصدقة نوعان:

واجبة ومندوبة، فالواجبة تشمل الغلات الأربع: الحنطة والشعير والتمر والزبيب، والأنعام الثلاث: الإبل والبقر والغنم، والنقدين: الذهب والفضَّة، هذا إذا بلغت أنصبتها الشرعية كما تنصُّ عليها كتب الفقه، ورسمها هناك معدود في هذه الأجناس الثلاثة، وقد تشمل الصدقة، وهي الزكاة أموال التجارة إذا بلغت قدراً معيناً وتجاوزته على

---

(١) سورة البقرة: الآية، ١٨٣.

(٢) سورة المائدة: الآية، ٢٧.

رأي لدى الفقهاء. والصَّدقة المندوبة مسنونة فيما يعطيه الإنسان تنفلاً واستحباباً من شاء فليُكثر، ومن شاء فليُقل، فقد ورد أنها تدفع البلاء وقد أبرم في السَّماء إبراماً، والإمام يصوّر لنا هذا الحق: «**وحَقُّ الصَدَقَةِ أنْ تعلَمَ أنّها ذُخْرُكَ عِنْدَ ربِّكَ عَزَّ وجلَّ، ووديعَتُكَ التي لا تَحْتَاجُ إلى الاشهادِ عليها، فإذا عَلِمْتَ ذلك كُنْتَ بما تستودعُهُ سراً أوْثَقَ مِنْكَ بما تستودِعُهُ علانيةً، وَتَعْلَم أنّها تدْفَعُ البلايا والأسقام عنْكَ في الدُّنْيا وتدْفَعُ عنْكَ النَارَ في الآخرةِ**»[1].

فالصدقة ذخيرة عند الله يوم تفنى الذخائرُ، فهي عارية مستردّة لدى احتياجها، وكفى بهذه الذخيرة غناءً عند الفاقة والعوز، وهي أيضاً وديعة لا يضطر معها صاحبها إلى الاشهاد لأنها في أمانة الله تعالى، ولأنها كذلك تفصح عن نفسها بنفسها فعلاً «سَبُوحٌ لها مِنْها عليها شواهدُ» وإذا كان الأمر كذلك وهو كذلك كان ما يستودعه الإنسان من صدقاته سرَّاً، أوثق منه بما يستودعه علانيةً، فقد ورد أن «صدقة السرِّ تطفىء غضب الربّ» وهذا لا يمانع من الصدقة جهراً لما فيها معلنةً من تشجيع الآخرين عليها، ويكون بها المرء قدوة بأفعاله وأعماله و «إنما الأعمال بالنيّات»، وقد ورد في القرآن العظيم تقويم الأمرين معاً، قال تعالى: ﴿ **ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾[2] وقد أكد القرآن الكريم على فضيلة الانفاق بما لا مزيد عليه في نص آخر من حيث الدلالة والمضمون والعوائد النفسية والأُخرويَّة، والمضاعفة في

---

(١) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٦٧.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٧٤.

الدارين، بما يجعل مهمة الصدقة ميسّرة لمن ألقى السمع وهو شهيد، قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[1].

فالجزاء الطبيعي الواحد مضروباً في سبعمائة، أما المضاعفة من قبل الله تعالى فلا حدود لها، فهنيئاً للمنفقين والمتصدِّقين، ويريد الله أن تكون الصدقة ذات طابع سلوكي في حياة الفرد والأمة، لربط العلاقة بينهما، وذلك ببيان الآداب المرعية في بذلها حتى تعود هذه الصدقة عملاً تهذيبياً للنفس، ووساطة مجدية في التنظيم.

ويبرز هذا الملحظ في صورتين متقابلتين: صورة المنفق مَاله رياءً وسمعةً وظهوراً بين الناس، وصورة المنفق مالهُ ابتغاء مرضاة الله.

أما الصورة الأولى فقد ظهرت بمظهر الزجر عن الأذى والمنِّ، والأمر الدقيق الصارم بعدم ابطال الصدقة بهما، جاء ذلك بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[2].

هذه الصورة: تراب يتقاطر عليه وقع المطر فيتركه صلباً متحجراً، لا ينبت شيئاً، ولا يغني زارعاً، فبينا يؤمل في مثله أن يهيئه المطر للخصب والعطاء، وإذا به يعود صلداً لا ينقد، وكذلك تذهب صدقات المرائين متصلبة في غلاف سميك من الخبث والتكلس، فلا تتفجر منها رحمة، ولا ينهمرُ منها خير لأنها امتزجت بالمن، واختلطت بالأذى،

---

(١) سورة البقرة: الآية، ٢٦١.

(٢) سورة البقرة: الآية، ٢٦٤.

واتسمت بالرياء وحب السمعة والظهور.

أما الصورة الثانية: فصورة الانفاق القربي امتثالاً للأمر المولوي وحده، وابتغاء مرضاة الله فحسب، وضعاً للشيء في موضعه، وتثبيتاً للنفس، واطمئناناً بالعاقبة، وكسباً للرضوان، وسلوكاً على الجادة، وهذه الصورة تقف في الاتجاه المعاكس للصورة الأولى فيما يتحدث به القرآن:

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1].

فمثل انفاق هذه الجماعة الرائدة في صدقاتها وعطائها ابتغاء وجه الله، وطلباً لرضوانه العريض، كمثل جنة فيحاء في مرتفع من المكان، ونشزٍ من الأرض، ذلك أن نبت الربى أرقُّ منظراً، وأزهى ثمراً، وأبهج رؤية، إذ تتعاهده الشمس، ويتعاجله المناخ النقي، وهو بين صيبين: القطر أو الطل، فإن لم يصبها مطر غزير في وابله، كفاها الطل الخفيف في رذاذه، وقد اجتمعت لهذه الربوة جودة التربة وحسن الموقع، فهي على كل حال مستعدة استعداداً زراعياً للإنبات الوفير، وهكذا البر في موقعه، والصدقة في موضعها، وقد ورد في دعاء سفانة بنت حاتم الطائي للنبي الكريم ﷺ، حينما أكرمها اكراماً عظيماً: «أصاب الله ببرّك مواقعه» وما أعظم النعمة على العبد المحتاج غداً لفيض بره في الدنيا، أن يكون برّه قد أصاب مواقعه[2].

---

(١) سورة البقرة: الآية، ٢٦٥.

(٢) ظ: الصورة الفنية في المثل القرآني للمؤلف/ ٣٢٨ ـ ٣٢٩ ط: بيروت.

وثمّة حقيقة أخرى يشير إليها هذا الإمام الإنسان أن الصدقة تدفع البلاء في الدنيا، وتنفي الأسقام من البدن، وقد ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام القول: «داووا مرضاكم بالصدقة» والإمام يصدر عنهم في هذا الرأي، أما جزاء الصدقة الخالصة المحضة؛ فإنها تدفع النار عن الإنسان في الآخرة كما أفاض الإمام عليه السلام، وهذه الإفاضة في دقائق الصدقات منه يصدر فيها الإمام عن القرآن الكريم في استيعابه لأبعاد هذا الموضوع الذي يضمن التكافل الاجتماعي ضماناً قطعياً كما أراد الإسلام.

٥ ـ والهدي من تمام واجبات المناسك لحج الإسلام، وللهدي سنن وأحكام يعرض لها الفقهاء في كتاب الحجِّ، وقد نصّ القرآن العظيم على وجوب ذلك بقوله تعالى:

﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1]. والآية من غرر الآيات حيث وضعت إلى جنب وجوب الهدي كونه ذا خير عميم، ووجوب التسمية عليها، والانتظار بعد الذبح حتى تكون صالحة للاستعمال بعد همود أنفاسها، ووجوب جنوبها، ثم أوجبت على الحاج الأكل منها، وإطعام المحرومين والجياع، وعطف أنها من تسخير الله للناس، لعلهم يشكرون.

والإمام يصدر عن هذه الحيثيات في تقييم الهدي خالصاً لله تعالى فيقول:

---

(١) سورة الحج: الآية، ٣٦.

«وحقُّ الهدي أنْ تُريدَ به وَجْهَ الله عزَّ وجلَّ، ولا تريدُ بهِ خلْقَهُ، ولا تُريدُ به إلاّ التعرضَ لرَحمَةِ الله ونجاةَ رُوحِكَ يومَ تلْقَاهُ»[1] ويبدو أن الإمام في هذا الجانب يريد بالإنسان المسلم أن يبتعد عن الرِّياء والمباهاة، وأن يتَّجه بعمله هذا لله وحده، ولا يشرك بذلك أحداً من خلقه، ويحصر الهدي بأمرين مهمين: الأوَّل: التعرّض لرحمة الله، ومناسك الحجِّ بعامةٍ مظانّ مؤكّدة لاستنزال رحمته تعالى على عباده، والهدي أحدها، ومن أهمها، الثاني: طلب النجاة وهو يقدم هذا القربان ويزهق روحه، لتنجو به روح الإنسان يوم اللقاء الهائل، وهو يوم القيامة.

والمؤمن الرسالي الحقّ، هو ذلك النموذج الذي يرتبط في كل طقوسه وواجباته بالله وحده، فلا يعمل إلاّ لمولاه، ولا يتطلّب إلا رضاه، أرضي الناس أم سخطوا، لا يرائي في فرض، ولا يدلّس في عبادة، همُّهُ نفسه، وتبعتُهُ ذنبُه، وهو مرتهن بعمله إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌ.

---

(١) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٦٧.

حقوق الدولة ونظام الحياة:

وحقوق الدولة السياسية عند الإمام عليه السلام تستقطب ما به تسيير النظام العام في سياسة السلطان، وسياسة التعليم، وسياسة من يملكك إن كنت مملوكاً كما كان ذلك شائعاً في عصره، وسياسة الرعية، وسياسة المتعلِّمين من الناس، وسياسة الزوجة بالرفق والتكريم، وسياسة المملوك في الاحسان وطيب المعاملة، وهذه الحقوق بعامة يترتب عليها حفظ نظام الحياة على المستوى السياسي والاجتماعي والأُسري، لذلك أطلقنا عليها اسم «حقوق الدولة ونظام الحياة».

١ ـ يتحدَّث الإمام عن الحق المشترك بين السلطان والرعية من حيث الابتلاء والامتحان والاختيار، فيقول: **«وَحَقُّ السُلْطَانِ أنْ تَعْلَمَ أَنَّكَ جُعِلْتَ لَهُ فِتْنَةً وأَنَّهُ مبتلى فيكَ بِمَا جَعَلَهُ الله عزَّ وجلَّ لَهُ علَيْكَ من السُلْطَانِ، وأنَّ عَليْكَ أن لا تتعرَّض لِسَخْطِهِ فتلقي بيدك إلى الهلكة، وتكونَ شريكاً لهُ فيما يَأتي من سوءٍ»**[1]. فلا بد للإنسان من سلطان برّاً أم فاجراً، لتجري سنن الحياة في السيطرة واجراء المقادير، والسلطان مفتون على أية حال، وهو مختبر وممتحن بما جعل له من السلطة الموقتة، فهل يجريها على نهجها المراد، أم أنه ينحرف عنها إلى

(١) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٦٧.

الجبروت والطغيان، ذلك ما تحدده مسيرة كل حاكم، وبرمجة كل مُستولٍ على الأمور، وقابلية كل ماسك بأزمّة الحكم، فهناك الظالم الجائر، وهناك الرحيم الرؤوف، وهنالك من اتخذ سبيلاً بين هذين: السطوة عند الاحراج والضيق والالتفاف، والرحمة والبر لدى البلهنية من الحياة والعيش الرغيد وقليلٌ ما هم الذين يحكمون ويعلمون أنَّهم ميّتون حقّاً، ولا يبقى لهم سوى العمل الصالح، وهؤلاء على قلتهم تكاد لا تسيغهم مجتمعاتهم، وهم إلى التآمر عليهم أقرب لأنهم حزب الله.

وليتحرَّز الإنسان ـ عند الإمام ـ من ولاة الجور، فلا يكون معيناً لهم على نفسه، ولا شريكاً فيما يقترفون من آثام تجاه الآخرين، بل يتحكم بمسيرته متقياً الشرور والنزوات حذر أن يشاطرهم فيما يوقعونه بِهِ من سوءٍ، وهذا يعني اليقظة والحذر والتنبُّه.

٢ ـ ويبرز دور السياسة التعليمية بمناخها التربوي الأصيل لدى الإمام، فيعطي لذلك منهجاً جديداً في عصره، لم تتوصَّل إليها مناهج التربية والتعليم إلاَّ في العصر الحديث، بل يضيف إليها الإمام معالم أخرى بعيدة عن الفهم الأولي لدى المعاصرين حيث يتولّى الإمام صياغة البعد الإسلامي المتطور في هذا المضمار، فيقول: «**وحقُّ سائسِكَ بالعِلْم التعظيمُ لهُ والتوقيرُ لمجلسِهِ، وحُسْنُ الاستماع إليهِ، والاقبال عليهِ، وأن لا ترفَعَ عليه صوْتَكَ، وأن لا تُجيبَ أحداً يسألُهُ عن شيءٍ حتى يكونَ هو الذي يُجيبُ، ولا تُحدِّث في مجلسِهِ أحداً، ولا تغتاب عِندَهُ أحداً، وأنْ تدفَعَ عنه إذا ذُكرَ عندَكَ بسُوءٍ، وأنْ تسترَ عُيوبَهُ وتُظْهِرَ مناقبَهُ، ولا تجالسنّ له عدواً، ولا تعادي لهُ ولياً، فإذا فعلْتَ ذلِكَ**

شهدَ لكَ ملائِكَةُ الله بأنّكَ قصدْتَهُ وتعلَّمْتَ علمَهُ لله جلَّ اسمُهُ، لا للناس»[1].

ورعاية هذه الحرمة لمعلم الإنسان تؤكد على ظاهرتين ونتيجة:

الظاهرة الأولى: تتبرمج بما خطط له الإمام من آداب التعليم، وفلسفة رعاية حقوقه وحقوق ناشره بالفعل، ويبدأ الإمام بتعظيمه حقَّ التعظيم، وتوقير مجلس العلم بما هو أهله، والاستماع الحسن للأستاذ والإقبال عليه بشوق ورغبة، فلا تثاقل ولا تكاسل ولا ضجر، وخفض الصوت عنده، ورعاية الأدب التام فلا يجيب عن سؤالٍ لو علمه وعرفه حتى يجيب عليه الأستاذ فهو المسؤول لا الطالب، كبحاً لجماح النفس، ودربة على الإفادة بالتواضع، ووضع الشيء بموضعه المناسب، فلا تجاوز ولا تنطع.

الظاهرة الثانية: وتتحدد معالمها الأخلاقية بأصول مقررة لدى المعادلة النوعية في الضبط وصيانة اللسان، فلا يقطع التلميذ سلسلة أفكار الأستاذ بحديث عابر في مجلس العلم، ولا يغتاب أحداً في حضرة معلمه، وعليه أن يجعل من نفسه جندياً أميناً مخلصاً في الدفاع عنه إذ لاكته الألسن بما ليس فيه من هذرٍ أو سوء أو غيبة، والإنسان لا يخلو من جريرة، ولا يسلم من عيب، ولا ينزه عما يصم الفتى، فإذا كان كذلك فعلى التلميذ الوفي ستر العيوب لوليِّ علمه، بل وعليه بالمقابل نشر فضائله وكشف مناقبه، وفي هذا الضوء يجب أن يريحه نفسياً، ويلتزمه اجتماعياً، فلا يدخل عليه الأذى المزدوج بمجالسة

---

(١) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٦٧.

أعدائه، ولا يخيّب أمله في معاداة أوليائه، فلا يجالس إلا من يحبّ، ولا يعادي إلا من يبغض، وهذا شأن ما هو أصيل في التربية والوفاء واستيعاب منزلة الأبوة الروحية، فقد ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام: «الآباء ثلاثة: أبٌ علَّمَكَ، وأبٌ أوْلَدَكَ، وأبٌ زوَّجَكَ. . .».

والنتيجة المترتبة على هاتين المقدمتين باستيفاء حقِّهما، ومتابعة أثرهما، أن يشهد ملائكة الله ـ ويا لها من شهادة مقبولة ـ بأنّك ـ أيها الطالب الملتزم ـ قد قصدت هذا المعلم النبيل وتعلمتَ علمه الغزير طلباً لمرضاة الله، وحبّاً بكرامته، وترويضاً للنفس على طاعته العظمى في التعلم، لا من أجل الناس في جاه أو رياء أو مال أو سلطان، وإذا استقرَّ هذا وهبه الله علم ما لم يعلم، ونوّره بضوء ما علم، وكانت إفادته من خلال القول المأثور: العلمُ نورٌ يقذفه الله في قلب من يشاء.

٣ ـ وأما حقُّ المولى، وهو الذي يسوسك بالملك فيما كان شائعاً، قبل أن يقضي الإسلام نهائياً على مظاهر الرقّ والعبودية بما وضع لها من محفّزات وحُلول تكمن وراء اختفاء هذه الظاهرة، في استحباب فكّ الرِّقاب أولاً، وفي الكفارات التشريعية لديه عند القتل الخطأ، وعند الافطار العمدي، وعند الكفَّارات الأخرى التي تكفلت ببيانها كتب الفقه والسنّة ثانياً، وفي مجال المكاتبة بين العبد ومولاه من أجل العتق ثالثاً. ووإلخ. . مما هو مسطور في محلّه، ولمّا كانت هذه الظاهرة شائعة في عصر الإمام نتيجة تراكمات زمنية قريبة العهد بالإسلام، وخلاصة أموال وصلت إلى أصحابها من أثمان الموالي بالبيع والشراء والارث، أضيف إلى ذلك أسرى الحروب، وحذر الفوضى في النظام الاجتماعي، وصدّ التمرد في الكيان المسترقّ، فقد جعل الإمام

لذلك ضابطاً إنسانياً في الاطاعة العامة، فقال:

«وأمّا حقُّ سائسِكَ بالمُلْكِ فأن تُطيعَهُ ولا تعصِيهُ إلاّ فيما يُسخِطُ الله عزّ وجلّ، فإنّه لا طاعة لمخلوقٍ في معصيةِ الخالق»[1] إن هذه لهي السياسة الرَّشيدة التي يبرمجها الإمام، فقد اقتصر بها على الطاعة وعدم المعصية ليس غير، إلا فيما به غضب الله وسخطه، فتنتفي هذه الطاعة من أساسها لسبب واضح بديهي لا يعجز التفكير السليم عن تصوُّره، هذا السبب أصبح حكمة جارية ومثلاً سائراً، يتلقَّاه الناس خلفاً عن سلف، وهو قول هذا الإمام العظيم: لا طاعَةَ لمخلوقٍ في معصيةِ الخالقِ.

٤ ـ **«وأمّا حَقُّ رعيتِكَ بالسُّلطانِ فأنْ تعلَمَ أنَّهُمْ صاروا رعيتَكَ لضعفهم وقوَّتِكَ، فَيَجِبْ أن تعدِلَ فيهم، وتكونَ لهُمْ كالوالد الرحيم، وتغفرَ لهُم جهلَهُمْ، ولا تُعاجِلْهُمْ بالعقوبَةِ، وتشكُرَ الله عزَّ وجلّ على ما آتاكَ منَ القوَّةِ عليهمْ»**[2].

وهنا ينطلق الإمام تجاه الحاكمين على الشعوب ليقول كلمته سمعت منهم أو لم تسمع، فهو يقوّم جانباً سياسياً وهو يؤدِّي واجباً شرعياً، وهو يلحظ عمقاً إنسانياً، والسلطان القائم بالأمر إنما استولَّى على شؤون الرعية فعادوا تابعين له، ومحتسبين عليه، لأنه الأقوى وهم الأضعف، وما على القويِّ إلا أن يتعاطف مع الضعيف، فيكون للعدل مثالاً، وللبرّ نموذجاً، وللحياة الحرَّة السعيدة محققاً، ولا يتم ذلك إلا

(١) الشيخ الصدوق/ ٢/ ٥٦٧.
(٢) الشيخ الصدوق/ ٢/ ٥٦٧.

أن يتمتع بالرقَّة، فيكون للرعية والداً رحيماً ودوداً رؤوفاً، يغتفر الجهل، ويغضي عن الخطيئة، ولا يتعجَّل عقوبةً، ولا يلاحق مقصّراً، وإنما يكون قواماً بين ذلك، اللين دون الضعف، والقوة دون العنف، وإذ حقق ذلك ترامن إليه أن يشكر الله وحده على ما آتاه من السطوة والقوة لإرادة شؤون الرعية بالعدل المطلق، والوحدة البشرية، فلا تمييز ولا عشائرية ولا إقليمية، ولا ولاءات صغيرة محدودة في النسب أو المدن أو المذهب، وهذا ما أراد الإمام التنبيه عليه، ناظراً إلى سيادة الجماعة الإسلامية بمنأى عن كل المؤثرات اللاإنسانية، وقصارى ما توصلت إليه لائحة حقوق الإنسان في القرن العشرين، ومن قبلها مبادىء الثورة الفرنسية ـ نظرياً لا تطبيقياً ـ وسيل الانتفاضات والانقلابات والثورات في العالم أجمع، وهي تدعو إلى العدل والحرية والمساواة وكرامة الإنسان، قصارى ما توصَّلت إليه هي مبادىء الإمام زين العابدين في تأصيل حقوق الإنسان قبل أربعة عشر قرناً، وحسبنا في ذلك فخراً واعتزازاً، أنَّ واحداً من أئمتنا عليهم السلام، قد خطط إلى المنهج الإنساني المتحرر دون الرجوع إلى قوانين دولية أو أحكام وضعيَّة، وإنما استنبط ذلك استنباطاً خالصاً من فكرته الثاقبة ريادةً أصيلة تستلهم القرآن والسنة وسيرة أهل البيت فحسب.

٥ ـ وكما تحدَّث الإمام بموضوعيَّة عن حق الرعية بالسلطان، عقَّب ذلك بأهم ما ينبغي للإنسان التمتع فيه والتنعم بظلاله، وهو العلم اللّباب، فتوجَّه إلى العلماء بحق الرعية بالعلم، فقال:

«وأمّا حقُّ رعيّتِكَ بالعلم فأنْ تعلمَ أنَّ الله عزّ وجلّ إنَّما جَعَلَكَ قيّماً لَهُمْ فيما آتاكَ، من العِلْمِ، وفتحَ لك من خزائِنِه، فإن أحسَنْتَ في تَعْلِيمِ

الناس، ولم تَخرُقْ بهم، ولم تضجُرْ عَلَيْهِمْ زَادَكَ الله منْ فَضْلِهِ، وإنْ أنتَ مَنَعْتَ الناس عِلْمَكَ، أو خرُقْتَ بِهم عند طلبِهِمْ العلْمَ منْكَ، كانَ حقاً علـى الله عـزّ وجـلّ أن يسلِبَـكَ العِلْـمَ وبهـاءَهُ، ويُسقِـطَ مِـنْ القلـوبِ مَحَلَّكَ»[1].

وهب الله بعض عباده فضيلة العلم، وكان ذلك بتوفيقه وسعيهم، وكما أصبح هؤلاء على أيدي من سبقهم علماء، وجب عليهم أن يتمرَّس على أيديهم طلبة العلم ليعودوا علماء، فقد وَرَدَ عن أمير المؤمنين عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ قوله: «ما أخذ الله على أهلِ الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يُعلموا»[2].

وهذا حق من حقوق الرعية بالعلم، بيد أن لذلك ضوابط يقف عندها الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ وقفة المترصِّد الخبير، فهذا العالم المتمكن في علمه، قد جعله الله قيّماً لهؤلاء المتعلّمين فيما آتاه من العلم التكسبي الذي أفاده بالجد والاجتهاد، ولكن الله وحده هو الذي فتح له خزائنه، ويسّر له مطالبه، وأعان على تفهمه والتبحر فيه، ونتيجة لذلك فاستقلالية العالم بعلمه غير متكاملة، وإنما هي امتداد للفيض الإلهي، أي إنه غير مستقلٍّ بذاته، بل هو مفتقر لما يفتح الله عليه به، وهذا الفتح يستدعي البسط والتواضع ونشر العلم من أوسع أبوابه، لإلقاء الحجة؛ فإذا ضنّ العالم بعلمه، وظل الجاهل في ضحضاح جهله؛ فسدت الحياة، وساد الجهل المريع، واعتبر العالم طاغوتاً فيما حصل عليه من علم يحتجنه لنفسه، ويرضي به دواعي غروره، وقد ورد عنهم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ،

---

(١) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٦٧.

(٢) ابن أبي الحديد/ شرح نهج البلاغة ٢٠/ ٤١٨.

القول: «لا تكونوا علماء جبّارين». وإذا أحسن العالم في تعليم الآخرين، وازداد تواضعاً ومحبةً وقرباً من طلابه، وأسقط من حسابه الشدة الجبروتية، وعاملهم بالرّفق، وصبر عليهم غير متضجر ولا برم، زاده الله من فضله، وأعطاه علم ما لم يتعلمه كما تشير إليه بعض الروايات، وإن منع علمه، وأقفل بابه، وخرق بطلابه، كان حقاً على الله تعالى أن يسلبه نور هذا العلم، ويسلخ من كيانه بهاء العلم اللدني والكسبي، ويُؤذِنَ الناس بإسقاط هذا الجلف الجافي من القلوب، وبإسقاطه يتداعى شأنه ومكانه ومحله، فيعود إنساناً عادياً لا قيمة له ولا أثر في تسيير الحركة العلمية الرائدة.

٦ ـ ومن أجل توفير السعادة في الحياة الاجتماعية، واستقرار نظام الكون، واستتباب الأمن في الحياة سكناً ومودّة ورحمة، شرع الإمام عليه السلام في إثبات حقوق الزوجة، وهي ومجتمعها جديد عَهدٍ بالدين الجديد، وما زال للجاهلية أصداء وألوية، ولا تستطيع المرأة أن تتمتع بحقوقها التي شرعها الإسلام إلا لماماً، ولا يتخلى الناس فوراً عن أعرافهم، ولا إكراه في الدين، فقد بقيت الزوجة عند الرجل من رموز العبودية والخدمة والتسخير، فأضاء الإمام هذه الحلكة بقوله: **«وأمّا حقُّ الزوجةِ، فأنْ تعْلَمَ أنَّ الله عزَّ وجلَّ جَعَلَهَا سَكَناً وأُنساً، فتعلم أنَّ ذلكَ نِعمةٌ من الله عليكَ، فتُكرِمَهَا وترْفَقَ بِهَا، وإن كانَ حقّكَ عليْهَا أوْجَبَ، فإن لها أنْ ترحمَهَا لأنَّهَا أسيرُكَ، وتُطعِمُها وتكْسُوها، فإذا جَهلَت عفوتَ عنْهَا»**[١].

---

(١) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٦٧.

وأوّل ما نبّه عليه الإمام كون الله تعالى قد جعل بلطفه وعنايته هذه الزوجة ملجأً يسكن إليه الزوج، ومنتجعاً لأنسه وتبذله، وإذا أدرك هذا الإنسان علم أن ذلك من نِعَم الله عليه، والنعمة تُشكر لتدوم، والاستدامة استمرارية في العلاقة الزوجيّة في هذا المنحى، ويترتب على ذلك أن تُكرَم الزوجة إكرام اعزاز وحبٍّ واحترام، وأن يُرفق بها رفقاً رقيقاً، يتناسب مع رقّتها، ولقد مَنَّ الله علينا بذلك واعتبر أنَّ هذا الخلق من آياته التي ينبغي أن يتفكر بها الناس لما يسره إليها في السكن بكل معانيه المركزية في الدفء والحنو والطمأنينة والالتجاء، فقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1]. وحق الزوج على الزوجة أوجب، إلا أن لها على الزوج الرحمة لأنها في أسره، وعليه نفقتها كاملة في الاطعام والاكساء وكل ما يناسبها من النفقات الأخرى، ومع كلٍّ هذا الالتزام التام فعلى الزوج أن يعفو عن جهلها، وما أكثر جهل هذا الصنف من الناس، مع الاصرار لديه أن لا جهل وأنه من تمام العقل، وهنا يتجلى البعد الإسلامي في العفو عند المقدرة شريطة أن لا يكون ذلك مسبباً في التسيّب والإهمال والتطاول على الزوج بغير الحق، مما يجعل نفسيته منصدعة حتى مع التغاضي والتغافل، وتكون عائدية هذا الانصداع ـ عادةً ـ على الزوجة وأطفالها، فقد يُعرض الزوج قلبياً وإن ظهر بمظهر الصَّامت، يحدث ذلك في الغالب مع تقدم سنِّ الزوجة وسوء أخلاقها، وعند كثرة متاعب الزوج وتعدد واجباته في مرافق الحياة.

---

(١) سورة الروم: الآية، ٢١.

٧ ـ وما زال حديث الإمام منصبّاً حول تنظيم شؤون الحياة الخاصة للإنسان، فقد عقّب حديثه عن حقِّ الزوجة بحديثٍ عن حق المملوك، فكلاهما مما يعنيه، وفي صلاحهما صلاحه، دون أن يشذ عن سواء السبيل فيخرجَ عن إنسانيته التي يشاركه فيها كُلٌّ من الزوجة والمملوك، والمملوك نفسه بصورة خاصة، يقول الإمام عليه السلام :

«وأمّا حقّ مملوكِكَ فأنْ تَعْلَمَ أنّهُ خَلْقُ رَبِّكَ، وابْنُ أبيكَ وأُمّكَ، ولَحْمُكَ وَدَمُكَ، لم تملكه لأنّك صنعته دونَ الله، ولا خَلَقْتَ شيئاً مِنْ جوارِحِهِ، ولا أخرجتَ له رزقاً، ولكنّ الله عزّ وجلّ كَفَاكَ ذَلِكَ، ثمَّ سَخَّرَهُ لكَ، وائتمَنَكَ عليهِ، واستودَعَكَ إيّاهُ، لِيحفَظَ لكَ ما تأتيه من خَير إليه، فأحسنْ إليه كما أحسن الله إليكَ، وإنْ كرهتَهُ استبدلْتَ بِهِ، ولَمْ تَعذِّبْ خَلْقَ الله عزَّ وجلّ، ولا قُوَّةَ إلاّ بالله»[١].

الإمام هنا يؤكد على حقائق بعيدة عن الفهم المعاصر له، كل أولئك المالكين تخامر عقولهم رواسب شتى، فيتصور لهم خلاف الواقع واقعاً، فهم يرون أنهم الجنس المفضّل، وهم وحدهم الدم الأزرق المنساب في عروق البشرية، ولهم أن يبرروا هذا الفهم الخاطىء بضروب من الأنانية والترف العرقي، وعليهم أن يفعلوا ما شاؤوا في ضوء ذلك التعالي المصطنع، وكأن كل ذلك من المرتكزات التي لا مناص عنها، وأراد الإمام عليه السلام دحر هذه الأوهام، والعودة بالوعي إلى الحقيقة الكبرى، فخاطب من يملك أنَّ مملوكه خَلقُ الله فهو مساوٍ له في إرادة التكوين، وأنه ابن أمه وأبيه، فهو أخوه في الدين أو نظيره

(١) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٦٨.

في الخلق، وأنه لحمه ودمه، ولا تمايز في أجزاء اللحم والدم فهما في ملحظ سواء، وأنّك أيها المالك لم تملك مملوكك لأنك صنعته دون الله عز وجل، بل الصانع لك هو نفسه الصانع له، ولا خلقت شيئاً من جوارحه، فالخلق منوطٌ بالله وحده، وكما خلقك فقد خلقه، ولا أخرجت له رزقاً، بل الله هو الرازق ذو القوة المتين، ورزقه بتقديره ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1] بل النظرة أبعد من هذا بكثير، فالرزق لكل الكائنات الحيّة، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾[2]. إذاً فالله كفى المالك والمملوك مهمة الرزق.

بعد هذا العرض الوافي يقرر الإمام أن الله تعالى قد سخر المملوك للمالك، وائتمنه عليه، فليحسن الحفاظ على الأمانة، واستودعه إياه، والوديعة عارية مستردّة، ذلك ليكتب الله ويحفظ ما يأتي المالك مملوكه من خير، ويودع في ملفّه الخاص.

ويأمره الإمام «فأحسن إليه كما أحسن الله إليك، وإن كرهته استبدلت به» وهذا منتهى الإيحاء النوعي الذي يوجهه الإمام: الاحسان كما أحسن الله، الاستبدال في حالة الكراهية، ولا ثالث لهذين النحوين من اللحاظ الإنساني في الاختيار الحسبي، وإذا تجاوزهما المالك كان معتدياً على أخيه المملوك، واختار أن يعذب خلق الله، وليس له ذلك. ولا قوة إلا بالله.

---

(١) سورة البقرة: الآية، ٢١٢.

(٢) سورة العنكبوت: الآية، ٦٠.

حقوق الأرحام والولاء:

وهذا الفصل من «رسالة الحقوق» حافلٌ بالعطاء الجزل، ومستوحى من نظريات القرآن الثاتبة، ومتفاعلٌ مع روح العصر في كل زمان ومكان، وهو وثيقة إنسانية تصلح منهجاً للحياة المثلى، وتعليمات هذا الفصل ووصاياه، تخلق في ذات الإنسان روح الشفقة والحنان والدعة والرقة، وهذه المؤشرات من أروع ما تحتاج إليه النفس في الاستقرار والتعايش الروحي، تصوّر لك الوقائع وكأنك تبصرها، وتجسِّد لك الحقائق وكأنك تلمسها، تستدرّ عقلك وقلبك ورحمتك لتخلق منك إنساناً مسؤولاً، وتبدع منك شعوراً فيَّاضاً بالأصالة حيناً، وجناناً رؤوفاً بالمحبَّة حيناً آخر، وضميراً حراً متسماً بالعقلانية بعض الأحايين، وفوق هذا كله فإنها تنقلك من المناخ الداخلي الممزق إلى المناخ الاجتماعي المتلاحم، فتتصل بالحياة بعد طول اختلاف، وتتقارب مع الأرحام وأنت جزء منهم لا ينفصم، وتتواصل مع ذاتك في التئام وانفتاح، وإذا بك ذلك الإنسان المثالي، تحسُّ وترى وتستمع وتتصل وتتعاون، وكأن حياة جديدة تنتظرك في كل أبعادها، وموضوعية تقترب منك في كل معطياتها، لم تتسع لوائح حقوق الإنسان لأصنافها، ولم تشتمل فقراتها على حيثياتها، فهي فريدة في جهاتها وواجهاتها، وهي دقيقة في ملامحها ومؤشراتها، وحسبك أنَّ إماماً عملاقاً من أئمة أهل البيت عليهم السلام ينفرد بطرحها في الهواء الطلق دون عقبات أو

أزمات، وإنما هي العفوية الخالصة، والفطرة الإنسانية التي فطر الله الناس عليها.

الأرحام أوّلاً، وقضايا الولاء ثانياً، وكلاهما يدوران في فلك واحد، الصلة القريبة والقضية الإنسانية والنظام الاجتماعي القائم على أسس رصينة من الوعي والمحبّة والحياة الحرة الكريمة، فلا إثرة تراد، ولا محسوبية تنطلق، ولا قسر ولا إكراه، ولا تزمت ولا تعنت.

١ ـ ويبدأ الإمام عليه السلام بجوهرة هذه العلاقات البارزة، إنها الأم الوالدة التي تهب الحياة، وتعطي كل شيء من أجل شيء سيكون أو لا يكون، العطاء مستمر، والنتائج مجهولة. وهذا شأن ما هو فريد لا يجارى، يقول الإمام:

«وَحَقُّ أُمِّكَ أَنْ تعْلَمَ أنّها حَمَلَتْكَ حيثُ لا يَحْتَمِلُ أحدٌ أحداً، وأعطتكَ من ثَمَرَةِ قلبِهَا ما لا يُعطي أحدٌ أحداً، وَوَقَتْكَ بِجَميعِ جوارِحِهَا، وَلَمْ تُبَالِ أن تَجُوعَ وتُطْعِمَكَ، وَتَعْطَشَ وَتسقيكَ، وتعرَى وتَكْسُوكَ، وتضْحَى وتظِلَّكَ، وتهْجُرَ النَّومَ لأجلِكَ، ووقتْك الحرّ والبردَ لتكونَ لها، فإنَّكَ لا تُطيقُ شُكرَها إلا بعونِ الله تعالى وتوفيقه»[1].

وتعرض هذه الفقرات لمتاعب الأمّ وتضحيتها ازاء ولدها في امدادات صعبة لا تحتمل إلا بما اختطفه الله في قلبها من ميسم الشفقة القصوى، وما اضطلعت به من دواعي الفداء اللذيذ على ما فيه من عناءٍ وشقاء، والإمام يصنف هذه التضحيات بكثير من الضغط ليصل إلى أكبر مؤشر ممكن من آثارها الجسيمة، وأولها مسألة الحمل في كل

(١) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٦٨.

مضاعفاتها ومراحلها حيث لا يحتمل أحدٌ أحداً بمثل هذا الوضع المترابط في حلقاته، فمن مشقةٍ إلى مشقّةٍ، ومن مرحلة إلى مرحلة، حتى يتواصل ذلك بفصائل الرضاع وتبعاته، وحتى الفصال والفطام ودرْبَتِهِ المتوازنة، بما عبّر عنه القرآن بقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾[1] وبعد هذا تعطي الأم لولدها من ثمرة قلبها كل شيء: الحنان، الحب الصادق، الغذاء الكامل، الشعور بالغبطة، الأمل الفيّاض، التعب اللذيذ، المناغاة والمناجاة، مما لا يعطيه أحدٌ لأحد، ولا يهبه مخلوقٌ لمخلوق، فيا له من عطاء ما أجزَلَهُ، وليتها اكتفت بذلك، ولكنها تقي هذا الخلق الضعيف بجميع جوارحها، وبمختلف مداركها، حتى يختلط الجهد المضني موزعاً بين الفكر والأعضاء، وبين الروح والمادة، أضف إلى ذلك القضايا الحسية التي تسخّرها ازاء تربية هذا الوليد الناشىء: الجوع من أجل اطعامه، والعطش لإروائه، والعري لاكسائه، والشمس لإظلاله، وفوق هذا كله أن تهجر النوم وهو من أعزِّ ما وهبه الله للإنسان، ويوفر راحته، ويجلب مسرته، ويخفف من متاعبه، ويعالج به القوى الواهنة، فيتجدد العزم، وتخفّ النفس، ويستعاد النشاط، هذا الهجران لهذه الهبة الطائلة من أجل هذا الطفل الواهن، ومع هذا كله فهي تقيه الحر وكظته، والبرد وزمهريره، من أجل أن يكون الوليد لها بكل ما تحمل هذه العبارة من دقيق المعاني، وبعد ذلك فإنك لا تطيق شكرها، وقد وفرت لك هذه النِعم السيَّارة، إلا بعون الله تعالى وحسن توفيقه، وإذا أعان الله عبده نهض بالمهمَّة، وإذا وفقه أدَّى ما عليه.

---

(١) سورة الأحقاف: الآية، ١٥.

٢ ـ ويأتي دور الأب في حقوقه بعد الأم تدرُّجاً من الأصعب إلى الصعب، ومن الأشد إلى الشديد، ولكن هذا التدريج طردي لا عكسي، فهو فوقي التسلسل بحسب المرتبة التي يحتلها المُتَحدَّثُ عنه في أوليات الحقوق وأولويتها، الأم، فالأب، وهكذا بقية الحقوق في هذا الفصل تبدأ بالأعلى وتنتهي بالأدنى كما ستلاحظ فيما بعد. يقول الإمام عليه السلام: **«وأمَّا حقُّ أبيكَ فَأَنْ تعلَمَ أنّهُ أصْلُكَ، وأنّهُ لولاهُ لَمْ تَكُن، فمهمَا رأيْتَ في نفسِكَ مِمّا يُعْجِبُكَ، فاعْلَمْ أنّ أباكَ أصْلُ النعمةِ عليك فيهِ، فاحمد الله واشكُرْهُ على قدْرِ ذلِكَ. ولا قُوةَ إلاّ بالله»**[١].

والإمام في استعراض هذا الحق بالذات ينظر إلى الأجيال القادمة في محنة تطاول الأبناء على الآباء في ملاحظ المال والعلم والتسابق الثقافي، وحتى المنزلة السياسية المفتعلة، بسبب من هذا المدرك تعرَّض لحقوق الأب من هذه الزاوية دون الخوض في التفصيلات الأخرى من حقوقه نظراً لإدراكها بقليلٍ من التأني والتفكير، كالإحسان إليه، والاستماع له، والحرص عليه، والاقتداء به إن كان من الصالحين.. إلخ، وقد ترك الإمام هذا المجال اعتماداً على العقل السليم في استقرائه واستيعابه، وإنما أكد على الأهم كما هو شأنه في تعليماته الرائدة.

وقد تكرّم الإمام بالتصريح بأن الأب هو الأصل في الولد، إذ لولا وجوده وزواجه وإنجابه لما كان هناك شيء يذكر. فما رأى الولد في كيانه، وذاته، وممتلكاته، وقابلياته، وجماله، وكماله، وجودة تركيبه،

---

(١) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٦٨.

ودقة صنعته، مما يعجبه ويثير الانتباه المبكّر، فإن الأب أصل هذه النعمة المترامية الأطراف، المتعددة الأشكال، بإرادة الله وقدرته، ولكنه تعالى لم يلغ الأسباب، لذا وجب حمده وشكره على قدر هذا الإنعامِ المستفيض.

وعلى هذا، فالأب عند الإمام ـ كما هو الواقع ـ أصلٌ من أصول الإيجاد بقدرة الله، وركن من أركان الانشاء بخير تقويم ببركة أمره في كينونته المطلقة «كن فيكون» والله قدير أن يخلق خلقاً اعجازياً دون الوالدين كما حدث هذا بالفعل لآدم عليه السلام، وقادر على إيجاد كائن إنساني دون أب كما حدث بالنسبة لعيسى ابن مريم عليه السلام، ولكن هذا الطريق هو الاستثنائي على سبيل الاعجاز في خلقه، أما السبيل الطبيعي الذي أوجده تعالى فهو طريق التزاوج والتناسل، وأصل هذا الطريق حويمن الرجل ملقحاً ببويضة المرأة، ليتمَّ التناسل والانجاب عن طريق التخصيب الذي خلقه الله بقدرته ولطفه، ليستدلَّ بهذا التزواج وبتلك الزوجية، على وحدانيته وانفراده، فكل ما في الكون مرتبط بنظام الزوجيَّة في الكائنات الحية المعلومة والمجهولة والمتصورة، وهذا ما يصرح به القرآن العظيم في مثل قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

٣ ـ ويستقرىء الإمام حقّ الولد في الدنيا والآخرة بتسليط الضوء الكاشف على ذلك الحقّ في بُعدين متوازيين لهما الأثر الفاعل في تربية الوالد لولده، ومسؤوليته الباهظة في اعداده اعداداً يتناسب مع هذه الإضافة إليه، فهو يحتمل منه ما يعود إليه من نفع أو ضرر، من استقامةِ

---

(١) سورة يس: الآية، ٣٦.

أو انحراف، من أدب أو إساءة، يقول الإمام عليه السلام: **«وَأَمّا حقُ وَلَدِكَ فأنْ تعلَمَ أَنَّهُ مِنكَ، ومُضَافٌ إليكَ في عاجِلِ الدُنيا بخيرِهِ وشرّهِ، وأنّكَ مسؤولٌ عمّا وليتَهُ من حُسْنِ الأدب، والدلالة على ربّهِ عزّ وجلّ، والمعُونةِ لَهُ على طاعتِهِ، فاعملْ في أمرِهِ عمَلَ من يَعْلَمُ أنّهُ مُثابٌ على الإحسانِ إليهِ، مُعاقَبٌ على الإساءَة إليه»**[1].

والولد قطعة من الكبد في الملحظ العاطفي، ولكنه جزءٌ من الإنسان في المدرك التربوي في عاجل الحياة بكل إفرازاته الخيرة والشريرة، وبشتّى مضاعفات شخصيته في التكوين الأخلاقي الجيدة والرديئة، وهو المعادل النوعي الذي تنطبع آثاره على أبيه سلباً وإيجابياً، والأب مسؤولٌ مسؤولية أدبيَّة من جهة، ومسؤولية أخلاقية من جهة أخرى، فيما يوليه من كرم النفس، وأصالة التوجيه، وجدّية التطلُّع، يضاف إلى هذا كله دلالته إيّاه على سبيل ربه الكريم، فيكون له معيناً على طاعة الله، وقدوة في امتثال أمره تعالى، والعمل في هذا الضوء على الجادة المثلى والمحجَّة البيضاء ينبع من كون هذا العمل مراقباً رقابة صارمة من الله، فالأب مثابٌ أقصى درجات الثواب إن انتدب نفسه لخلق ولده خلقاً إيمانياً متداعياً مع متطلّبات مراحل حياته في الإحسان إليه، وأي إحسان أفضل من ذلك الذي يقود إلى مرضاة الله، مضافاً إلى الإحسان العرفي بالحياة الدنيا رعايةً وتنشئةً ومعيشةً وسلوكاً تهذيبياً متكاملاً، وأنه مع ذلك معاقب على الإساءة إليه سلوكياً أو تربوياً أو اقتصادياً أو ثقافياً.

---

(١) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٦٨.

هذا الاستقراء الشامل لحقِّ الولد حينما يضعه الإمام في هذا الطرح الإنساني، هو السبيل الواضح لاستثمار الآباء خير الأبناء.

٤ ـ ويتابع الإمام مسيرته الإنسانية في استكناه ذائقة البعد العائلي منتظماً، واستقطاب الكيان التراحمي محترماً، فيضع يده على الحق الأخوي متمعّناً، فيصوره حقاً ملائكياً فيه العزة والقوة، العزة في طاعة الله، والقوة في انصاف العباد، فيقول: «**وأمّا حقُّ أخيكَ فأنْ تعلم أنّه يَدُكَ وعزُّكَ وقُوَّتُكَ فلا تتخِذْهُ سلاحاً على معصيةِ الله، ولا عُدَّة للظُلْم لخلقِ الله، ولا تَدَعْ نُصْرَتَهُ على عدُوِّهِ والنصيحة لَهُ، فإن أطاع الله وإلاّ فليَكُن الله أكْرَمَ عليكَ منهُ، ولا قوَّة إلا بالله**»[1].

وهذا الاسهام في بناء الشمل الاجتماعي بمنأىً عن الاعتداء، وبإشارة إلى الاعتضاد، وبإيحاء باتخاذ الأخ أخاً في الله، إنما يمثِّل منطلقاً قرآنياً متأصِّلاً يُعنى بالاستعانة بالأخ في ذات الله، لا في نزوات النفس، وفي سبل الخير لا طرق الاعتداء، ليكون ناصحاً في قوة الأمر، ووزيراً في شدّة الأزر، كما حكى الله ذلك عن نبيه موسى عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾[2].

فالملحظ القرآنيُّ في طلب موسى لأخيه وزيراً له لمصالح مشروعة يتمُّ بها أداء الرسالة: اشدد به أزري، أشركه في أمري، هذا الشدّ وهذه المشاركة معللان بسببين مهمَّين عند موسى عليه السلام، الأوَّل:

---

(١) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٦٨.

(٢) سورة طه: الآيات، ٢٩ ـ ٣٥.

هو التسبيح الكثير، والثاني: هو الذكر الكثير أيضاً، فهما علّتان مشروعتان لشدِّ الأزر والمشاركة في الأمر، وهكذا ينطلق الإمام من المضمون القرآني والمحتوى الرسالي في حقِّ الأخ على أخيه، فلا يتخذ سلاحاً يشهر باتجاه معصية الله، فذلك ما يناقض المهمة التي يجب أن يُدَّخَر لها الأخ، ولا يكون عُدّةً تتلاشى معها المواصفات الإنسانية المثلى بالظلم لعباد الله، فإذا انزوى هذان المدركان اللذان يتخذهما الأشرار درعاً للخروج عن الطاعة الإلهيَّة، ومحوراً للفساد، في الأرض، حينذاك يكون الأخ أخاً بالمعنى الذي أراده الإمام، فلا يدع أخوه نصرته في الحقّ، ولا يبخل بالنصيحة له، فإن خالف ذلك متّبعاً هواه، ومجانباً لأمر مولاه، فليكن الله سبحانه وتعالى أكرم عليه من أخيه، فلا أخوَّة مع الانحراف.

٥ ـ **«وأمّا حقُّ موْلاكَ المُنعِم عليكَ، فأنْ تعلَمَ أنّهُ أنْفقَ فيكَ مَالَهُ، وأخْرَجَكَ من ذُلّ الرّقِ ووحشَتِهِ، إلى عزّ الحريّةِ وأُنسِها، فأطلقَكَ من أسر المُلْكَةِ، وفَكَّ عنكَ قيدَ العُبُودِيّةِ، وأخرجَكَ من السِّجْنِ، ومَلّكَكَ نفسَكَ، وفرَّغَكَ لعبادَةِ ربِّكَ، وتعْلَم أنّهُ أولى الخلْقِ بِكَ في حياتِكَ وموتِكَ، وأنَّ نُصرَتَهُ عليْكَ واجبةٌ بنفسِكَ، وما احتاجَ إليهِ منْكَ، ولا قُوَّة إلاّ بالله»**[1].

هذا الحقُّ عظيم العطاء في عصر الإمام، وقليلٌ من يفعله، لأنه من الأعمال الخالصة لوجهه تعالى، ولا تجود به إلاّ نفوس الصفوة المختارة من الرِّساليين الّذين قدّموا بين يديهم بضاعتهم باتجاه الآخرة،

(١) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٦٨.

وتخليص الإنسانية من ذلّ العبودية إلى عزّ الحرية، والإمام من أبرز من طبَّقَ هذا المعيار بنفسه على مماليكه فكان يعتق من يشاء في شهر رمضان وسواه من الأيام بما تقدم ذكره في الفصل الأول من هذا الكتاب، حتى عاد الإمام بذلك قدوة يقتدى به، ومثالاً بارزاً في هذا المَعْلَم يحتذى عليه، ولذا فهو أدرى الناس بهذا الحق يضعه عند المماليك، فإذا هم التزموا به عاد ذلك مشجعاً للمسلمين على العتق ومكافحة الرقّ، والإمام بهذا يقدم هدفاً مزدوجاً للتحرير: أدب الانعتاق، ومنزلة فكّ الرقاب، فاعتبر المالك منعماً على المملوك في العتق، إذ أنفق ماله في سبيل الله عند عتقه، وأخرجه من الذلِّ المهين في غيوبة الرّقِ ووحشته، إلى عزّ الحرية وأنسها النفسي والجسدي بأسمى مراتبها، إذ أطلق هذا الإنسان من أسر المُلْكِ الاستعبادي، وفك عنه أغلال العبوديَّة وقيد الاستعباد الرهيب، وأخرجه من السجن الكبير للنفس وللرغبات وللأولاع وللتصرف، وجعله ملك نفسه وسيد أمره، وما بعد ذلك من حرّية، وما فوقه من برّ في موقعه، والنعمة الكبرى أن فرّغه لعبادة الله فهو ربّهُ لا سواه، وما تقدَّم عبارة عن حق كبير متعاظم في خطره وحجمه وامتيازاته، وإذا كان الأمر كذلك فبعد تحريرك أيها المملوك بالأمس عليك أن ترعى هذا الحق أدبياً فتعتبر مالكك أولى الخلق بك في حياتك وموتك، وأن نصرته واجبة عليك بنفسه، وأن تعطي من ذاتك له بعض ما يحتاجه منك، وفي ذلك تعظيم لمنزلته، وتطييب لخواطر ذاته، بعد أن كان رحيماً بك، عطوفاً عليك.

هذا التوجُّه الفريد من قبل الإمام يمثِّل قفزة نوعية في حياة الإنسانية، وهي تسعى بجدية في سبيل تخليص المماليك من ورثة السوء

وأئمة الجور وولاة الاستعباد البشري، والطريف في الأمر أنّ الإمام يُعاود هذا الموضوع من وجهات نظر متعددة، ويشبعه بحثاً وتمحيصاً في أماكن شتَّى من «رسالة الحقوق» إلا أنه هنا يتابعه في الحق الذي يليه مباشرة في ما يتحدث به من حق المملوك بالذات، فيمرّ عليه مرّ الكرام، ليعرج على الموضوع الأصل الذي نذر نفسه له، فيأتي على المالك يشجعه على العتق، ويبشِّره بالخلاص إن هو فعل ذلك، فكأن حق المملوك عند الإمام أسمى من المدركات الجزئية في الانفاق والاطعام والاكساء، بل يتعدَّاها إلى ترغيب المالك بعتقه بما ينتظره من الثواب العظيم إن هو استجاب لهذه الدعوة النبيلة الكريمة، بما يفصح عنه في الفقرة السادسة من حقوق الأرحام والولاء.

٦ ـ **«وَأَمّا حقُّ مولاكَ الذي أنعَمْتَ عليهِ، فأنْ تَعْلَمَ أنَّ الله عزَّ وجلّ جعَلَ عتْقَكَ لَهُ وَسِيلةً إليهِ، وحجاباً لكَ مِنَ النار، وأنَّ ثوابَكَ في العاجِلِ ميراثُهُ إذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ رَحِمٌ، مُكَافَأةً بِمَا أنْفَقْتَ من مَالِكَ، وَفِي الآجلِ الجَنّةُ»**[١].

فحقُّ هذا المملوك الذي وفّرت له النعم أن جعل الله تعالى عتقك له وسيلة إلى القرب من الله، وحجاباً للمالك من عذاب النار، وله منه ثوابان: الأول في الدنيا، وهو حصر ميراث المملوك بالمالك إذا فقد القرابة ولم يكن له رحم وارث، وذلك مكافأة لما أنفق عليه من ماله الخاص.

والثاني في الآخرة: وهو الفوز بالجنة، ومعنى هذا أنَّه تجاوز

(١) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٦٨.

عقبة يوم القيامة، بما قدم بين يديه من فكّ رقبته، قال تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾[1].

وقد كان أول اجتياز العقبة نحو الخلاص هو فَكُّ الرقبة، بما حبّب إليه القرآن، ورغب فيه النبي وآله الطاهرون. أمّا القضايا الهامشية بالنسبة للمماليك في أصل النفقة، ووجوب الاكساء والايواء والاطعام، فهي مفروضة شرعاً، ويؤديها المالك التزاماً بالمقررات الثابتة لدى الشارع المقدّس، لذلك لا يقف عندها الإمام طويلاً، ويسترعي الأحاسيس النابضة لمنح المملوك حريته وانطلاقه ظفراً بما عند الله من حسن المثوبة، واعتداداً بماله في الدنيا من شرف المقولة.

الإمام في هذا الفصل بعامة حريصٌ كلَّ الحرص على جمع الشمل الشتيت، واستيحاء الحياة التفاهمية للأسرة المسلمة، وانصاف ذوي الشأن منهم تارةً، والضعفاء تارة أخرى، ووضع الكل في الموقع المناسب من البيت المسلم الكبير، ليتفرَّغ إلى الحقوق الاجتماعية العامة.

---

(١) سورة البلد: الآيات، ١١ ـ ١٦.

الحقوق الاجتماعية:

وهذا فصل جديد من «رسالة الحقوق» لهذا الإمام العظيم زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام .

هذا الفصل في توجُّهاته الريادية يحمل بين طياته صورة صادقة لما يريده الإسلام من التكافل الاجتماعي والتضامن الأخلاقي، التكافل في القيم، والتضامن في التقاليد، يوحي للجماعة الإسلامية بأنهم كيان مستقلٌّ مترابط، وكلٌّ من الناس متماسك، تشدّهم أواصر من مُثُل، وتجمعهم حلقات من نظام شامل، الحقوق بينهم متبادلة، والواجبات عليهم مشتركة، لا إثرة في الحقوق ولا تبعيَّة في الواجبات، وإنما هو المعادل النوعي الذي يصهر الإنسانية في مناخ واحد يضمّ بعضه بعضاً، ويزجي أنفاسه عطرة نضرة، تعمّ رحاب العالم الفسيح، فيخلق الشعب المختار حيناً، وينجب القادة الأبرار حيناً آخر، وهكذا تتداخل الدواعي وتتوحَّد الكلمات، وإذا بهذا الوليد الناشىء يعود عملاقاً تشخص حوله الأبصار، وهو ذلك الكيان الشامخ اليوم: الإسلام في عطائه وتطلعاته ومبادئه العليا، رضي قوم بهذا أم سخطوا، فالحقائق لا تغطيها سحب الأوهام، وهذا ما يطرحه الإمام زين العابدين في الحقوق الاجتماعية التي لو أُخذت بعناية وإرادة وتدقيق لكانت منهج الحياة الأمثل.

١ ـ ويبدأ الإمام هذه الرحلة الشاقة بحقوق ذلك الإنسان الواهب

المعطاء الذي حبا أخاه الإنسان معروفه الجزل مالاً أو جاهاً أو عوناً أو مساعدةً أو دفعاً، المال الذي يصون به الوجه عن ذلِّ المسألة، والجاه الذي يسد احتياجه من أولي الأمر، أو يقضى حوائجه عند السلطان، والعون في الضيق والمرض والشدة، والمساعدة لدى الاعتضاد في جهد أو قول أو عمل، والدفع في درء البلاء وصدّ الاعتداء، وما أكثر هذه الملاحظ بالنسبة لذي المعروف الذي يخصه الإمام بهذا الحق الناصع ليتوج بذلك جبينه، ويرفع من شأنه، يقول الإمام عليه السلام: **«وأمّا حقُّ ذي المعروف عليكَ: فأنْ تَشْكُرَه وتذكُرَ معروفَهُ، وتُكسِبَهُ المقالة الحَسَنَة، وتُخلِصَ لهُ الدعاءَ فيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الله عزَّ وجلّ، فإذا فَعَلْتَ ذلكَ كُنْتَ قد شَكَرْتَهُ سِرّاً وعلانيةً، ثُمَّ إنْ قدَرْت على مُكَافَأتِهِ كافيتَهُ»**[1].

وصاحب المعروف جديرٌ بالشكر والذكر لأن معروفه جاء مفرّجاً لكرب أخيه، ومبدّداً لأزماته الحادة، وانطلاقاً من القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾[2] فإن المحسن يقابل بالإحسان، وقد يقابل المسيء بالغفران، وهذا مبدأ إسلامي وقرآني متوازن، وعلى من أُحسن إليه أن يكون بالموقع المروءتي الفائق، فيذكر المعروف ويشكر صاحبه عليه، ويظل لهجاً بأفضاله وأعماله، مما يكسبه قالةً حسنة بين الناس، وسمعة طيبة في الوسط الاجتماعي، وأن لا ينقلب معروفه إلى غدرٍ به، أو تآمر عليه، أو كيد له، فيكون من أزجي إليه المعروف والاحسان بمنزلة ما من الحديث الشريف فيما يُروى «اتّقِ شرَ من أحسنت إليه». إذ المفروض تتويجه بالثناء العاطر، والشكر

---

(١) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٦٩.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٦٠.

الجزيل، وإلا فما أدّى حقه، وأصبح من الجاحدين بنعمة الله تعالى، فالله قد يجري نعمته وكرامته على يد أحد عباده، وكونه الرازق لا ينافي أن تستمر الأسباب في تقديرها، وهو مسبب الأسباب، لهذا قد ورد أن منادياً ينادي يوم القيامة بما نصّه أو مضمونه: «أين الجاحدون بنعمة الله» فيقوم عنق من الناس قائلين: «ربنا قد شكرنا لك، فيصدر النداء من ساحة القدس: قد أجريت نعمتي عليكم على يد فلان بن فلان فلم تشكروه. ولهذا ورد في المأثور «من لم يشكر نعمة المخلوق لم يشكر نعمة الخالق» فإذا شكره على ذلك ترتب عليه أن يخلص له في الدعاء بين يدي الله في ظهر الغيب وعند مظنّة الاستجابة، فإذا فعل العبد المُحسن إليه ذلك كان قد شكره سراً فيما بينه وبين الله، وعلناً فيما بينه وبين الناس.

٢ ـ ويأتي نداء السماء مجلجلاً من حنجرة المؤذّن الذي يذكّر بالله، فيستيقظ الناس من الغفلة والسِنَةِ، ويتحررون من الهذر والسفه، ويتوجهون نحو الله في لقاء روحي يكون الأذان مقدمته، والدعوة في الانصات له محجته الواضحة، هذا المؤذن في أداء خدماته، ونكران ذاته، له على كلّ عبد نبّهته أوتاره وأصداؤه حق من الحقوق يُجْمِلُهُ الإمام عليه السلام بقوله:

«وأمّا حقُّ المُؤذِّن: أنْ تعْلَمَ أنَّهُ مُذَكِّرٌ لكَ رَبَّكَ عزَّ وجلَّ وَداعٍ لكَ إلى حظِّكَ، وعوْنكَ على قضاءِ فَرْضِ الله علَيْكَ، فاشكُرْهُ على ذلك شُكْرَكَ للمُحْسِنِ إليْكَ»[1].

---

(١) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٦٩.

على المسلم الملتزم أن يعلم أن المؤذن في ترديده لفصول الأذان إنما يذكّره بالله عزّ وجلّ، ويدعوه إلى حظّه من الإيمان والاستجابة للنداء الإلهي الذي يؤهّله أن ينخرط في سلك قوله تعالى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ ﴾[1] والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والأذان نداء بالإيمان، ففيه توحيد الله والاقرار بالشهادتين والترحيب بالصَّلاة والفوز بالفلاح، وتحية خير العمل، مضافاً إلى التكبير في أوله والتهليل في آخره، ذلك ما يتيحه لنا المؤذن هذا الساعي بأوقات الصلاة مبادراً، والداعي إلى إقامتها منادياً، فهو إذاً من المحسنين لنا، فالواجب شكره شكرنا للمحسن إلينا، شئنا أو أبينا.

٣ ـ وبعد الأذان تقام الصلاة، وأفضل الصلاة صلاة الجماعة، وإمام الجماعة في عدالته وصحة قراءته هو السفير بيننا وبين الله عزّ وجلّ، يتحمّل عنّا في صلاته ما لا نتحمّله، ننصتُ له في قراءته، ونتابعه بأفعاله، وقد تحدَّث الإمام برقة عجيبة عن حقه، فقال: «**وأمّا حقُّ إمامِكَ في صلاتِكَ: فأنْ تعْلَمَ أنَّه قد تَقَلّدَ السفارَةَ فيما بيْنَكَ وبيْنَ ربِّكَ عزَّ وجلَّ، وتكلَّم عنْكَ وَلَمْ تَتَكلَّمْ عنْهُ، ودَعَا لَكَ وَلَمْ تدعُ لَهُ، وَكَفَاكَ هَوْلَ المقَامَ بَيْنَ يدي الله عزَّ وجلَّ، فإنَ كانَ بِهِ نقْصٌ كانَ بِهِ دونكَ، وإنْ كانَ تماماً كُنْتَ شريكَهُ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ عَليكَ فَضْلٌ، فوَقى نَفْسَكَ بنفسه، وصلاتَكَ بصلاتِهِ، فاشكُرْ لَهُ على قَدْرِ ذلكِ**»[2].

إمامُ الجماعة في ضوء ما يحدده الإمام يتكفَّل بأداء مهمات خاصة

---

(١) سورة آل عمران: الآية، ١٩٣.

(٢) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٦٩.

به، لا يقوم بها المأموم، فهو السفير فيما بينه وبين الله، وهو المتكلم بالنيابة عنه حيث لا يتكلم، وهو الداعي له حيث لا يدعو، وهو الكافي هول المقام بين يدي الله دونه، فإن نقص من فضل صلاته شيء كان ذلك عليه، وإن أتم أداءها كان مشاركاً له بحسن الاتمام، ولا فضْلَ له عليه، على أنه قد وقى نفس المأموم بنفسه، وحصَّن صلاته بصلاته، فطبيعة شكره على ذلك منطلقة من مقدار ما تحمل، وتكفل، وتكلم، ودعا، وكفى، ووقى، وهي خصائص جلّى، لذلك ورد في فضل الجماعة من المأثور ما لا يُعدُّ، أبرزه أنها تُقبل جملةً، والمأموم جزء من هذا الكيان الجملي، وثواب متصاعد بحسب زيادة العدد في المقيمين لها، وهي داعية للالفة والاتحاد والاجتماع العام، وفيها من الاطمئنان النفسي ما يوفِّر للإنسان كثيراً من الوقت في درء الشكوك، وحذر النقصان، ونقص وزيادة الأجزاء، والتردد بين الأقل والأكثر، ومكابدة ملاحظة الأركان، فالصلاة تبطل بنقصانها ونسيانها وهكذا. . . فإمام الجماعة في مثل هذه اللفتات يقي المأموم من الانفلات، كما يؤدي عنه القراءة، فهو متفضّلٌ على كل حالٍ، فضلاً عن الأداء الجيّد، والانصات المستحب، والتوجّه المنيب، واللقاء المحبَّب، والتجمع الروحي، والقرب الإلهي، فالله مع الجماعة.

٤ ـ وتتقاطر الإشارات في تنظيم الإمام للحقوق الإنسانية، فيأتي دور الجليس في حقِّه، فيقدم الإمام برنامجاً صالحاً يعطي للأُخوّة قيمتها، وللأدب الاجتماعي أهميته، وللتواضع المحمود صيغته، حاملاً لك رسالة أبوية في التوجيه، ورسالة قيادية في التأصيل، يقول الإمام عليه السلام:

«وأمّا حقُّ جليسكَ: فأنْ تُلينَ لَهُ جانِبَكَ، وتُنصِفَهُ في مُجازاةِ اللَّفْظِ، ولا تقُومُ من مجلِسِكَ إلاَّ بإذْنِهِ، ومَنْ يَجلس إليكَ يَجُوزُ لَهُ القيامُ عنكَ بِغَيرِ إذنِكَ، وَتَنْسَى زلاتِهِ، وتحفَظَ خيراتِهِ، ولا تُسمِعْهُ إلاَّ خيراً»[1].

هذا الحق يصور البعد الاجتماعي في التقارب والتعامل، والأدب الشخصي في حسن التأني، ويبدأ بلين الجانب وتواضع النفس، ومن ثم الانصاف في ما يطرحه عليك من حديث، فتجيبه وفق حديثه دون تزيد أو تأويل متكلف، وإذا جلس إليك فلا تغادر مقامك إلا مستأذناً منه لأنه متفضِّل عليك بقصده إياك، ومتلطف بك فتلطف معه، أما إذا جلس إليك جليسك فله أن ينهي هذا التفضل بالقيام دون أذنك، فإذا ودّعك وودّعته، فكأن المجلس لم يكن في نسيانك زلاته، بل عليك بتقصي خيره وبره وفضله لتنشره بين الناس، هذا وهو مفارقٌ لك بمغادرته مجلسك، ولا مانع، بل هو من المأثور أن تتحاشى ـ وهو معك ـ كل زلّةٍ كانت له، وتؤكد على كل مكرمة صدرت منه، وتكون به رفيقاً رقيقاً، فلا يسمع منك إلا الخير لك كان أم عليك، فإذا انتهى المجال الالتقائي، وانصرف كلٌّ منكما، فعليك بحفظ أسراره، وطيّ خوافيه «فالمجالس بالأمانة».

٥ ـ وقد ورد عن النبيِّ ﷺ على لسان أهل بيته: **«مَا زَالَ يُوصِينا بالجارِ حتى ظننا أنّه سُيورّثُهُ»** ومن هذا المنطلق يقف الإمام عند الجار في حقِّه وقفة مترصد ومتأنٍ باعتباره وصية رسول الله، ومقاربة

---

(١) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٦٩.

عداده من الأرحام والقربى حتى ظن أنّه سيورثه، ومن قبله ما نادى به القرآن الكريم من الاحسان إليه، أجنبياً أم قُربياً، قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾(١).

فقد خصّ الله بالآية نفسه بالعبادة وعدم الاشراك به، وأمر بالإحسان ـ بأدقّ معاني هذه الكلمة وأوسعها ـ لكلٍّ من الوالدين، وذي القربى من الأرحام، واليتامى، والمساكين، والجار الرحم القريب، والجار الأجنبي، والصاحب بالجنب، وجنس ابن السبيل، وهو المسافر المنقطع، والمماليك.

وقد خصّ الجار بنوعيه: القريب في تماسه، والبعيد بجواره، فانطلاق الإمام بخصوصه صادرٌ عن مفهوم قرآني دقيق، وسُنَّة نبويَّة مؤكّدة، فيأتي على حقِّهِ مشدداً عليه، ومفصّلاً فيه، يقول الإمام عليه السلام: «**وأمَّا حقُّ جارِكَ: فَحفظُهُ غائِباً، وإكرَامُهُ شاهداً، ونُصْرَتُهُ إذا كانَ مظْلُوماً، ولا تَتبعْ لَهُ عوْرةً، فإن عَلِمْتَ عليهِ سُوءاً سَتَرْتَهُ عليهِ، وإنْ عَلِمْتَ أنَّهُ يقْبَلُ نصيحَتَكَ نصَحْتَهُ فِيمَا بَيْنَكَ وبَيْنَهُ، ولا تُسلِمْهُ عنْدَ شديدَةٍ، وتُقيلُ عثْرَتَهُ، وتغفِرُ ذَنْبَهُ، وتعاشِرُهُ مُعَاشَرَةً كريمةً، ولا قُوةَ إلاّ باللهِ**»(٢).

فالجارُ ذلك الملازم لك في مستقر حياتك، وبحبوحة دارك،

---

(١) سورة النساء: الآية، ٣٦.

(٢) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٦٩.

يقابل سوؤه بالإحسان، وغضبه بالرضا، وسخطه بالعواطف، تمدّ له يدَ المعونة ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، تحفظه في غيبته حفظاً متوازناً في نفسه وماله وعرضه وكرامته، لا تستهجن له قدراً، ولا تضع له منزلة، وتتلقاه بالإكرام شاهداً، وبالتبجيل محترماً، فإن أعرض عنك قابلته بالإقبال عليه، والتودد إليه، فإن نأى جانباً حييته بالسلام، ورددت عليه في رقّة وابتسام، وأبديت له قلبك محتضناً، ووجهك محتشماً، ونصرتك له مظلوماً، ولا تتبع عوراته، ولا تحصي عليه سقطاته، ولا تلتقط منه أنفاسه، وتستر عليه معايبه ومساويه، وتنصحه سرّاً إن كان ممن يقبل النصيحة، فحقُّ المؤمن على المؤمن نصيحته، ولا تسلمه عند الوثبة، ولا تتخلى عنه عند الشدة، تقيل عثرته إن عثر، وتغفر ذنبه إن أذنب، وتعاشره معاشرة الأصدقاء، وتحيا معه حياة الحب والاحترام المتبادل، فإذا رأى هذا منك أصلح من نفسه، وعدّل من سيرته، وجدّ في مودّته، فكان منك في صلاح، وكنت منه في أمان واطمئنان، تلك هي وصايا زين العابدين عليه السلام في فحواها ومضمونها، وتلك هي حقوق الجار في جملتها لا تفصيلها، وهذا هو المناخ القرآني الذي يريد لنا الحياة الحرة الكريمة.

٦ ـ وبعد أن عطّر الإمام «رسالة الحقوق» بحق الجار أقبل على حق الصاحب، وهو من يصطحبك في سفر أو حضرٍ كما هو مطلق في تعبير الإمام فإن له حقاً بالصحبة يجب مراعاته، يقول الإمام: **«وأمّا حقُّ الصَّاحب فأن تصحبَهُ بالتفضُّل، والإنصاف، وَتُكْرِمَهُ كما يُكرِمُكَ، وَكُنْ عَلَيْهِ رَحْمَةً، وَلاَ تَكُنْ عليهِ عذاباً، ولا قوّة إلاّ بالله»**[١]. الصحبة تتطلب

---

(١) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٦٩.

المجاملة الأدبية العالية؛ تتخللها مظاهر الحشمة والوقار، وتزيّنها نفحات الاحترام المتبادل، فلا يتّكل المصاحب على ما بينه وبين صاحبه من المودّة والاخلاص، فيتهاون في قدره، ويقلل من أهميته، بل عليه أن يعلي من شأنه، ويرتفع بمكانته إلى حيث التبجيل المتوازن، وبذلك يكون عليه متفضلاً خلقياً، ومنصفاً اجتماعياً، ولا مانع من أن يتفضّل عليه برّاً وإحساناً، وعليه أن يشعره بالإكرام كما أكرمه، وبالرقّة واللطف والرحمة، فلا يكون عليه عذاباً، ويكون مصداقاً لقول الإمام علي عليه السلام : «صديق الجاهل في تعب».

فإذا استقام هذا التوجيه الطريف عادت الصحبة عشرة حسنة كما يراد لها، وأصبح الصاحب في ظلٍّ وريف من الحُبّ واللقاء البهيج.

الحقوق المالية والقضائية:

وتتبرعم أغصان «رسالة الحقوق» لتتفتح بحقوق الإنسان الاقتصادية، وتنفرج عن حقوقه القضائية، ليسعد بحياته في المال المصان والعدل المنصف، فلا حيف ولا ظلم ولا استئثار، وهذا ما تسعى إليه جاهدةً المجتمعات الراقية مع إطلالة القرن الحادي والعشرين الميلادي، وهو خيالٌ يداعب المشاعر والأفكار، عسى أن يتحقق يوماً ما في ظلٍّ حياة رغيدة فارهة، ذلك بالذات ما يدعو إليه الإمام زين العابدين منذ ثلاثة عشر قرناً أو تزيد، يضعه بين يدي الإنسانية رائداً ويقدِّمه للبشرية المعذَّبة منقذاً، ويدفع به لأمة محمد محرّراً، وهو يعيش في مجتمع بعيد عن التفكير الاصلاحي لبعده عن الحضيرة الإسلامية التي أرادها الله لعباده المخلصين.

١ ـ أول هذه الحقوق ما جعل الله فيه البركة، وما ندب إليه الشرع الشريف في الاستثمار المشروع، وهو «الشركة» لما فيها من الجهد المشترك، والنفع المشترك، والعائدية المشتركة، يشدّ بعضها بعضاً، ويدعم جزءُها الجزء الآخر، لتكون كُلاً متماسكاً في الأزر وقوة الأسر، ولا بد لها من طرفي الشركة: المالِ والشريك، ويبدأ الإمام بحقِّ الشريك لأنه المنمّي لذلك المال، والمعتضد بهذا الشريك الآخر،

فيقول: «**وأمّا حقُّ الشريكِ: فإن غاب كَفَيْتَهُ، وإن حَضَرَ رَعَيْتَهُ، ولا تَحْكُمْ دونَ حُكمِهِ، ولا تُعْمِلْ رأيَكَ دونَ مُناظَرَتِهِ، وتحفظْ عليهِ مالَهُ، ولا تَخُونَهُ فيما عزَّ أو هَانَ من أمرِهِ، فإنَّ يد الله تبارَكَ وتَعَالَى على الشَرِيكينَ مَا لَمْ يتخاوَنَا وَلا قُوَّةَ إلاّ باللهِ**»[1].

وكلٌّ من المتشاركين شريكٌ، فهو حق متبادل بينهما، تكون عائديته مزدوجة لهما، فإن غاب أحدهما كفاه الآخر مؤونة العمل، وإن حضر رعى له حقَّه، وضمن حرمته، واستنار برأيه مناظراً إيَّاه فيما فيه الخير المشترك، ولا يخونه فيما قلّ أو كثر، وفيما دقَّ أو كبر، وفيما هو عزيز ذو أهمية أو هيّن ليس ذا بالٍ من أمر الشركة، فالله بيده التي فوق الأيدي تطلّ على الشريكين في حفظهما الأمانة، وأدائهما الفريضة، فإذا خان أحدهما الآخرَ نزع يده عنهما، وأوكلهما إلى هواهما، حينئذٍ يستطيل الفساد، ويستبدّ الاستئثار، وقد ذمّ الله الخيانة وأهلها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾[2] وقال تعالى أيضاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾[3].

فوصف من خان بصيغة المبالغة في كلا الآيتين، لأنَّ من يخون مرة يكون متلبساً بالخيانة فيعاودها مرات، فينقلب من خائن إلى خوّان، وقد وصفه أيضاً بالكفور تارة، لأنه يكفر بالنعمة ويجحدها، وبالأثيم تارة أخرى، لأنه لا يتأثم من شيء، ولا حراجة ولا ورع له، فهو أثيم لا آثم، وهنا يبدو تعاقب الصفة والموصوف، فكلاهما مبنيٌّ على صيغة

---

(1) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٦٩.
(2) سورة الحج: الآية، ٣٨.
(3) سورة النساء: الآية، ١٠٧.

المبالغة التي تعني متابعة الكفر في الآية الأولى والانطباع عليه، وتعني مقارفة الإثم والدُربة عليه في الآية الثانية.

٢ ـ والمال محكُّ الرجال، وفيه يمتحن الإنسان امتحاناً عسيراً، فهو زينة الحياة الدنيا مقدّماً على البنين في قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[١] وهو في قوله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[٢] محبوبٌ بإفراطٍ وكثرة وجشع، لهذا يضعه الإمام موضع المصنّف له بوجوهه كافة، فيقول: **«وأمّا حقُّ مَالِكَ: فأنْ لا تأخذْهُ إلاّ من حِلِّهِ، ولا تُنْفِقْهُ إلاّ في وَجْهِهِ، ولا تُؤثِرْ على نفْسِكَ من لا يَحْمِدُكَ، فاعمل فيه بطاعةِ ربِّكَ، ولا تَبْخَلْ به فَتَبُوءَ بالحسْرَة والندامَةِ معَ السَعَةِ، ولا قُوَةَ إلاّ بالله»**[٣].

وطلب الرزق الحلال من أولى الأطاريح المباحة التي يسَّرها الله تعالى، فقد جعل في الحلال مندوحةً عن الحرام، وقد جعل مفردات الحلال في التكسُّب والتجارة والمضاربة والجعالة والأعمال الحرّة، جعلها أوفر متناولاً من الكسب الحرام، وذلك فضلٌ منه وتكريم لبني آدم، والرزق بتقديرٍ من الله تعالى، ولا بد أن يصل للإنسان متكاملاً، فقد تعهد به سبحانه، وإذا كان الأمر كذلك فأخذه من الحلال أولى عقلياً من أخذه سُحتاً حراماً، والوقوف بين ذلك عند الشبهات من أقصى درجات التورع، يقول أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام:

---

(١) سورة الكهف: الآية، ٤٦.
(٢) سورة الفجر: الآية، ٢٠.
(٣) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٦٩.

«فَمَا اشتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فالْفُظْهُ، ومَا أيْقَنْتَ بطيبِ وَجْهِهِ فَنِلْ مِنْهُ»[1].

فالشبهات عند الإمام عليه السلام مرفوضة، والحلال الطيّب المتيقن فهو المتناول لا سواه، أما الحرام فهو فقرُ معجّل في الدنيا، وهو حسرة يوم القيامة، يقول تعالى حاكياً ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ (٢٨) ﴾[2] وشدد الإمام في هذا الحق أن لا يُنفق إلا في وجهه من النفقة العامة والبر والإحسان والصدقات والمشاريع الخيرية، والمساجد والجامعات والمؤسسات العلمية، فإن ذلك من الجهاد الذي دعا إليه الله تعالى كما في قوله عز وجل: ﴿ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾[3]. فقدم الله الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس، وهذا شأن القرآن في هذا الملحظ، فقد مدح رسوله والذين معه بجهادهم بالأموال والأنفس، قال تعالى: ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾[4] والإنسان في ماله عليه أن لا يؤثر غيره على نفسه ممن لا يحمده لو صرفه عليه، وأعانه به مما هو مظنّة للمعصية، وإنما العمل الجديُّ العظيم أن يصرف في طاعة الله وحده، ولا يبخل به في شيء ممَّا هو مندوبٌ فيه إليه، فيصبح عند بخله بذلك عبئاً ثقيلاً ينوء به بالحسرة والندامة، وقد وسع الله عليه، فلم يضعه في الموقع المناسب، وإنَّما يبخل على نفسه، ويقتّر بازاء صحيفة أعماله فهو الخاسر غداً، قال تعالى:

---

(١) ابن أبي الحديد/ شرح نهج البلاغة/ كتاب أمير المؤمنين إلى سهل بن حنيف ١٦/ ٣٤١.

(٢) سورة الحاقة: الآية، ٢٨.

(٣) سورة الصف: الآية، ١١.

(٤) سورة التوبة: الآية، ٨٨.

﴿ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ﴾[1].

٣ ـ وهنا يعرض الإمام لقضية الديون على الإنسان، ويحددها بحق الغريم الذي أنسأ ماله عند أخيه المحتاج، والدَين قد يكون أفضل من الصدقة، لأن الصدقة قد تصل إلى غير المحتاج، ولا يستدين إلا المحتاج، وقد نظّم القرآن مسألة الدين في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[2].

ولا أعلم وثيقة قانونية دولية أو إقليمية قد تكفّلت هذا النحو في حياة المعاملات المالية كما تكفَّلها القرآن العظيم، ولم أعثر على لائحة حقوقية خاصة أو عامة توجَّهت لتنظيم مشكلات الديون بوجوهها كافة، وعطفت على جمع أطرافها بوحدة موضوعية شاملة كما فعلت هذه الآية

(١) سورة محمد: الآية، ٣٨.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٨٢.

الوحيدة من القرآن، حصراً وتفصيلاً وتصنيفاً ومعالجةً واستثناءً وتقويماً حقوقياً مستطيلاً.

وفي هذا الضوء يحقق الإمام القول في حقِّ الغريم من وجهة قرآنية أخرى، تتعهد التزام الوفاء من وجه، وتنظر إلى العسرة والنظرة فيها من وجهٍ ثانٍ. «**وأمّا حقُّ غرِيمِكَ الذي يُطالبُكَ: فإنْ كُنْتَ مُوسراً أعطَيْتَهُ، وإنْ كُنْتَ مُعسراً أرضيْتَهُ بِحُسْنِ القولِ، وَردَدْتَهُ عنْ نَفْسِكَ ردّاً لطيفاً**»[1].

والمدين لا يخلو فإمَّا أن يكون موسراً وإما أن يكون معسراً، فإن كان موسراً فعليه أن يبادر إلى وفاء الغريم إذ لا يجوز تأخيره مع الاستطاعة ووجود المال الذي يوفي به، وإن كان معسراً فعليه أن يترفق به ويرضيه بحسن القول، ورقَّة الكلمة، وأن يتلطف في ردّه دون مجابهة، وتأخيره دون أذى. كما على الدائن أن ينتظره وينظره وفقاً لما جاء في تعليمات القرآن الكريم إذ يقول: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2].

أمّا إذا أسقط دينه عنه، فذلك من أفضل الصدقات وأعظم القربات باعتبار المدين معسراً، والمعسر في كرب، و «من فرّجَ عن أخيه كربةً فرّجَ الله عنه سبعين كربة من كرب يوم القيامة».

٤ ـ قال الإمام عليه السلام: «**وحَقُّ الخَلِيط أنْ لا تغُرَّهُ، ولا تَغُشّهُ، ولا**

---

(١) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/٥٦٩.

(٢) سورة البقرة: الآية، ٢٨٠.

تخْدَعَهُ، وتتقي الله تبارَكَ وتَعَالى في أمرِهِ»[1] والخليط في اللغة ذو معانٍ عديدة متباعدةٍ عن النصّ ومتقاربة منه، ولعلّ أقربها إلى ما أورده الإمام في حقه ما جاء في حديث الشُّفْعَةِ: «**الشَرِيكُ أوْلى من الخليطِ، والخلِيطُ أولى من الجار**»[2].

قال ابن منظور: «الشريك: المشارك في الشيوع، والخليط: المشارك في حقوق المِلْكِ كالشربِ والطريقِ ونحو ذلك»[3].

ومعنى هذا أنَّ الخليط له نوع من المشاركة مع صاحبه لا على نحو المشاركة في كل الأموال، بل في بعضها.

بيد أنَّ الشافعي يرى في حديث الزكاة ملحظاً آخر، فيقول: «والذي لا أشكُّ فيه أن الخليطين: الشريكان لن يقتسما الماشية... وقد يكون الخليطان الرجلين يتخالطان بماشيتهما، وإن عَرَفَ كل واحد منهما ماشيته».

وكلا المعنيين ينطبقان على ما رَصَفَه الإمام من حق للخليط، سواءً أكانت مشاركة ببعض حقوق المِلْكِ، أم كانت مخالطة في ماشية الخليطين، عرف كلٌّ منهما ماشيته أو لم يعرفها. فما أراده الإمام هو الحفاظ على هذا الحق من الضياع، فلا يغرّنَ الخليطُ خليطَهُ، ولا يغشّهُ، فقد ورد في الحديث الشريف «منْ غشَّنا فَلَيْسَ مِنّا»[4] فالمؤمن لا يخدع أخاه المؤمن، بل يمحضه النصيحة محضاً، وتقوى الله أعظم

---

(١) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/٥٦٩.

(٢) ظ: ابن منظور/ لسان العرب/ مادة: خَلَطَ.

(٣) ظ: ابن منظور/ لسان العرب/ مادة: خَلَطَ.

(٤) مجمع عليه عند المسلمين، ظ: كتب الصحاح كافةً.

حاجز للإنسان من الغش والخداع وسواهما، لذلك يأمر الإمام الخليط أن يتّقي الله تبارك وتعالى في حق خليطه.

٥ ـ وبعد أن أنهى الإمام حديثه عن الحقوق المالية مُجَرّدَةً، توجّه إلى الحقوق القضائية التي لها علاقة بالمال وسواه، وحصرهما هنا بالمدَّعي والمُدَّعَى عليه، وبدأ بالأول فقال: «**وَحَقُّ الخَصْم المُدَّعِي عَلَيْكَ: فإن كان من يَدّعي علَيْكَ حقّاً، كُنْتَ شاهِدَهُ على نَفسِكَ وَلَمْ تَظْلِمْهُ، وأوفَيْتَهُ حقّهُ، وإنْ كانَ ما يدّعي باطلاً رفقْتَ بِهِ، وَلَمْ تأْتِ في أمْرِهِ غيرَ الرِفْقِ، وَلَمْ تُسخِطْ رَبّكَ في أمْرِهِ، ولا قُوّةَ إلاّ بالله**»[١]. وأُصول المرافعات في الإسلام تنتهج سبيلاً فريداً لا صلة له بإفرازات الحياة المادية المعقّدة، فللمدعي حقوقه التي لا تضيّع في القرار القرآني الصارم، فإن كان ادّعاؤه حقّاً شهد له المُدَّعى عليه ـ فوراً وبلا تردد والتواء ـ على نفسه لأنه الحقُّ الذي لا يُدفع، ولم يرزئه شيئاً من حقوقه اطلاقاً، فذلك ظلم، والمؤمن لا يظلم المؤمن مهما كان الميدان للموضوع ذي العلاقة المطروحة على صعيد المخاصمَة، وإنما يُوفّيه حقّه كاملاً دون نقصان، وراجحاً دون احتجان، وهذا هو ميزان الإسلام في استرداد الحقوق إلى أصحابها مع الاعتراف المهذّب، والإقرار المنشود.

وإن كان الخصم يدَّعي الباطل في مرافعته رفق به المُدَعى عليه، فلا يستعمل القوَّة في ردّه، ولا العنف في ابطال دعواه، وإنما هو اللين المحبوب، والرفق المندوب إليه، فلا يسخط الله في أمره، ولا يتجاوز

(١) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٧٠.

عليه باطلاً كما ادَّعى عليه باطلاً، فاقتراف الذنب بحق أحدٍ ما لا يسوغ اقترافه من قِبل الآخرين، فذلك اعتداء لا مبرر له في قانون السماء.

٦ ـ والحق الثاني هو حقّ المُدّعى عليه، ويبرمجه الإمام برمجةً دقيقة في التصنيف، فالادعاء المضاد: إما أن يكون حقّاً فله حكمه الخاص به، وإما أن يكون كذباً فله حكمه الخاص به، ومن خلال ذلك يتجلّى لك فكر الإمام الرسالي في إقرار الحق ودرء الباطل، يقول الإمام: **«وَحقُّ خصْمِكَ الذي تدَّعي عليهِ: إنْ كُنْتَ مُحِقاً في دعْوَتِكَ أجمَلْتَ مقاولَتَهُ، وَلَمْ تَجْحَدْ حقّهُ، وإنْ كُنْتَ مُبطلاً في دعْوَتِكَ اتقيْتَ الله عزَّ وجلَّ، وتُبْتَ إليهِ، وتَرَكْتَ الدعوى»**[1] والإنسان في تقواه ميزان فيما بينه وبين غيره، وهذا الخصم الذي يدّعي عليه إن كان صادقاً المدعي في مخاصمته ودعواه، فعليه أن يُجملَ في القول، ويقتصد في المحاجة، بكل رفق وهدوء حتى يأخذ الحق منه، وإن كان كاذباً في دعواه فلا يجحد حقّ أحدٍ، وعليه أن يتقي الله، ويتوب إليه قبل يوم الحساب، ويفترض فيه أن يترك الدعوى، ويستقيل من عثرته وزلّته.

هذا الاتّصاف بالصدق والموضوعية، وهذا الانصاف الداخلي في مراجعة الضمير ومعاودة النفس، هو الذي يتدخّل لحسم النزاع والخصام، وهو الذي تبرز عائديته على المجتمع ليكون راضياً في ذاته وكيانه، ومرضياً عند ربّه وبارئه، أما إذا ألقي الحبل على الغارب دون محاسبة دقيقة لأهواء النفس فإن الصلاح سيغيض، والاصلاح سيتعذّر، والحقوق ستضيع، وليس كل ذلك من الإسلام في شيء. بقيت نقطة مهمة أن الترافع في دفع الخصام يجب أن يكون عند شروطه التي قرّرها

---

(١) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٧٠.

الفقهاء: الأنبياء، الأئمة، نوّاب الأئمة، المجتهد العادل المطلق، ليكون الحكم بالحق، فلا يشتطّ الحاكم، ولا يُغرى بشيء من جاه أو رشوة، فللّه الأمر من قبل ومن بعد، وليكن ذلك مراداً مطلبياً كبيراً من أجل الغاية التي حكاها الله عن الخصمين في طلبهما عند داود عليه السلام، ﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴾[1] فالمطلوبُ حكم الحق دون ظلم، والهدي إلى سواء الصراط.

---

(١) سورة صَ: الآيتان، ٢١ ـ ٢٢.

الحقوق الإصلاحية المشتركة:

قد تقدّم لائحة حقوق الإنسان أطروحةً جدًّ يسيرة في بناء الهيئة الاجتماعية باتجاه مغاير للتفكير الرسالي، ولكنّها لا تقدِّم منهجاً متكاملاً للوعي الاصلاحي المشترك بين الأطراف المتقابلة، بيد أن الإمام بوعيه المترامي الأبعاد يحقق تلك الأطروحة في أبرز صورها لضمان التكافؤ الاستقراري لحياة الفرد والأمة، إذ تتشكل الأمة من أولئك الأفراد القيّمين على الرسالة السائرة في طرق الحياة المتوازنة دون إفراط أو تفريط، الوادعة دون اعتداء أو تخاذل أو ميوعة، وإنما هي التطوير العفوي بإزاء الفطرية البشرية التلقائية، وهكذا تجد هذا الإمام الفِكر مبرمجاً اجتماعياً فوق العادة لصقل حقائق الأشياء، وإضفاء صيغة الصلاح والاصلاح في برنامجه الحقوقي المشترك بين من يطلب رأيك في استشارة قد تقرِّر مصيراً مجهولاً، وبين من تطلب استشارته أو يقدمها هو لك مبتدأً، يضيف لهذين ما يجري بخطوطهما العريضة، وهما: المستنصح والناصح في خطوات متمهلة متأنية لا زلل فيها ولا استعجال ليحقق الاصلاح المنشود، وكلا الجانبين لا يتحققان بالجعل والثبوت إلا بمراعاة المبدأ الإسلامي المحض: احترام الكبير والعطف على الصغير، ليقف كلٌ على أرض صُلبةٍ من موقعه، فلا يتجاوز ذلك إلى التطاول على من هو أكبر، ولا الاستخفاف بمن هو أصغر، ويبدأ

الإمام هذا المدرك الجديد في مقابلة بين هذا وذاك، كما في التأصيل الآتي:

١ ـ حق المستشير، ويوجزه بقوله عليه السلام: **«وحقُّ المُستشير: إن عَلِمْتَ أنَّ لَهُ رأياً أشَرْتَ عَلَيْهِ، وإنْ لَمْ تَعْلَمْ أرشَدْتَهُ إلى مَنْ يَعْلَم»**[١].

فعلى من استشير أن لا يفرط في هذه الاستشارة، فيدرسها دراسة منطقية، فإن اهتدى إلى الرأي الأصوب قدَّمه بكل سخاء لأخيه المتردد، فحق المؤمن على المؤمن نصيحته، وإن لم يتوصل إلى الرأي الأصيل أرشده إلى من يعلم ذلك بحسب خبرته وتجاربه، كما عليه أهل الرأي، ولا يغرّر بالرجل فإنّ ذلكَ من الغش المبطّن، ولا مشروعية للغش في أيِّ حالٍ من الأحوال، كما عليه أئمة المسلمين كافة.

٢ ـ بعد المستشير في ثقته بك، واعتماده على نضج التفكير، وصفاء النفس، وصدق الخُلُق يأتي دور المشير:

«وَحَقُّ المُشير عليْكَ: أنْ لا تتهِمَهُ فيمَا لا يُوافِقُكَ من رأيِهِ، فإن وافقكَ حَمَدْتَ الله عزَّ وجلَّ»[٢].

ولو أشار أحد من البشر ممن يتمتعون بالإدراك السليم، والعقل المميّز، فعليك أن تأخذ بإشارته فيما تراه مناسباً، ولك أن ترفض هذه الإشارة إن لم تجد تجاوباً في نفسك، أو كنت بإيماءةٍ بعيداً عن فحواها، فلا تتهم المؤمن في إشارته عليك، فهو قد أراد بها صلاح أمرك و «المستشار مؤتمن» لا يريد أن يخون أو يذيع سراً، فإن وافقك

---

(١) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٧٠.

(٢) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٧٠.

في استشارته حمدت الله عز وجل أن أصاب ما في نفسك من إزالة اللبس، وتحدِّي الأشكال، والوصول إلى المراد.

٣ ـ وفي هذا السياق يبدو دور المستنصح والناصح، فالذي يوكل إليك النصيحة، ويقلّب شؤون أمره بين يديك، فعليك أنْ تجدَ في هذا فرصة لتبليغ الرأي الصريح المختمر إليه بما يعتبر أداءً لحق النصيحة له، وأن تمنحه في استنصاحه لك دون غيرك ـ باعتبارك أهلاً لذلك فيما يحسبه ـ أقصى مذاهب الرحمة الإنسانية، وأرقى درجات الرفق البشري، لأنه يريد أن تقرر له مصلحة فيها صلاحه وإصلاحه، وذلك ما يؤكد الإمام بقوله: «**وَحقُّ المُستنصحِ: أنْ تُؤدِي إليهِ النصِيحَة، ولْيَكُنْ مَذْهَبُكَ الرحْمَةَ لَهُ والرِّفْقَ به**»[١].

٤ ـ أمّا حقُّ الناصح؛ فيتوسع به الإمام لدى حصر أبعاده التوافقية، أو الاختلافية، أو الأدائية على الوجه الأتمّ، وما يقتضي كل أولئك من اللين والاصغاء والرحمة وعدم المؤاخذة في حال الخطأ، فيقول الإمام عليه السلام: «**وَحقُّ الناصح أن تُلينَ له جناحَكَ، وتُصْغِي إليهِ بسمْعِكَ، فإن أتى الصَّوابَ حَمِدْتَ الله عزَّ وجلَّ، وإنْ لَمْ يُوافِقْ رَحْمَتَهُ، وَلَمْ تَتَّهِمْهُ وَعَلِمْتَ أنه أخطَأ، وَلَمْ تُؤاخِذْهُ بذِلِكَ إلاّ أن يَكُونَ مُستحقّاً للتهمَةِ، فلا تعْبَأ بشيءٍ من أمرِه على حالٍ، ولا قوّةَ إلاّ بالله**»[٢].

وبإضافة هذا الحق إلى ما سبقه تكون النتيجة الاصلاحية مشتركة بين الناصح والمستنصح، وإلانة الجانب، وخفض الجناح، والاصغاء

---

(١) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٧٠.

(٢) المصدر نفسه.

سمعاً وشعوراً واستجابةً، تشكل ظواهر جدية بالحدب على استجلاء كُنهَ النصيحة، والتناصح شعار أصحاب الرأي الجيِّد المستقيم، وفي ضوء ذلك يكون القرار موفَّقاً، والمضي في الأمر كالسيف القاطع، فإن كان الصواب حليفاً للنصح حُمِدَ الله عزَّ وجلَّ على ذلك، وإن لم يتَّفق ذلك فعليك بالاِعتداد والاِعتزاز برأي الناصح فلا يُتّهم وإن شعرت بخطئه فلا تعمل برأيه، ولكن لا تؤاخذه بذلك فعسى أن يكون أراد الصلاح فلم يوفق له، إلا إذا علمت بأنه غشّكَ بالنصيحة، فاتركه وشأنه، وتعبأ بشيء من أمره، ودع الأمور على مجاريها دون حساسية أو جرح في الكرامة والمشاعر، هكذا تتبلور توجيهات الإمام الاصلاحية، في إطار الحمل على الصحة، واستصلاح الأحوال بكل يسر وسماحٍ، وهذا الشأن دقيق المؤدَّى والمغزى، فلو عُنِّفَ كل ناصح، وعُزِل كل حريص على النفع العام، لانهارت الموازين وضاعت المقاييس، وفُقد المعادل النوعي الذي يحفظ التماسك الاجتماعي.

٥ ـ وحفظ حرمة الكبير، ودرء جهل الصغير، عاملان مهمان في تقويم الأود، وتثبيت العلاقات المتبادلة في التوقير والعطف، وإلا لاختلط الحابل بالنابل، وذهبت مشورة أهل العقل الرصين، والذهن المتفتح المجرب. إن التجارب الزمانية توحي بأكثر من إرادة حقيقية قائمة، فالذي يمرّ بصدأ السنين مرور المعتبر الواهب، والناقد الخبير يكتسب خبرة تلقائية عفوية، تحنكه التجارب، وتهذّبه الحوادث، وتعلّمه النكسات، فالإنسان نتيجة للخطأ يلج أبواب الصواب، وبناءً على الفشل الموقّت قد يصاحب النجاح الدائم، كل هذا قد يفيض بروافده ورشحاتهَ على الكبير في سنّه المتقدّم في عمره، فيوليه الإمام

شذرات رائعة من التقييم لنراه بهذا المنظور الجديد، فيقول:

«وَحَقُّ الكبير توقيرُهُ لسِنّه، وإجلالُهُ لتقدُّمه في الإسلام قبْلَكَ، وتَرْكُ مُقابَلَتِهِ عندَ الخِصام، ولاَ تسْبقْهُ إلى طريقٍ ولا تتقدّمْهُ، ولا تسْتَجْهِلْهُ، وإنْ جَهلَ عليْكَ احتَمَلْتَهُ لحقّ الإسلام وَحُرْمَتِهِ»[1].

وهذا الحق متعدِّد النفحات، ومتنوع الإفاضة في فكر هذا الإمام العظيم، وقد نتج هذا التعدد لاعتبارات أولوية، فالتوقير للكبير يأتي نتيجة كبره في العمر، والاجلال له لمسةٌ جذَّابة موحية لتقدّمه في الإسلام وسبقه إلى الإيمان قبل الصغير، وتلك فضيلة بالأسبقية الزمنية، والأسبقية الإيمانية، وقد صرَّح بها القرآن العظيم من ذي قبل، فقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[2].

وقد روي عن ابن عباس أن السابقين في الأمم ثلاثة:

مؤمن آل فرعون، وحبيب النجار صاحب سورة ياسين، وعلي بن أبي طالب وهو أفضلهم[3].

فهذه الأهمية في السبق ولّدت تلك الأهمية بسبق الكبير إلى الإسلام في فكر زين العابدين عليه السلام، يضيف إلى ذلك مدركاً جديداً يُنبىء عن الاكرام الملتزم وهو ترك الردّ عليه والمراء معه لدى الاحتجاج والنقاش والخصام نظراً لمكانته في التشريع السماوي، فيحتمل ما يصدر عنه لدى الجدل الكلامي إلا فيما يتعلق بإرادة الضلال، فيجب الردّ والوقوف بحزم لأن الصمت أزاء ذلك مما يسفّه أحلام المسلمين، أو

---

(١) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٧٠.

(٢) سورة الواقعة: الآيتان، ١٠ ـ ١١.

(٣) ظ: الطبرسي/ مجمع البيان في تفسير القرآن/ المجلد الخامس لدى تفسير الآية.

مما يسيء إلى النظام الإسلامي.

وخصيصة أخرى سيّرها الإمام عليه السلام في حق الكبير: أن لا تسبقه إلى طريق، وإنما تفسح المجال له، وإن صاحبته فيه، فلا تتقدّم عليه، لأنَّ ذلكَ ممَّا يتنافى ومظاهر الحشمة المفروضة عليك له. أضف لهذا أن لا تستجهله وتتطلب العثرات عند زلل اللسان وخطل الآراء، فإذا جهل عليك احتملت ذلك كرامة لحق الإسلام، وصيانة لحرمته المترتبة عليه.

٦ ـ «وَحَقُّ الصغير: رَحْمَتُهُ في تَعْلِيمِهِ، والعَفوُ عنْهُ، والسَّترُ علَيْهِ، والرِّفْقُ بِه، والمعُونَةُ لَهُ»[١].

وصغير السنّ عادة يكون محدود الادراك، ضيِّق الأفق، عَسِرَ التفاهم، قصيرَ النظر، لا لعيب في مداركه، أو نقص في ملكاته، ولكنه قلة التجربة، وبداية المرحلة، وبرعمة العمر، فإذا كان الأمر كذلك، وهو كذلك فعليك أن تعطف عليه، وتكون رحيماً في تعليمه وإرشاده وتبصيره بمختلف الشؤون، فإذا جهل أو قصّر، عفوت عنه عفو الأب الرفيق، وسترت عليه ستر الرجل الحريص؛ ومن حقِّه أيضاً في فكر الإمام: الرفق به لأنه ضعيف ومستضعف، لم تتكون لديه الخبرة الكفوءة لدرء الاضرار، ولا الملكة الراسخة في معالجة الأحداث، فمن الحق الإنساني في الاصلاح ذلك اللطف والحنان والتوجيه الذي يخلق منه عنصراً إيجابياً صالحاً في الهيئة الاجتماعية، ولازم هذا بذل العون والمساعدة في وجوه البر والتوجيه على حدّ سواء كما ندب إلى ذلك

(١) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٧٠.

القرآن الكريم، وتعليمات الإمام عليه السلام منبثقة من روح القرآن، ومنطلقة من صميم أعماقه العملاقة، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[1] صدق الله العلي العظيم.

---

(١) سورة المائدة: الآية، ٢.

الحقوق الأخلاقية الإستراتيجية:

وفكر الإمام الأخلاقي ليس بمعزل عن الحياة في نظامها الاجتماعي، ولا هو بمعزلٍ عن أحاسيس الأفراد ومشاعرهم، الأفراد الذين يشكّلون آخر اللمسات في بناء الهرم الإنساني، فهم بالموقع الاستراتيجي المتقدِّم للبُنية الفوقية للكيان الحضاري لدى الأمم، والقفزة النوعية في حياة الشعوب إنَّما يحققها أفرادٌ لهم قابليات خاصة، وممَيزات إدراكية راقية، وهم وحدهم يستطيعون بما وهبهم الله من مَلَكَاتٍ وامدادات غيبية مجهولة في كثير من أبعادها لدينا، وحدهم القادرون على صنع المجتمع الحضاري المتطور كما حصل هذا الملحظ لمحمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين وأئمة أهل البيت عليهم السلام حتى القائم المنتظر عجّل الله فرجه، وبعد اصلاح الإمام زين العابدين عليه السلام للبنية التحتية للإنسان في ترسيخ أصولها، وتثبيت قواعدها، وإرساء أسسها، تفرّغ لتبني هذه الحقوق الأخلاقية الاستراتيجية في أسلم صورها التي تقود الحياة إلى شاطىء القيادة الواعية من خلال التكافل الاجتماعي حيناً، والتلاحم الإنساني حيناً آخر، والتفاهم النوعي التوحيدي أحياناً، فبدأ باليد العليا الواهبة المتفضلة مقارنة باليد السفلى المتلقية، وثنّى بمن يحاول جادّاً ومتقرّباً ادخال السرور وإشاعة البهجة والغبطة على أخيه بالمعنى العام، وشريك حياته بالمفهوم الواسع مُقارناً بمن يسيء إلى الآخرين عن عمد وغير عمدٍ، وعطف إلى التوفيق بين

أهل الدين الواحد والملة الذين هم الأهل والأخوة والأقربون بنصّ القرآن العظيم حيث يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[1] وبين أهل الذمَّة الذين هم في الحماية والجوار والاستضافة المشروطة برعاية الأحكام والقوانين التي شرَّعها الإسلام. وهذا التخطيط الذي أطلّ به علينا الإمام قائمٌ على أساس الواقع النفسي المستمد من البعد العقيدي المتغلغل في ضمائر الجماعة الإسلامية، وهو مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحالة التعبدية التي ندب إليها القرآن في طائفةٍ من آياته في مجال البر والإحسان، وهو وثيق الصلة بمسيرة المسلمين النضالية، وقد عصفت بهم الكوارث، وارتطمت بهم الاضطرابات، فلا نعماء ترتجى، ولا سراء تُستنزل، ولا ضراء تستدفع إلا بالالتحاق في ركب المسيرة النضالية، والاقتداء بمنهج النبي وأهل بيته وصحابته المنتجبين[2].

هذا التصعيد الأخلاقي المبرمج حقيقة استراتيجية في كيان الحقوق الإنسانية المثلى، بحيث يضع الإمام عليه السلام كلاً عند موقعه المخصص له لخوض المعركة العقائدية الملحّة ازاء التركيب الذي عومتْهُ القوانين الوضعية المرتجلة، وهي تحارب القيم والمُثُل التي خطط لها الإسلام، لهذا وغيره فإنك تجد هذا السيل المتدافع للنظريات الثابتة عند زين العابدين عليه السلام دون ارتجالية في الآراء، ولا فئوية في المصالح، ولا إقليمية في التفكير، بل هي النهج الأخلاقي الفطري المدروس دراسة رائدة فنياً واجتماعياً وتربوياً وموضوعياً، حتى لقد جاء

(١) سورة الحجرات: الآية، ١٠.
(٢) ظ: المؤلف/ الصورة الفنية في المثل القرآني ٢٩٥/ طبعة بيروت.

ذلك محققاً للغرض الديني في أنضج مراحله التطبيقية، دون تزيّد مُملٍ ولا إضافة مستعصية، بل لقد صدر من قلب الإمام النابض بالحيوية وحبّ الإنسان، ليحتل قلب الإنسان في كل شعوب الأرض المختلفة، وقد تفضّل عليه السلام بتصنيف ذلك على الوجه الآتي:

١ ـ حقّ السائل، وقد أوجزه إيجازاً تاماً في تلبية مطالبه الآنية، وسد احتياجه الموقّت، ضمن القاعدة الرصينة القائلة: لا إفراط ولا تفريط، لأن المطلوب فعلياً سدّ الحاجة دون ترف معيشي، وبلا إسراف لا ضرورة له، فقال عليه السلام: «**وَحقُّ السائِلِ: اعطاؤُهُ على قدرِ حاجَتِهِ**»[1]. وفي هذا الحق كما يريد الإمام عليه السلام عدةُ مؤشرات جديرة بالمتابعة:

الأول: مؤشر احترازي عن المنع والدفع والإهانة المتعمدة بما لا يلائم روح الإسلام بالردّ بالتي هي أحسن كما في قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾[2] أضف إلى ذلك اللحاظ الأخلاقي في منع الزجر والانتهار وما هو بحكمهما امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾[3].

الثاني: مؤشر استحبابي متواتر بالأمر باعطائه دون مِنّة أو أذى، وبمنتهى الاحترام والتكريم دفعاً لضرورة الاحتياج قدر المستطاع، وصوناً لماء الوجه من الابتذال.

الثالث: مؤشر رسالي ذو طابع عفافي عسى أن لا تستطيل يد

---

(١) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٧٠.
(٢) سورة البقرة: الآية، ٢٦٣.
(٣) سورة الضحى: الآية، ١٠.

السائل في حالة حرمانه وفقره وادقاعه إلى السرقة والغصب والاحتيال والكذب والاغارة، وفي ذلك تضييع للأخلاق المثلى في العفَّة والصيانة، تلك المقاييس التي حدب على استيحائها الإمام استراتيجياً بهذا الحق وسواه، والرسالة هنا الأخذ بحجزة السائل نحو الطريق عسى أن لا يقع في المحاذير.

الرابع: مؤشر إنساني بالعطف المتكامل، والايثار المحبوب الذي فخر به القرآن، وجعله سمة بارزة لمن سار بنهج الرسول الأعظم ﷺ في البذل والعطاء حتى مع الاحتياج لا مع السعة والجدة، كما يؤكد هذا قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[1] وفي كلٍّ ما تقدَّم دلالة إيحائية رفيعة المستوى يستفاد منها أن هذا التداعي في حق السائل، هو تقويمه ولو جزئياً إلى حين، عسى أن يكون يوماً ما بمثل ما عليه أخوه المسؤول من الدعة والنعمة والكرامة.

٢ ـ وللمسؤول حق معلوم على السائل لا يتجاوزه ولا يتعدَّاه، وإلا عاد ذلك اعتداءً صريحاً لا مبرر له، فللمسؤول ظروفه الخاصة التي قد تحول بينه وبين العطاء، كأن يكون قد أعطى ما فيه الكفاية، وكأن يكون لا يتوافر لديه ما يعطيه، وكأن تكون نفسيته ـ عندئذٍ ـ بامتعاض وتدهور لا يسمحان لها بالسخاء، وهكذا، لهذا وأمثاله وجد له الإمام مندوحة في العذر، أما إذا أعطى، فالحال مختلفة باختلاف الموقف المعلن موضوعاً، يقول الإمام عليه السلام **«وَحَقُّ المسؤُولِ: إنْ أعطى فاقْبَلْ مِنْهُ بالشُكْرِ والمعْرِفَةِ بِفَضْلِهِ، وإنْ مَنَعَ فاقْبَلْ عُذْرَهُ»**[2].

---

(١) سورة الحشر: الآية، ٩.

(٢) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٧٠.

هناك إذاً حالتان متقابلتان، باستيعابهما وامتصاصهما يُعطى المسؤول حقه، إن جاد وهزّتَهُ المروءة والسماحة، يُقبل ما تيسَّر منه قليلاً كان أو كثيراً، مع اسداء الشكر المناسب، والمعرفة بهذا الفضل الجديد، وإن منع فلعذرٍ ما، ولسبب قد يكون صادقاً فيه، فعلى السائل قبول العذر واسدال الستار.

٣ ـ وهناك طائفة من الناس يُستسقى بهم الغمام، وكدُهم وجدّهم قضاء مهمّات الآخرين، يسعون في قضائها، ويبادرون إلى إنجاحها، ويتسابقون إلى الخيرات، بل يستبقون إليها سراعاً كما وصفهم الله تعالى في جملة من الآيات المباركة، قال تعالى نادباً لذلك: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾[١] وقال تعالى مفصّلاً أَوْلاعَ عباده في شتى الاتجاهات: ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾[٢] وقال تعالى في صفَة المُخْبتين إليه الذين يؤتون ما أتوا وقلوبُهُم وجلة: ﴿ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾[٣] وقال تعالى في صفة التالين لآيات الله آناء الليل من أهل الكتاب: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾[٤]. فأهل الخيرات السابقون إليها والمسارعون فيها من الصالحين لا شك في ذلك، أمّا هدفهم فإدخال السرور على الناس، لذلك ذكرهم الإمام في حقٍ يخصهم لأنهم من أقرب الناس إلى الله، وألصقهم به علاقة، وهم الفائزون يوم القيامة، يقول الإمام:

---

(١) سورة البقرة: الآية، ١٤٨.

(٢) سورة فاطر: الآية، ٣٢.

(٣) سورة المؤمنون: الآية، ٦١.

(٤) سورة آل عمران: الآية، ١١٤.

«وَحقُّ مَنْ سَرَّكَ لله تعالى ذِكْرُهُ: أنْ تَحْمَدَ الله عَزَّ وجلَّ، ثم تَشْكُرُهُ»[1].

وفلسفة هذا النصّ أن الله سبحانه وتعالى هو الذي سخَّر من يدخل عليك السرور، وهو قد فعل ذلك في ذات الله، فالله تعالى يجب أن يحمد على هذا التسخير، ويحمد على تلك الهداية أن سرّهُ لله لا للجاه ولا السمعة والرياء، بعد هذا ينبغي شكر من أدخل عليك السرور شكراً جزيلاً لئلا يصاب بالإحباط، وليتشجع على ذلك، وإن كان الأولياء لا يزيدهم ذلك برّاً وإحساناً، فهم مندمجون في عملهم، مجبولون على فعل الخير، عملاً بتعليمات أهل البيت القائلة: «اصْنَع الخيرَ مَعَ أهلِهِ، وَمَعَ غيرِ أهلِهِ، فإن لم يَكُنْ من أهلِهِ فأنْتَ منْ أهلِهِ». وهذا غاية نكران الذات.

٤ ـ وهناك جيلٌ من الناس بُنيَ تركيبه على الإساءة للآخرين، يحمل بين جنبيه روحاً شريرة تقابل الإحسان بالنكران، والفضل بالجحود، والخير العميم بالشر الصارخ، أولئك من الذين طبع الله على قلوبهم، فلا أمل يرجى، ولا إصلاح ينفع، ولا استقطاب يغيّر، عالةٌ على المجتمع في أسوائهم، وكلٌّ على الناس في تصرُّفاتهم، عرفوا الحقّ وأنكروه، وأدركوا الخير وكتموه، يسارعون لكل فتنة، ويفرحون عند كلِّ هزّة ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[2] والأنعام لنا فيها دفءٌ ومنافع، وفيها الغذاء الكامل، وهُم لا نفع ولا مصلحة ولا إدراك، وقد وصفهم الله سبحانه وتعالى وشبَّههم بها عقلياً، فقال:

---

(١) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٧٠.
(٢) سورة الفرقان: الآية، ٤٤.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[1]. والناس في غفلة، فإذا استيقظوا بعد فوات الأوان ندموا حيث لا مندم، ذلك أن الإمام علياً عليه السلام قد صوّر ذلك، فقال: **«الناسُ نيامٌ فإذا ماتوا انْتَبَهُوا»**[2].

وكل من يسيء إلى المحسنين، وينكر فضل الأبرار، إمّا أن يكون تافهاً فهو إلى العفو عنه أقرب، وإمّا أن يكون ذا شرر يتطاير فالانتصاف منه أولى، وقد حدَدَ زين العابدين عليه السلام ذلك فقال:[3] **«وَحقُّ مَنْ أَسَاءَكَ أَنْ تَعْفُو عَنْهُ، وإنْ عَلِمْتَ أَنَّ العَفْوَ عَنْهُ يَضرُّ انتصَرْتَ، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾[4]»**.

فالأمر بيد من أُسيء إليه، إن شاء عفا، وإن شاء انتصر، العفو شيمة الأكرمين، والانتصار من الله وحده، ولا استقلالية للمرء فيما يخطط بل هو بإرادة الله وبإشاءته.

٥ ـ وتأتي المعادلة الجامعة بين أهل الملّة وأهل الذمّة، فيضع لذلك الحقوق المتبادلة في مناخ استراتيجي يقترب من الواقع بكل خطواته، ويبتعد من تراكمات التفكير الضّحل في كلِّ خطوةٍ، فيترجم لنا هذا وذاك بما لم تستطع أعرق المنظمات الدولية تفقهاً الوصول إليه، أو التحقيق لجزء منه في سبيل التعايش الروحي والأخلاقي، ولستُ مُبالِغاً في هذا الزعم لأن البحث الميداني قد أوقفنا على اللوائح الإنسانية بكل

---

(١) سورة الأعراف: الآية، ١٧٩.

(٢) ظ: ابن أبي الحديد/ شرح نهج البلاغة/ الكلمات القصار.

(٣) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٧٠.

(٤) سورة الشورى: الآية، ٤١.

تفصيلاتها، فلم نجد فيها منهجاً ذا تأكيد على نزع الأغلال الطائفية والإقليمية والعنصرية، بل هناك فيه لمحات من التمييز العنصري البغيض، والترويج التبشيري الهزيل، والدعوة إلى سيادة الدم، والقول بأفضلية المعتقدات، والذهاب إلى بؤرة الفساد في هوتها السحيقة باسم التجديد والعصرنة والتحديث، أما خلق الإنسان المعاصر ـ فضلاً عن الماضي والسابق ـ خلقاً متبلوراً فكرياً وعقائدياً وروحياً فمما لا سبيل إليه في ظل القوانين الطنّانة تهريجاً، والرنّانة تصريحاً، لأنها صادرة بازاء الفكر المحدود بانطلاقه، ذلك الفكر الذي لم يتحرر من قيد العبودية والاستغلال، فعاد رخيصاً لا قيمة له.

ويظل فكر الإمام قائماً على أساس خلقي رفيع يهدف إلى الموازنة في الحالات الطارئة، وها هو يسوّي قضيَّة معقدة بالغة الخطر، إلا أنه استطاع بذهنيته الثاقبة، أن يرتفع بها إلى مستوى التفاهم الحضاري بين المسلمين وأهل الكتاب، بوضع خارطة ذات أبعاد إنسانية متشعبة، تجمع الشمل وتراب الصدع، وبدأ بأهل الملّة بحقّهم، فقال عليه السلام: **«وَحقُّ أهْلِ مِلَّتِكَ: إضمارُ السلامَةِ والرحمَةُ لَهُمْ، والرِفْق بمسيئهم وتَألُّفُهُمْ واستصْلاحُهُمْ، وَشُكرُ مُحسنهمْ، وكَفُّ الأذى عَنْهُمْ، وَتُحِبُّ لَهُمْ ما تُحبُّ لنَفسِكَ، وتَكْرَهُ لَهُمْ ما تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ، وَأَنْ تَكُونَ شُيوخُهُمْ بِمَنزِلَةِ أبيكَ، وَشَبانُهُمْ بِمَنْزِلَةِ إخوتك، وعجائزُهُم بمنزلةِ أُمِّكَ، والصِّغارُ بمنزلة أوْلاَدِكَ»**[(١)]. ولمّا كان أهل الدين الواحد هم الأقربون عقائدياً، وهم المؤهّلون للحب والمودة والتقدير والإعظام، كان حقهم

(١) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٧٠.

كبيراً على أحدهم، وكان المنظور التعاطفي والتلاحمي أساساً في نظامهم الأخلاقي الاستراتيجي المتحتم تواجده في الضمائر والمشاعر والأحاسيس، ومن هنا يبدو تفصيل الإمام في هذا الحق انسجاماً مع ما يحمل من ظواهر تتلاءم مراعاتها مع الواقع العقيدي باعتبارها كلاً لا يتجزأ، بل هو غير قابل للتجزئة في حد ذاته إذا نظر إليه بأنه كيان مستقل متماسك، فإذا فُكك انهار ذلك الترابط الوحدوي، وعاد حقيقة منفصلة عن ذلك الكيان الشامخ، وقد مثّل تفصيل الإمام في هذا الضوء لجنس الحق عدةَ حقوق متشابكة تحقق مناخاً صالحاً لاحتضان المفاهيم الإسلامية على النحو الآتي.

أولاً: اختراق الأعماق للإنسان المسلم، واحلال الوعي التلقائي في الضمير الإنساني، بحيث ينطوي بعفوية مطلقة على احتضان شعار السلامة والموادعة والسلم المحفوف بالرحمة المندوب إليها حتى قال سبحانه وتعالى بالنسبة لنبيه محمد ﷺ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾[1] وكما يرجو الإنسان رحمة ربه ويحلم بها عاجلاً وآجلاً، فعليه أنْ يشمل برحمته النسبية أبناء ملّته، ليكون محققاً للحلم الذي يصبو إليه، فمن يَرحم يُرحم، ومن لا يَرحم لا يُرحم، قال تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾[2] والناس جميعاً في ظلِّ هذه الرحمة الواسعة الفياضة، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾[3].

---

(١) سورة آل عمرانِ: الآية، ١٥٩.
(٢) سورة فاطر: الآية، ٢.
(٣) سورة الحجر: الآية، ٥٦.

فإذا استعمل الإنسان رحمته مع الآخرين في حدود، عدّ من المحسنين الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه، وأصبح مشمولاً بالرحمة الكبرى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1].

ثانياً: انبثاق الألق الإنساني المتوهّج في مشتبك الطباع الذاتية، متمثلاً بظاهرة الرِّفق التي هي الأصل برقة العاطفة، ولين الجانب، ومحبوبية الذات، فإذا كان الرفق بمن ساواك وبمن تدانى عنك في القمَّة من الأخلاق الشامخة، كان الرفق بالمسيء من أهل دينك في ذروة معالم الرفق الرفيعة، وإذا كان الله تعالى مبدلاً للحسنات بالسيئات بفضله، وكانت السيئات تَذْهبُ بالحسنات كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[2] فالأجدر بالإنسان أن يغضَّ الطرف عن المسيء، فكل إنسان منوط بعمله، ولذا اعتبر القرآن الرفق من الأعمال الصالحة، وهو يُجزى به، والمسيء يُجزى بعمله أيضاً، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[3]. وفي هذا الضوء الكاشف على المرء أن يرفق بالمسيء إن لم يحسن إليه.

ثالثاً: ولا يكتفي الإمام عليه السلام بهذين المنظورين المهمين حتّى يعززهما بثالث، وهو إرادة التآلف من جهة، والاستصلاح من جهة أخرى، وهذه دعوة إلى السعي والجدّ والمثابرة، فحقيقة التآلف بين

---

(١) سورة الأعراف: الآية، ٥٦.

(٢) سورة هود: الآية، ١١٤.

(٣) سورة الجاثية: الآية، ١٥.

المسلمين لا يتحقق في عشية وضحاها، واستصلاح أحوال المسلمين ومتابعة ما يحييهم لا يتم بنظرة عابرة، أو كلمة دارجة، أو عبارة متأنقة، التآلف والاستصلاح عبءٌ ثقيل، ومهمة صعبة، يستدعي كلٌ منهما جهداً إضافياً، وعملاً إيجابياً، فبلحاظ قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾[1]. يتجلّى أن من مهمات الاصلاح وأبرز مصاديقه: التآلف والاستصلاح، وقد منّ الله عزّ وجلّ على المؤمنين أن ألَّفَ بين قلوبهم وعدّ ذلك من نعمه، فقال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾[2] إذاً لولا التآلف لانحدروا للنار، فهم على شفا حفرة منها.

والاستصلاح: استفعال، وهو صيغة تدعو إلى الاندماج الكلي في الاصلاح، وطلبه في أيِّ ملحظ كان، ومتابعة مناخ التفاعل معه بكل أمانة ليعُدّ الإنسان بحقٍّ من المصلحين، ويا لها من فضيلة، قال تعالى في مقام الاحتفاظ بالأجر الكامل للمصلحين:

﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾[3].

رابعاً: ولمن أولاك إحسانه، وجمّلك بأفضاله، وأكرمك بنعمائه، وجب شكره وذكره، وتحتّم ادّكار آلائه عليك، فكيف وهو ابن جلدتك وملتك، وشكر المحسن لك وللآخرين واجب عقلياً، ومحبَّبٌ نفسياً ومحرّك للاستزادة في الاحسان شعورياً، ألا ترى قوله تعالى وهو يأمر

---

(١) سورة الحجرات: الآية، ١٠.
(٢) سورة آل عمران: الآية، ١٠٣.
(٣) سورة الأعراف: الآية، ١٧٠.

به ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1] ثم انظر إليه وهو معهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[2] وكما لم يضيع الله أجر المصلحين ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[3] بل هو الذي يتولى جزاءهم بقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[4].

خامساً: وعليك العمل جاهداً، والسعي متواصلاً بكفّ الأذى عن المسلمين، فليس من الإسلام في شيء من يدخل الكرب على أخيه، وليس من الإيمان بقريب من يحاول أذى المؤمنين، إن لم تجلب نفعاً فلا تحدث ضراً، والمؤمن هيّن ليّن، مأمول الخير، ومأمون الشرّ، فهو في شغل شاغل من اصلاح نفسه، وهو معنيٌّ بعيوبه عن عيوب الآخرين، وبذنوبه عن ذنوب من سواه، وكدّه الرضا لا الأذى، وهمّه الاقتصاد في القول والفعل والعمل، وهكذا شأن السّائرين بخطى أهل البيت يتطلبون العفو والمغفرة، ويتحاشون الاساءة والجريرة، ويتناوبون على استنزال الخير والرحمة من الله العليّ القدير، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[5].

سادساً: ونزع الأنانية عن الذات، وحبُّ الخير للآخرين كحبّه للنفس، والكره لهم بمستوى ما يكره للنفس أيضاً من منازل الصديقين الذين يشيعون البركات في رجائها وطلبها على ظلِّ مجتمعاتهم، دون قصرها على قوقعة الأنا كما هو ديدن المدخولين في سلوكهم بل

---

(١) سورة البقرة: الآية، ١٩٥.
(٢) سورة النحل: الآية، ١٢٨.
(٣) سورة هود: الآية، ١١٥.
(٤) سورة الصافات: الآية، ٨٠.
(٥) سورة المؤمنون: الآية، ١٠٩.

عقولهم، وهذا الحق في المرتبة العليا لمن آمن بالله واليوم الآخر، وأدَّى ما عليه من حقوق وواجبات فعاد جزءاً مقوّماً للكل الديني المترابط، يفدي بعضه بعضاً، ويوالي بعضه بعضاً متعاونين على إنجاز ما ألقي على عواتقهم من المسؤولية الضخمة، والحديث القرآني عن هذا الجانب طويلٌ لا يسعه هذا الموجز، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

لقد حدَّثنا التاريخ الإسلامي بمدارك الإيثار في أحداثه الجسام، وكيف يقي المسلم أخاه المسلم بنفسه وماله وعياله، كما في بدر وأحد والخندق وخيبر وصفِّين والنهروان والجمل وطف كربلاء، فكيف الحال إذاً بأن يحب المسلم لأهل ملَّتِه ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لها. إن هذا المدرك بديهيٌّ بالأصالة، وتأكيد الإمام عليه تأكيد أخلاقي تقتضي ضرورة الاستراتيجية الفكرية الوقوف عنده.

سابعاً: والمقياس الديني قد يواكب المعيار الاجتماعي في الاحترام المتبادل، والعطف المشترك، والمودّة القائمة، في هذا المنظور التراجيدي الموروث يبرز عنصر إحلال الشيخ بمنزلة الأب، واحلال الشباب بمنزلة الأخوة، واحلال العجائز بمنزلة الأم، واحلال الصغار بمنزلة الأولاد، هذا العنصر في أجزائه التركيبية يضمُّ إليه فصائل المجتمع الإنساني في لحاظِ جمعي الشيوخ، الشباب، النساء، الصغار، يقابلهم في الأداءِ الولائي: الآباء، الإخوة، الأمهات، الأولاد لَبِنة فوق

(١) سورة التوبة الآية: ٧١.

لَبِنة تكوّن الهرم البشري في أركانه الأربعة المتراصّة، وتعيد إلى الذهن تلك العقلية المتفتحة لاحتضان الأجيال، عبر العصور المختلفة عند الإمام عليه السلام، ذلك ما نلمسه كياناً منسجماً في تقرير التكوين الدرامي للهيئة الاجتماعية البائدة والسائدة، هذا المقياس لا ينتهي بفترة ما، فليس هو مرحلياً، ولم يكن ارتجالياً، وإنما جاء تقويماً حضارياً لكل لحظات الزمان في كل الأجيال السابقة لنا واللاحقة بنا، فكأن التقويم يصدر عن مفهوم قرآني بعيد المدى، كون الإسلام عالمياً في رسالته حتى يوم الدّين ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[1] لقد دخل الإمام عليه السلام في هذا الباب مدخل صدق؛ وخرج منه مخرج صدق، وأبقى لنا ثراءً طائلاً لا ينفد، وفتح علينا باباً من المعارف لا يغلق، وعبّد لنا طريقاً من الكرائم لا يوصد، فسلام عليه يوم ولد ويوم مات ويوم يبعث حياً، وكأنه فيما خطط من مناهج، وأبقى من قيم، وأحدث من تفجير هائل للقيم الإنسانية لاسيما في رسالة الحقوق، قد وضع نُصبَ عينيه قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا﴾[2].

٦ - وينهي الإمام «رسالة الحقوق» بآخر حق من الحقوق الأخلاقية الاستراتيجية وهو خاصٌ بالشق الثاني من المعادلة النوعية للإنسان المتديّن والمتمدن، وهذا الحق هو حق أهل الذمّة، فيقول عليه السلام: **«وَحَقُّ أهلِ الذِمّةِ: أَنْ تَقْبَلَ مِنْهُم ما قَبلَ الله عزَّ وجلَّ، وَلاَ تَظْلِمَهُمْ ما وفَوا الله عزَّ وجلَّ بعهده»**[3].

---

(١) سورة المطففين، الآية، ٦.

(٢) سورة الاسراء: الآية، ٨٠.

(٣) الشيخ الصدوق/ الخصال ٢/ ٥٧٠.

لأهل الذمة حقوق مفروضة، وعليهم واجبات مشروعة، تؤدَّى هذه الحقوق ما وفوا بتلك الواجبات، ويُقبل منهم ما قبل الله تعالى دون اضافات متطرّفة، وشروط تعجيزية لا أخلاقية، المسألة إذاً مسألة التزام معيَّن بحدودٍ معيّنة، فإذا تعهدوا بهذا الالتزام، أعطي ذلك الحق، ولا يجوز التطاول والظلم والامتهان ما وفوا لله بعهده القائم، وهم بعدُ في حماية المسلمين، والحماية تقتضي إتاحة جميع الفرص في الأمان والرعاية والاطمئنان، ومما يؤسف له حقاً اليوم أننا في حماية أهل الذمة، وليسوا هم في حمايتنا، ولقد أساؤوا التصرف، ونهبوا الثروات حتى عادت البلاد الإسلامية بعامة والعربية بخاصة تستجير ولا تجار، وتُحمى ولا تحمي، وهذا الابتزاز يشاركهم به المسلمون إذ تركوا كتاب الله كما قلنا من ذي قبل: (١)

الذنبُ ذنبُ المسلمين لأنهم تركوا الكتاب وبالمهازل باؤوا

ولا تعجب، فقد تحدث القرآن عن هذه الظاهرة منذ عهد مبكر، على لسان الرسول الأعظم ﷺ فكيف بنا اليوم، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴾(٢).

وكان نتيجة هذا الهجران تسلط الدول الظالمة، وتضاؤل الدور البنّاء لحملة القرآن.

انتهت «رسالة الحقوق» بقوانينها الإنسانية، فهل توصلت الأمم المتحضرة إلى ما وصلت إليه، هذا ما يجيب عنه المبحث الآتي.

---

(١) من قصيدة للمؤلف في رثاء سماحة الحجة الكبير السيد هبة الدين الحسيني الشهرستاني، المتوفى في عام ١٩٦٦، ونشرت في مجلة العرفان/ صيدا/ لبنان.
(٢) سورة الفرقان: الآية، ٣٠.

مبادىء الإمام والاعلان العالمي لحقوق الإنسان:

في ١٠ كانون الأول ١٩٤٨ اعتمدت الجمعية العامة للأمم المتحدة الاعلان العالمي لحقوق الإنسان وأصدرته بعد أن وقع ميثاق الأمم المتحدة في ٢٦ حزيران ١٩٤٥ في سان فرانسيسكو[١].

وهذا الاعلان العالمي يتكوَّن من ثلاثين مادة نادت بها الجمعية العامة للأمم المتحدة «على أنه المستوى المشترك الذي ينبغي أن تستهدفه كافة الشعوب والأمم، حتى يسعى كل فرد وهيئة في المجتمع، واضعين هذا الاعلان نصب أعينهم، إلى توطيد احترام هذه الحقوق والحريّات»[٢]. بوصفه «المعيار العام لانجازات جميع الشعوب وجميع الدول فيما يتصل بحقوق الإنسان، وهو يتضمَّن حقوقاً عديدة ـ مدنية وسياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية ـ يستحقها الناس في كل مكان»[٣].

وقد عزَّز هذا العمل بادخال التعديلات عليه في عام ١٩٦٥، وأصبح نافذ المفعول عام ١٩٦٨[٤].

---

(١) ظ: خافيير بيريز دي كويار/ الاعلان العالمي لحقوق الإنسان/ ٣ + ميثاق الأمم المتحدة/ج.

(٢) الاعلان العالمي لحقوق الإنسان/ الديباجة/ ٦.

(٣) الأمم المتحدة/ حقوق الإنسان أسئلة وأجوبة/ ٣.

(٤) الأمم المتحدة/ ميثاق الأمم المتحدة/ ١.

وفي ٢٥ حزيران ١٩٩٣ م اعتمد ممثلو (١٧١) دولة، بتوافق الآراء اعلان وبرنامج عمل ڤيينا للمؤتمر العالمي لحقوق الإنسان، وقدَّموا إلى المجتمع الدولي خطة مشتركة لتعزيز العمل في مجال حقوق الإنسان على مستوى العالم[١] وأصدروا مقرَّرات إنسانية تشتمل على (١٠٠) توصية لتنفيذ ذلك[٢].

ولدى ملاحظة هذه المبادىء والحقوق تلمسها جيدة برّاقة، نتمنى لو عملت الأمم المتحدة بمقتضاها، ويسعدنا كثيراً أن تطبّق مبادئها الدول التي وقّعت عليها، ومع ذلك فلنا عليها بعض التحفظات والملاحظات بالقياس إلى مبادىء الإمام زين العابدين عليه السلام التي أعلنها لحقوق الإنسان.

١ ـ حفلت المواد الثلاثون التي أعلنتها الأمم المتحدة بحقوق الجانب المادي من الإنسان، وأغفلت بشكل متعمد لا يليق الجانب الروحي من الإنسان، وبذلك اعتبر الإنسان آلة جامدة لا تنبض بالحياة، فالهموم كلها لحياته المادية الصاخبة، ولا مجال للحياة العقلية والروحية، وهذا أوّلُ غضٍ من كرامة الإنسان.

بينما نجد «رسالة الحقوق» عند الإمام تعالج الجانب المادي إلى جنب الجانب الروحي، وتجعل من الإنسان ذاتاً متكاملة في معيار الوعي والتفكير وشؤون الحياة.

٢ ـ لم نجد شمولية في الاعلان العالمي لحقوق الإنسان، فهو

---

(١) ظ: الأمم المتحدة/ المؤتمر العالمي لحقوق الإنسان/ اعلان وبرنامج عمل ڤينا.
(٢) ظ: الأمم المتحدة/ المؤتمر العالمي لحقوق الإنسان/ اعلان وبرنامج عمل ڤينا.

يفرّط بمبادىء كثيرة هي في الصميم من حياته العامة، كالعلاقة بين الآباء والأبناء، والحقوق المتبادلة بين الزوج والزوجة، والآثار الاجتماعية في حقوق الجوار والأرحام والأصدقاء، والحقوق الإنسانية في البرّ والإحسان والصدقات، والحقوق المالية في التكسُّب والتجارة والمعاملات، والحقوق الأخلاقية في التعايش السلمي والحبّ والمودّة واحترام أحاسيس الناس ومشاعرهم، وحقوق النفس والجوارح في أداء الطقوس الدينية والشعائر المقدسة، والحقوق الاستراتيجية في التعامل الأخوي والاصلاحي والأخلاقي بين فصائل الناس المختلفة، وهي وإن أشارت إلى شيء من بعض هذه المبادىء فإشارتها عابرة لا تُسمِن ولا تغني من جوع.

٣ ـ أباحت لائحة مبادىء الأمم المتحدة في الاعلان العالمي لحقوق الإنسان «التبني» بمختلف أنواعه، وفي هذا تشجيع ضمني بل صريح على ترويج ظاهرة اللقطاء ومجهولي الآباء، فضلاً عما يشتمل عليه «التبني» المشروع ـ كما يقال ـ من تضييع للإنسان، واكتساب لا مشروع للحقوق والأموال، واختلاط في الدماء والمصاهرات[١] بينما حرّم الإسلام ذلك في نصّ القرآن ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ ﴾[٢] لما في التبني من مشكلات معقّدة، وادعاءات باطلة، وحقوق ضائعة.

٤ ـ فتحت مبادىء الأمم المتحدة في الاعلان العالمي لحقوق الإنسان باب منح الحريّات على مصراعيه، ولم تقيّده بأن لا تكون

---

(١) ظ: الاعلان العالمي لحقوق الإنسان/ المادة الخامسة والعشرين/ فقرة: ٢.

(٢) سورة الأحزاب: الآية، ٥.

الحرية مطلقة، لما في ذلك من الدعوة الإباحية، ولم توجهه بأن لا تكون الحرية على حساب حرية الآخرين، وإلا لزم ذلك إشاعة الفوضى.

٥ ـ دعت مبادىء الأمم المتحدة في الاعلان العالمي لحقوق الإنسان إلى المساواة التامة بين الرجل والمرأة، وإلى التمتع بكافة الحريات والحقوق «أو أيّ وضع آخر، دون تفرقة بين الرجال والنساء»(١).

معنى هذا مساواة المرأة للرجل في كل شيء: الإرث، الشهادة، العمل، الاختلاط اللامعقول، وقد تجاوز الإسلام هذه الملاحظ لمدارك خاصة، ففي الإرث قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ﴾(٢) وذلك لمدخولات المرأة الأخرى، فالنفقة على زوجها، ومالها في عملها لها، بما تختلف به عن واجبات الرجل الأكثر؛ إلى غير ذلك مما ليس هذا موضع بحثه.

وفي الشهادة التي تتم برجلين يشترط رجلاً وامرأتين إن لم يتوافر أحدُ الرجلين، أو أربع نساء إذا لم يتوافر الرّجلان، لما يغلب على المرأة من الرقة والعاطفة والتأثر بالانفعالات النفسية، ولعدم الدقة في التشخيص في كثيرٍ من الأحيان، فكانت المرأة تضاف إلى المرأة للتذكير حيناً، ولضبط الشهادة في الحقوق حيناً آخر، وتضاف المرأتان للمرأتين للحاظ نفسه عادة. «ولا يثبت الهلال بشهادة النساء إلا إذا حصل اليقين

---

(١) الأمم المتحدة/ الاعلان العالمي لحقوق الإنسان/ المادة الثانية.

(٢) سورة النساء: الآية، ١١.

به من شهادتهن»[1] أما في الإشهاد على الطلاق المشترط بحضور رجلين عدلين يسمعان الانشاء «فلا اعتبار بشهادة النساء وسماعهن لا منفردات ولا منضمّات إلى الرجال»[2].

وهذه نصوص، ولا اجتهاد مقابل النص.

وفي العمل ينهض الرجل بأعباء الأعمال التي تناسبه وتصلح له، وقد لا يناسب عملٌ ما المرأة كما هي الحال في مناجم استخراج الفحم والذهب، ومجاري النفايات، وحمل الصخور، وإلا فلها ما لها، ولها عملها، ولها تجارتها في الإسلام، شريطة أن لا يؤثر ذلك بحقوق الزوجية للمتزوجة ولا يدعو إلى الإباحة، واقتراف المحرمات مطلقاً.

وفي الاختلاط، قد يكون هناك اختلاط مشروع تدعو له متطلبات الحياة العامة، كما هو الشأن في أداء المراسيم الدينية، أو مقتضيات الشؤون الأخرى كما هو الشأن في الدراسة، وأداء الامتحانات، وتسجيل العقود، وانفاذ البيع، وسوى ذلك، دون أن يكون هناك ما يثير الشهوة أو يدعو إلى الريبة.

وهناك الاختلاط الشائع في أوروبا في المسابح والملاهي والمؤسسات اللاأخلاقية والمراقص وحتى الجامعات، والذي غزا أغلب الدول العربية والإسلامية، فهو نوع من الإشاعة للمرأة بما للإشاعة من معنى دقيق، وصنف من أصناف الإباحة المنظّمة التي تتجه من الأدنى إلى الأعلى تدريجياً حتى ينتهي كل شيء، وهذا مما لا تسيغه الشرائع السماوية كافة، ويحرِّمُهُ القرآن بخاصة بموارد كثيرة أبرزها: مجريات

---

(١) السيستاني/ المسائل المنتخبة/ ١٩٩.

(٢) السيستاني/ منهاج الصالحين/ المعاملات/ القسم الثاني/ ١٥٢.

النظر، وغض البصر، وتحريم الزينة إلا للأزواج، وحفظ الفروج، وضرب الخُمُر، وما إلى ذلك من فروض.

ولا نريد أن نتبع مبادىء الأمم المتحدة مادةً مادةً، ففيها الصالح وفيها المرفوض، إلا أن الواقع الذي يسخِّر كل هذا ـ دون مجاملة أو رياء ـ هو القوة العظمى التي تدير الأمم المتحدة، حتى عاد ما يصدر عنها عبارة عن محاور استعمارية بغطاء إنساني، ولم تستطع في لحظةٍ زمنية معينة أن تتحرر من قبضة الاستعمار العالمي بأساليبه المتعددة، ضمن ألف شعار وشعار، وفي ظلٍّ أقنعة مزيفة تكشف عما تحتها من زيغ وانحراف، وإلا فالجرائم التي تخترق كل حدود الإنسانية في العالم، تقترف على مسمع ومشهد من الأمم المتحدة ومجلس الأمن:

فأينَ تولّى «مَجْلس الأمن» يا تُرى ... وَمِنْبَرُهُ المَزْعُومُ والدول الكبرى
ويا «هيئةً» لم تُصلِح الحالَ لحْظَةً ... ولا استصْرَخَتْ نُبلَ الضمائر والطُهَرا
أتبقى ملايين النفوسِ شريدةً ... وما ارتكبَتْ ذنباً، ولا اقترفت وزرا[1]

ومن الطريف بالذكر أن يجتمع في القاهرة وزراء خارجية الدول العربية والإسلامية ـ في ضوء الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ـ قبل سنوات قريبة، ليقرروا سبعةً وعشرين مبدأً لحقوق الإنسان، ولكن الدول نفسها بالاجماع، قد انتهكت هذه الحقوق، ولم يعمل أغلبها بأغلبها، وهي مقرراتٌ حكومية لا تعمل بها الحكومات المقررة لها.

لهذا نذهب بكل إصرار وموضوعية أن ما طرحه الإمام زين العابدين عليه السلام على الصعيد الإنساني، وما برمجه للساحة الدولية

---

(١) من قصيدة للمؤلف في تكريم الثورة الفلسطينية ألقاها في المؤتمر العالمي الذي انعقد ببغداد في قاعة الخلد في ٥/١/١٩٦٩ م بمناسبة تأسيس حركة فتح.

كفيل وحده بالمبادىء العامة لحقوق الإنسان في «رسالة الحقوق» وكفيلٌ أيضاً بالقضاء على الافرازات المتخلفة في التمييز العرقي أو الطائفي أو العقائدي أو السياسي أو الاجتماعي أو التربوي أو الأخلاقي، وهو أمينٌ حقاً على الحفاظ للموروث الحضاري المتشتت بيد الأهواء والدول والمنظمة من الضياع والاضمحلال، وذلك أن الاهتزاز الوجداني لدى شعوب الأرض بعامة يكاد يكفر بالمعطيات المعاصرة لمنظمات حقوق الإنسان باعتبارها حبراً على ورق، فهي بيت من ثلج، أو بناء من تبن، سرعان ما تعصف به هوج الرياح لتذروه هباءً في الفضاء الرحيب، فهو لم يصدر من جهات محايدة، وهو لم ينظر له من قبل منظّرين مستقلين عن العواطف والميول المتأرجحة وإن كان هناك حيادٌ واستقلالٌ فهو مشوبٌ بالضغط والاكراه على الاقرار بالأمر الواقع، وسياسة الأمر الواقع شهيرة في أروقة الأمم المتحدة، لأنها لا تنظر إلى الشعوب والأمم بقدر نظرها إلى مصالحها الخاصة، لهذا كان ما يصدر عنها مزيجاً مزدوجاً من عقليات شتى لا تربطها أواصر من مصلحة عليا، ولا تحدوها دوافع بشرية متماسكة، وإنما جاءت عبر اقتراحات محددة، تنبع من رافد استعلائي فوقي، وتصبّ في بحر من المتناقضات الفكرية والفئوية المتأقلمة بطابع من الجمود حيناً، وبحافز من التحرر من الأعراف الإنسانية حيناً آخر، حتى عادت رداءً فضفاضاً من الادعاءات الفارغة التي لا تمتّ إلى الإنسانية بصلة، وهذا مما يؤسف له حقاً، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.



«نتائج البحث»

بعد هذه الرحلة المباركة في رحاب سيدنا ومولانا الإمام زين العابدين عليه السلام يمكننا بكثير من الاختصار أن نوجز بعض ما توصلنا إليه من نتائج:

الفصل الأول: وهو بعنوان «قيادة الإمام وتحديات العصر» وقد انتظم في ثمانية بحوث:

١ ـ البداية الصعبة: استقبلنا في حياة الإمام في ظل مصارع: جده وعمِّه، وأبيه وإخوته وبني عمومته في طف كربلاء، مما كان له من الأسى في نفسه لا تعبِّر عنه الكلمات، واستعرضنا الهزَّات السياسية، والأزمات الاجتماعية في بداية الصراع بين الأمويين ومعارضي سلطانهم، وشاهدنا الإمام في موقع رقابة صارمة، استطاع أن يتجاوزها ويستثمرها في نشاط علمي أصيل، ووعي سياسي رافض، فبدا «قائداً» في صميم الأحداث، وتسامى «داعية» بكل ما للكلمة من معنى شامل، وانتهى «إنساناً» يشرع مبادىء حقوق الإنسان، حتى استقطب فصائل الأمة بما لم يبلغ شَأوه الحاكمون.

٢ ـ **المسيرة القيادية**: لمسنا فيه الإمام وهو يصلح الواقع المعاصر له ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، من خلال سيرته الفذّة وسلوكه المتّزن، ومن حيث أدعيته ووصاياه وحكمه السائرة، ولدى تصويره لحياة الصالحين ردّاً على استئثار الحاكمين، وعن كشفه عن كنوز القرآن، وعرضه لمبادىء الإسلام، والعودة بالشعائر إلى جوهرها الأصيل.

شاهدنا فيه الإمام عابداً من طراز جديد، وساجداً في حقيقة سرمدية، وذائباً في ذات الله، ومشاطراً للفقراء بماله وحلاله، ومتصدّقاً بالليل والنهار سرّاً وعلانية، وحاملاً للجياع المؤن والألطاف، وحريصاً على إغاثة الملهوفين مالاً وجاهاً وتعاوناً.

والتهبت ظهور المسلمين بسياط السلطة الجائرة، فاستنّ رؤى الرحمة والرفق بالإنسان، وتعالت أصوات الطغاة بالغضب والانتقام، فأسس منهج العفو الفردي والجماعي.

٣ ـ **روح النضال بمنظور جديد**: وجدنا الإمام فيه يتبنّى فلسفة ثورة كربلاء المقدسة بمنظور جديد، أذكى به روح النضال، وألقح شرارة الثورة بنشر مفاهيم الحسين عليه السلام، ولم يخلد للراحة، ولا كانت الإمامة نهايةً لمتاعبه، فأيقظَ الأمة من السبات العميق.

وتتابعت في ظل خطبه الريادية أحداث مؤثرة في الإصلاح الاجتماعي، وهو بعدُ أنموذجٌ في التقوى، يحذّر من اليأس، ويستلهم روح الله، ويبتعد عن الترف الباذخ والجاه الزائف، وقد أبقى على من معه من المناضلين حفظاً لهم، فلم يقد حركة منظّمة، والأشباح المرعبة للارهاب الدموي تلوح في الأفق، ولا استعجل الأحداث بحرب لا

طائل معها، بل حمل الناس على مبادىء ثورة الحسين عليه السلام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وطلب الاصلاح في أمة جدّه محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فاتخذ قراره في ضوء ما تمليه عليه المصلحة العليا، فأنعش الحركة العلمية، وأسس مدرسة لتفسير القرآن، وشقّ الحديث الشريف طريقه إلى القلوب والأذهان، ولم ينخدع بالانفعال الطائش الذي يقوم على الاندفاع الموقّت، وكما تستأثر الحياة الثورية بتغيير الواقع السياسي، فقد تستأثر الحياة الرسالية بتغيير الواقع الاجتماعي، وكان هذا منهج الإمام في نضاله القائد للانفجار الجماعي الداعي إلى الاندماج في روح الرسالة.

٤ ـ **في مجابهة تحدّيات العصر**: سلّط الإمام الضوء على المجتمع القرشي الارستقراطي في حياة العبث والمجون والترف، فرأى الانحراف المنظّم يقوده الرأس الأعلى في الدولة، وإذا بأبناء المهاجرين والأنصار صرعى هذا الجو المحموم، وبدأ الخطر الاباحي يغزو الحضيرة البدوية المحافظة، فضلاً عن المدينة المتحضرة، فتطوّرت معالم الغناء والطرب إلى جنب المساجد والجوامع، وانتشرت ظواهر الفسق والفجور بمسمع من المحافظين ومرأى، وانتهبت واردات الدولة في إسراف فظيع، وافترشت المولّدات من فتيات الروم والفُرس والديلم، واستغلّ الفقهاء الرسميون لذلك النصوص الشرعية فأولوها بغير وجهها المشرق. هذه جملة من مظاهر العصر وظواهره الشاذة، وكان لا بد للإمام وهو في موقع القيادة أن يواجه هذه التحديات، فأرسل عليها سيلاً من الاستنكار الإيجابي في دعائه ودعواته، فحاسب نفسه وأراد الناس، وجرّد من ذاته مثالاً بارزاً للمجتمع الإسلامي،

فكانت صيغة الجمع ظاهرة في التخاطب والشكوى والدعاء، مصحراً في اتباع السُنن، ومجانبة البدع، وانتقاص الباطل، عاطفاً على الناس في أيامها وآناتها، فاستنزل سلامتها بتوفيقها إلى العمل الصالح، وحملها على التوجه الصادق، ودعوتها لجلائل الأعمال، بما استوعب به حياة المسلم ليكون ذلك رادعاً ووازعاً، كل ذلك في مفرداته المتألقة تجده ثورةً مضادةً لمناخ اللاوعي المنحرف عن الرسالة، حتى استرد العالم الإسلامي أنفاسه بفضل هذا الشعاع الهادي.

٥ ـ الآثار الاجتماعية لحياة العبث والاسراف: وقد عالجنا فيه المظاهر السلبية التي سخّرها الحكم الأموي للإبقاء على الملذّات المحرمة، والمجون الفاحش، والغزل البذيء، مما شعر معه شباب الحجاز ونجد بالفراغ القاتل في ظلِّ الدولة التي شيدها آباؤهم بدمائهم ونضالهم، والقوم أبناء القوم، وإذا بالهاشمي في صومعته، والتيمي في مزرعته، والعدوي في وحدته، وحتى أبناء عثمان في ذلة وهوان، وشباب المهاجرين في عزلة وامتهان، فانحرف الجيل عن الإسلام، وازدادت الأحوال سوءً.

فإذا استقبلت العراق في البصرة والكوفة، لمست الأحقاد والفتن قائمة على قدم وساق في البصرة، ولحظت الفقر والجوع والحرمان والقتل الجماعي يستقطب الكوفة، جاء ذلك نتيجة انتقال بيت المال إلى الشام، وكون الكوفة علوية الهوى في المبدأ العام، وهما عاملان طبيعيان لهذا الحرمان وذلك الارهاب.

ولقد مرّت الأحداث متلاحقة على الحجاز والعراق منذ معركة الجمل مروراً بثورة الإمام الحسين واستقراء حتى سقوط الدولة الأموية،

والإمام في كل هذا المناخ الرهيب ما بين سيف غاشم لا يرعى إلاً ولا ذمة، وبين حاكم مستبد لا يخشى حرمة لأيٍّ إنسان، فاتجه الإمام إلى الله في تغيير الأوضاع، وكان لهذا المنهج برنامجه الخاص عند الإمام بما سردت تفصيلاته في حنايا البحث.

وكانت طبيعة الحكم تستدعي شراء الذمم والضمائر، فكان الكسب غير المشروع، فعلّم الإمامُ الأمة أن الكفاية بيد الله لا بيد الحاكمين.

٦ ـ **ظاهرة العصبية القبلية**: ولم يكن الحكم الأموي إسلامياً، ولم يكن أيضاً عربياً، بل كان حكماً بدوياً يستمدُّ من الجاهلية الأولى جميع أعرافه، فأثار الأحقاد والضغائن، وشجّع على العصبية، فنشأت الانشقاقات الفتّاكة في الكيان العام تنخر في قلب الأمة، وتصير أدمغتها إلى طبول فارغة جوفاء، فتلكأت المسيرة التي أرادها محمد ﷺ في رسالته، وتشكّلت الأحزاب وقامت الفئات التي انحرفت عن الإسلام، فكان التعصب المقيت ناظراً لقبيلة ما على حساب قبيلة أخرى، واستغل الحكم هذا الوضع المتدهور بعد أن خطط لأحداثه جيِّداً، فسخّر مناخ النقائض في الشعر الأموي لإشغال الناس عن واقع الحكم وجرائره، بهذا الهراء المستطير، حتى عاد الشعب المسلم يخدع نفسه بنفسه باللهاث والجري وراء هذه الظواهر. بتكتلاتها المتعددة، وقد أصبحت بحراً هائجاً متلاطم الأمواج، يبتلع من اقتحمه، ولا يسلم منه من ركبه، فقابل الإمام كل ذلك بصبر وأناة وحكمة باستدراج الأحاسيس، والتوجه المثالي، والسخرية بالعرق الأزرق، فكان ذلك منقذاً للأمة من الضياع والانحلال حتى اعتبر الإمام مؤسس النضال غير المباشر.

٧ ـ **عصر الثورات**: ولقد ألهبت ثورة الطف مشاعر النضال، فأردفها الصراع الثوري المرير بمجموعة متلاحقة من الانتفاضات الدامية، وهي تنخر في جسم الحكم الأموي حتى انهار، وكانت البداية متابعة ثورة كربلاء بثورة المدينة، والكوفة، والتوابين، والمختار، وابن الزبير، وابن الأشعث وابن المغيرة، وكانت القبضة السياسية الحديدية لا تسمح للإمام بأيٍّ نوع من النشاط، فعمد إلى التثقيف الجماعي والفردي، ولم يتبنَ أية ثورة أو حركة، ولم يظهر تأييد أيّ منها، فهو ينحسر عن مدّ دعامته مصلحة الإسلام وقيادته الشرعية طبق ما تفرضه عليه مكانته من الولاية الإلهية، فعمد إلى ترصّد الأحداث، وهي تستغل ثورة الحسين أحياناً، أو تنتقم للحسين من قتلته الفعليين، أو تقاتل نظام الحكم المسؤول عن قتل الحسين، يأنس لها حيناً، ويرقبها حيناً، حتى تفجر الوضع فيما بعد بثورة ولد الشهيد زيد بن علي.

٨ ـ **عصر الطواغيت**: في أطناب الأفق الدموي الرحيب، وفي سياسة قمع الثورات بسفك الدماء وصد الغضب الشعبي، وفي مشاهد انزال أقسى العقوبات بعوائل وأبناء الثائرين، فتح الإمام عينيه على عصر حافل بطواغيت الأمة وشياطين الحكم، ابتداءً بمعاوية بن أبي سفيان وانتهاءً بالوليد بن عبد الملك الذي استشهد سميماً على يديه، وشاهد من ولاة الجور وممثلي الحكم ما امتلأ به الوفاض، وفاض به الوطاب، ممن جعلوا إمامهم معاوية حيناً، ويزيد حيناً آخر، وشاهد حياة التنكيل بشيعة جدِّه أمير المؤمنين تشريداً وتقتيلاً ونفياً وتغريباً ومصادرة أموال، وهدم بيوت، واعتقال حرائر، ونظر إلى أصحاب جدّه وعمه وأبيه في أقسى ظروف القمع والتصفية، الإمام ـ إذاً ـ لاحظ كل فصول المأساة

الدموية والهمجية التي خطط لها الحكم الأموي في ظل طواغيته وجبابرته مما يطول معه الشرح، وقد صور البحث كل افرازات هذه الظواهر اللاإنسانية بنماذج من جرائرها وجرائمها حيال الإمام في وعيه الرسالي وعبادته الخالصة، فكان أن شرق بغصته، وصمد في صبره، وأنكر ما استطاع النكير.

وكان الفصل الثاني بعنوان «الإمام الداعية»، وقد انتظم في أربعة عشر بحثاً:

١ ـ **الوعي الرسالي**: عرض فيه البحث إلى تطلُّعات الإمام الرسالية بما يعتبر وعياً متكاملاً في أرجاء ومساحة القضية التي نذر لها حياته، فالإمام بطبيعة موسوعيته المحيطة بأسرار الرسالة إحاطة شاملة، لم يتعامل مع الإسلام في فهم تقليدي معزول عن التحرك الهادف، وإنما غاص في أعماقه لاستخراج كنوزه، وكان ذلك نتيجة معاكسة للضغط اللامعقول في عصر الطواغيت، إذ عُرِّضت المسيرة الإسلامية للنكسات، وكمنت روح الإسلام في بعض الضمائر، واغرورق الغالبية في سكرة اللاوعي، فاستقطب الإمام الحضور الماثل المستديم لدى غياب الوعي الديني، وتغافل عن الحيف الفردي، فأعاد الثقة للنفوس بعد الهزيمة، وذكّر الأبناء بأصالة الآباء، وحدب على وحدة المسلمين حذر التشتت، وعلى عزتهم خوف الفرقة والضياع، فالتزم الأصحاب والتابعين وتابعيهم بما سدّ به الثغرة على الرعاع، وكان حديثنا موضوعياً، بعيداً عن مبالغة الرواة، وعنت الكتّاب، ومساومة التاريخ.

٢ ـ **القيادة الرائدة ومعالم التوحيد**: وكان العهد قريباً من الجاهلية، وركّز الثوابت الأولى في العقيدة، وكانت صرخات الإمام

تتجاوب أصداؤها في الآفاق، وهي تهدم الصنمية الجديدة المتمثِّلة بالحكّام والأشخاص، والصنمية القديمة المتوغلة في عبادة الأوثان، وعمد إلى الحديث المنظّم عن ذات الله القدسية، وآلائه، ونعمائه، وخلقه، وعلمه، وقدرته، بمعزلٍ عن شوائب الأوهام العالقة في الأذهان، عاضداً بذلك جمهرة التدبير الإلهي في شتى مجالاته، مستدلاً على التوحيد الخالص في أرقى مراتبه، مستعرضاً رزق الإنسان، وحياته، وتوفيقه، وتقدير الباري في إكرامه، ليصف الله في قدراته حق صفته، ويضيف لها الالتجاء إلى الله، والاعتصام به، والاعتداد به ليس غير.

٣ ـ **العودة إلى الجذور الأولى**: وحشد الإمام الطاقات الفاعلة في الاتجاه الصحيح بالعودة بالجماعة المسلمة إلى الجذور الأولى في التوحيد المنزّه عما لا يليق استدراكاً لما وقعت به النفوس من التمزُّق الداخلي والاهتزاز العقائدي، ناظراً بذلك إلى دساتير الكون في معطياتها التوحيدية احترازاً من الشرك الخفي الذي أراده الحاكمون، فبالله وحده تُستنزل الأرزاق، وتتحقق الإشاءة، وتنحلّ الأزمات، مستشهداً على ذلك بآلاء الله الكونية في عملية احصائية في حدود لا مثيل لها، تقتلع جذور الوثنية البديلة، وتحطِّم الصنمية الجديدة في ضوء تفصيل دقيق شمله دعاء أبي حمزة الثمالي، وعاودته الصحيفة السجادية، وختم ذلك بالتأكيد على صفات الذات حيناً، وصفات الأفعال حيناً آخر، ليستدل على عجز الإنسان عن تدبير ذاته فضلاً عن أن يُؤلّه.

٤ ـ **محمد في رسالته الإسلامية**: وكان الطريق إليها الحديث عن

النبوة وقد ختمت بمحمد ﷺ، وهو يضحي بالمال والأهل والعلاقات الأسرية المتشابكة، حتى صدّ عنه الأقرب، واحتضن الأبعد في ذات الله، مما يعني المعاناة في التبليغ، والنصح للأمة، وقد هجر أرضه والبيت الحرام، وابتعد عن قومه وعشيرته، واتخذ المدينة عاصمة لدولته الفتية، ومن هناك أصلتْ دوره القيادي في رفع لواء الإسلام، فخاض المعارك والحروب والمغازي حتى عادت كلمة الله هي العليا، وكلمة أعدائه هي السفلى، وساق الإمام ضمن هذا الحديث الطريق الدعاء الخالص له بالصلاة عليه وعلى آله، وفلسفة هذه الصلاة بهذا التركيز والتكرار: الاطناب المتعمد في نوعيتها وقبولها وعطائها وإحاطتها تأكيداً على صيغتها وكيفيتها.

٥ ـ **مرجعية أهل البيت**: والحديث عنها منطلق عند الإمام في إرادة الولاية التكوينية للمعصومين عليهم السلام باعتبارهم ولاة الأمر وقادة الأمّة، وأن هذه الولاية لا اختيار فيها للبشر، فالإمامة امتداد للنبوة، وأهل البيت امتداد لمحمد ﷺ، وحديث الاستخلاف للكتاب والعترة ينصّ على هذا التكليف، وأدلة الإمام في هذا السياق تشير إلى الاختيار الإلهي، والجعل التكويني من جهة، ومن جهة أخرى تؤكّد على المهمّات القيادية التي اضطلع بها الأئمة عليهم السلام، فهم الأمناء والمستحفظون، وهم المحيطون بالتشريع، وهم خلفاء الله في الأرض، وهم حجج الله على العباد، وهم المطهّرون من الرجس تطهيراً، مستدلاً به على العصمة المطلقة، حتى عادوا وسيلة إلى الله، ودعا لهم بالعطاء الجزل يوم القيامة جزاء ما بذلوه، وبالمنازل الرفيعة ثواباً لما قدّموه، وفي هذا اللحاظ أكّد الإمام على الحقائق الآتية:

أ ـ أن الله عز وجل قد أيّد دينه بكل زمان بإمام مفترض الطاعة.

ب ـ أن هذا الإمام المفترض الطاعة مظنّة معهودة بالرحمة والبركة. وفي الملحظ القيادي لهذا المنصب الإلهي أكد الإمام على الآتي:

أ ـ أن انتصار الإمام ـ عاجلاً أو آجلاً ـ انتصارٌ لدنيٍّ من الله تعالى.

ب ـ أن العناية الإلهية تقتضي إقامة حدود الله حتى الحجَّة المنتظر عجَّل الله فرجه الشريف.

د ـ أن احياء معالم الدين، وإظهار مكنونات تعليماته ستكون على يديه ليظهره على الدين كله.

وساق الإمام في ختام استدلاله نصاً ينهض بإيجاد دلالة إيحائية قاطعة على القول بمفهوم الإمامة عندنا، يعضده باحتجاج هادف في قصره مراسم صلاة الجمعة عليهم مظهراً من مظاهر القيادة، يضاف إليها الفطر والأضحى، بعد أن اعتدى الخلفاء الرسميون على هذا المقام الخاص.

٦ ـ **المعاد في يوم القيامة**: وبه يختتم الإمام الحديث عن أصول الدين بعد أن أشار إلى العدل في التوحيد، وبهذا يكون الإمام معنياً بهذا التوجُّه إلى التأكيد على أصول الدين تأكيداً مبرّحاً، وهنا يولي الإمام يوم القيامة أهمية خاصة، فهو يخالج نفسه، ويمتزج بروحه، فيؤكد على ورثة الفردوس، وخوف الوعيد، وذكر الموت وحالاته، وانتزاع الرحمة بالقرآن، ويستنزل الغفران بصحة الإيمان، والعودة بالوعي الغيبي لذهن

الناس، ويعرض لساعات الحشر، بإدلاء الحجة، وتلجلج اللسان، مقارناً بين المؤمن وهو يبشر بدار السلام وبين من يستقبل العذاب والخزي من أهل النار، متمثّلاً كل ذلك بتصوير القرآن، وهو يحذّر من يوم القيامة، ويدعو إلى الاعداد له، ويربط بين حقيقة الطاعة وحقيقة الولاية، ويستصرخ العباد أن يلتزموا الصلاح، ويبتعدوا عن اتّباع الجبّارين.

٧ ـ **الدعاء على الظالمين**: السياط تلهب الظهور، والسجون تمتلىء بالوافدين، والسلطان يكرع بالدماء، حتى لقد سُملت العيون، وطاحت الرؤوس، وقُطعت الأيدي، والإمام يشاهد هذا كله، وفوق هذا كله، ولا ملجأ إلاّ الدعاء النابع من القلب، فيتضرّع إلى الله بأخذ الظالم أخذ عزيز مقتدر، تعبيراً عن مدى الظلم والاعتساف الذي لحق بالناس، وهو يطلب الانتصاف في الدنيا، والانتقام في الآخرة، والله محيطٌ بدقائق الأحداث، والقادر على اشغال الظالم بنفسه، والله الغنيُّ الذي يعوّض المظلوم بالعفو عنه، مما يعني ضرورة اعتصام العبد بربه، والأمر بيد الله إن شاء انتصر لعبده عاجلاً، وإن شاء ادخر نصره له آجلاً، فانتقم من الظالمين.

٨ ـ **الاستقالة من الذنوب**: وهي تنطلق من هاجس ذاتي متبلور بداعي الرجاء والخوف والأمل، وجادّته الالتجاء إلى الله وحده، في جهاد النفس ومغالبة الهوى. والاستغاثة بالله كفيلة بإحلال الأمن بعد الفزع، وبتبديد الخوف المرعب المواكب لاقتراف الأوزار، وقد وضع الإمام لهذا العرض مخططاً ناجحاً يستوعب وجوه هذا الاتجاه، فيجرِّد من نفسه عبداً قد أوقرت الخطايا ظهره، وأفنت الذنوب عمره، وما

ذلك من ذنب أو خطيئة فهو منزه عن ذلك، ولكنه الانشداد الكلي لذات الله لنقتدي نحن بذلك، ونكون فيه أسوة، فهو من قبيل: إياك أعني واسمعي يا جارة؛ والإمام يستدرج في هذا المنحنى خطوات كبيرة من الدعاء الممتزج بالخضوع والحضور الدائم في رؤية نافذة يستدعي تهذيب السلوك، وإفاقة النفس، وتراكم الاحساس.

٩ ـ **مكارم الأخلاق**: وهي فلسفة جادّة عند الإمام، تعنى بارتفاع الإنسان بمداركه إلى النموذج الأرقى في إطار تكويني متطوّر، يوحي بالانصياع التام لما هو محبوب عند الله: الصفاء، الاخاء، الحب المتبادل، الكلمة الطيبة، التضحية الخالصة، اليقين الثابت، سكون النفس، رشد الفكر، اغتباط الضمير، تجنُّب مزالق الشيطان، الابتعاد عن موارد الغضب، الاحتراس من الهذر والغيبة، القرب من الروح الإلهي، البعد عن الكسل والخور والضجر، مواصلة العمل والجد، يضاف إلى ذلك: الحبُّ في ذات الله، والبغض في ذات الله، والصولة بالله لا بالباطل، والتضرُّع إليه لا للسلطان، والعون بالله، وشكر نعمه، والاعتراف بإحسانه، والاغراق بالثناء عليه، فإذا تواصل الإنسان كما أراد الإمام مع هذه اللقطات الأخلاقية الفذّة بلغ درجة التوهج الروحي المنشود، وتلك بالمقياس الديني أسمى مراتب الأخلاق.

١٠ ـ **البر بالوالدين**: مسحٌ ميداني للجذور الإنسانية الراسخة التي تربط الفرع بالأصل، والإمام معنيٌّ بأواصر العلاقات التي تعمّق هذا الرباط المقدس، متتبعاً لسدّ الثغرات الفاصلة بحلّ توفيقي يعود به إلى ينابيع الإيمان الأولى، ويخطو به نحو مصادر التشريع الإلهي، فتجد نفسك ولداً ووالداً أشد تأثراً أو التصاقاً بموضوعية الحديث المهيمن

على المشاعر والمدارك والعواطف. والإمام يهيىء النفوس أولاً في الدعاء للوالدين بأزكى الدعوات البارّة، كأن يلهم الولد علم ما يجب عليه إلهاماً، وأن يبرّهما برّ الأم الرؤوم بولدها، وأن يستقلّ الكثير من برّهما، وأن يستكثر الله منه هذا القليل، يخفض لهما الصوت، ويعطف عليهما القلب، ويصير بهما رفيقاً، ويتجاوز ذلك إلى شكر الله لهما على تربيته، وأن يثيبهما على تكرمته، وأن يحفظهما ما حفظاه منه في صغره، وإن تعدّيا عليه في قول أو عمل فيهب لهما ذلك، ويسأل الله أن يعينه على أداء حقّهما، ويدعو لهما في كلِّ الأوقات بالمغفرة والرحمة، تلك الدعوات الفارهة في خلالها، الوريفة في أغصانها، العطرة في نسائمها، يسيّرها الإمام عليه السلام بين يدي البرّ بالوالدين.

١١ ـ **حماية الثغور**: وأنى كان الحكمُ برّاً أو فاجراً، فمصلحة الإسلام فوق كل مصلحة، وأمن المسلمين ضرورة مفروضة، والمرابطون على الثغور هم الذين يحققون هذا المنظور رعايةً وحمايةً ودفاعاً، والإمام من خلال هذا التوجه يخصّ حماة الثغور بجزء كبير من دعائه المنظّم الذي يجمع إلى عمق المعنى دقة الاختيارات الواعية، فهو يراوح فيه بين التضرع التعبدي إلى جنب العمل العقائدي المتحفّز، وكأننا بين يدي خبير استراتيجي مجرّب، يدعو لتحصين الثغور، وتأييد حماتها، ليسبغ الله عليهم عطاياه، ويكثّر عدتهم، ويشحذ أسلحتهم، ويحرس حوزتهم، ويمنع حرمتهم، ويؤلّف بين جمعهم، ويدبّر أمرهم، ويوسّع في أرزاقهم، ويكفيهم مؤنهم، ويعضدهم بالنصر، ويؤيدهم بالصبر، ويلطف لهم في المكر.

هذه بدايات تنتهي بالدعاء على أعداء الإسلام من روم وترك

وخزر وحبش ونوبة وزنج وصقالبة وديالمة وسائر أمم الشرك، بأن يشغلهم عن المسلمين فيما بينهم، ويأخذهم بالنقص، ويثبّطهم بالفرقة، فلا أمن للقلوب، ولا قوة في الأبدان، فيوهن أركانهم ويُجَبِّنَهُمْ عن المقارعة، ويبعث عليهم جنداً من الملائكة، وأن يمزج ماءهم بالوباء، وطعامهم بالداء، وبلادهم بالخسوف، مما يعتبر في مراميه انتصاراً للإسلام، ويعقّب ذلك بالدعاء للمسلمين: بلقاء اليسر، واستقبال النصر، وتهيئة الأمر، ونجح المطلب، وهذا مما تجد تفصيله في البحث حتى إنك لتعجب لأبعاد عقلية متفتحة، فجّرت هذا الينبوع من الاستدراء لرحمات الحماية والنصر.

١٢ ـ القرآن العظيم: ويعطي الإمام القرآن حقّ قدره، فيبحث مواطن اعظامه واحترامه، ويؤشر سمة اعجازه وروحيته، ويتناول كونه نوراً وهدى، واعتباره شرعة ومنهاجاً، ألهم الله نبيه شرحه وتفصيله، وورّث أهل بيته علم تفسيره، فكانوا الحَمَلَة والدعاة وَعِدْلَ القرآن. ودعا إلى الاعتصام بحبله، والالتجاء إلى حرز معقله من المتشابهات، وأن يُجعل القرآن وسيلة كريمة إلى أشرف منازل الكرامة، وأن يحطط به ثقل الأوزار.

وفي لمح إشاري عظيم المضامين يريد الإمام تلاحم المناخ الداخلي للإنسان في إفاضات القرآن حتى يخرج المسلم بحصيلة كبرى من الأسرار والنفحات القرآنية الهادية.

١٣ ـ شهر رمضان: وهو شهر الله وكفى، وقد استوحى الإمام الحديث عنه من بركاته، فأولاه المحامد الفذّة، وخصَّه باستقصاء ساعاته صبحاً وظهراً وعصراً ومساءً وليلاً وسحراً وفجراً، وحدّد لكل

منها دعاءه الخاص به، تعظيماً لشعائر الله، وذكراً لأيامه الممتازة بالشرف والكرامة والفضيلة بما تكفَّل البحث ببيانه.

١٤ ـ **الكيان الملائكي**: وهو نوع عجيب من الادّكار بصيغة الدعاء، تناول فيه الإمام منزلة الملائكة بالبيان الساحر، وقوّم حياتهم السماوية في استقبال الأوامر الإلهية العليا وخصيصة التنفيذ الفوري، وسرعة الاطاعة المطلقة، وتعدد الواجبات في الأرض والسماء والفضاء والمياه والأجواء، وتراكم الطقوس المفروضة مقترنة بالامتثال والطاعة، ولا شيء لهم إلا التنفيذ بأمانة، والأمر كلُّه بيد الله ومن الله؛ ثم عني الإمام بشرح درجات منازلهم عند الله بحسب التفاوت في الصلاحيات، والتفاضل في المقامات، بما يعتبر حديثاً أصيلاً ومبتكراً لا عهد للمسلمين وللعالم به وحتى اليوم.

وكان الفصل الثالث بعنوان «الإمام الإنسان» وقد انتظم في عشرة بحوث:

١ ـ **ديباجة حقوق الإنسان عند الإمام**: وفيه تخطيط اجمالي لمحتويات «رسالة الحقوق» وقد صنفتها في ثمانية حقوق عامة، احتضن كل منها بحثاً خاصاً به، راعيتُ في ذلك الأصل الموضوعي، ووضعت المناسب منها إلى جنب المناسب، وعقّبت ذلك بنصّ تبويب الإمام لها، وتعديده إيَّاها، بما يعتبر ديباجة نموذجية متميزة، اتبع فيها الإمام سجيته الثاقبة، فجاءت متطابقة مع أحدث المعايير العالمية للمنهجية في التصنيف، والموضوعية في الأفكار، والإنسانية في اللمحات.

٢ ـ **حقوق النفس والجوارح**: وقد اشتملت على تسعة حقوق، رأيت فيها اتساعاً منهجياً لشمولها بعنوانها المحدد، وقد عرضت لكل

حق بالتحليل في ضوء القرآن الكريم، ومبادىء أهل البيت عليهم السلام.

٣ ـ **حقوق الأفعال**: وقد اشتملت على خمسة حقوق، يتفرغ الإنسان لأدائها فعلاً ضمن فروض الشَّريعة السَّمحاء، وقد شكّلت هذه الحقوق المناخ العبادي في أسمى عروضه الفاعلة.

٤ ـ **حقوق الدولة ونظام الحياة**: وقد اشتملت على سبعة حقوق، لمستُ فيها منهاجاً حيوياً لمبادىء الدولة، وسياسة التربية، وقانون الفرد والأمة، وحياة الأسرة السعيدة، في ظلِّ مندرجات ومعطيات التشريع الإسلامي المتوازن.

٥ ـ **حقوق الأرحام والولاء**: وقد اشتملت على ستة حقوق، عرضت لألصق المقوِّمات الاجتماعية روحياً ونفسياً وأسرياً بما لم يسبق إليه الإمام تخطيطاً وتنظيماً، تُنظم به صلات الإنسان، وتبرمج في ضوئه العلاقات الرحمية الحميمة، وتستوعب الارهاصات المتوقعة لبناء مجتمع يشعر بالسعادة والمحبَّة والتضامن.

٦ ـ **الحقوق الاجتماعية**: وقد اشتملت على ستة حقوق، تهدف إلى ترويض الناس على إدراك واجبات شريحة مثالية من الناهضين بأداء الأمانة، وتبليغ الرسالة، وتوفير المودّة، وتعظيم الشعائر، والعمل على اعطاء كل ذي حق حقه من الوفاء والاستجابة والعرفان والاذن الواعية والاحترام الرفيع، والاحسان والمجازاة لكل من أولئك في تصنيفهم بحسب مراتبهم التي وضعها الإمام.

٧ ـ **الحقوق المالية والقضائية**: وقد اشتملت على ستة حقوق تنمّي المال، وتبارك الرزق، وتعنى بالإعانة، وتدعو إلى الاستثمار،

وتحفظ العدالة بين المتخاصمين، وتوفّر المروءة في الادعاء، وتساوي في القضاء أمام القانون بين: المدّعي والمُدَّعى عليه.

٨ ـ **الحقوق الاصلاحية المشتركة**: وقد اشتملت على ستة حقوق، يتعهد تطبيقها والاصغاء إليها، بتحقيق المجالات الحيوية للإصلاح المتبادل بين فصائل الأمة، وقد وضعها الإمام متقابلة في التنظيم والموقع، فلكل ما لَهُ، وما عليه.

٩ ـ **الحقوق الأخلاقية الاستراتيجية**: وقد اشتملت على ستة حقوق، تهدف إلى إشاعة الحب والبهجة، واتاحة المودّة والسعادة، واستجلاء الحياة الإنسانية المثلى، واستكناه التراحم الحرّ، وهي بموقعها الاستراتيجي المتقابل توفر خصائص الاستباق في الخيرات، وتهييء حقل التفاهم في الانصاف والانتصاف بما أطلنا الوقوف في ساحته الرحيبة.

١٠ ـ **مبادىء الإمام والاعلان العالمي لحقوق الإنسان**: وفي ضوء معطيات «رسالة الحقوق» للإمام عليه السلام، عقدنا مقارنة كلية بين ما طرحه الإمام فيما سبق، وبين ما توصَّل إليه ممثلو شعوب الأرض وأممها، وأبنّا الفروق المميزة لكل منهما، فمبادىء الإمام تنبثق من مستوى عقائدي ذي بعد إلهي، ولائحة حقوق الإنسان تنطلق من شعور بالحاجة إلى ما ينظم حياة الإنسان بعد اصطدامه بمنغّصات الحكّام والظالمين، بيد أن المشاركين بوضع لائحة حقوق الإنسان وميثاق الأمم المتحدة، والنظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية هم أنفسهم الذين تولوا تسفيه الحياة الإنسانية، فهم شركاء أئمة الجور بنزعات الطغيان والإرهاب والاضطهاد الإنساني، بينما يسبق الإمام بعفوية حالمة تبعاً

لمبادىء القرآن ببناء حياة الأمم والشعوب من منطلق الإرادة الإلهية لا في محتوى القوانين الوضعية، فضلاً على أن مبادىء الأمم المتحدة ـ وقد جاءت متأخرة ـ يعوزها التنفيذ الجماعي لا الفردي، وذلك متعسر لظروفه المتفاوتة شرقاً وغرباً، ودول عالم ثالث متخلف، بينما تطرح حقوق الإنسان عند الإمام مسؤولية ذلك للأفراد ـ مضافاً إلى الجماعات ـ بمختلف مراتبهم وآمالهم وكفاياتهم ومناصبهم، ليقف كل فرد عند مسؤوليته، وإذا اتسعت مسؤولية الفرد لذاته، اتسعت مسؤوليته لمجتمعه، يضاف إلى ذلك صدق النية وقوة العزيمة، والمنظور الحقيقي لا المثالي الذي يصبح تعليمات في رفّ من الترف السياسي، ينقل بعد ذلك إلى متحف من متاحف الآثار ليجد له مكاناً مناسباً بين الرفوف.

هذه ـ بإيجاز كبير ـ بعض نتائج البحث، ومصادر قوته القيادية والدعائية والإنسانية في ظل تطلعات الإمام زين العابدين عليه السلام، ذلك الإمام العظيم: القائد، الداعية، الإنسان.

أسأل الله في ختام الكتاب أن ينتفع به الناس وأنتفع، ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٍ سَلِيمٍ﴾ وآخرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ لله ربِّ العَالمِين.

النجف الأشرف **محمد حسين علي الصغير**

المصادر والمراجع

١ ـ خيرُ ما نبدأ به: القرآن العظيم

٢ ـ ابن الأثير/ أبو السعادات/ المبارك بن محمد الجزري (ت ٦٠٦ هـ)
جامع الأصول إلى أحاديث الرسول
تصحيح: عبد المجيد سليم ومحمد حامد الفقي/ مطبعة السنة المحمدية/ القاهرة/ ١٩٤٩ م.

٣ ـ ابن الأثير/ أبو الفتح/ ضياء الدين/ نصر بن محمد الجزري (ت٦٣٧ هـ)
الكامل في التاريخ
مطبعة دار الكتب المصرية/ القاهرة/ ١٩٦٠ م.

٤ ـ الأربلي/ علي بن عيسى بن أبي الفتح (ت ٦٩٢ هـ)
كشف الغمّة في معرفة الأئمة
المطبعة الحيدرية/ النجف الأشرف/ ١٩٦٣ م.

٥ ـ الأصبهاني/ أبو الفرج/ علي بن الحسين (ت٣٥٦ هـ)
الأغاني/ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم
مطبعة دار الكتب المصرية/ القاهرة/ ١٩٦٨ م.

٦ ـ الأمم المتحدة:
الاعلان العالمي لحقوق الإنسان
طبع إدارة شؤون الاعلام/ نيويورك/ ١٩٨٦ م.
٧ ـ الأمم المتحدة:
حقوق الإنسان/ أسئلة وأجوبة
طبع الأمم المتحدة/ نيويورك/ ١٩٩٠ م.
٨ ـ الأمم المتحدة:
حقوق الإنسان/ الوثيقة الدولية لحقوق الإنسان.
طبع الأمم المتحدة/ نيويورك/ ١٩٩٥ م.
٩ ـ الأمم المتحدة:
المؤتمر العالمي لحقوق الإنسان/ برنامج عمل ڤيينا
طبع الأمم المتحدة/ نيويورك ١٩٩٥م.
١٠ ـ الأمم المتحدة:
ميثاق الأمم المتحدة والنظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية
طبع إدارة شؤون الاعلام بالأمم المتحدة/ نيويورك/ ١٩٩٧ م.
١١ ـ أحمد أمين (الدكتور)
ضحى الإسلام
مطبعة دار الترجمة والتأليف والنشر/ القاهرة/ ١٩٥٦ م.
١٢ ـ أحمد أمين الكاظمي (أستاذ في الرياضيات والفيزياء)
التكامل في الإسلام
مطبعة النعمان/ النجف الأشرف/ ١٣٩٠ هـ.

١٣ ـ باقر شريف القرشي (أستاذ في الحوزة العلمية في النجف الأشرف)
حياة الإمام زين العابدين (ع) دراسة وتحليل
دار الأضواء/ بيروت/ ١٩٩٨ م ـ ١٤٠٩ هـ.

١٤ ـ البلاذري/ أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩ هـ)
أنساب الأشراف
دار المعارف بمصر/ القاهرة/ ١٣٥٩ هـ.

١٥ ـ ابن الجوزي/ أبو الفرج/ جمال الدين بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ)
صفة الصفوة
مطبعة دار الوعي/ حلب/ ١٣٩٠ هـ.

١٦ ـ ابن أبي الحديد/ أبو حامد/ عز الدين/ عبد الحميد بن هبة الله المدائني (ت ٦٥٦ هـ)
شرح نهج البلاغة للإمام علي عليه السلام
دار احياء الكتب العربية/ القاهرة/ ١٩٥٩ م.

١٧ ـ الحرّ العاملي (ت ١١٠٤ هـ)/ محمد بن الحسن
وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة
دار احياء التراث/ بيروت/ د. ت.

١٨ ـ حسن السيد علي القبانجي (الخطيب)
شرح رسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليه السلام
مطبعة الآداب/ النجف الأشرف/ ١٩٦٤ م ـ ١٣٨٣ هـ.

١٩ ـ خافيير بيريز دي كوييار الإعلان العالمي لحقوق الإنسان طبع الأمم المتحفة/ نيويورك/ ١٩٩٥م.

٢٠ ـ الدميري/ كمال الدين/ محمد بن موسى (ت ٨٠٨ هـ)
حياة الحيوان الكبرى
مطبعة بولاق/ القاهرة/ د. ت.

٢١ ـ الذهبي/ شمس الدين/ محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ)
تذكرة الحفّاظ
منشورات المطبعة الحيدرية/ النجف الأشرف/ ١٣٨٣ هـ.

٢٢ ـ الذهبي/ نفسه فيما سبق
سير أعلام النبلاء
طبع مؤسسة الرسالة/ بيروت/ ١٤٠٦ هـ.

٢٣ ـ زين العابدين/ الإمام علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ت ٩٥ هـ)
رسالة الحقوق
ضمن كتاب الخصال/ للشيخ الصدوق
دار التعارف/ بيروت/ ١٣٨٩ هـ.

٢٤ ـ زين العابدين/ الإمام علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ت ٩٥)
الصحيفة السجادية
شرح وتحقيق: السيد محمد الشيرازي (المرجع الديني الراحل) «ت: ١٤٢٢هـ»
مطبعة الآداب/ النجف الأشرف/ ١٣٨٦ هـ

٢٥ ـ طبعة دار كرم/ دمشق/ د. ت

٢٦ ـ طبعة السيد محمد السيد كاظم القاضي المحققة/ بغداد.

٢٧ ـ ابن سعد/ أبو عبد الله/ محمد بن سعد بن منيع البصري (ت. ٢٣٠ هـ)
الطبقات الكبرى
دار صادر/ بيروت/ ١٣٨٨ هـ.
٢٨ ـ السيوطي/ أبو بكر/ جلال الدين بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ)
تاريخ الخلفاء
مطبعة السعادة/ القاهرة/ ١٩٥٠ م.
٢٩ ـ ابن شعبة/ أبو محمد/ الحسن بن علي الحرّاني (من أعلام القرن الرابع)
تحف العقول عن آل الرسول
تحقيق/ محمد صادق بحر العلوم/ المطبعة الحيدرية/ النجف الأشرف/ ١٣٨٠ هـ.
٣٠ ـ ابن الصبّاغ/ علي بن محمد المغربي المالكي (ت ٨٥٥ هـ)
الفصول المهمّة في معرفة الأئمة
منشورات المطبعة الحيدرية/ النجف الأشرف/ ١٣٨١ هـ.
٣١ ـ الصدوق/ أبو جعفر/ محمد علي بن الحسين بن بابويه (ت ٣٨٢ هـ)
كتاب الخصال
دار التعارف/ بيروت/ ١٣٨٩ هـ.
٣٢ ـ طه حسين (عميد الأدب العربي الراحل) (ت ١٩٧٣ م)
في الأدب الجاهلي
دار المعارف بمصر/ القاهرة/ ١٩٥٨ م.

٣٣ ـ الطبرسي/ أبو علي/ الفضل بن الحسن (ت ٥٤٨ هـ)
مجمع البيان في تفسير القرآن
مطبعة العرفان/ صيدا/ ١٣٣٣ هـ.

٣٤ ـ الطبري/ محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ)
تاريخ الأمم والملوك.
تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم القاهرة/ ١٩٦٧م

٣٥ ـ الطوسي/ أبو جعفر/ محمد بن الحسن (ت ٤٦٠ هـ)
التبيان في تفسير القرآن
تحقيق: أحمد حبيب القصير وأحمد شوقي الأمين/ المطبعة العلمية/ النجف الأشرف/ ١٩٥٧ م.

٣٦ ـ عباس محمد رضا القمي النجفي (ت ١٣٥٩ هـ)
مفاتيح الجنان
تعريب: محمد رضا النوري النجفي/ دار الجيل/ بيروت/ د.ت.

٣٧ ـ ابن عبد ربه/ أحمد بن محمد الأندلسي (ت ٣٢٧ هـ)
العقد الفريد
تحقيق: أحمد الزين وجماعته/ مطبعة دار الترجمة والتأليف والنشر/ القاهرة/ ١٩٦٧ م.

٣٨ ـ ابن عساكر/ أبو القاسم/ علي بن الحسين الشافعي الدمشقي (ت ٥٧٣ هـ)
تاريخ دمشق
تحقيق: محمد باقر المحمودي/ بيروت/ دار التعارف/ ١٩٧٠ م.

٣٩ ـ العسكري/ الإمام أبو محمد/ الحسن بن علي الهادي (ت ٢٦٠ هـ)
تفسير العسكري/ منسوب للإمام الحسن العسكري عليه السلام
تحقيق: مدرسة الإمام المهدي (عج)/ قم/ ١٤٠٩ هـ.

٤٠ ـ علي الحسيني السيستاني (المرجع الديني الأعلى)
المسائل المنتخبة
الطبعة الثالثة/ دار المؤرخ العربي/ بيروت/ ١٩٩٧ م.

٤١ ـ علي الحسيني السيستاني (المرجع الديني الأعلى)
منهاج الصالحين
المعاملات/ القسم الثاني/ الطبعة الأولى/ دار المؤرخ العربي/ بيروت/ ١٩٩٦ م.

٤٢ ـ ابن عَنَبَة/ محمد بن يوسف بن محمد القرشي الكنجي الشافعي (ت ٦٥٨ هـ)
كفاية الطالب في مناقب علي بن أبي طالب
المطبعة الحيدرية/ النجف الأشرف/ ١٣٩٠ هـ.

٤٣ ـ ابن كثير/ أبو الفداء/ إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ)
البداية والنهاية
مكتبة المعارف/ بيروت/ ١٩٦٦ م.

٤٤ ـ الكليني/ أبو جعفر/ يعقوب بن إسحاق الرازي البغدادي (ت ٣٢٨ هـ)
أصول الكافي
دار الكتب الإسلامية/ طهران/ ١٣٧٨ هـ.

٤٥ ـ الكليني/ أبو جعفر (نفسه فيما سبق):
الفروع من الكافي
تحقيق: علي أكبر الغفاري، نجم الدين الآملي/ المطبعة الإسلامية/ طهران/١٣٨٨ هـ.

٤٦ ـ المجلسي/ محمد باقر بن محمد تقي المجلسي (ت ١١١١ هـ)
بحار الأنوار/ المجلد ٤٦
تحقيق: محمد مهدي الخرسان دار الكتب الإسلامية/ طهران/ ١٣٨٦ هـ.

٤٧ ـ محسن الأمين الحسيني العاملي الشقرائي (ت ١٣٥٢ هـ)
أعيان الشيعة
مطبعة الانصاف/ دمشق/١٣٥٨ هـ.

٤٨ ـ محمد حسين علي الصغير (المؤلف)
الأمام الحسين/ عملاق الفكر الثوري
مؤسسة العارف للمطبوعات/ بيروت/ ٢٠٠٢م.

٤٩ ـ محمد حسين علي الصغير
الصورة الفنية في المثل القرآني/ دراسة نقدية وبلاغية
الطبعة الأولى/ شركة المطابع النموذجية/ وزارة الاعلام/ بغداد/ ١٩٨١ م الطبعة الثانية/ دار الهادي/ بيروت/ ١٩٩٢.

٥٠ ـ محمد حسين علي الصغير
الفكر الأمامي من النصّ حتى المرجعية
الطبعة الأولى/ دار المؤرخ العربي/ بيروت/ ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

٥١ ـ المسعـــودي/ علـــي بـــن الحسيـــن بـــن علـــي المسعـــودي البغدادي (ت ٣٤٦ هـ)
اثبات الوصية
المطبعة الحيدرية/ النجف الأشرف/ ١٣٨٢ هـ.

٥٢ ـ المسعودي(نفسه فيما سبق)
التنبيه والاشراف/ دار الكتب المصرية/ القاهرة د. ت.

٥٣ ـ المسعودي (نفسه فيما سبق)
مروج الذهب ومعادن الجوهر
دار الأندلس/ بيروت/ ١٩٦٥ م.

٥٤ ـ المفيد/ محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي (الشيخ المؤسس) (ت ٤١٣ هـ)
الارشاد
المطبعة الحيدرية/ النجف الأشرف/ ١٣٩٢ هـ.

٥٥ ـ المفيد/ (نفسه فيما سبق)
الأمالي
الحوزة العلمية/ قم/ ١٤٠٣ هـ.

٥٦ ـ أبو نعيم/ الحافظ: أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت ٤٣٠ هـ)
حلية الأولياء وطبقات الأصفياء
دار الفكر العربي/ بيروت/ ١٤٠٥ هـ.

٥٧ ـ النويري/ شهاب الدين/ أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣ هـ)
نهاية الأرب في فنون الأدب
نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية/ القاهرة/ د.ت.

٥٨ ـ ابن النديم/ أبو الفرج/ محمد بن إسحاق البغدادي (ت ٣٨٥ هـ)
الفهرست
نشر الأستاذ فلوجل/ ليبزج/ ١٨٧١ ـ ١٨٧٢ م.

٥٩ ـ هاشم معروف الحسني (السيد)
سيرة الأئمة الاثني عشر
الطبعة الثانية/ دار القلم/ بيروت/ ١٩٧٠ م.

٦٠ ـ اليعقوبي/ أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر (ت ٢٥٤ هـ)
تاريخ اليعقوبي
النجف الأشرف/ المطبعة الحيدرية/ ١٣٨٤ هـ.

٦١ ـ يوسف خليف (الدكتور) رئيس قسم اللغة العربية وآدابها/ كلية الآداب جامعة القاهرة (الأستاذ المشرف على رسالة الدكتوراه للمؤلف)
حياة الشعر في الكوفة
مطبعة دار النشر والتأليف والترجمة/ القاهرة/ ١٩٦٨ م.

فهرس الآيات القرآنية

الآيـــة	الرقم	الصفحة
سورة البقرة		
﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾	البقرة/ ٣٠	١٣٢
﴿ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ ﴾	البقرة/ ١٨٥	٢١٥
﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾	البقرة/ ٨٧	٢٣٣
﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا ﴾	البقرة/ ٢٠١	٢٤٧
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ ﴾	البقرة/ ١٨٣	٢٥٨
﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا ﴾	البقرة/ ٢٧٤	٢٥٩
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾	البقرة/ ٢٦١	٢٦٠
﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا ﴾	البقرة/ ٢٦٤	٢٦٠
﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾	البقرة/ ٢٦٥	٢٦١
﴿ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾	البقرة/ ٢١٢	٢٧٤
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾	البقرة/ ٢٨٢	٢٩٩
﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ ﴾	البقرة/ ٢٨٠	٣٠٠
﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ﴾	البقرة/ ٢٦٣	٣١٤

الآية	السورة/ رقم الآية	الصفحة
﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾	البقرة/ ١٤٨	٣١٦
﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾	البقرة/ ١٩٥	٣٢٣

سورة آل عمران

الآية	السورة/ رقم الآية	الصفحة
﴿تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ﴾	آل عمران/ ٣٠	١٥٠
﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾	آل عمران/ ٥٩	٢٣٣
﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾	آل عمران/ ١٩١	٢٥١
﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾	آل عمران/ ٩٧	٢٥٦
﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا﴾	آل عمران/ ١٩٣	٢٨٩
﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾	آل عمران/ ١١٤	٣١٦
﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾	آل عمران/ ١٠٣	٣٢٢
﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾	آل عمران/ ١٥٩	٣٢٠

سورة النساء

الآية	السورة/ رقم الآية	الصفحة
﴿۞ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾	النساء/ ٣٦	٢٩٢
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾	النساء/ ١٠٧	٢٩٦
﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾	النساء/ ١١	٣٣٠

سورة المائدة

الآية	السورة/ رقم الآية	الصفحة
﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾	المائدة/ ٢٧	٢٥٨

﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ ﴾ المائدة/ ٢ ٣١١

سورة الأعراف

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ الأعراف/ ١٩٩ ٣٠

﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ الأعراف/ ٦٩ ١٣٢

﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ ﴾ الأعراف/ ٢٩ ٢٤٧

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ الأعراف/ ١٧٩ ٣١٨

﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ الأعراف/ ٥٦ ٣٢١

﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ الأعراف/ ١٧٠ ٣٢٢

سورة التوبة

﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ ﴾ التوبة/ ٨٨ ٢٩٨

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ ﴾ التوبة/ ٧١ ٣٢٤

سورة هود

﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ هود/ ١٠٣ ١٥٢

﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ﴾ هود/ ١١٤ ٣٢١

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ هود/ ١١٥ ٣٢٣

سورة يوسف

﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾	يوسف/ ١٠١	٢٥٦

سورة الحجر

﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾	الحجر/ ٥٦	٣٢٠

سورة النحل

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ﴾	النحل/ ٣٢	١٤٨
﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا ﴾	النحل/ ٢٨ ـ ٢٩	١٤٩
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾	النحل/ ١٢٨	٣٢٣

سورة الإسراء

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم ﴾	الإسراء/ ٨٥	٢٣٣
﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾	الإسراء/ ٨٥	٢٣٣
﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾	الإسراء/ ٢٣	٢٤٧
﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل ﴾	الإسراء/ ٨٠	٣٢٥

سورة الكهف

﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾	الكهف/ ٤٦	٢٩٧

سورة طه

﴿ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴾	طه/ ٢٩_٣٥	٢٨١

سورة الأنبياء

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾	الأنبياء/ ١٠٧	٦
﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾	الأنبياء/ ٢٣	١٠٨
﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾	الأنبياء/ ٢٧	٢٣١

سورة الحج

﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ﴾	الحج/ ٣٦	٢٦٢
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾	الحج/ ٣٨	٢٩٦

سورة المؤمنون

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا ﴾	المؤمنون/ ٥_٧	٢٥٣
﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾	المؤمنون/ ٦١	٣١٧
﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ﴾	المؤمنون/ ١٠٩	٣٢٣

سورة النور

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ﴾	النور/ ٣٠	٢٥٠

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ النور/ ٣١ ٢٥٠

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ﴾ النور/ ٣٠ـ٣١ ٢٥٣

سورة الفرقان

﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ الفرقان/ ٤٤ ٣١٧

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ الفرقان/ ٣٠ ٣٢٦

سورة الشعراء

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ الشعراء/ ٨٨ـ٨٩ ٢٥٥

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ الشعراء/ ٨٨ـ٨٩ ٣٥٢

سورة النمل

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ النمل/ ٦٢ ١٥٩

سورة العنكبوت

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ﴾ العنكبوت/ ٦٠ ٢٧٤

سورة الروم

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾ الروم/ ٢١ ٢٧٢

سورة السجدة

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾	السجدة/ ٣٢	١٤٤
﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾	السجدة/ ٣٠	١٤٤
﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾	السجدة/ ٣٠	١٤٤

سورة الأحزاب

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾	الأحزاب/ ٣٣	٧
﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾	الأحزاب/ ٣٣	١٣٢
﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ﴾	الأحزاب/ ٥	٣٢٩

سورة سبأ

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾	سبأ/ ٢٨	٦

سورة فاطر

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾	فاطر/ ٢٨	١٥٤
﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ ﴾	فاطر/ ٣٢	٣١٦
﴿ مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾	فاطر/ ٢	٣٢٠

سورة يس

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾	يس/ ٥١	٢٣٢

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ ﴾ يس/ ٣٦ ٢٧٩

سورة الصافات

﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ الصافات/ ١٦٤ ٢٣٠

﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ الصافات/ ٨٠ ٣٢٣

سورة ص

﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ ﴾ ص/ ٢١ـ٢٢ ٣٠٤

سورة الشورى

﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ الشورى/ ٢٣ ١٢٩

﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ الشورى/ ٤١ ٣١٨

سورة الزخرف

﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ الزخرف/ ٣٢ ١٠٧

سورة الجاثية

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ الجاثية/ ١٥ ٣٢١

سورة الأحقاف

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ ﴾ الأحقاف/ ١٥ ٢٧٧

سورة محمد

﴿ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ﴾ محمد/ ٣٨ ٢٩٩

سورة الفتح

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ الفتح/ ٢٩ ٦

سورة الحجرات

﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ ﴾ الحجرات/ ١٢ ٢٥٠
﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ ﴾ الحجرات/ ١٠ ٣١٣
﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ ﴾ الحجرات/ ١٠ ٣٢٢

سورة النجم

﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴾ النجم/ ٣١ ١٠٨

سورة الرحمن

﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ الرحمن/ ٦٠ ٢٨٧

سورة الواقعة

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ الواقعة/ ١٠ ـ ١١ ٣٠٩

سورة الحديد

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ﴾ الحديد/ ٢١ ١٣٤

سورة الحشر

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا﴾ الحشر/ ١٠ ٩٨

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا﴾ الحشر/ ١٠ ٩٨

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ﴾ الحشر/ ٢١ ٢١١

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ الحشر/ ٩ ٣١٥

سورة الصف

﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ الصف/ ١١ ٢٩٨

سورة الحاقة

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾﴾ الحاقة/ ٢٨ ٢٩٨

سورة القيامة

﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ القيامة/ ٢٩ ـ ٣٠ ٢٥٢

سورة التكوير

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾	التكوير/ ١٩ ـ ٢١	٢٣٢

سورة المطففين

﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾	المطففين/ ٦	٣٢٥

سورة الفجر

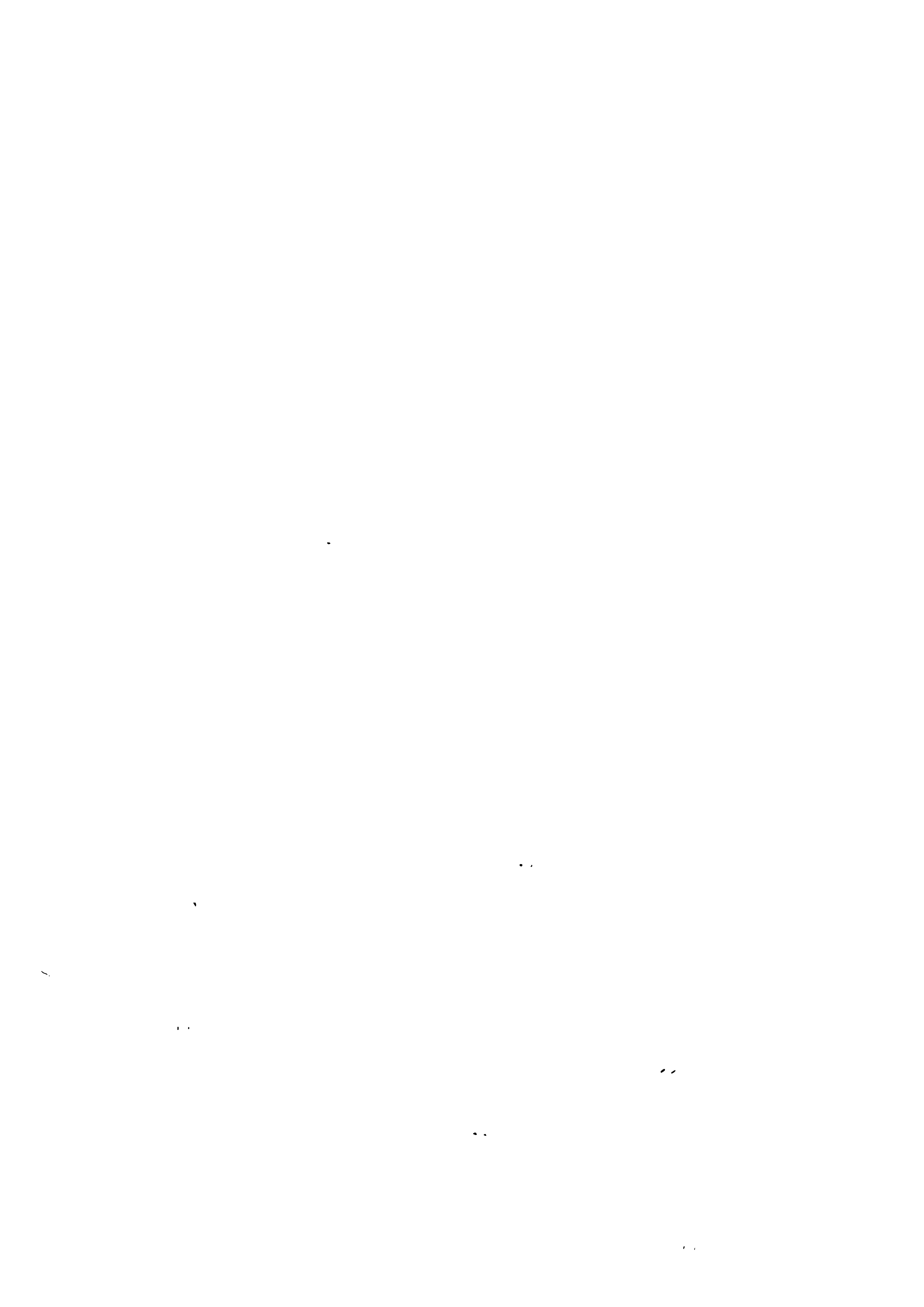
﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾	الفجر/ ٢٧ ـ ٣٠	٢٤٨
﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾	الفجر/ ٢٠	٢٩٧

سورة البلد

﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾	البلد/ ١١ ـ ١٦	٢٨٥

سورة الضحى

﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾	الضحى/ ١٠	٣١٤



فهرست الأعلام

حرف الألف

آدم (ع): ٢٧٩ .
إبراهيم بن مالك الأشتر: ٧٦
إبراهيم (ص): ١٢٨
الأربلي: ٣٧ .
أحمد أمين الكاظمي: ٦٠، ٦١، ١١٣، ١١٦ .
ابن الأثير: ٨٨، ٩٠، ١٣٠
الأحوص: ٥٢
الأخطل: ٥٢
إسرافيل: ٢٣٢ .
ابن الأشعث = عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث: ٧٨، ٧٩، ٣٤٠ .
ابن الصباغ: ١٦ .
الأصمعي: ٤٢
أمير المؤمنين = علي بن أبي طالب: ٨٩، ٢٥٥، ٢٧٠، ٢٩٧، ٢٩٨ .
الأمين العاملي: ١٦، ٢٢، ٢٧، ٢٨، ٣٠، ٣٢ .

حرف الباء

بسر بن أرطأة: ٨٠
باقر شريف القرشي: ٢٠، ٢٤٤
الإمام الباقر (ع): ٢٢، ٢٣، ٢٤ .
أبا بكر: ٩٧
البلاذري: ٧٢، ٧٦ .

حرف التاء

الترمذي: ١٣٠
التيمي: ٣٣٨ .

حرف الجيم

جابر الجعفي: ٢٤
جابر بن عبد الله الأنصاري: ٢٥، ١٣٠
جرير: ٥٢
جعفر الباقر: ٢٤
الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع): ٢٤
جبرائيل: ٢٢٩، ٢٣٢، ٢٣٣ .
ابن الجوزي: ٢٧، ٣٠ .

حرف الحاء

حبيب النجار : ٣٠٩ .
حبابة : ٤٤ .
الحجة ابن الحسن : ١٣٧ ، ١٣٩ .
حجر بن عدي : ٨١ .
ابن حجر : ٣٠ .
الحر العاملي : ٢٤ ، ٩١ .
أبي حمزة الثمالي : ٢٤، ١١٤ ، ١١٧ ، ٢٣٧ ، ٣٤٢ .
الحسين بن علي (ع): ١٦ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٣ ، ٣١٢ ، ٣٤٠ .
الإمام الحسن (ع): ١٦ ، ٣٤ ، ٧٦ ، ٣١٢ .
الحسن العسكري ، ٢٣ .
الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحراني : ٢٣٧ .
حسن السيد علي القبانجي : ٢٤٤ ، ٢٤٥ .
الحجاج بن يوسف الثقفي : ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٩٠ ، ٩١ .
الحصين بن نمير : ٨٨ .
ابن أبي الحديد : ٢٧٠ ، ٢٩٨ ، ٣١٨ .

حرف الخاء

المختار بن أبي عبيد الثقفي : ٣٤ ، ٣٥ ، ٥٤ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٣٤٠ .
خافيير بيريز دي لوييار : ٣٢٧ .

حرف الدال

الدميري : ٨٦ .
داود (ع): ٣٠٤ .

حرف الذال

الذهبي : ٢٧ ، ٢٨ .

حرف الراء

روح بن زنباع : ٨٩ .
ابن أبي ربيعة : ٥٢ .
رسول الله أو الرسول الأعظم : ١٦ ، ٢٢ ، ٣٦ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٣٠ ، ١٤٢ ، ١٦٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩ ، ٢١٦ ، ٣١٥ ، ٣٢٦ .

حرف الزاء

ابن الزبير : ٣٤٠ .
زيد بن الأرقم : ١٣٠ .
زياد ابن أبيه : ٨٠ .
ابن زياد : ٣٤ ، ٣٥ ، ٧١ .

الزهراء = فاطمة الزهراء ابنة رسول الله: ١٢٨، ١٢٩.
الزهري: ٢٧، ٩٠.
زينب ابنة أمير المؤمنين: ٧٠.
زين العابدين = علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ع): ٧، ٩، ١٥، ١٨، ٢٠، ٢٥، ٢٧، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٦٥، ٦٨، ٧٥، ٧٦، ٧٩، ٩١، ٩٢، ٩٦، ٩٧، ١١٣، ١١٧، ١٣٠، ١٣٨، ١٥٢، ١٥٤، ٢٣٧، ٢٤٤، ٢٥٥، ٢٦٩، ٢٨٦، ٢٩٣، ٢٩٥، ٣٠٩، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٨، ٣٢٨، ٣٣٢، ٣٣٥، ٣٥٢.
زيد بن علي زين العابدين: ٧٩، ٣٤٠.

حرف السين

ابن سريج: ٤٢.
ابن سعد: ٣٥، ٧١، ٩٠.
أبي سفيان: ١٩.
سليمان بن صرد الخزاعي: ٧١، ٧٣.
سلمان: ١٢٩.
سهل بن جنيف: ٢٩٨.
السيستاني: ٣٣١.
سلم الخاسر: ٤٣.
السيوطي: ٩٠، ٩١.

حرف الشين

ابن شعبة: ١٥١، ١٥٢.
الشافعي: ٣٠١.

حرف الصاد

الصدوق: ٢٣، ٢٣٧، ٢٤٢، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٩، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٦، ٢٦٨، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٣، ٢٧٦، ٢٧٨، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٤، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٦، ٢٩٧، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٧، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٥.
صعصعة: ٨٢.

حرف الطاء

الطبري: ٧٢، ٧٣، ٧٨، ٨٤.
الطبرسي: ٣٠٩.
طويس: ٤٢.
الطوسي: ٢٢١.
ابن طنبورة: ٤٣.

طه حسين : ٦٢ .

حرف العين

ابن عنبه : ٩٠ .
ابن عباس : ٣٦، ٣٠٩ .
عبـاس القمـي : ١١٥ ، ١١٦ ، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣ .
عثمان = عثمان بن عفان : ٥٢ ، ٨٨، ٨٩، ٩٧، ٣٣٨ .
عثمان بن محمد بن أبي سفيان : ٧١ .
ابن عبد ربه : ٤٢ ، ٤٤ ، ٩٤ .
عبد الله بن حنظلة = غسيل الملائكة : ٣٤، ٧٠، ٧١ .
عبد الله بن زبير : ٦٩ ، ٨٨ .
عبيد الله بن زياد : ٣٤ ، ٧٣، ٧٦، ٨٨ .
عبد الله بن سعد بن أبي سرح : ٨٠ .
عبد الله بن عفيف الأزدي : ٣٤ .
عبد الله بن عامر بن كريز : ٨٠ .
عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس : ٧٧، ٧٨ .
عمر = عمر بن الخطاب : ٩٧ .
عمر بن سعد : ٧٦ .
عمر بن عبد العزيز : ٩٠ ، ٩١ .
عمرو بن الحمق الخزاعي : ٨١ .
عمرة : أم النعمان بن بشير : ٤٢ .
عمرو بن العاص : ٨٠ .
علي بن طاوس : ٢٣٧ .
علي بن أبي طالب (ع) : ١٥ ، ١٦ ، ٥٤ ، ٧٣، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٦، ٨٨، ٨٩، ٢٥٥، ٢٧٠، ٢٩٤، ٢٩٧، ٣٠٩، ٣١٢ .
علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) : ٧ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٢، ٣٥، ٣٦، ٩٠، ١١٠، ٢٨٦ .
عيسى ابن مريم : ٢٧٩ .
عبد الملك بن مروان : ١٦ ، ٧٦، ٧٨، ٧٩، ٨٩، ٩٠، ٩١ .
عامر بن وائل الكناني : ٧٩ .
ابن عساكر : ٢٩ .
العدوي : ٣٣٨ .
العسكري : ٢٣ .

حرف الغين

الغريض : ٤٣ .

حرف الفاء

فاطمة = بنت رسول الله : ٨٥ ، ٨٦، ٣١٢ .
أبي فراس الحمداني : ١٢٩ .

حرف القاف

القرشي : ٢٧ ، ١٥٢ .

القمي = عباس القمي : ٢٢٢ .

حرف الكاف

ابن كثير : ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٨٩ ، ٩١ .

الكشي : ٣٥.

أبي كامل : ٤٤ .

الكليني : ٢٢ ، ٢١٣ ، ٢٣٧ .

الكفعمي : ٢٢١ .

حرف الميم

المجلسي : ١٨ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٦ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ٢١٣ .

المفيد : ١٦ ، ٢٤ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ١١١ ، ١٥٤ .

محمد بن أسامة بن زيد : ٢٨ .

محمد ابن الحنفية : ٧٥ .

مؤمن آل فرعون : ٣٠٩ .

مجون العرجي : ٥٢ .

مسلم بن عقبة المري : ٧١ ، ٨٤ ، ١١٠ .

المسعودي : ٦٣ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩١ .

مصعب بن الزبير : ٧٧ .

مطرف بن المغيرة بن شعبة : ٧٧ ، ٧٨ .

المغيرة بن شعبة : ٨٠ .

أبو محمد = علي بن الحسين : ١٥ .

محمد (ص) : ٦ ، ٨ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣٤ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٩١ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٨ ، ٢٤٨ ، ٢٩٥ ، ٣١٢ ، ٣٢٠ ، ٣٣٧ ، ٣٣٩ ، ٣٤٣ .

معاوية بن أبي سفيان : ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٣٤٠ .

معاوية بن يزيد : ١٦ ، ١٩ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٦ .

مروان بن الحكم : ١٦ ، ١٩ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٧٣ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ .

موسى (ع) : ٢٨١ .

ميكائيل : ٢٢٩ ، ٢٣٢ .

معبد : ٤٣ .

ابن منظور : ٣٠١ .

ابن المغيرة: ٣٤٠.

حرف النون

أبو نعيم: ٢٦، ٢٧، ٢٨.
النعمان بن بشير: ٤٢.
النويراي: ٢٦، ٢٨.
النبي: ٤٢، ٨٣، ١٢٢، ١٢٩، ١٣٣، ٢٠٩، ٢٦١، ٢٩١.

حرف الهاء

هشام بن إسماعيل المخزومي: ٣١، ٩٠.
هشام بن عبد الملك: ٧٩.
هشام معروف: ١٦.
هاشم معروف الحسني: ٩٨.
هبة الدين الحسيني الشهرستاني: ٣٢٦.
الهاشمي: ٣٣٨.

حرف الواو

الوليد بن عبد الملك بن مروان الأموي: ١٥، ١٦، ٣١، ٩١.
الوليد بن يزيد بن عبد الملك: ٤٣، ٤٤، ٦٣، ٣٤٠.

حرف الياء

يزيد بن عبد الملك: ٤٤.
يزيد بن معاوية بن أبي سفيان: ١٦، ١٩، ٣٢، ٣٤، ٤٣، ٧٠، ٧١، ٨٢، ٨٤، ٨٥، ٨٧، ٣٤٠.
يعقوب: ١٦، ١٨.
يوسف بن يعقوب: ٢٦.
يوسف خليف: ٧٣.
يوسف (ع): ٢٥٦.
اليعقوبي: ٢٦، ٨٩.

فهرس الموضوعات

الموضوع | الصفحة

المقدمة ٥

الفصل الأول:

البداية الصعبة ١٥
المسيرة القيادية ٢١
روح النضال في منظور جديد ٣٣
في مجابهة تحديات العصر ٤١
الآثار الاجتماعية لحياة العبث والإسراف ٥١
ظاهرة العصبية القبلية ٦٠
عصر الثورات ٦٩
عصر الطواغيت ٨٠

الفصل الثاني:

الإمام الداعية ٩٣
الوعي الرسالي ٩٥

القيادة الرائدة ومعالم التوحيد ١٠٤
العودة إلى الجذور الأولى ١١٢
محمد في رسالته الإسلامية ١٢١
مرجعية أهل البيت ١٢٩
المعاد في يوم القيامة ١٤٤
الدعاء على الظالمين ١٥٦
الاستقالة من الذنوب ١٦٣
مكارم الأخلاق ١٧٢
البر بالوالدين ١٨٤
حماية الثغور ١٩٣
القرآن العظيم ٢٠٥
شهر رمضان ٢١٣
الكيان الملائكي ٢٢٩

الفصل الثالث:

الإمام الإنسان ٢٣٥
ديباجة حقوق الإنسان عند الإمام ٢٣٧
حقوق النفس والجوارح ٢٤٦
حقوق الأفعال ٢٥٤
حقوق الدولة ونظام الحياة ٢٦٤
حقوق الأرحام والولاء ٢٧٥
الحقوق الاجتماعية ٢٨٦

الحقوق المالية والقضائية ٢٩٥
الحقوق الإصلاحية المشتركة ٣٠٥
الحقوق الأخلاقية الاستراتيجية ٣١٢
مبادىء الإمام والإعلان العالمي لحقوق الإنسان ٣٢٧
نتائج البحث ٣٣٥
المصادر والمراجع ٣٥٣
فهرس الآيات ٣٦٣
فهرس الأعلام ٣٧٥
فهرس الموضوعات ٣٨١